سماحة آية الله العظمى المرجع الديني

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الرابع عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

کاتب:

آیت الله سید محمد تقی مدرسی

نشرت فی الطباعة:

دار محبی الحسین (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

من هدی القرآن المجلد ۱۴

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-
۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-
۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-
۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-
۳-۰۳-۹۶۴-۵۶۴۸-۰۰۰۰۱۱۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵ ؛ ۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷
۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-
۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-
۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-
X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-
۳-۰۳-۹۶۴-۵۶۴۸-۰۰۰۰۱۱۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص :۱

اشاره

سوره الذاريات

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال :«من قرأ سوره«الذاریات»فی یومه أو فی لیلته أصلح الله له معیشته،و أتاه برزق واسع،و نور له فی قبره بسراج یزهر إلی یوم القیامه »

ص:۵

الإطار العام

مثلما تذرو الأعاصير الحطام ذروا،مثلما تحمل السحب وقر الغيث إلى الأرض العطشى،مثلما تجرى السفن الثقيله فى البحر سيرا،و كما يقسّم ملائكه اللّه أرزاق العباد أمرا أمرا،كذلك وعد اللّه صدق حقّا حقّا.متى؟فى يوم الجزاء الذى لا ريب فيه.

هكـذا تنتظم آيات سوره الذاريات حول محور المسؤوليه التى يهدينا إليها التدبير القائم فى الخليقه،و أنّ كلّ شـيء خلق بقدر،و إلى أجـل،و لحكمه بـالغه.أ فيترك هـذا الإنسـان الـذى سـخّرت له الأشـياء سـدى أو يمكن أن يكون خلقه عبثـا بلا حكمه و لا هدف؟ كلّا..قسـما بالسماء المنتظمه كحلقات الدرع المتينه إنّ الرساله حق،و إنّما اختلفوا فيها أو انحرفوا عنها لأنّهم خرّاصون إن يتبعون إلاّ ظنّا،و لم يأخـذوا الأمور بجـد،بل تغمرهم أمواج الأمانى،ساهين عمّا ينتظرهم،و يسألون باسـتهزاء:متى يأتى الجزاء؟هل يدرون أيّان يوم الجزاء عند ما يعرضون على النار عرضا،و قبل أن

يلقوا فيها يقال لهم: «ذُوقُوا فِتْنَتَكَمْ هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» .

أو ليس هذا الجزاء الحق كان لإيقاظ الإنسان من سباته،و إنقاذه من غمرات السهو؟بلى.و فى الجانب الآخر أنظر إلى المتقين الذين آمنوا بالجزاء فتجنّبوا النار و ما يجرّهم إليها فى الدنيا.أين تراهم اليوم؟إنّهم فى جنّات و عيون،و كما أحسنوا فى الدنيا بالعطاء تراهم اليوم يأخذون عطاءهم من ربّهم.أىّ عمل عظيم قاموا به فبلغوا هذه الدرجات العلى؟ كٰانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ تبتّلا إلى اللّه، و بالأسحار هم يستغفرون تطهّرا من الذنوب و تطلّعا إلى المغفره و الرضوان،و قد وضعوا على أنفسهم فى أموالهم حقّا مفروضا للسائل و المحروم غير الواجبات التى فرضت عليهم إحسانا و فضلا.

أ فلا يكفى ذلك باعثا للصالحات،داعيا إلى المكرمات.أ فلا يكفينا ذلك باعثا للصالحات،داعيا إلى المكرمات.أ فلا يكفينا سهوا و غفله و هزلا؟ و إذا نظرت إلى الأرض كيف مهّدت للحياه،و إلى النفس كيف انطوت على عالم كبير اختصرت آيات الخليقه فى كل خليه منها،و إلى السماء كيف يتنزّل منها رزق اللّه و ما وعده الداعين من فضله..لعرفت أنّه الحق كما أنّك لا ترتاب فى نطقك.

و يضرب القرآن مثلا من ضيف إبراهيم المكرمين:كيف بشّروه بغلام عليم لأنّه أطاع اللّه،و حملوا العذاب إلى قوم لوط لأنّهم كذّبوه.أو ليس ذلك دليلا على أنّ وعد اللّه صادق،و أنّ الدين لواقع،و أنّ الرساله حق لا يحتمل السهو و اللهو و السخريه.

كما أنّ استجابه الدعاء لامرأه إبراهيم العجوز العقيم لشاهد صدق على تدبير

اللّه للخلق،و أنّ وعده لصادق عند ما أمرنا بالدعاء و ضمن الإجابه.

و يقصّ السياق عاقبه فرعون الذى كذّب برساله موسى الذى جاءه بسلطان مبين فأخذه اللّه و جنوده فألقاه فى اليمّ غير مأسوف عليه..كذلك يشير إلى قصه عاد الذين أرسل عليهم ريحا مدمّره،و قصه ثمود الذين أخذتهم الصيحه،و قصه قوم نوح الذين لفهم الطوفان،كلّ أولئك الذين فسقوا عن أمر اللّه فدمّر عليهم،فهل هذا سهو أم هزل؟ كلاّ..ما خلق اللّه السماوات و الأرض إلاّ بالحق و الحكمه.فما هى حكمه خلق الجنّ و الإنسان(بما أوتيا من حريه القرار)؟ تعال ننظر إلى السماء التى بناها اللّه بقوّه و إنّه لموسعها،و إلى الأرض فرشها برحمته،و خلق من كلّ شىء زوجين،لعلّنا نذكر وحدته و حسن تأليفه و تدبيره.

على أىّ بصيره تشهد كلّ هذه الحقائق؟أو ليس على أنّه سبحانه المدبّر و السلطان المهيمن؟ألاّ نفرّ إليه لنأمن فى كهفه عواصف الفتن،و قواصف العذاب،سالمين من فتنه الشركاء و الأنداد الذين ينهبون فى الدنيا حقوقنا و يقودوننا فى الآخره إلى سواء الجحيم؟ من أجل هذا جاء الرسول و جاءت سائر الرسالات،و لكنّ الناس تمرّدوا و قالوا عن كلّ واحد منهم شاعرا أو مجنونا،فهل تواصوا بذلك أم هم قوم طاغون؟ ذرهم فى غيّهم غير ملوم عليهم،و توجّه للقاء المؤمنين فذكّرهم.إنّ الذكرى تنفعهم.

و كذلك جاء الرسل لتحرير الإنسان من نير العبوديه الشركيه إلى رحاب عبوديه

الربّ الواحـد،و إنّهـا لحكمه خلق الجنّ و الإنس،فما خلقهم اللّه ليربـح عليهم أو يعطوه شـيئا،تعالى اللّه ذو القوه المتين أن يصـل إليه نفع من عباده أنّى كان صغيرا.

إذا فمـا هى عاقبه هؤلاء الظالمين و الكافرين؟دعهم يسـتعجلون العـذاب فإنّ نصـيبهم منه مضـمون،و إنّهم لمعـذّبون مثل سـلفهم الغابر،و إنّ لهم الويل فى يوم المعاد عند ما يحيق بهم ما استهزءوا به.

و هكذا تختم السوره بما يبدو أنّه محور السوره الأساس أى حكمه خلق اللّه للإنس و الجن المتمثّله فى عبادته.

ص:١٠

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الى ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . وَ اَلذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً (۲) فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً (۴) إِنَّمٰا تُوعَدُونَ
لَصٰادِقٌ (۵) وَ إِنَّ اَلدِّينَ لَوٰاقِعٌ (۶) وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ اَلْخَرّٰاصُونَ
(۱۰ اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ اَلدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى اَلنّٰارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا اَلَّذِي كُنْتُمْ
بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶ كٰانُوا قَلِيلاً مِنَ
اَللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ اَلْمَحْرُومِ (۱۹)

اللغه

(۱)[الذاريات]:هى الرياح التى تذروا التراب و غيره.

(۲)[فالحاملات وقرا]:الأشياء التى تحمل حملا ثقيلا سواء كانت تلك الحاملات التى تحمل الأمطار أو السفن التى تحمل الإنسان و غيره أو نحوهما،تسير بسبب الذاريات.

(۳)[فالجاريات]:أى السفن أو السحب.

(۴)[فالمقسمات أمرا]:هم الملائكه التى خلقها اللّه و جعلها تقسم أمور الكون.

(۷)[الحبك]:أى الطرائق و الطرق الحسنه.

(۹)[يؤفك]:يصرف.

ص:۱۱

(١٠)[الخرّاصون]:الخرّاص الذى يخمّن بدون علم.

(١٧)[ما يهجعون]:الهجوع النوم،أى قليلا من الليل ينامون،ف(ما)زائده أو المراد قليلا من الليل لا ينامون ف(ما) نافيه.

(١٨)[بالأسحار]:السحر هو الثلث الأخير من الليل.

ص:١٢

يَسْئَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟!

هدى من الآيات:

فی سوره الذاریات المکیه التی تحتوی علی ستین آیه مبارکه نقرأ قول اللّه سبحانه و تعالی فی الآیه السادسه بعد الخمسین: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ» ، و کما سبق و نوّهنا إلی أنّ بعض الآیات القرآنیه تعتبر محورا للسیاق القرآنی فی السوره،و ربما تکون الآیه الواحده فی السوره مفتاحا لفهم السوره بأکملها،و الآیه (المحور)التی جاءت السوره من أجلها و من أجل تکریس مفهومها و مضمونها، کما مثلا-آیه الشوری فی سوره الشوری أو آیه النور فی سوره النور و آیه الحدید فی سوره الحدید أو ما أشبه.

و لعلّ الآیه الکریمه: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ» هی الآیه (المحور)فی سوره الذاریات،حیث تبعثنا نحن البشر إلی التوجّه بکلّیّتنا لربّ العالمین،و التخلّص من الأثقال المادیه و الأصر النفسیه و الأغلال الاجتماعیه، فارّین إلیه من ذنوبنا و جهالتنا،هاربین إلی قوّته و قدرته من الضعف و العجز اللذین

ص:۱۳

نرتكس فيهما ارتكاسا.

و إنّ عباده اللّه تعنى التحرّر من كلّ عبوديه أخرى،من عبوديه الهوى و الشهوه و المال و السلطه،و التقاليد و الأعراف،ممّا يمنح الإنسان الكرامه التامّه،و آنئذ يرتفع إلى مستوى التقرّب إلى اللّه حتى يهب له الربّ قدره لا تحد،و حياه لا تنتهى،

جاء فى حديث قدسى عن ربّ العزّه سبحانه أنّه يقول :«يا ابن آدم:أنا غنى لا أفتقر أطعنى فيما أمرتك أجعلك غنيّا لا تفتقر،يا بن آدم:أنا حى لا أموت أطعنى فيما أمرتك أجعلك حيّا لا تموت،أنا أقول للشىء كن فيكون أطعنى فيما أمرتك تقول للشىء كن فيكون » (١).

إنّه آنئذ يكون خليفه اللّه ليس فى الأرض فقط بل فى الطبيعه أيضا،

ففى الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق-عليهما السلام-أنّه قال :«من خاف اللّه عزّ و جل أخاف اللّه منه كلّ شىء » (٢).

بينما يكون العكس حينما يعبد غير اللّه،حيث يصبح ضعيفا حقيرا أمامه،لا يملك من حول أو قوه:

«و من لم يخف اللّه عزّ و جلّ أخافه اللّه من كلّ شىء » (٣)

بينات من الآيات:

[۴-۱]تبدأ سوره الذاريات بآيات تشير إلى ما فى الكون من مظاهر قدره اللّه و تجلّيات تدبيره:فهذه الدوره الحياتيه التى تبدأ بالرياح تذرو البذور و تنشرها لتتلاقح،ثم تحمل السحب الثقيله بالغيث و تجرى فى السماء بيسر،بالرغم من الوقر الذى تحمله،ثم يقسّمها اللّه حسب مساحات الأرض بتقدير حكيم تفيض على

۱- ۱) كلمه اللّه/ص ۱۴۰

۲- ۲) بحار الأنوار/ج ۷۰/ص ۳۸۱

۳- ۳) المصدر

السهول و الروابی و الجبال و علی الأراضی البعیده کما القریبه.

و عشرات الألوف من السنن و الأنظمه تتولّی تدبیر هذه الدوره النباتیه التی ینهض کلّ عامل فیها بدوره المرسوم،و تتکامل العوامل حتی تبنی حیاه زاخره بالخیر و البرکه.

أو لیس فی ذلک عبره تهدینا إلی ما ورائها من تقدیر و تدبیر،و أنّ الإنسان الذی تخدمه هذه المنظومه المتکامله من العوامل لا یمکن أن یخلق عبثا أو یترک سدی. إنّه هو الآخر جاء لحکمه بالغه،و یذهب وفق سنّه نافذه،و تحکمه سنّه الجزاء العادل.

هکذا تتواصل آیات الکتاب المبین ببلاغه معجزه و فی أیمان متلاحقه لتبصّرنا بأنّ الوعید حق و الجزاء واقع لا ریب فیه،و هذه من أبرز غایات القسم فی آیات الذکر الذی سوف نجده بتکرار فی فواتح السور الآتیه،و سوف نذکّر-کما ذکّرنا مرارا-بغایاته المتنوعه.

وَ الذّارِیاتِ ذَرْواً إنّها الریاح التی تنشر الغبار و الأوراق و البذور.ما أقدرها من قوّه،و ما أعظم تدبیر من سخّرها لبثّ البذور فی الفلوات و المفازات المتباعده..

تفکّر ما ذا لو سکنت الریح،و لم تکن هذه العواصف الهوج و الأعاصیر الرهیبه،کیف کانت تنتشر فی الأرض بذور النباتات الطبیعیه التی تکمل کلّ واحده منها الأخری،و هی جمیعا ضروره قصوی فی دورات الحیاه النباتیه و الحیوانیه.

إنّنا نمرّ عبر أراضی شاسعه و نجد آثار الحیاه فی بقعه بقعه وقیعه قیعه،و لا نعرف

ما وراءها من أسرار ذرو النباتات و تلاقحها،و ما فی کلّ واحده من دور عظیم فی منظومه الحیاه المتکامله،و لو فکّرنا و علمنا لما وسعنا إلاّ أن نهتف مسبّحین:اللّه أکبر.

فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً بعد ما تستقرّ البذور فی رحم الأرض تجری الریاح إلی مراکز السحب فوق البحار و المحیطات و تحمل کتل الماء الثقیله بعیدا عن مجال تکوّنها لتسقی الأرض من أعلی فلا یبقی موقع جافّا،و یفیض موقع آخر فیضانا مضرّا.من الذی قدّر أمر هذه السحب و مواقع سقیاها.أو لیس المدبّر الحکیم؟ فَالْجٰارِیٰاتِ یُسْراً هذه السحب تجری بیسر،ثم تهطل فتمتلئ الروافد و الأنهر،و تجری فوقها السفن بیسر لتصبح أفضل وسیله لتبادل البضائع بین الأمم منذ أن خلق اللّه الإنسان و حتی الیوم.

فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً إنّهم الملائکه الذین یشرفون بأمر اللّه علی تدبیر هذه العوامل الحیاتیه.

جاء فی الحدیث أنّ ابن الکوّا(و کان خارجیّا)سأل أمیر المؤمنین علیه السلام عن «الذّٰارِیٰاتِ ذَرْواً» ؟قال:الریح،و عن «فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً» فقال:هی السحاب،و عن «فَالْجٰارِیٰاتِ یُسْراً» فقال:هی السفن،و عن «فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً» فقال:الملائکه (١).

١- ١) نور الثقلین/ج /۵ص ۱۲۰.

[۵]إذا كان معنى القسم فى كلامنا-نحن البشر-اتصال موضوعه بأخرى بصوره اعتياديه فإنّ معناه فى كلام الربّ اتصالهما بالحق.أ رأيت لو قلت:و عمرى إنّنى صادق،ما ذا يكون معناه؟أو ليس معناه أنّك ربطت صدقك بعمرك، و زعمت أنّهما موضوعتان متصلتان حتى لو فقدت إحداهما(صدقك)كانت الثانيه (عمرك)مفقوده هى الأخرى؟ و قد لا تكون الموضوعتان متصلتين ببعضهما فى الواقع بل فى اعتبارك أو تقديرك فقط.

بينما إذا جاء القسم فى كلام ربّنا فإنّ اتصاله بما أقسم له حق و واقع لا ريب فيه،فإذا قرأنا فى القرآن الكريم: «وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ وَ هٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» و تلونا بعدها: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنّ معنى ذلك أنّ هناك اتصالا واقعيّا بين خلقه الإنسان فى أحسن تقوم و بين ما سبق من التين و الزيتون(اللذين بهما طعامه)، وَ طُورِ سِينِينَ (الذى يحمى البلاد من الأعاصير و الأعداء،و يوفّر الكثير من عوامل الحضاره) وَ هٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (الذى يزرع السكينه فى نفوس الناس)بين كل ذلك و قوام خلق الإنسان.

كذلك فى هذا السياق حينما أقسم اللّه بالرياح التى تذرو،و السحب التى تسقى،و السفن التى تجرى،و الملائكه الذين يقسّمون أمرا،فإنّ هناك ربطا بينها و بين الحقيقه التاليه:

إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ أوّلا:لأنّ ربّ السماء المدبّر لهذه القوى العظيمه لا يخلف وعده،و هل يخلف وعده إلّا العاجز،و هل لنا أن نتصوّر شيئا من العجز فى مقام ربّنا القوى القاهر

ص:۱۷

المقتدر الـذى حمّل الريـاح العاصـفه هـذه المقـادير العظيمـه مـن المـاء،و ساقهـا مـن فوقنـا إلى حيـث شـاء مـن الأرض الميته فأحياها؟كلّا..إنّه صادق الوعيد،و حقّ لنا أن نخشاه قبل أن يحلّ بأرضنا الدمار و البوار.

ثانيـا:إنّ كـلّ تلـك القوى المحيطه بنـا تؤدّى دورها حسب تقـدير العزيز العليم، فكيف لا يخضع الإنسان لـذلك التقـدير؟كيف ترك يتبع هواه؟و لماذا جاءته النـذر من بين يـديه و من خلفه يحـذّرونه من عـذاب شديد؟بلى.إنّه لم يترك إلى الأبد، إنّما ليوم الفصـل حيث ينتظره الوعيـد الصادق.دعنـا إذا نحـذر الآخره،و نتقى مـا يعرّضـنا فيها للعـذاب،هكـذا تتصل حقائق القسم السابقه بحقيقه الوعيد الذى أنذر به البشر.

[۶]وَ إِنَّ الدِّينَ لَوٰاقِعٌ اَلدِّينَ (ذلك الجزاء الأوفى الذى بشّرنا به لو اتقينا الرب)حق،و يقع فى ميعاده المحدّد.

قالوا: اَلدِّينَ هو الجزاء،و أنّ يوم الدين هو يوم الجزاء،و إذا فالدّين-حسب هذا الرأى-يقع فى الآخره.

و لكنّ الأمثال التى يضـربها القرآن فيما يأتى من واقع التاريخ البشرى فى الدنيا لا تخص بالآخره،و حتى كلمه الدّين عامّه تشمل الدنيا،بلى.الجزاء الأوفى فى الحياه الأخرى أمّا الدنيا فالجزاء فيها محدود.

إنّ تقدير اللّه حكيم،و تقسيم الملائكه الأمر يجرى وفق ذلك التقدير،فكيف لا يتصل بسلوك البشر و ما يختاره لنفسه من خير و شر.

ص:۱۸

الأمنه و الخوف،التقدّم و التخلّف،الغنى و الفقر،الصحه و المرض،الوفره و الجدب،كلّ ذلك يخضع لتقدير الربّ الحكيم،و لعلّ وعى هذه الحقيقه يفتح أبواب المعرفه أمام الإنسان،و يعطيه مفك ألغاز الخليقه من حوله،و يضعه على المنهج السليم فى بحثه عن العلل و الأسباب.إنّه باختصار سبيله نحو الحضاره.

أ ليس التخلّف ناشئ من الفصل بين سلوك الإنسان و واقعه،إذا فإنّ الخلاص منه يكون بمعرفه اتصالهما ببعضهما اتصال العله بالمعلول.

أكثر الناس يجهلون أو يغفلون عن هذه الحقيقه أنّ ظواهر الطبيعه و أحداثها تخضع لتقدير حكيم،و أنّ سلوك كلّ واحد من أبناء البشر يؤثّر-بقدره-فى هذه الظواهر،لذلك فهم يتمنّون تحسّن حياتهم،و لكن دون أن يسعوا إلى ذلك بتحسين سلوكهم،و القرآن لا ينفك عن تأكيد هذه الحقيقه لعلّنا نبلغ أهدافنا بأقصر السبل و آمنها ألا و إنّه إصلاح الذات لإصلاح الحياه.

[۷]ثمّ يقسم الربّ تبارك و تعالى بالسماء التى أحكمت احكاما،و التى تشبه الدروع المحبوكه،المتصله حلقاتها مع بعضها بمتانه و قوه.

وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الْحُبُكِ لعلّ القرآن الحكيم يشبّه السماء بالدرع،و عندئذ يعطى لها هذا التشبيه صفات ثلاث:

الأولى:أنّها قويه متينه كما الدرع.

الثانيه:أنّها تحفظ الأرض من النيازك و الغازات السامه.

الثالثه:أنّ كراتها شبيهه بحلقات الدرع فهى متناثره و لكنّها ترتبط مع بعضها

البعض برباط وثيق.إنّ الإنسان يزعم بادئ النظر أن لا صله للشمس بالأرض و للأرض بالقمر أو أنّه لا علاقه بين أجرام المنظومات الشمسيه و منظومات المجرّات،كلّا..هناك ما يشبه غلاله من الجاذبيه تربط بين جميع الكرات و المنظومات و المجرات كما تتصل حلقات الدرع تماما..

[۸]إنّ التفاعل بين أجرام السماء و أجزاء الأرض لا بد أن ينعكس على التكامل بين معارف الإنسان،أو ليس العلم مرآه صافيه لما فى الواقع،فلما ذا التناقض و الاختلاف عند البشر؟لماذا هذه الآراء المتباينه؟و هذا الحشد الكبير من النظريات التى لا تستقر على أساس؟أليس ذلك دليلا على مدى جهل البشر، فلما ذا التعصب لآرائه فى مواجهه بصائر الوحى؟ انظر إلى مواجهه بصائر الوحى؟ انظر إلى أقوالهم فى الوحى ذاته.إنّهم لا يدرون كيف يبرّرون كفرهم بهذه الحقيقه التى تكاد تفرض نفسها عليهم فرضا!تراهم يقولون حينا:إنّه شاعر، و حينا يقولون:بل هو مجنون،و يزعمون حينا بأنّه مفتر كذّاب! إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ قالوا:المراد أنّهم اختلفوا فى قضيه الوحى أو الحشر أو الرساله أو الولايه، فيكون المعنى:إنّكم أمام قول(الوحى)قد اختلف فيه،فما ذا يكون موقفكم، هل تنكرونه كما كفر به الآخرون،أم تسلّمون له كما قبله المؤمنون؟ [۹]و هذا القول المتمثّل فى الوحى الإلهى تسنده الحجج البالغه،و إنّما يكفر به الذين تبعدهم ضلالات الشيطان عنه.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ

أمّا من لا يتعرّض للتضليل الشيطانى و كذبه و دجله و أنواع إفكه فإنّه لا ينصرف عنه،لأنّه حق لا ريب فيه.

[۱۰]و الـذى يؤفـك عن الحقيقه تحيـط به الظنون و التصوّرات. أ رأيت الـذى لاـ يعرف وزن التمر على النخل فيطفق بالتخريص كـذلك يخرص المنحرفـون فى فهم حقـائق الخلق..و يـا ويلهم كيف يفسّـِرون بأذهـانهم القاصـره و معـارفهم المحـدوده قضـايا الخليقه اللطيفه و الغائره.

قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ إنّهـا لعنته الأبـديّه التى تلاـحقهم،و أىّ جريمه أكبر من ترک العلم إلى الجهل، و اليقين إلى الظن،و الوحى إلى التخرّص،و هل ابتلى الإنسان بمصـيبه أكبر من الضـلاله،و فتنه أشـدّ من الجهاله؟ و لعلّ الآيه تشـمل كلّ أنواع التخريص و القول بغير علم أنّى كان.

و قـالوا فى معنى الآـيه:إنّهـا دعـاء بالقتل و الفناء،لأنّ فائـده وجود الإنسان علمه فإذا ترک علمه كان الموت أولى له.و قالوا:تعنى اللعنه و الطرد من رحمه اللّه.

[۱۱]أ رأيت الـذى تغمره أمواج المـاء؟هل يقـدر على أن يبصـر شـيئا أو يقرّر أمرا؟كـذلک الـذين تحيط بهم أمواج الخيالات و التخرّصات ساهون عن الحقائق.

اَلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَهٍ سٰاهُونَ إذا تخلّص فكره من دعايات أبواق الشـيطان أحاطت به موجه من إثاره الشـهوات،و إذا انحسرت عنه الأمانى الخادعه طغت عليه موجات القلق و الاضطراب و الخشيه من المستقبل،و هكذا تغمره أمواج الهواجس غمره بعد غمره

حتی الموت.

[۱۲]و بسبب تلاحق غمرات الهواجس و الظنون علی أفئدتهم یسهون عن حقیقه الموت و واقع الحساب،و لا ینفكّون یبعدونه عن أذهانهم،و یتساءلون:متی هو؟ یَسْئَلُونَ أَیّانَ یَوْمُ الدِّینِ إنّهم یستبعدونه أو یستهزءون به،و بالتالی لا یأخذونه مأخذ الجدّ،ربما لأنّهم غرقوا فی الأفكار الساهیه.

[۱۳]و إنّه آت لا ریب فیه،و ما دام الأمر كذلك فعلینا الإعداد له لأنّه رهیب.أو لیس الذی یمتطی صهوه الزمن یسار به و إن كان واقفا؟أو لیس

«كلّ متوقّع آت،و كلّ آت قریب دان» (۱)كما یقول أمیر المؤمنین علیه السلام؟ و ماذا یستعجلون من یوم الدّین،هل یستعجلون منه اللهیب الذی یحرق أبدانهم؟ یَوْمَ هُمْ عَلَی النّارِ یُفْتَنُونَ كما یعرض الذهب علی النار،و یبدو أنّ الكفّار یعرضون فی البدء علی جهنّم ثم یلقون فیها،و لعلّ ذلك لكی یقرأ علیهم حكم خلودهم فی النار و سبب ذلك، كما یتلی علی المحكوم بالإعدام الحكم و حیثیّاته قبل تنفیذه.

[۱۴]فی تلك اللحظه الرهیبه یبلّغون الجواب عن سؤالهم الذی اقترن

۱- ۱) نهج البلاغه/الخطبه ۱۰۳.

بالسخريه، و يكون الجواب بالطبع مطابقا للسؤال:

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هـذه هى النـار الـتى كنتم بهـا تسـتهزؤون.إنّها الفتنه الـتى تمثّلت فى الـدنيا فى صـوره أوامر و نواهى و واجبـات و محرّمات.إنّها اليوم ظهرت على واقعها نارا متفجّره.

هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ من هذا الجواب نعرف طبيعه سؤالهم،و أنّه كان مليئا بالسخريه و الأفكار.

[١۵]فى جانب آخر من الصوره نجد المتقين الذين حفظوا أنفسهم من أسباب الاحتراق بالنار،نجدهم فى جنات و عيون.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ لكلّ جنه نعيمها،و لكلّ عين شراب معلوم،و هم يسيحون فيها يتلذّذون بما تشتهيه أنفسهم.

[١۶] آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ كما أخذوا فى الدنيا بتعاليم ربّهم مسلّمين لها يأخذون اليوم ثوابه العظيم.

و قالوا:الأخذ هنا بمعنى التملّك،كأن نقول:فلان أخذ البلاد،فالجنه ليست بحكم الموقّت بل ملكهم الدائم.

و قالوا:صيغه الكلمه «آخِذِينَ» تدلّ على استمرار أخذهم به،لأنّ نعم الجنه لا يمكن أخذها مره واحده لأنّها لا نهايه لها.

و قالوا:الأخذ يكون برضا و قبول،فهم راضين بنعيم الجنه أىّ رضا.

و الكلمه كما يبدو تحتمل كلّ هذه المعانى و أكثر.

هذا الأخذ كان فى مقابل عطائهم،إنّهم فى الدنيا قبل الآخره كانوا محسنين.

إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ فإحسانهم على أنفسهم بالطاعات،و على الناس بالإنفاق و الصدقات،كان ثمن أخذهم ثواب اللّه العظيم.

فإحسانهم على أنفسهم بالطاعات،و على الناس بالإنفاق و الصدقات،كان ثمن أخذهم ثواب اللّه العظيم.

[١٧]سعى المتقين فى النهار يهدف الإحسان،أمّا إذا آووا إلى مساكنهم اتخذوها محرابا للعباده و فرصه للتهجّد،فتراهم صافّين أقدامهم يجأرون إلى ربّهم، تكاد أرواحهم الطاهره تفارق أبدانهم شوقا إلى اللّه و فرقا من عذابه.

إنّ معرفتهم بربّهم و تطلّعهم إلى القربى منه لا تدع أجسادهم تستريح إلى الفراش،و هل يستريح من يطلب أمرا عظيما.

و إنّ خشيتهم من غضب ربّهم و شديد عذابه تقضّ مضاجعهم فتتجافى جنوبهم عنها.أ رأيت الذى حكم عليه بالإعدام غدا كيف ينام ليلته؟ كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ قالوا:الهجع النوم ليلا،و لعلّ الكلمه توحى بثلاثه ظلال حسب ما جاء فى اللغه من مفرداتها:

الأوّل:عدم السكون التام فى النوم،و بسبب تعلّق قلوب المتقين بالآخره لا تسكن تماما فى الليل بل تسكن جوارحهم دون جوانحهم،و منه التهجاع النومه

الخفيفه.

الثانی:النوم فی أوّل اللیل دون آخره.قالوا:الهجعه:النومه الخفیفه من أوّل اللیل.

الثالث:النوم المتقطّع فی بعض اللیل.قالوا:الهجع من اللیل:الطائفه منه، و یقال:زارنی بعد هجع من اللیل (۱).

و الآیه تدل بظاهرها علی أنّ نومهم فی کل لیله قلیل حسبما تدلّ علی ذلک آیات أخری کقوله سبحانه: «قُمِ اللَّیْلَ إِلاّ قَلِیلاً» (۲)و قوله: «وَ مِنَ اللَّیْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً» (۳)و قوله: «أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ ساجِداً وَ قائِماً یَحْذَرُ الْآخِرَهَ» (۴).

و للآیه تفسیر آخر:أنّ هؤلاء لم یکونوا یترکون قیام اللیل إلاّ قلیلا،

و جاءت به الروایات فقد أثر عن محمّد بن مسلم أنّه سأل الإمام الصادق علیه السلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: «کانُوا قَلِیلاً مِنَ اللَّیْلِ ما یَهْجَعُونَ» فقال:«کانوا أقلّ اللیالی تفوتهم لا یقومون فیها » (۵).

و لا یتنافی التفسیران،فهم یقومون کلّ اللیالی إلاّ قلیلا،و إذا قاموا إلی الصلاه لا ینامون إلاّ قلیلا.

و قد تواترت النصوص الدینیه فی التحریض علی قیام اللیل و التبتّل إلی اللّه فی

۱- ۱) انظر المعجم الوسیط/ج ۱/ص ۹۷۳-۹۷۴.

۲- ۲) المزمل۲/.

۳- ۳) الإنسان۲۶/.

۴- ۴) الزمر۹/.

۵- ۵) وسائل الشیعه/ج ۳/ص ۲۷۹.

رحم الظلام حيث تسكن النفوس،و تنام العيون،و تتساقط الحجب بين العبد و ربّه،و يخلو الحبيب بحبيبه..و يخيّل لمن يتلوها أنّ قيام الليل واجب كسائر الفرائض.

جاء فی الحديث عن الإمام الصادق(عليه السلام)أنّه قال لسليمان الديلمی:

«يا سليمان لا تدع قيام الليل،فإنّ المغبون من حرم قيام الليل » (۱).

و عنه عليه السلام :

«ليس من عبد إلاّ و يوقظ فی كلّ ليله مرّه أو مرّتين أو مرارا،فإن قام كان ذلك،و إلاّ فجاء الشيطان فبال فی أذنه.أو لا يرى أحدكم أنّه إذا قام و لم يكن ذلك منه(قيام الليل)قام و هو متخثّر ثقيل كسلان؟ » (۲).

و عنه عليه السلام :

«إنّی لأمقت الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم حتى إذا كان عند الصبح قام يبادر بالصلاه » (۳).

و لماذا نجد البعض يوفّق لقيام الليل بينما لا يوفّق غيره؟تجيب النصوص الدينيه أنّ ذنوب النهار تقيّد الرجل عن ذلك،و بالذات الكذب و الغيبه.

يأتی رجل إلی أمير المؤمنين علی بن أبی طالب(عليه السلام)يقول:إنّی قد حرمت الصلاه بالليل فقال:

۱- ۱) وسائل الشيعه/ج ۳/ص ۲۷۸

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۲۷۹.

«أنت رجل قد قيّدتک ذنوبک » (۱).

و فی حدیث مأثور عن الإمام الصادق(علیه السلام)أنّه قال :

«إنّ الرجل لیکذب الکذبه فیحرم بها صلاه اللیل،فإذا حرم صلاه اللیل حرم بها الرزق » (۲).

أمّا إذا قرّر الرجل القیام باللیل تائبا إلی اللّه فإنّ اللّه سبحانه یغفر بذلک ذنوبه التی اقترفها بالنهار..هکذا

یقول الإمام الصادق(علیه السلام)فیما روی عنه:

«صلاه المؤمن باللیل تذهب بما عمل من ذنب بالنهار » (۳).

و مثلما تتساقط الذنوب عن المتهجّد باللیل فإنّ الأمراض تطرد من جسده،

جاء فی الحدیث عن الإمام الصادق(علیه السلام) :

«علیکم بصلاه اللیل فإنّها سنّه نبیّکم،و دأب الصالحین قبلکم،و مطرده الداء من أجسادکم » (۴).

کذلک تجلب صلاه اللیل الرزق،حتی

جاء فی النصّ المأثور عن الإمام الصادق (علیه السلام) :

«کذب من زعم أنّه یصلّی باللیل و یجوع بالنهار.إنّ اللّه ضمن بصلاه اللّیل

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) المصدر/ص ۲۷۸.

۳- ۳) المصدر/ص ۲۶۹

۴- ۴) المصدر/ص ۲۷۱.

قوت النهار » (۱).

كما أنّ قيام الليل يزيد من شرف المؤمن،

جاء فى الحديث المروى عن رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله)عن جبرئيل أنّه قال :

«شرف المؤمن صلاته بالليل،و عزّه كفّ الأذى عن الناس » (۲).

و نختم حديثنا عن صلاه الليل

بحديث رائع عن علىّ بن محمد النوفلى عن أحد الأئمه(عليهم السلام):

«إنّ العبد ليقوم فى الليل فيميل به النعاس يمينا و شمالا،و قد وقع ذقنه على صدره،فيأمر اللّه أبواب السماء فتفتح،ثم يقول للملائكه:انظروا إلى عبدى ما يصيبه فى التقرّب إلىّ بما لم أفترض عليه راجيا منى لثلاث خصال:ذنب أغفره له،أو توبه أجدّدها له،أو رزق أزيده فيه.اشهدوا ملائكتى أنّى قد جمعتهنّ له » (۳).

[۱۸]تتجاذب الإنسان قوى الخير و قوى الشر ممّا يجعله فى صراع دائم لا ينفك عنه حتى لقاء ربّه،و لا ينجو أىّ إنسان-أنّى كان قوىّ الإيمان نافذ البصيره- من السقوط فى وهده الذنوب،و لكنّ المهم هو القيام بعد السقوط،فبينما نجد أكثر الناس يسترسلون مع الضغوط حتى تهديهم إلى سواء الجحيم فإنّ الصالحين يعودون إلى نقائهم كلّما دنّستهم الخطايا،و يتطهرون بالتوبه إلى ربّهم الغفور..و هؤلاء هم أصحاب الجنه.

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر/ص ۲۷۳.

۳- ۳) المصدر/ص ۲۷۲.

وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ و عند السحر يكون العالم المحيط بالإنسان فی سبات عميق،حتی الذين أسهرهم المرض أو اللعب أو ما أشبه يخلدون إلی السكون،و الإنسان بدوره يعيش السكون فی داخله،تتراجع شهواته،و تهدأ أعصابه،و تقلّ هواجسه و وساوسه، و يعود إلی نفسه،و تكون الفرصه مواتيه لمراجعه حساباته و محاكمه أعماله و أقواله فی محكمه عقله و وجدانه،و هنالك تتجلّی له أسماء ربّه،و يجد كأنّ خالقه القاهر فوقه البصير به و الأقرب إليه من حبل الوريد يحاسبه:لما ذا ابتعدت عنی عبدی؟أو لم أكن نعم الربّ لک،فلما ذا كنت بئس العبد؟هل غيّرت معک عاده الإحسان فأشركت بی و خضعت لعبادی من دونی؟ و كم هی رائعه يقظه الضمير بعد السبات،و انتفاضه الإراده بعد الخوار؟اللّه ما أحلی العوده إلی دار الأنس بعد الغربه فی نفق العصيان،ما ألذّ حكايه الاعتراف بعد الطيش و التمرّد! من هنا كانت نفوس المتقين تتطلّع إلی تلک الساعه المتّقده حبّا و شوقا و قربا.

أ لم تسمع

روايه الرسول(صلّی اللّه عليه و آله)أنّه قال :«الركعتان فی جوف الليل أحبّ إلیّ من الدنيا و ما فيها » (1).

أ و سمعت زين العابدين علی بن الحسين(عليه السلام)يسأل:ما بال المتهجّدين من أحسن الناس وجها؟فقال:«لأنّهم خلوا باللّه فكساهم من نوره » (2).

ص:29

1- 1) المصدر/ص 276.

2- 2) المصدر.

و کلّ واحد منّا بحاجه إلی الاستغفار لکی لا تتراکم فوق قلبه أدران الخطایا و الغفله فیقسو و ینغلق و یصبح غلفا لا یرجی له علاج..و لکی لا یفاجئه الأجل فتضیع عنه فرصه التوبه إلی الأبد.

و لا بد أن نسعی لفرز العمل الصالح عن السیئات بالاستغفار حتی لا یختلط علینا الحقّ و الباطل،و ذلک بأن نحدّد بالضبط طبیعه العمل الذی قمنا به،و لا نخضع لتزیین الشیطان أو تسویل النفس الأمّاره بالسوء،فنبرّر کلّ ما قمنا به، و نلبسه ثوب الشرعیه بتحریف نصوص الدین حسب أهوائنا،فنکون-لا سمح اللّه-ممّن اتخذ إلهه هواه.

إنّ المؤمن یتهم نفسه أبدا،و یستجلی قیم الحق و موازین الشرع حتی یقیس بها أعماله،فإذا اشتبهت علیه قضیه سعی إلی معرفه الحق بمراجعه الفقه و السؤال من أهل الذکر.

أمّا الذین یستغفرون لذنوب مجهوله،بینما یبرّرون ذنوبهم التی یمارسونها یومیّا،فإنّهم لا یتطهرون بالتوبه بل یزیدهم الإصرار علی تلک الذنوب قسوه فی القلب و ضلاله فی الفکر.

إذا اغتابوا مسلما کفّروه لیبرّروا ذنبهم،فهل ینفع مثل هؤلاء الاستغفار؟ و إذا أکلوا أموال الناس بالباطل زعموا أنّهم مضطرون إلی ذلک،و لا اضطرار عندهم غیر حبّ الراحه،فهل تنفعهم التوبه شیئا؟ و إذا خضعوا للسلاطین تشبّثوا ببعض النصوص المتشابهه،و ترکوا المحکم من آیات الجهاد فی سبیل اللّه و الکفر بالطاغوت.

و إذا غشّوا و كذبوا و احتكروا و أكلوا الربا اعتبروا ذلك تجاره و شطاره و نجاحا و فائده رابحه،و هكذا..

كلاّ..الحلال عند اللّه لا يصبح حراما بأعذار واهيه،و الحرام لا يضحى حلالا..و الاستغفار ينفع الفقهاء و من اتبعهم ممّن يلتزم بمقاييس الكتاب و موازين الشرع تماما.نسأل اللّه أن يجعلنا جميعا منهم.

[١٩]النفاذ بصائرهم يعلم المتقون أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه،فيسعون لتزكيه أنفسهم منه،بالإنفاق المنظّم الذى يفرضونه على أنفسهم أكثر من الحقوق الشرعيه،فالواحد منهم يجعل ثلث أمواله التى يغنمها للّه،و الآخر ربعه،و هكذا حسب ظروفهم المعيشيه.

وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ و السائل هو الذى يسكب ماء وجهه أمامك فلا تحرمه من عطائك مهما كان قليلا،

فقد جاء فى الحديث المروى عن رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله) :

«لا تقطعوا على السائل مسألته،فلو لا أنّ المساكين يكذبون ما أفلح من ردّهم » (١).

و روى عن الإمام الباقر(عليه السلام) :

«لو يعلم السائل ما فى المسأله ما سأل أحد أحدا،و لو يعلم المعطى ما فى العطيه ما ردّ أحد أحدا » (٢).

ص:٣١

١- ١) نور الثقلين/ج ٥/ص ٥٩٨.

٢- ٢) المصدر.

أمّا المحروم فهو الذی ضاقت علیه مذاهب الاکتساب،فکلّما سعی لم یقدر علی تأمین معاشه،و یسمّی بالمحارف،

جاء فی حدیث مأثور عن الإمام الباقر (علیه السلام) :

«الْمَحْرُومِ :الرجل لیس بعقله بأس،و لا یبسط له فی الرزق،و هو محارف » (۱).

قالوا:المحارف الذی لا یتیسر له مکسبه قال رجل محارف(بفتح الراء)أی محدود محروم،و هو خلاف قولک:مبارک (۲).

و یبدو أنّ المحروم هو الذی حرم رزقه،سواء بسبب جائحه،کما جاء فی الآیه حکایه عن أهل الجنه التی احترقت: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» ،أو بسبب إدبار الحیاه عنه،و قلّه حظّه فی المکسب.

و یبقی سؤال:ما هذا الحق الذی فی أموال المتقین،هل هو الزکاه المفروضه کما قال البعض أم أنّه حق آخر؟ یبدو أنّه حق غیر الحقوق الشرعیه،لأنّها مفروضه علی أموال کلّ الناس دون المتقین منهم،لذلک

جاء فی الحدیث المروی عن أبی بصیر قال :کنّا عند أبی عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام)و معنا بعض أصحاب الأموال فذکروا الزکاه فقال أبو عبد اللّه:

إنّ الزکاه لیس یحمد بها صاحبها،و إنّما هو شیء ظاهر،إنّما حقن بها دمه،و سمّی بها مسلما،و لو لم یؤدّها لم تقبل له صلاه،و إنّ علیکم فی أموالکم

ص:۳۲

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۳

۲- ۲) القرطبی/ج /۱۷ص ۳۸.

غیر الزکاه.

فقلت:أصلحک اللّه!و ما علینا فی أموالنا غیر الزکاه؟فقال:سبحان اللّه أما تسمع اللّه عزّ و جلّ یقول فی کتابه: «وَ الَّذِینَ فِی أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» ؟قال:قلت ماذا الحق المعلوم الذی علینا؟!قال:هو الشیء الذی یعمله الرجل فی ما له یعطیه فی الیوم أو فی الجمعه أو فی الشهر قلّ أو کثر غیر أنّه یدوم علیه (۱).

ص:۳۳

۱- ۱) وسائل الشیعه/ج ۴/ص ۲۸.

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۲۰ الی ۴۶]

اشاره

وَ فِی اَلْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ (۲۰) وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِی اَلسَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳) هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْرٰاهِیمَ اَلْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَرٰاغَ إِلیٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قٰالَ أَ لاٰ تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلاٰمٍ عَلِیمٍ (۲۸) فَأَقْبَلَتِ اِمْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَهٰا وَ قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قٰالُوا کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْعَلِیمُ (۳۰) قٰالَ فَمٰا خَطْبُکُمْ أَیُّهَا اَلْمُرْسَلُونَ (۳۱) قٰالُوا إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلیٰ قَوْمٍ مُجْرِمِینَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَیْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ طِینٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِینَ (۳۴) فَأَخْرَجْنٰا مَنْ کٰانَ فِیهٰا مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۳۵) فَمٰا وَجَدْنٰا فِیهٰا غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۳۶) وَ تَرَکْنٰا فِیهٰا آیَةً لِلَّذِینَ یَخٰافُونَ اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِیمَ (۳۷) وَ فِی مُوسیٰ إِذْ أَرْسَلْنٰاهُ إِلیٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ (۳۸) فَتَوَلّٰی بِرُکْنِهِ وَ قٰالَ سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِی اَلْیَمِّ وَ هُوَ مُلِیمٌ (۴۰) وَ فِی عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمُ اَلرِّیحَ اَلْعَقِیمَ (۴۱) مٰا تَذَرُ مِنْ شَیْءٍ أَتَتْ عَلَیْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ کَالرَّمِیمِ (۴۲) وَ فِی ثَمُودَ إِذْ قِیلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰی حِینٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّٰاعِقَةُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اِسْتَطٰاعُوا مِنْ قِیٰامٍ وَ مٰا کٰانُوا مُنْتَصِرِینَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِینَ (۴۶)

اللغه

(۲۶)[فراغ]:ذهب إبراهيم عليه السلام بتسلل و خفيه لأن يحضر لهم طعاما،فإن من أدب الضيافه أن يتسلل الضيف لإحضار الطعام و التسلل لأجل ان لا يمنعه الضيف عن الإحضار.

(۲۸)[فأوجس]:أضمر فی نفسه.

ص:۳۴

(۲۹)[صرّه]:صیاح شدید من الصریر بمعنی الصوت.

[فصکّت]:لطمت.

(۳۴)[مسوّمه]:معلّمه.

(۳۹)[برکنه]:الرکن الجانب الذی یعتمد علیه،و فرعون کان یعتمد علی جنوده و ملکه.

(۴۰)[الیم]:البحر.

[ملیم]:آت بما یلام علیه.

ص:۳۵

(۴۱)[الریح العقیم]:سمّیت عقیما لعقمها من الرحمه و لأنها لا تلد خیرا.

(۴۲)[کـالرّمیم]:الرمیم هو مـا تفتت من حجر أو بنـاء أو غیرهمـا،و قیـل کالشـیء الهالـک البـالی و هو نبـات الأـرض إذا یبس و دیس،و قیل هو العظم البالی السحیق.

(۴۴)[فعتوا]:أی خرجوا عن أمر ربهم ترفّعا عنه و استکبارا.

ص:۳۶

وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ

هدى من الآيات:

مثلما تتصل حقائق السماء و الأرض بما فى بدنک،لا بد أن تتواصل عبرها و آياتها و ما فى عقلك من وعى،و يبدو أنّ الموقنين وحدهم يبصرون آيات اللّه فى الأرض،و فى النفس و فى السماء التى قدّر اللّه فيها الرزق،و جعل فيها ما نتطلّع إليه من فضله،و ما نحذر من نقماته..و فى قصه ضيف إبراهيم تصديق ذلک،فقد جاءوه بالبشرى(حيث رزق من عجوز عقيم غلاما عليما هو إسحاق)،و أرسلوا إلى قوم لوط المجرمين بالعذاب متمثّلا فى حجاره من طين قد هيّأت لأولئك المسرفين (الشاذّين جنسيّا).

و كان العذاب مقدّرا بحكمه بالغه،فلم يشمل بيتا واحدا كان فيه مسلمون و هم آل لوط الذين أخرجهم اللّه منها سحرا،و قد ترک هذا البيت كما آثار تلك القريه لكى يكونا آيه بيّنه لمن يخشى العذاب(أمّا قساه القلب فإنهم لن يستفيدوا من هذه الآيه).

و قصه فرعون هی الأخری عبره لمن یعتبر حیث أرسل اللّه إلیه موسی بحجه بالغه، و لکنّه تولّی بکل وجوده و قواه(حتی أنّه لم یعرف کیف یفسّر کفره)فقال:هذا ساحر أو مجنون،فأخذه اللّه و جنوده بقوّته،و نبذهم فی البحر بذنوبهم.

و مأساه عاد کانت أیضا عبره هامّه حیث أرسل اللّه علیهم الریح العقیم التی أتت علی کلّ آثار الحیاه فی بلادهم(بما کفروا بنعمه اللّه و کذّبوا رسله).

و کذلک فعل بثمود الذین عتوا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصاعقه(نار فیها عذاب)،و بالرغم من أنّهم کانوا ینتظرونه لم یقدروا علی الدفاع،و لم ینصرهم أحد،و ما کان یمکن نصرهم أبدا.

و بعد أن یشیر السیاق إلی قصّه نوح یختم الدرس الذی نستوحی منه سنّه الجزاء فی الخلق،و أنّها لا تختص بقوم و لا بذنب،فکلّ فسق و جریمه و إسراف یلقی جزاءه، و هذا الجزاء دلیل هیمنه الرب و عدالته و قدرته،و کلّ ذلک یهدینا إلی الجزاء الأکبر فی الآخره.

بینات من الآیات:

[۲۰]لو اطلعت ضحی من فوق ربوه علی مروج خضراء،تحیط بها أشجار مثمره،و علی الیمین منها ابتسم لک حقل من ورود متنوّعه،لا بد أنّ جمال المنظر یشغلک عن تذکّر الحقیقه التالیه:أنّه لو لا ضیاء الشمس الذی ینعکس علی الطبیعه إذا ما ظهرت هذه الألوان الجذّابه علیها.ألیس کذلک؟ و إذا تذکّرت هذه الحقیقه عرفت آنئذ أنّ کلّ ورقه زاهیه من هذه الورود و کلّ نبته خضراء رائعه فی تلک المروج علامه واضحه علی وجود ضیاء الشمس.

أصحاب البصائر یتذکّرون هذه الحقیقه،و ینفذون بعقولهم إلی غیب الواقع

المشهود فيما يتصل بخالق الطبيعه،و يعرفون أنّ كلّ شيء فى الخليقه آيه ظاهره لخالقها العظيم،كما أنّ انعكاسات النور شاهده على وجود مصدره(الشمس)، و تعالى اللّه عن الأمثال.

و من هنا كانت آيات اللّه فى الأرض تتجلّى للمؤمنين بصوره أبهى و أسنى،أمّا غيرهم فإنّ جمال المظهر يشغلهم عن ينبوع النور و الجمال و البهاء،لأنّ نظرتهم قاصره،و همّتهم محدوده،فلا تتجاوز الحقائق الجزئيه و الدّانيه.

وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ المنهج القرآنى الذى يكشف حجب العناد و الريب و الغفله عن بصائر الناس، و يجعلهم يتفكّرون فى غيب السموات و الأرض،و لا ينظرون فقط إلى ظاهر الحياه الدنيا،بل يجعلون كلّ ظاهره جسرا إلى غيبها،و كلّ حدث نافذه إلى رحاب الحقيقه الأكبر منه.

بلى.هذا المنهج القرآنى المعجز يصل الإنسان بالخليقه عبر جسر الإيمان،حتى ليصبح كلّ شيء من حوله ناطقا يناجيه بسر الكائنات،و يتناجى هو معه بلغه العارفين.

إنّ حقائق الخلق،من حجر و شجر و أحياء..من سحب تلبّد السماء،و غيث يسقى الأرض،و عواصف و رعد و برق..من أمواج البحر،و شعاع الشمس،و نور القمر،إنّها جميعا فى وعى المؤمنين تجلّيات لأسماء اللّه،و منافذ إلى غيب قدرته و حكمته..رحمته و عزّته..جماله و جلاله..فلا ينظرون إلى شيء إلاّ عبر هذه الرؤيه،ممّا يجعله مسبّحا بحمد ربّه،ناطقا بآياته،داعيا إليه،يبثّ فى روعهم حكمه الحياه،و يعكس جمالها و جلالها،و يهديهم إلى سرّها العظيم.

ص:٣٩

فهـم إذا نظروا إلى الأرض و حجم هـذه الكره الوحيـده الـتى تحتضن الحيـاه فيمـا نعرف من الكرات يتسـاءلون:مـا الـذى قـدّر حجمهـا،و طبيعه حركتهـا حول نفسـها و حول الشـمس،و المسـافه المحـدّده التى تفصـلها عنهـا..حتى لو أنّها اقتربت أو ابتعـدت تباطـأت أو تعجّلت لمـا أمكن نشوء الحياه فيها أبـدا؟ و سـمک الأرض بهـذا القـدر المحـدد بـدقه ما الـذى نظّمه حتى لو كانت أسـمک عشـره بوصات لما وجـدت ماده الأوكسـجين الضـروريه للحياه..و لو كانت البحار أعمق عده بوصات من عمقها الحالى لابتلعت كـل مـا فى الجو من هـذه المـاده الضـروريه؟ و كـذلک الغلافت الواقى المحيط بأرضـنا لو كان أدق قليلا ممّا هو عليه لكـانت الأرض معرضه لملايين الشـهب المتوجهه إليها من الفضاء الخارجى و لاسـتحالت الحياه عليها..و الغازات المتنوعه التى نحتاج إلى كلّ واحد منها بذات النسبه الموجوده فى الجو،و التى تكونت عبر السنين المتطاوله من مصادر عديده.أ ليست شاهده على حكمه المدبّر سبحانه؟ (١)[٢١]و إذا عدت إلى نفسک التى هى خلاصه مباركه لكل ذلک العالم الكبير الواسع،فإنّک تجد آفاقـا من العلم لا تحـد،و شواهـد لا تحصـى على حسن التـدبير لخالقها الرحمن،و لكنّنا بحاجه إلى بصـيره نافـذه لكى لا تحجبنا حاجات الجسم العاجله المحدوده عن الغور فى أعماقها الزاخره بالمعرفه و الحب و الأحاسيس الزاكيه.

وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ

ص:۴۰

۱- ۱) راجع تفسير نمونه(بالفارسيه)/ج ۲۲/ص ۳۳۱-۳۳۲.

كيف لا ـ نبصر ما فى أقرب الأشياء إلينا،و هل يستحق الإ ـكرام من يغفل عن آيات اللّه فى ضميره و وجدانه..فى عواطفه الخيره..فى إرادته الماضيه..فى عقله الوقّاد..فى تركيبه عينه و إذنه..فى أعصاب دماغه..فى حلقه و ما أطبقت عليه شفتاه من لسانه ذى الوظائف المتعدّده،إلى أضراسه و أسنانه،إلى حلقه و بلعومه؟ دعنا نتفكر قليلا فى هذه الشبكه المعقّده من الأعصاب،و هذه المنظومه الواسعه من الأورده و الشرايين التى تقدّر بعشرات الألوف من الكيلومترات..و إلى هذا الحشد الهائل من الخلايا التى تقدّر بعشره ملايين مليار،و كلّ خليّه عالم عظيم تعكس آيات الصنع الالهى.أو تدرى ان الخليه الواحده هى فى الواقع مدينه صناعيه ضخمه بحيث لو استطاع الإنسان فرضا تقليدها لكان عليه ان يبنى مصانع فى ساحه ألف هكتار يزرعها بمختلف الاجهزه المعقده و المتطوره؟ (1)،و لكن أين تلك البصيره التى تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان لعلها تهتدى إلى بعض آيات اللّه العظيمه..و تؤمن بالبعث من بعد الموت من خلال الإيمان بقدره اللّه و حكمته؟ [۲۲]و بعد ذكر الأرض و آياتها،و الإنسان و ما فيه من تجلّيات القدره، يذكّرنا السياق بالسماء و آياتها،و كيف يرزقنا اللّه منها،فهذا الغيث ألا ترى كيف يتنزل من السماء برزق مبارك،و هذه الأشعه التى تبثّ إلينا من الشمس و النجوم و ما فيها من فوائد عظيمه نعرف بعضها و نجهل الكثير؟كلها آيات التدبير الدقيق.أ فلا نتذكر؟ وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ و فى السماء تلك الإمكانات المستقبليه التى يهدينا الرب إليها ففيها من البركات أضعاف ما ننتفع به حاليّا كما فيها من النقمات ما ينبغى اتقاؤها بالعمل

۱- ۱) راجع المصدر/ص ۳۳۳

الصالـح،و يبـدو أنّ الآيات التاليه تأويل لهذه الكلمه،حيث أنّ ربنا سـبحانه قد وعد-و وعده الصدق-إبراهيم بأن يرزقه ذريّه كما أوعد قوم لوط بالعذاب فجاءته الملائكه بهما جميعا.

و قال البعض:معنى «وَ مٰا تُوعَدُونَ» الجنه جعلها اللّه فى السـماء.و لعل هذا صحيح فى بعض رياض الجنه أما الجنه جميعا فعرضها كعرض السماوات و اللّه العالم.

و فى الآيه تفسـير آخر:هو ان اللّه قد قدر عنده فى السـماء(الجهه الأعلى)كل أرزاق العباد فلما ذا الحرص و التكالب؟ بلى.السعى واجب و لكن الفرق كبير بين السـعى وراء الرزق بل و حتى الكد و الكدح من أجله و بين التهالك عليه(الذوبان فى بوتقته)حتى لا يكون لـدى المرء هم سواه،فتمسـخ شخصـيته،و تختصـر انسانيته فى آله اقتصاديه،كلا..ان للإنسان تطلعات ساميه و انما الرزق وسيله البلوغ إليها فقط.لذلك

جاء فى الحديث المأثور عن النبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «الرزق لا يجره حرص حريص و لا يصرفه كره كاره » (١).

بل اننا نجد ان الرزق يرتبط بجوانب عديده من حياه الإنسان منها السـعى و الكدح.فمن ألغى سائر جوانب حياته و اختصـر نفسـه فى البحث عن الطعـام لم يوفق فيه كيف؟ أ ليست الأـمه الجـاهله المفككه التى لا تهتم بالسـياسه و لا تعى التطورات الكبرى فى العالم و لا تتكامل عواطفها أدبيا و فنيا هذه أمه متخلفه،و هل نصيب الأمه

١- ١) نور الثقلين/ج /۵ص ١٢۶.

المتخلفه غير الفقر و المسكنه حتى لو واصل أبناؤها الليل و النهار فی طلب الرزق؟ و كما فی الأمه كذلک فی الفرد فمن تدانت عزيمته و همته،و ضاق أفق علمه و وعيه،و ساءت أخلاقه و آدابه،لم ينفعه اجتهاده فی طلب الرزق.بينما الآخر الذی تسامت همته،و ازداد علمه و وعيه،و حسنت أخلاقه و آدابه اكتفى بقليل من الجهد المركز،و حصل على الكثير من المكاسب أليس كذلک؟من هنا

جاء فی الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

«و الذی بعث جدی بالحق نبيا إنّ اللّه تبارک و تعالى يرزق العبد على قدر المروه،و ان المعونه تنزل على قدر شده البلاء » (۱)،و

قال عليه السلام :«كف الأذى و قله الصخب يزيدان فی الرزق » (۲)،

و روی عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله انه قال :«التوحيد نصف الدين،و استنزل الرزق بالصدقه » (۳)و اخطر ما فی التهالک على طلب الدنيا انه يشغلک عن ذكر اللّه، و التسامی إلى قربه،و النظر إلى آيات قدرته فی نفسک و الخليقه،و الاجتهاد فی طلب الآخره التی هی دار مقرک.

و كلمه أخيره:

لان ما وعدنا اللّه من رحمته فی السماء فقد أمرنا بالتوجه إليها عند الدعاء.

جاء فی حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

«إذا فرغ أحدكم من صلاته فليرفع يديه إلى السماء،و لينصب فی الدعاء».فقال ابن سبا:يا أمير المؤمنين أليس اللّه فی كل مكان؟قال:«بلى».

قال:فلم يرفع يديه إلى السماء؟فقال:«أو ما تقرأ: «وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ»

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۵.

۲- ۲) المصدر/ص ۱۲۶

۳- ۳) المصدر

فمن أين تطلب الرزق إلاّ من موضع الرزق،و موضع الرزق و ما وعد اللّه عزّ و جلّ السماء » (۱).

[۲۳]أقرب الأشياء إليك نفسك،و تتجلى النفس لذاتها حين تفكر،و أعظم لحظات التفكر هی عند ما تنطق،و إذا قال بعضهم:أنا أفكر فاذا أنا موجود.

و قال آخر:الإنسان حيوان ناطق فلأن التفكر حاله يقظه النفس لذاتها،أما النطق فهو ذروه هذه اليقظه.و قد يشك العقل فی معطيات الحواس لان بعض أحاسيس الاذن طنين الدم من داخل البدن،و البصر قد يزيغ و اليد قد تصاب بالبرد دون سبب خارجی.أما النطق فلا يشك العقل فيه لأنه من أعظم آيات اللّه فی البدن، و من أصعب الفعاليات عند البشر، حيث يشترك فيه الجسم و الروح معا.انه قمه الوعی عند الإنسان،لا يشكّ فيه أحد حتی المثاليون و السوفسطائيون يزعمون بأنّهم علی يقين من انهم ينطقون،و علی ثقه بما يقولون.

من هنا يحلف القرآن يمينا برب السماء ان وعد اللّه حق،و أن البعث و النشور حق،كما أن نطق الإنسان حق عند نفسه.

فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ و حين يكون القسم بربّ السماء و الأرض يكون أقرب إلی وعينا-نحن البشر-لأننا نعرف شيئا من ضخامه السماء و الأرض،فلا بد أن نهتدی بذلك إلی بعض جوانب قدره الرب و تدبيره إذا عرفنا انه-سبحانه-هو رب السماء و الأرض.

ثم يكون التأكيد بالغا حيث يضاف إلی القسم ان و لام التأكيد،و يشتد التأكيد بأن يضرب له مثل الحق بحاله النطق.

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۴

و قال البعض:ان النطق هو سمه أساسيه فى حضاره الإنسان،فمن دونه كيف كانت التجارب تنتقل من شخص لآخر،و من جيل لجيل ناشئ.

و قالوا:ان القسم هو على ضمان الرزق و على استجابه الدعاء اللذين ذكرا فى الآيه السابقه،و يبدو لى أنه على كل الحقائق التى تواصلت فى الآيات السابقه و أبرزها حقيقه الجزاء فى الدنيا و الآخره.

[۲۴]و هذا مثل ظاهر لما فى السماء من رزق و من وعد مستوحى من قصه إبراهيم الخليل(عليه السلام)حينما جاءته الملائكه يبشرونه باستجابه دعائه فى نفسه(بغلام)و فى قوم لوط(بإهلاك الكافرين).

إن استجابه الدعاء فى الذريه التى نزلت بها الملائكه كانت أعظم نعمه ينزلها اللّه على بشر،فلقد وهب اللّه له غلاما زكيا يرفع اسمه،و يصبح امتدادا لرسالته كما أن الوعد بإهلاك قوم لوط كان أعظم ما ينتظره الرسول بعد أن يكمل رسالته.

هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ان الضيافه كانت جانبا هامّا من ثقافه العرب،و كانت للضيف مكانه خاصه عندهم،و لعله لذلك يتخذه القرآن وسيله لبيان الحقائق التاريخيه،و يقول عن ضيوف إبراهيم:

اَلْمُكْرَمِينَ لقد أكرمهم إبراهيم بضيافته و خدمته لهم.

[۲۵] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ

حينما دخلوا عليه قالوا:سلاما،فرد سلامهم قائلا:سلام،و كأنهم استأذنوه فأذن لهم.و لكنه لم يعرفهم،فقال لهم:انا لا نعرفكم أو أسرّه فى نفسه.

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ حيث نظر إليهم فعرف بأنهم ليسوا من أهل بلده،و لعل صورهم لم تكن مطابقه مع صور البشر،انما كانوا يشبهون البشر فقط.

[۲۶]بعد ذلك جلسوا،فتسلل نبى اللّه الكريم إلى أهله:

فَرٰاغَ إِلىٰ أَهْلِهِ أى ذهب بخفيه.و هذه من الآداب التى تتعلق بإكرام الضيف،إذ ليس من اللائق أن يقول المضيف لضيفه:أ تأكل كذا، أو ماذا تشرب؟ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ جلب لهم عجلا قد شوى على النار،و لعله فعل ذلك بالرغم من قله عدد الضيوف(۳ أو ۴ أو على الأكثر ۹)لمزيد من الإكرام،أو لأنهم كانوا ضخاما،أو لكى يطعم بفاضل طعامهم سائر المساكين،و هذا كان و لا يزال من سنن الكرماء.

[۲۷] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ و دعاهم إلى الطعام،فلم ير أيديهم تصل إلى العجل.

قٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ [۲۸] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً

و لعل السبب فی إحساسه بالخوف منهم انه کان من عاده من یضمر شرا ألاّ یأکل من بیت عدوه حتی لا یتصف بالغدر.

و هکذا قالوا:من لم یأکل طعامک لم یحفظ ذمامک.

قٰالُوا لاٰ تَخَفْ و ما لبثوا أن بشّـروه بتحقّق أمنیته التی کادت تخیب لکبر سـنه.و قـد جاءت البشاره بعـد الخوف لیکون أبلغ أثرا و أحلی.

وَ بَشَّرُوهُ بِغُلاٰمٍ عَلِیمٍ و یبـدو أن الغلاـم لیس مجرد الـذکر من الأولاد-حسب بعض علماء اللغه-بل«یلحظ فی الماده معنی أخص من النشاط لما هو أصل الحیاه،فیقال:

غلم کفرح:هاج شهوه،و الغلمه:شهوه الضراب،و من هذا یطلق الغلام علی الفتی الذکر الطار الشارب،لاکتمال حیویته» (۱).

و إذا صح هذا التفسیر فقد بشـرته الملائکه بولد ذکر،یرعاه الرب حتی یبلغ أشدّه،و لعل وصفه ب «عَلِیمٍ» یدل علی ذلک،إذ من المعروف أن الغلام لم یولد علیما،بل نمی حتی أضحی کذلک عند ما أصبح غلاما.

یـا لهـا من بشاره کبری لمن بلغ من العمر عتیا،و حسب التوراه،و بعض المفسـرین:کان قـد جاوز سـنه المائه،أما زوجته ساره فقد بلغت التسعین.

انه قـد قضـی عمرا ممتـدا،یـدعو إلی ربه و لم یؤمن به إلاّـ قلیـل،و الآـن حیث یکـاد یودع الحیاه لا یفکر إلاّ فیمن یحمل مشـعل الدعوه،و یحقق آمال داعیه التوحید

۱- ۱) معجم ألفاظ القرآن الکریم الصادر عن المجمع العلمی/ج ۲/ص ۲۷۲.

الکبیر الذی کاد یکون وحیدا فی عالم کان یغوص فی دنس الشرک،و ظلام الجاهلیه.

یا لها من بشاره عظیمه:ان یستجیب الرب لعبده رأفه به،و تخلیدا لذکره فی الآخرین،فیرزقه ولدا یرعاه حتی یصبح غلاما و یعلمه حتی یضحی علیما.

[۲۹]و سمعت زوجته(ساره)بهذه البشاره،ربما لقربها من الضیوف حیث کانت تخدمهم،أو لأنها جاءت إلیهم فأخبرت بها.

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّهٍ تصیح صیاحا یشبه صوت الریح لما أصابها من فرحه مزیجه بالعجب!! فَصَکَّتْ وَجْهَهٰا أی ضربته-علی عاده النساء العجائز عند مواجهتهن لموقف لا یحتملنه- و عبّرت عن عمق تعجبها من هذه البشاره العظیمه..

وَ قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ فهل ألد و أنا عجوز یائس؟!بل کیف ألد و أنا امرأه عقیمه،و لم أنجب فی شبابی؟! [۳۰] قٰالُوا کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکِ نعم هکذا قال اللّه القدیر،فالرزق بیده،و لأنه أراد إثبات هذه الحقیقه أنّه وهب عجوزا عقیما غلاما علیما.

إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ

و لم یذکر القرآن شیئا عن رد فعل إبراهیم(علیه السلام)لماذا؟ربما لأن انجاب رجل کبیر فی مثل سنه ممکن عقلا بعکس امرأه عقیم فی مثل عمرها، و الدلیل علی ذلک أن إبراهیم علیه السلام تزوج بهاجر فأنجبت له إسماعیل علیه السلام .

و المعروف أن الولد کان(اسحق)و تدل علی ذلک الآیه المبارکه: «وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ» .

و هذه الحادثه توحی ببصائر ثلاثه:

أولا:إن اللّه قادر علی تغییر ما نعرفه من السنن بقضائه النافذ،و حکمه الذی لا یرد.

ثانیا:إنه یستجیب دعاء من دعاه بفضله و بوسائل غیر معروفه لدینا،و علینا ألاّ نقنط من رحمته فی أشد حالات الأزمه،و ألاّ نحرص علی الدنیا خشیه المستقبل فهو الرزّاق ذو القوه المتین.

و إلی هذا تشیر

الروایه المأثوره عن الإمام زین العابدین(علیه السلام):«قال:

خرجت حتی انتهیت إلی هذا الحائط،فاتکیت علیه،فاذا رجل علیه ثوبان أبیضان،ینظر فی وجهی،ثم قال لی:یا علی بن الحسین!ما لی أراک کئیبا حزینا؟!أعلی الدنیا حزنک فرزق اللّه حاضر للبر و الفاجر،فقلت:ما علی هذا أحزن،و إنه لکما تقول،قال:یا علی بن الحسین!هل رأیت أحدا سأل اللّه عزّ و جلّ فلم یعطه؟!قلت:لا،قال:نظرت فاذا لیس قدامی أحد » (1).

ثالثا:إن کلّ ذلک دلیل یهدینا إلی البعث بعد الموت.أ لیست العقبه الرئیسیه عند الکفار به هی جهلهم بقدره اللّه علی إحیاء الموتی،أو خرق الأنظمه السائده علی

۱- ۱) نور الثقلین/ج /۵ص ۱۲۶.

الخليقه،فهذه القصص تزيل عنهم هذه العقبه،مما يمهد الطريق أمامهم للإيمان بالآخره.

[۳۱]بشاره إبراهيم عليه السلام بالغلام العليم جانب من وعد اللّه،أما الآخر فهو عذاب الاستئصال الذى صب على قوم لوط.

و حين عرف إبراهيم الملائكه سألهم عن الأمر العظيم الذى نزلوا من أجله،إذ حسب

نصّ مأثور عن الإمام الصادق(عليه السلام) :«كانوا أربعه أملاك:

جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و كروبيل عليهم السلام » (۱).و مثل هؤلاء لا ينزلون إلّا لخطب جلل.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ لا بـد انكم تقومون بعمل عظيم فى الأرض فما هو؟ [۳۲-۳۳]قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ و نتساءل أولا:ما هو هذا الطين؟..هل هو ذلك الطوب الذى بنيت به مدينتهم باعتبار ان المدينه قد ارتفعت ثم هبطت مره أخرى ساعه تـدميرهم؟أم هو حمم بركـان تفجّر عليهم فشـبهت بالطين؟أم أصل الحجاره التى أهلكوا بها كـانت من الطين؟..لا نـدرى بالضـبط،و لكن الظاهر من الآيه أنه ذات«السـجيل» التى جاءت فى آيه أخرى،و التى قالوا:انها معربه فارسيه و أصلها(سنك كل) أى حجاره من الطين،و الأقرب انها قطعات من طين متصلب و متحجر.

ص:۵۰

۱- ۱) المصدر/۱۲۷.

ثانیا:ماذا کانت جریمتهم التی استحقوا بها ذلک العذاب الشدید؟یبدو انهم کانوا قد تدرجوا فی عدّه مراحل،حتی بلغوا الدرک الأسفل،و الذی مثّل فی الشذوذ الجنسی،اما غیره

فقد جاء فی الحدیث: «انهم لم یکونوا یتنظّفون من الغائط، و لا یتطهرون من الجنابه،بخلاء،أشحّاء علی الطعام » (۱).

[۳۴]و ان هذا الهبوط المستمر کان بسبب إسرافهم المقیت.

مُسَوَّمَهً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِینَ یبدو من هذه الآیه ان الإسراف ینتهی بالإنسان إلی الجریمه،فهو یسرف حتی یستوعب حقه،فیبادر علی الاعتداء علی حقوق الآخرین،

و فی الحدیث عن الامام علی علیه السلام: «ما رأیت نعمه موفوره إلاّ و إلی جانبها حقّ مضیع »لان من یأکل أکثر من حقه یأکل-و بشکل طبیعی-حقوق الناس،و الحجاره التی أصابتهم کانت مسومه،قد عرفت باسمهم،و لعل کل حجاره کانت باسم واحد منهم،فلم تکن تطیش هنا و هناک،لأنها کانت مسجله باسمه و حسب جریمته.

[۳۵]و کما کانت مسومه باسم المجرمین کانت بعیده عن المؤمنین الذین أخرجوا من تلک البلاد.

فَأَخْرَجْنٰا مَنْ کٰانَ فِیهٰا مِنَ الْمُؤْمِنِینَ و لکن من کان فیها من المؤمنین؟ [۳۶] فَمٰا وَجَدْنٰا فِیهٰا غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ [۳۷]و بعد أن خرجوا من تلک القری،أرسل اللّه الحجاره المسومه،فأهلکتهم.

ص:۵۱

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۹.

أين كانت قرى قوم لوط؟يقال انها واقعه اليوم فى الأردن،على مقربه من البحر الميّت،و انها كانت تسمى ب:(سدوم)،و أنها هى المؤتفكات أى القرى المنقلبه.

و يقال ان إبراهيم(عليه السلام)الذى بعث لوطا إلى تلك القرى ليدعوهم إلى ربهم كان يسكن فى مدينه(حبرون)قريبا من(سدوم)و قد شاهد آثار العذاب حين نزل عليها.

و يزعم البعض:ان بعض الآثار قد ظهرت فى قاع البحر الميت،مما يدل على أنه يغطى قرى قوم لوط،و لا ريب أن تلك المناطق تشهد بذلك العذاب الرهيب، الذى نزل بأولئك المجرمين،بيد أن هذه الآثار كثيره فى أرضنا،و ان عبرها كافيه للإنسان ليرتدع عن غيه،بيد أن أكثر الناس فى غفله منها،و إنما يتعظ بها الخائفون من عذاب اللّه.

وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً علامه بيّنه بما وقع فيها،قيل:أنّها آثارهم فى القريه الخربه،و قال البعض:

إنّها الحجاره المسوّمه،

و يظهر من حديث مأثور عن النبى(صلّى اللّه عليه و آله) عن جبرئيل(عليه السلام)أنّ الآيه بيت لوط حيث قال و هو يروى كيف دمّر بأمر اللّه تلك القرى:

«و إنّي نوديت من تلقاء العرش لمّا طلع الفجر:يا جبرئيل!حقّ القول من اللّه،تحتّم عذاب قوم لوط فاهبط إلى قريه قوم لوط و ما حوت فاقلبها من تحت سبع أرضين،ثمّ أعرج بها إلى السماء فأوقفها حتى يأتيك أمر الجبّار فى قلبها، و دع منها آيه بيّنه من منزل لوط عبره للسيّاره » (۱).

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۸

حقّا:إنّها آيه بيّنه أن تدمّر كلّ تلك القرى شر تدمير و يبقى بينهما بيت واحد عبد اللّه فيه سالما.أولا يهدينا ذلك إلى أنّ الدمار لم يكن بسبب زلزال طبيعى،بل عذابا مقدّرا لجرائم ارتكبوها؟ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أمّا الغافلون فهم لن ينتفعوا من مثل هذه الآيه.

و هذه القصّه تذكّرنا بسنّه الجزاء،و أنّ اللّه لم يخلقنا عبثا،و أنّه سوف يحاسبنا ليجازينا إن خيرا فخير و إن شرّا فشر.

[۳۸]و مثل آخر يهدينا إلى حقيقه المسؤوليه و الجزاء أيضا نقرأه فى قصّه فرعون التى بقيت هى الأخرى آيه بيّنه للناس.

وَ فِي مُوسىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ لقد أرسل اللّه موسى إلى طاغوت عصره فرعون،و زوّده بسلطان مبين يتمثّل فى كلمه الحق و العصا و اليد البيضاء.

[۳۹]و لكن ماذا كان جواب فرعون؟ فَتَوَلّى بِرُكْنِهِ كذّب بموسى و سلطانه بكلّ وجوده و قواه سواء قوّه جسده أو قوّه جيشه.

وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ لقد احتار كيف يفسّر حقيقه الرساله إذا أنكرها،فإذا كان صاحبه ساحرا

یبحث عن مال و مقام فلما ذا یتحدّی سلطانه؟لماذا لا یخضع له کما فعل سائر السحره؟و إذا کان مجنونا فما هذه الحجّه البالغه لدیه و السلطان المبین؟ما هذه المعاجز التی تتوالی علی یدیه؟ و هذا التردید شائع عند کلّ الذین یکفرون بالحق،و یعاندون أمام الحجج البالغه،ذلک أنّ الحق یفرض نفسه علی الساحه حتی لا یکاد أحد یقدر علی التهرّب منه.

[۴۰]أنظر إلی عاقبه أمرهم،لقد أخذهم اللّه بقوّته فلم یقدروا علی الفرار من جزائه العادل بمثل ما تهرّبوا من الحق الذی دعاهم إلیه،ثم ألقاهم فی البحر کما ینبذ شیء یسیر لا وزن له و لا قیمه.

فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِی الْیَمِّ و لا یلام غیره.أ فلم ینذره اللّه،و أتمّ الحجّه علیه فلم تنفعه شیئا؟ وَ هُوَ مُلِیمٌ تلاحقه لعنه اللّه و الملائکه و الناس إلی یوم القیامه.

[۴۱]و إذا تکرّرت صوره أخذ الطغاه و المجرمین فإنّ السنّه واحده،و تلک السنّه تصبح عبره لمن شاء أن یعتبر،ففی أرض الأحقاف الواقعه-حسب المفسّرین- بین حضرموت و عمان کانت قبائل عاد تطغی و تفسد و تبطش بالناس کما الجبّارون،و جاءهم النذیر فلم یستجیبوا له،فأرسل اللّه علیهم الریح لا لکی تلقّح ثمارهم أو تحمل الغیث إلی أرضهم العطشی،بل لکی تبید ما أتت علیه من زرع و ضرع و إنسان و أثاث و بناء حتی لا تخلّف وراءها شیئا فهی عقیم.

ص:۵۴

وَ فِي عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ و قالوا فى معنى العقيم:أنّه الذى لا ينتج غيثا و لا لقاحا.و لعلّ العقيم هو الذى لا يذر شيئا بعده فتكون الآيه التاليه تفسيرا له.

[۴۲]و يبدو أنّ الإعصار كان يحمل نارا و سمّا،و هكذا لم يدع شيئا قائما على حاله بل أباد الأرض و ما عليها و جعلها رميما.

مٰا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ قالوا:من الرّمه العظم البالى،و الرّمه الحبل البالى،و الرّم ما يقع على الأرض من التبن،و قال:البعض الرميم الرماد،و قال آخر:إنّه الذى ديس من يابس النبات.إنّه التراب المدقوق،و قال ابن عباس:كالشىء الهالك البالى.

و يبدو لى أنّ الكلمه توحى بانعدام الشىء،فإذا كان البناء يتهدّم،و إذا كان العظم أصبح مهشّما،و الحبل باليا،و التراب رمادا لا حياه فيه..و إذا صحّ هذا التفسير فإنّ تلك الأرض لا تصلح لإعاده الحياه فيها أبدا،و هذا عاقبه طغيانهم و تحدّيهم لرسالات ربّهم.

[۴۳]و من جنوب الجزيره العربيه إلى شمالها حيث سكنت قبائل ثمود فى منطقه(حجر)نقرأ ذات القصه،و نجد ذات العبره،و تتجلّى حقيقه المسؤوليه و الجزاء.

لقد كفروا بالرسالات،و تمرّدوا على رسولهم،و عقروا الناقه،فأمهلوا ثلاثه أيّام،فلم يقدروا على الفرار،و لا نصرهم ما أشركوا به،و لا نفعتهم الحيله،بل دمّروا بالصاعقه شرّ تدمير..و هكذا كانت فى ثمود آيه بيّنه.

ص:۵۵

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰى حِينٍ قالوا:إنّها الأيّام الثلاثه التی أمهلوا فيها. و لعلّ المراد الفرصه التی سنحت لهم فی الحياه الدنيا،و الحريه المحدوده التی منحوا ليبتلی اللّه إرادتهم،و لكنّهم خالفوا رسوله بعقرهم الناقه التی كانت آيه مبصره لهم.

[۴۴] فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ [۴۵]و بالرغم من أنّ الصاعقه نزلت بهم بعد أن أنذروا بها،و علموا بوقوعها، و نظروا إليها بالعين المجرّده،فإنّهم لم يقدروا على مقاومتها أو الفرار منها.

فَمَا اسْتَطٰاعُوا مِنْ قِيٰامٍ وَ مٰا كٰانُوا مُنْتَصِرِينَ فلا قدروا على مقاومتها بأنفسهم،و لا كان يقدر أحد على نصرهم.

[۴۶]العذاب الذی توالی على المجرمين فی الدنيا نذير لنا بأنّ عذاب اللّه واقع، و أنّ الجزاء حق لا ريب فيه،و أنّه لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره الذی يرسمه بعمله.

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ كذّبوا بآيات اللّه فأخذهم بالطوفان و لم تبق منهم إلاّ العبره.

إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِينَ تجاوزوا حدود اللّه،و فسقوا عن أمره،فاختطفهم،العذاب وفقا لسنّه اللّه التی لن تجد لها تبديلا.

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۴۷ الى ۶۰]

اشاره

وَ اَلسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ اَلْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ اَلْماهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَى اَللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اَللّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۱) كَذلِكَ ما أَتَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ اَلذِّكْرى تَنْفَعُ اَلْمُؤْمِنِينَ (۵۵) وَ ما خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اَللّهَ هُوَ اَلرَّزّاقُ ذُو اَلْقُوَّةِ اَلْمَتِينُ (۵۸) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ اَلَّذِي يُوعَدُونَ (۶۰)

اللغه

(۴۷)[بأيد]:بقوه-من آد-يئيد.

ص:۵۷

(۵۹)[ذنوبا]:نصيبا من العذاب،و أصل الذنوب الدلو المملوء ماء و جیء به للاشاره إلی کثره ذنوبهم.

وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ

هدى من الآيات:

إذا كان محور سوره«الذاريات»أن الهدف الاساسى من خلقه الجن و الانس هو عباده اللّه فان خاتمه السوره تبين ذلك بعد ان تمهد له بتوجيهنا:الى السماء كيف بناها ربنا بقوه،و لا يزال يوسعها،و إلى الأرض كيف فرشها،و مهدها لنا أفضل تمهيد،و إلى سنه الزوجيه فى كل شيء مخلوق،تذكرنا بالخالق الغنى المقتدر.

ثم يأمرنا بالاستعاذه باللّه و الفرار اليه من ضعفنا،و عجزنا،و شرور أنفسنا، و شرور العالم المحيط بنا.

و لكى لا نستسلم للضغوط يذكرنا:ان الرسول نذير مبين من عند اللّه،و انه يحذّر من مغبه الشرك باللّه،و الكفر بالرساله،و اتهام الرسول بأنه ساحر أو مجنون كما فعل الغابرون جميعا.حتى لكأنهم تواصوا بذلك بينما الحقيقه أنهم جميعا كانوا قوما طاغين،فاذا تولى عنهم الرسول لا يكون ملوما لأنهم جحدوا بالرساله و لكن

يجب الاستمرار فى رعايه المؤمنين بالتذكره لأنها تنفعهم.

و بعد هذا التمهيد الذى فيه تذكره بآيات اللّه فى الخليقه،و تبصره بدور الرسول فى الإنذار و البلاغ فقط فيما يتصل بالكفار،و دور التذكره فيما يتعلق بالمؤمنين..

ذكّرنا اللّه بأهم غايه فى الخلق و قال: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» و حقيقه العباده التسليم للّه و تهيئه النفس لاستقبال نور معرفته،و تطهيرها من دنس الشرك و الفواحش الباطنه،ثم العمل بكتابه.

و عباده اللّه دليل رحمته،و هكذا كان الخلق بهدف التفضل على المخلوقين،و لا تصل أيه فائده من خلقه اليه،فهو لا يريد منهم رزقا و لا طعاما،بل هو الرزاق الذى يغمرهم بنعمه،و هو ذو القوه الدائمه التى لا تزول فلا يحتاج الى نصرهم.

و فى الخاتمه يحذر ربنا الظالمين بأن نصيبهم من العذاب مضمون لهم،فلا يستعجلوه،كما يحذر الكفار من ويلات اليوم الموعود.

بينات من الآيات:

اشاره

[۴۷]هل نظرت الى السماء فى ليله صافيه..هل حاولت مرّه إحصاء نجومها؟لا ريب انك لو فعلت ذلك كللت،لأنه كلما أدرت عينك رأيت نجمه غائره فى الفضاء اللامتناهى،و إذا علمنا ان كل مجموعه نجوم تشكل مجره واحده؟ لا بد أن نذهل فعلا مما اكتشفه العلم من عدد نسبى لعدد المجرات التى تبلغ المليارات..فهل يأتى يوم يستطيع الإنسان أن يحصى نجوم السماء علما بأن ضخامه نجمه واحده منها قد تبلغ حدا لو ألقى كوكبنا الأرضى فيها لضاعت كما تضيع حبه الرمل فى الصحراء.

أى قوه بنت هذه السماء؟!

وَ السَّمٰاءَ بَنَیْنٰاهٰا بِأَیْدٍ و الأید هی القوه،و لعل کلمه البناء توحی بالتدریج فی الخلق و المتانه فیه، و الصله بین جزء و جزء فیما بنی،و کل ذلک صحیح فی أمر السماء.

وَ إِنّٰا لَمُوسِعُونَ ذهب المفسرون مذاهب شتی فی معنی هذه الکلمه،فقد قال ابن عباس ان معناها:إنّا لقادرون،و قیل:و إنّا لذو سعه،و قیل:و إنّا لموسعون الرزق علی خلقنا،و قال الضحاک:اغنیناکم دلیله: «عَلَی الْمُوسِعِ قَدَرُهُ» و قیل:جعلنا بینها و بین الأرض سعه (1).

و لعل هذا الاختلاف دلیل صعوبه استیعاب ظاهر الآیه فی تلک البیئه العلمیه التی کادت لا تعترف إلاّ بالأرض و ما فوقها من أجرام علویه محدوده،و إنا لنجد مثل هذا الاختلاف فی کثیر من الآیات التی تهدی الی حقیقه علمیه کانت غامضه فی تلک الأیام.

علما بأن المعنی الظاهر للآیه هو:ان ربنا المقتدر یوسع بناء السماء دائما، و هذا ینسجم مع الحقائق العلمیه التالیه:

/1ان الأرض و سائر الکرات تمتص المواد الأثیریه المبثوثه فی الفضاء،کما لو کانت أجهزه تنظیف عملاقه تکنس الفضاء مما یسمح لها بالنمو دائما،و قد قالوا:

ان حجم المواد المبثوثه فی الفضاء هو بحجم الاجرام الموجوده الآن.أی أنها کافیه لتکون الماده الأولیه لخلق أجرام جدیده بعدد و بفخامه الأجرام الموجوده و ربما أکثر.

1- 1) القرطبی/ج /17ص 52

/۲ان السماء فی حاله امتداد دائم و کأنها کانت فی یوم ما کره واحده، و حدث فیها انفجار عظیم قبل(۱۵)ملیارد سنه ثم بدأت تتمدد،و تتسع الفجوه بین أجرامها بصوره منتظمه و سریعه،و کما یقول جورج کاموف:ان الفضاء المحیط بنا الذی یتشکل من ملیارات المجرات هو فی امتداد سریع.و فی الحقیقه ان عالمنا لیس ساکنا،و ان انبساطه لأمر مؤکد.

و ان معرفه هذه الحقیقه هی مفتاح ألغاز العالم،إذ أن العالم لو کان فی حاله امتداد الآن فلا بد انه کان فی وضع انقباض و ترکیز شدید فی یوم من الأیام (۱).

و قد حدد بعضهم سرعه انبساط الاجرام،و تباعدها عن بعضها ب(۶۶)ألف کیلومتر فی الثانیه الواحده (۲).

و العجیب انها کلما ابتعدت عن بعضها ازدادت سرعتها کما قالوا.

الی أی مدی ستظل السماء تنبسط و تمتد و تتباعد أجرامها و أین ستقف و ما هی عاقبه أمرها؟ علم ذلک کله عند اللّه.إلّا ان هذا التوسع العظیم لا یجری دون تدبیر و هیمنه من لدن سلطان العالم الذی یحفظ توازنه،و یدبر أموره(سبحانه).

/۳یری بعض علماء الفضاء:ان هناک أجراما سماویه تتکون مع الزمن،و قد اکتشفوا فی بعض زوایا هذا الفضاء الرحیب ما یبدو عندهم بدایات تکون الشموس التی تبدو أکثر لمعانا من الشموس الموجوده بکثیر.

۱- ۱) تفسیر نمونه/ج /۲۳ص /۳۷۴نقلا عن جورج کاموف فی کتابه خلقه العالم.

۲- ۲) المصدر/ص /۳۷۳نقلا عن فرد هویل.

إن ألغاز السموات لاـ تزال كثيره و لعل الإنسان يحل المزيد منها كلما تقدم فی صنع أدوات جديده لتصوير أجرام السماء،و تحليل الأشعه التی تصل منها،و ربما يعی الإنسان يومئذ أبعاد هذه الآيه و أمثالها بصوره أفضل.

/۴و يقول الأستاذ بيار روسو،فی كتابه المؤلف عام ۱۹۶۳(من الذره إلی النجم):إن المجرّات تقع فی تسلسل النظام الفلكی فوق النجوم،فالمجره مجتمع يتألف من مئات ملايين،أو مئات مليارات النجوم،أو قل بالأصح:عددا لا يمكن أن يحصی حتی بأضخم و أدق الكمبيوترات من النجوم.

و المجرّه التی نحن جزء منها تحتوی علی ما لا يقلّ عن مائتی مليار نجم،يضاف إليها كتله من الماده المبعثره بين النجوم تتراوح بين ۳۰٪و ۴۰٪من الكتله العامه.

و نكتفی هنا بالقول:إن عدد المجرات لا يحصی كما يبدو ذلك فی الصور الفوتغرافيه المأخوذه بواسطه المقاريب الكبری.

ثم يتحدث عن تكوّن النجوم من الغيوم(أی المواد ما بين النجوم):و وجود غيوم من الماده الكونيه يحمل علی الإعتقاد بأن النجوم خرجت من الغيوم عند تكثفها تصبح نجوما،و ليست هذه الظاهره مجرد افتراض لأن الفلكيين عثروا فی السماء علی تحول من هذا النوع تم خلال سنوات معدوده.

أما الآن فما يجب أن نحفظه من هذه النظره السريعه علی العالم المجریّ أمران:

الأول:هو أن النجوم لم تكن موجوده منذ الأزل لكنها نشأت عن الماده الكونيه فی أوقات معينه.

الثانی:انها لم تتكون جميعها فی آن واحد،و أنها تتابع تكونها فی أيامنا هذه،

و یعتقد الثقات من علماء الفلک: أن عمر النجوم یدور حول ۱۵ ملیارد سنه.

و إذا حدّدنا عمر المجره بخمسه عشر ملیارد سنه،فلا یعنی ذلک أن الکون محتوم بهذه البدایه،و نحن نعلم الآن أن الماده تتحول بلا انقطاع إلی طاقه(و بتعبیر أصح إلی اشعاع)و فی داخل الظاهرات الهائله العاصفه فی الآفاق الفضائیه تعید هذه الطاقه تکوین الماده بدون انقطاع،و إن کان سیاق إعاده الخلق هذا فی غایه البطء.

[۴۸]کیف مهد اللّه الأرض لحیاه البشر،کیف تحطمت الصخور التی تکونت أصلا منها حتی أضحت ترابا مرنا،یصنع منه المساکن،و یشق فیه الطرق،و یزرع فیه ما یشاء؟و لو کانت صلبه کصخور کوکب الزهره أو رخوه کتراب القمر هل کنا نرتاح علیها،و کیف أودع فی ضمیرها ما نحتاج إلیها من مواد تخصب زراعتنا،و تطهّر أجواءنا و تمتص ما یضربنا؟! وَ الْأَرْضَ فَرَشْنٰاهٰا فَنِعْمَ الْمٰاهِدُونَ بلی.یا ربنا!أنت نعم الممهد و المهیئ للأرض لعیشنا سبحانک.

[۴۹]و بین السماء التی هی آیه قدره اللّه،و الأرض التی هی آیه رحمه اللّه نجد الأحیاء و النباتات و الأشیاء التی جعلها اللّه یکمل بعضها بعضا.فاذا کانت الأرض تکمل الشمس،و یکملها القمر،فان البحر یکمل فوائد البر،و هکذا السهل و الجبل،و الإنسان و سائر الأحیاء،و کل أنواع النبات یکمل بعضها بعضا کما یکمل سائر المخلوقات.

وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَیْنِ و تتجلی هذه الزوجیه فی أروع صورها بین الذکر و الأنثی، التی نراها فی الإنسان

و الحيوان و النبات،بل و فی کل شیء مخلوق حتی الذره المتناهیه فی الصغر تجد فیها الجانب المنفی(المتمثل فی الالکترون)و الجانب المثبت(المتمثل فی البرتون).

و هذا التکامل عنوان الحاجه المشترکه بین المخلوقات و التی هی بدورها تهدینا الی بصیرتین:

الف/الحاجه بذاتها نعمه،و التحسس بها وقود التحرک،و اشباعها لذه الوجود،فلو افترضنا حیاه بلا حاجه الی الطعام و الشراب و الراحه و الجنس فهل کانت لدینا رغبه فیها.انها أخت الموت،و کلما ازدادت،و اشتدت،و تنوعت الحاجه کلما ازدادت و تنوعت و اشتدت اللذه فی قضائها..أ لیس الشبع بعد الجوع، و الأمن بعد الخوف،و النکاح عند الشبق أشد لذه و أعظم؟! باء/التکامل و خصوصا بین الزوجین دلیلنا الی ربنا،لان کل شیء یحتاج الی غیره،فلا یتصور فیه الاستقلال و الالوهیه لشهاده کل محتاج انه فقیر محدود و مدبر، و ان له ربا غنیا،واسعا مدبرا.

ثم ان تدبیر التکامل،و تألیف التزاوج،و تنظیم شؤونهما دلیل الی المدبر المنظم سبحانه.

و هو فی الوقت ذاته شاهد علی أن المدبر غیر محتاج،و انه غیر محدود،و انه لا ندّ له و لا نظیر.

جاء فی الحدیث عن الامام الرضا(علیه السلام) :بتشعیره المشاعر عرف ألّا مشعر له،و بتجهیره الجواهر عرف ألّا جوهر له،و بمضادّته بین الأشیاء عرف ألاّ ضدّ له،و بمقارنته بین الأشیاء عرف ألاّ قرین له،ضادّ النور بالظلمه، و الیبس بالبلل،و الخشن باللین،و الصرد بالحرور،مؤلفا بین متعادیاتها،مفرقا بین

متـدانیاتها،داله بتفریقهـا علی مفرقهـا،و بتألیفها علی مؤلفها،و ذلک قوله: «وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ» .ففرق بین قبل و بعـد لیعلم ألاّ قبل له و لا بعـد له،شاهـده بغرائزها ألاّ غریزه لمغرزها،مخبره بتوقیتها ألاّ وقت لموقّتها،حجب بعضـها عن بعض لیعلم ألاّ حجاب بینه و بین خلقه (۱).

لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ فتزدادون معرفه باللّه کلما أحسستم بالحاجه،و کلما قضیت لکم.حقّا إن معرفه اللّه هی الهدف الأسمی لخلقه العالم.أو لیست المعرفه هی السبیل الی التقرب الی اللّه،و الأنس بمناجاته،و الفلاح بذکره.

[۵۰]و لکن کیف نتسامی الی اللّه و قد أحاطت بنا عوامل النقص و العجز، فمن نفس أمّاره بالسوء تسول لنا الذنوب و تسوفنا التوبه،الی شیطان یغوینا یزین لنا الموبقات،و یملأ أفئدتنا بالتمنیات و الوساوس و الظنون،و الی طغاه الأرض الذین یضیقون علینا مذاهب الحیاه حتی نسلم لهم أمورنا،و نشرکهم فی دیننا و دنیانا،و الی مجتمع فاسد،و تربیه مفسده،و ثقافه ضاله..و..و.کل هذه العوامل تهبط بنا الی واد سحیق. فکیف نتسامی الی اللّه،و نحرز الفلاح؟! القرآن الکریم یجیب علی ذلک:

فَفِرُّوا إِلَی اللّٰهِ استعیذوا به من کل شر تذکروه،ناجوه،و اعتمدوا مناهجه التی أوحی بها، أطیعوا من أمرکم بطاعته، والوا من أمرکم بولایته.

ص:۶۶

۱- ۱) نور الثقلین/ج /۵ص ۱۳۰

و الـدعيه المأثوره عن أهل بيت الرسول صـلّى اللّه عليه و آله زاخره بمعانى الاسـتعاذه باللّه،و الالتجاء اليه،و الفرار من سـخطه:و إليک بعضا منها:

«الحمـد للّه،و الحمد حقه،كما يسـتحقه،حمدا كثيرا،و أعوذ به من شـر نفسـى.إنّ النفس لأماره بالسوء إلّا ما رحم ربى،و أعوذ به من كـل جبـار فـاجر، و سـلطان جائر،و عـدو قاهر.اللهم اجعلنى من جنـدک فان جنـدک هم الغالبون، و اجعلنى من حزبک فان حزبک هم المفلحون،و اجعلنى من أوليائک،فان أولياءک لا خوف عليهم و لا هم يحزنون » (۱).

و نحن نفر الى اللّه و نستعيذ به ليس فقط من تلك العوامل،بل و أيضا من سخطه و عذابه كما

نقرأ فى دعاء سيد النبيين محمّد(صلّى اللّه عليه و آله) :

«أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السـموات و الأرضون،و انكشفت له الظلمات،و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين من فجاءه نقمتک،و من تحويل عافيتک،و من زوال نعمتک » (۲).

و نقرأ فى الدعاء المأثور عن الصادقين عليهما السلام :

«اللهم إنّى إليک فقير،و من عـذابک خائف مسـتجير.اللهم لا تبـدّل اسـمى، و لا تغيّر جسـمى،و لا تجهـد بلائى،و لا تشـمت بى أعـدائى،أعـوذ بعفـوک مـن عقابـک،و أعـوذ برحمتـک من عـذابک،و أعـوذ برضـاک من سـخطک،و أعـوذ بـک منـک،جل ثناؤک.أنت كما أثنيت على نفسک،و فوق ما يقول القائلون » (۳).

إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ

۱- ۱) مفاتيح الجنان/دعاء يوم الثلاثاء.

۲- ۲) مفاتيح الجنان/أعمال النصف من شعبان.

۳- ۳) المنتخب الحسنى/ص ۷۴۷

و هکذا فالإنسان بین خطرین:أحدهما یسیر و سریع الانقضاء،و الثانی عظیم دائم،فلینظر لنفسه کیف یختار؟فلو استسلم للضغوط،و أشرک باللّه فانه یتجنب الخطر الیسیر،و یحیق به الخطر الأکبر،بینما لو فر الی اللّه و استجار بذمامه المنیع فانه لیس فقط یتجنب الخطر العظیم المتمثل فی غضب اللّه الجبار،و عظیم عذابه،بل و یغیثه الرب و ینقذه من الخطر الآخر.

[۵۱]و هکذا بعث اللّه النذیر المبین لیدعوهم الی نفسه،و لیحذرهم من عاقبه التمرد علیه،و الإشراک به.

وَ لاٰ تَجْعَلُوا مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فانه لا ینقذکم من أخطار الدنیا،و یسبب لکم غضب الرب و عذابه.

إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ و کم تکون خساره الإنسان کبیره،و ندمه عظیما حینما تصم أذنه عن هذا النذیر المبین.

[۵۲]ما الذی جعل البشر یکفرون بهذا النذیر المبین،و یخسرون أنفسهم و إلی الأبد؟ إنه الطغیان الذی انطوت علیه أنفسهم،انها الذاتیه المقیته،لذلک تراهم یتّهمون النذیر بتهم متناقضه لکی یبرروا کفرهم به.

کَذٰلِکَ مٰا أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

[۵۳]کانت تلک تهمه هدفها الطغیان و الکفر،یکررها کلّ الکفار علی امتداد التاریخ،حتی لیخیل للإنسان ان بعضهم یوحی لبعض بذلک،بید أن الحقیقه اشتراکهم جمیعا فی تلک النفسیه الطاغیه التی تفرز مثل هذه التهم.

أَ تَوٰاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ ان ذات التهم التی افتراها قوم نوح قبل ألوف السنین ضد نبی اللّه العظیم (علیه السلام)نجدها الیوم مثلا علی السنه الذین یخالفون الدعاه الی اللّه،المنذرین الناس عذابه،ذلک أن أشیاء کثیره تتغیر فی حیاه البشر إلاّ انها لا تمس جوهر وجوده،و الغرائز التی تنطوی علیها نفسه.

و هکذا ینبغی ألا ننزلق-نحن الذین نتلوا آیات القرآن-فی هذا الوادی فکلما دعانا الی الخیر داع،أو أنذرنا عن الشر منذر اتهمناه فی عقله أو فی نیته.

و لعل أخطر شر یجب أن نفرّ منه الی اللّه،و نجأر الیه لیخلصنا منه هو هذا الطغیان الذی تنطوی علیه أنفسنا(أعاذنا اللّه من شرورها).

[۵۴]و حین یبلّغ الرسول قومه الإنذار تتم الحجه علیهم،و تنتهی عندئذ مسئولیته،فلا یظن أحد أن الرسول یکون وکیلا عنه،و مسئولا عن هدایته بطریقه أو بأخری.کلا..انه لا یلام علی کفرهم بعد الإنذار المبین.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ [۵۵]بلی.المؤمنون یظلّون موضع رعایه و عنایه من لدن رسول اللّه،الذی لا ینی یذکّرهم بربهم،لأنهم یستفیدون من الذکری.

وَ ذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْریٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِینَ

ص:۶۹

و قد روی عن أمیر المؤمنین(علیه السلام)انه قال :

«لما نزل: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ) لم یبق أحد منا إلاّ أیقن بالهلکه حین قیل للنبی (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) فلما نزل (وَ ذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْریٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِینَ) طابت أنفسنا » (۱).

[۵۶]ما هی الغایه الأسمی لخلق الجن و الانس؟الخلیقه سخرت للإنسان، الشمس و القمر،و السحاب و الریاح،و السهل و الجبل،و الانعام و الطیور و الأسماک و..و..کلها مسخرات للإنسان.أو لا نتفکر هل الممکن أن تکون خلقه البشر بلا هدف؟ کل شیء یخدم هدفا،بل لکل جزیئه من جزیئات وجود کل شیء غایه.

أ فیمکن ألاّ تکون لوجود الإنسان-سید مخلوقات کوکبنا-أیه غایه؟! أو یتخذ رب السماوات و الأرض من الخلق لعبا-سبحانه-و هو الغنی الحمید،العلیم الحکیم؟! تعالوا إذا نتفکر:هل خلق أی عضو من أعضاء أجسادنا عبثا،حتی و لو کانت قطعه من المصران،أو غدّه صغیره،أو حتی خلیه واحده،و إذا کان الجواب بالنفی حسب کل معلومات الطب و الفسلجه،فکیف یکون مجمل خلق الإنسان بلا هدف؟! فما هو الهدف اذن؟ أو یکفی ان نجعل الهدف الطعام و الشراب.دعنا نستنطق عقولنا،و وجدان

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۱۳۲

قلوبنا؟!أو نقتنع من أنفسنا أن نأكل،و نشرب،و نتمتع.أو لأنا نجد فراغا كبيرا لا بد أن نملأه بغير اللذات العاجله.

اننـا نسـعى جميعـا نحو العلم و الفضـيله،و نعطى لهما قيمه أسـمى من قيمه الثروه و القوه،و نتساءل:ما هى أعلى درجات العلم؟أو ليست معرفه اللّه الذى نعرف به حقيقه أنفسنا،و الواقع المحيط بنا.فمن دون معرفه اللّه تبقى كل الأسئله حائره.

كذلك أسمى درجات الفضيله تقوى اللّه،و ابتغاء مرضاته،و القرب منه.

و تتلخص معرفه اللّه و تقواه فى كلمه العباده،التى يجعلها القرآن الكريم غايه خلقه البشر فيقول:

وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ فما هى العباده؟قالوا:أصل العبوديه الخضوع و الـذل،و التعبيـد:التـذليل، يقال:طريق معبّد (1)،و يبـدو لى أن أصـل معنى العبوديه ليس التـذلل و الخضوع -كمـا قالوا-بالرغم من أن ذلك من لوازمها،بل صـلاح الشـىء بحيث يكون مهيأ للاسـتفاده أو بتعبير آخر:عدم وجود ما يمنع الانتفاع منه،و لذلك قيل سـفينه معبّده و و انما سمى الطريق معبّدا لأنه خال من الثغرات و العثرات،و الا فان كل الطرق و كل الاراضى خاضعه و ذليله،فلما ذا لا تسمى بالمعبده؟و إنما سمى الرقيق عبدا لأنه لا يمتنع عن طاعه مولاه،و هكذا يكون أصل الكلمه الطاعه و التسليم.

فما معنى عباده اللّه و ما هى أبعادها؟هنالك حقائق لا بد أن نعرفها لكى نعرف شيئا عن عباده اللّه:

١- ١) القرطبى/ج ١٧-ص ٥۶.

أولا:أولئك الذين يخضعون لغير اللّه،و يتخذون أهواءهم إلههم من دون اللّه، أو يعبدون الطغاه و المترفين،أو يقدسون التراث و التقاليد انهم بعيدون عن هدف الخلق،لأن عباده اللّه تعنى تحرير الإنسان من الشركاء من دونه،و لعل الآيه التاليه تشير الى ذلك:

«أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبٰادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيٰاءَ إِنّٰا أَعْتَدْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ نُزُلاً» (١)،و قال سبحانه: «يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ» (٢).

و جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «إن اللّه عز و جل ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه،فاذا عرفوه عبدوه،فاذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عباده من سواه»فقال له رجل:يا ابن رسول اللّه!بابى أنت و أمى فما معرفه اللّه؟ قال:«معرفه أهل كل زمان إمامهم الذى تجب عليهم طاعته » (٣).

و حسب هذا الحديث يكون تحرّر الإنسان عن عباده غير اللّه الغايه الأسمى للخلق،كذلك نجد توحيد اللّه المحور الرئيسى لكل سور الذكر و آياته.

ثانيا:ان عباده اللّه لا تتم إلاّ بمعرفته،و ان معرفته لا تكتمل إلاّ بعبادته،لأن فى معرفته التزلف إليه،و التقرب من رضاه،و لذلك جعلت معرفه اللّه أو معرفه آياته هدفا من أهداف الخلق حسبما قرأنا فى النص السابق و نقرؤه فى قوله سبحانه: «اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَحٰاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً» (۴).

١- ١) الكهف١٠٢/

٢- ٢) فاطر٣/

٣- ٣) عن علل الشرائع/تفسير البصائر/ج ۴١/ص ١٣۴

۴- ۴) الطلاق١٢/

و لكن كيف يمكن بلوغ كمال المعرفه الالهيه،من دون التسليم له،و طاعته، و عبادته، علما بأن معرفته لا تكون إلّا به،و كيف يكون غيره دالا عليه،و بنوره أشرقت السموات و الأرض،أو يكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له سبحانه؟! و هو لا يمنح معرفته إلّا لمن سلم له،و عبده وحده،و هكذا تكون العباده هدفا للخلق لأنها السبيل الى المعرفه.

ثالثا:هل يمكن أن يبلغ الإنسان الفلاح فى الدنيا و الآخره من دون شريعه واضحه يسير عليها،و هل يمكن تطبيق الشريعه بغير الايمان باللّه،و التسليم لأوامره، و هل يمكن تطهير القلب من أدرانه،و تحريره من أغلاله بغير معرفه اللّه،التى تجعل النفوس فى رحاب قدسه،بعيده عن الأنانيه و الشح،و الغضب،و نائره الشهوات؟! كلا..إن معرفه اللّه،و التسليم له هما السبيل الى طرد جنود الشيطان من القلب، و تنظيفه من وساوسه،و ظنونه،و أمانيه،و تخلّقه بأخلاق الرب،و تأديبه بآدابه الساميه من الكرم،و الإيثار،و الإحسان،و التقوى،وحب الخير و اهله،لذلك نجد فى آيات الذكر ما يوحى بأن هدف الخلق هو الخلق الرفيع.لنقرأ الآيات التاليه:

فى تسع آيات قرآنيه جعل اللّه الشكر هدفا لنعمه الخلق أو سائر النعم كقوله سبحانه:

«وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١).

«لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢).

ص:٧٣

١- ١) النحل/٧٨.

٢- ٢) الجاثيه/١٢.

كما جعلت التذكره غايه الخلق فى قوله سبحانه فى هذه السوره:

«وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (۱).

و هكذا جعل التعقل هدفا فى قوله سبحانه:

«وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (۲).

كما جعل الابتلاء هدفا أساسيا للخلق فى آيات عديده كقوله سبحانه:

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيٰاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» (۳).

و الامتحان بدوره سبيل لتكامل الإنسان،و تطهيره من الجوانب السلبيه التى فيه.

التكامل..الهدف الأسمى

من خلال البصائر التى ذكرت نعرف:أن تسامى الإنسان فى معارج القرب من اللّه سبحانه هو الهدف الأسمى لخلقه،و يتمثل ذلك فى تحريره من نير العبوديات،و تطهير قلبه من غلّ الهوى و الشهوات،و تساميه فى مدارج المعرفه باللّه سبحانه،و التقرب إليه بالصالحات.

و إذا تسامى الإنسان الى حيث القرب من اللّه فان رضوان اللّه و غفرانه و رحماته و سائر نعمائه و آلائه يكون كل ذلك قد سبقته هناك لتشمله،و من هو أولى من اللّه بأن يقرى عبده الذى حل بجنابه ضيفا،و من هنا جعلت الرحمه هدفا للخلق فى آيه

۱- ۱) الذاريات/۴۹

۲- ۲) غافر/۶۷

۳- ۳) الملك/۲

کریمه حیث یقول سبحانه:

«وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ یَزٰالُونَ مُخْتَلِفِینَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذٰلِکَ خَلَقَهُمْ» (۱).

[۵۷]و لکن الغایه التی نتحدث عنها لیست بمعنی العلّه التی لدینا فنحن إذا فعلنا شیئا فلا بد من علّه تدفعنا إلیه،و غایه نسعی إلیها.فالعطش عله الشرب، و الجوع عله الاکل،و الرقه عله العطف،أما الارواء و الشبع و الإحسان فهی أهداف و غایات.

و تعالی اللّه عن أن یکون لفعله سبب یدفعه،و عله تجأره،و تجبره.إنه الغنیّ الحمید،عطاؤه محض رحمه منه،و فضله محض إراده،لا یبرمه إلحاح الملحین،و کما

جاء فی الدعاء:

«تقدس رضاک أن تکون له عله منک فکیف تکون له عله منی.إلهی أنت الغنی بذاتک أن یصل إلیک النفع منک،فکیف لا تکون غنیّا عنی » (۲).

و ان اللام الذی جیء بها فی سیاق بیان الهدف من الخلق «لِیَعْبُدُونِ» لیس بمعنی:أن اللّه سبحانه سعی نحو هذه الغایه بهذه الوسیله-و هو الغنی بذاته-و انما بمعنی:أنه قدّر و قضی لیکون ذلک وسیلتنا الیه،و طریق سعینا ابتغاء مرضاته، و مدارج کمالنا فی وجودنا،کما أن الطهاره غایه الوضوء،و ذکر اللّه هدف الصلاه،و التقوی نتیجه الصیام،فان العباده غایه الخلق و محتوی ما أمر الإسلام به من واجبات.

ص:۷۵

۱- ۱) هود۱۱۸/-۱۱۹

۲- ۲) دعاء عرفه للإمام الحسین(علیه السلام)/المنتخب الحسنی/ص ۹۲۵.

و لعله لذلک أکد ربنا علی أنه غنی بذاته عن خلقه،و عن أی فعل یمارسونه فقال سبحانه:

مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ فلا یتصور أی فائده تصل الی اللّه-سبحانه-من خلال خلقه،و حتی ما قیل (بأن اللّه سبحانه کان کنزا مخفیا،فأراد أن یعرف)لم أجد مصدره و حتی لو کان لهذه الکلمه مصدر موثوق فان علینا تأویله بما لا یتنافی و نص الآیه الکریمه،و حکم العقل بأن اللّه لا تصل الیه منفعه من لدن خلقه و الظهور بعد الخفاء نوع من المنفعه، و لذلک

نقرأ فی الدعاء المأثور:

«کیف یستدل علیک بما هو فی وجوده مفتقر إلیک،أ یکون لغیرک من الظهور ما لیس لک حتی یکون هو المظهر لک متی غبت حتی تحتاج الی دلیل یدل علیک » (۱).

و یبدو أن الفارق بین الرزق و الإطعام هو أن الرزق یستمر،بینما قد یکون الطعام مره واحده،و قد لوحظ فی کل منهما معنی الاستفاده و المنفعه،و کأن المرزوق یعتمد فی بقائه علی الرزق أو الطعام الذی هو مفرده من مفردات الرزق.

[۵۸]و کیف یحتاج الی الرزق من یعتمد علیه الخلائق جمیعا فی حیاتهم،فلو لا دوام فضله،و تواتر نعمه،و تواصل رزقه لم یبق شیء مخلوق.

إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ و الرزاق لا یکون مرزوقا.

۱- ۱) المصدر/۹۲۴

ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِينُ فلا ضعف فيه حتى يحتاج الى الطعام،و لا نقص حتى يحتاج الى إتمام،و قوته ليست عرضيه بل هو متين شديد،فهو سبحانه لا يغلب و لا تلحقه مشقّه فى أفعاله أو رهق.

و ربما تدل الآيه على أن رزق اللّه-سبحانه-يتوالى على عباده بعبادتهم، و كذلك قال ربنا سبحانه على لسان نبيه الكريم نوح-عليه السلام-: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً* يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً» (۱).

[۵۹]و لتبقى مصائر الغابرين عبره للأجيال،و لا بد أن نعرف أنّها خاضعه لسنّه إلهيه لا تتبدل و لا تتغير،فلقد أهلك الظالمين لظلمهم،و سوف يهلك من سار على دربهم عاجلا أو آجلا.

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ و ما لهم يستعجلون اللّه و رسوله فى عذاب يصيبهم،تقدم أو تأخر و هل يستعجل أحد هلاكه؟! قالوا:الذّنوب:الفرس ذو الذنب الطويل،و سمى به الدلو الكبير الذى يربط فى نهايته الحبل لتسهيل عمليه التفريغ،و يبدو ان العرب كانوا يتعاونون فى نزح مثل هذا الدلو على أن يكون كل ذنوب لطائفه منهم و أنشدوا:

۱- ۱) نوح ۱۰/-۱۲

لكم ذنوب و لنا ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

و هكذا استخدمت الكلمه بمعنى النصيب،و لعله النصيب الذى يشترك فيه طائفه من الناس،فيكون معنى الآيه:إن لهم نصيبا من الذنوب يصيبهم بعد نصيب السابقين.أى ان لهم دورهم فلينتظروا و لا يستعجلوا،كما أن لكل قوم دورهم فى تقسيم الماء ذنوبا لهؤلاء و ذنوبا لأولئك على الترتيب.

و قال بعضهم:باعتبار أن الذنوب هو فى الأصل الدلو الذى يصب فان العذاب يصب عليهم صبا.

و يبقى سؤال:لماذا استخدمت كلمه الظلم فيهم مع انهم كانوا كافرين؟ يبدو ان الظلم أعم من الكفر و الشرك،يشملهما،و يتسع لغيرهما فيكون المعنى:ان عاقبه الظلم سواء كان بدرجه الكفر و الشرك أو أقل منهما و خيمه،تستنزل النقمه على صاحبه.

[۶۰]أما الكفّار فلهم الويل فى يوم الوعيد الصادق،الذى أنذروا به فى فاتحه السوره.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِی يُوعَدُونَ انهم هالكون فى ذلك اليوم و لا يأسف لمهلكهم أحد أبدا،انما تلحقهم اللعنه لأنهم مسئولون عن هلاكهم.

و فى نهايه تلاوتنا لسوره«الذاريات»نستعيذ باللّه من كل شر،و نفر الى جنابه من كل خوف،و نبتهل اليه ضارعين:

«اللهم انى أسألك من كلّ خير أحاط به علمك،و أعوذ بك من كلّ شر

أحاط به علمک.اللهم إنی أسألک عافیتک فی أموری کلّها،و أعوذ بک من خزی الدنیا و عذاب الآخره » (۱).

ص:۷۹

۱- ۱) المنتخب الحسنی/ص ۱۰۵.

سوره الطور

اشاره

ص:۸۱

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناد،عن أبی عبد اللّه و أبی جعفر (علیهما السلام)قالا :«من قرأ سوره(الطور)جمع له خیر الدنیا و الآخره».

تفسیر نور الثقلین/ج /۵ص ۱۳۵

ص:۸۳

الإطار العام

قسما بالطّور،و الكتاب المسطور.قسما بالبيت المعمور،و بالسقف المرفوع.

قسما بالبحر المسجور:إن عذاب اللّه حق،و إنّه واقع بالتأكيد.

بهذه الكلمات الصاعقه تفتتح السوره التى جاءت لشفاء الإنسان من مرض الجدل،و ما أكثره جدلا!متى يصدق بهذه الحقائق.أفى يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً، وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً ،و هل ينفعه التصديق يومئذ حيث يصب الويل للمكذبين؟ إنهم لم يكونوا يأبهون بالنذر،كانوا سادرين فى لعبهم،فهل لهم أن يستمروا كذلك يوم يدعون الى نار جهنم دعّا،و هل لهم أن يكذبوا بنارها التى تتّقد أمامهم؟! أم يقولون يومئذ:انها خيال و سحر زائف؟!اليس المهم ما يقولون،و لا- أنهم يصبرون يومئذ على النار أم لا يصبرون،لأنهم مواقعوا النار يصلون لهيبها بما كانوا يعملون.

ص:٨٥

هکذا تتواصل الآیات تستریح من نفس الإنسان حالات الجدل و اللعب و التهرب من الحقائق بالاعذار التافهه،و لکی لا یستریح الإنسان إلی الرخاء الظاهر و الأمن الموقّت الذی یعیشه الیوم لا بد أن یتحسس ذلک الیوم الذی یهتز فیه کل شیء،من السماء التی کانت سقفا محفوظا،إلی الجبال التی کانت رکنا شدیدا.

ثم یرسم السیاق لوحه بارعه الجمال تتجلی فیها صوره أهل الجنه و هم یتنعمون فی جنات واسعه،بعیدین عن عذاب الجحیم،یأکلون و یشربون بما عملوا من الصالحات فی حیاتهم الدنیا،و قد استراحوا علی سرر مصفوفه،و زوجهم اللّه بحور عین،و حولهم الصالحون من ذریتهم،و وفر اللّه لهم النعم من الفاکهه و اللحم و الکأس الکریم،و یتذاکرون نعم اللّه علیهم أ فلیس قد کانوا مشفقین فی أهلهم، وجلین من عذاب جهنم،فقد وقاهم ربهم بمنه عذاب السموم.

و بعد أن نشاهد هذه اللوحه التی تثیر اشتیاق النفوس الکریمه یتناول السیاق ما یبدو انه الموضوع الرئیسی للسوره،و هو معالجه حاله الجدل فی الحقائق الواضحه، و ذلک بتسفیه الاعذار التی یتشبّث بها الإنسان للتهرب عن قبول الحق،و هی مظاهر مرض الجدل الخطیر..لقد قالوا:إنّ الرسول کاهن أو مجنون،و قالوا بل هو شاعر فإذا مات انتهت دعوته،و قالوا انه افتراه..کل تلک الدعایات تتلاشی حینما یضعها الإنسان فی إطار الحقائق الکبری،و یتصور نعم اللّه التی یسبغها علیه (من اَلطُّورِ وَ کِتٰابٍ مَسْطُورٍ وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ و..و..)و عند ما یتحسس یوم القیامه عند ما تَمُورُ السَّمٰاءُ مَوْراً، وَ تَسِیرُ الْجِبٰالُ سَیْراً ،کذلک تتلاشی أفکار مشابهه مثل التفکیر فی عدم الحاجه إلی البارئ.

و یتساءل السیاق:إذا هل هم خلقوا أنفسهم؟أم أنهم خلقوا من غیر شیء؟ و من الذی خلق السموات و الأرض؟کلاّ. بَلْ لاٰ یُوقِنُونَ ،و هذه هی مشکلتهم

الأولی.و من یرید الفرار من الحقیقه الواضحه لا یجد أمامه سوی هذه الخرافات.

و یمضی الذکر الحکیم فی بیان ضلالاتهم و تفنیدها:فمن یا تری یسیطر علی خزائن السموات و الأرض؟ثم یقولون:ان للّه البنات فهل لهم البنون و للّه ما یعتبرونه الأدنی أی البنات!ما لهم کیف یحکمون؟! أم تراهم یخشون من دفع غرامه إن هم آمنوا.أو یطالبوا بأجر.أم أنهم یعلمون الغیب بوضوح فیعتمدون علیه فی تخرصاتهم.؟ و بهذه التساؤلات الحاده المتتالیه یستثیر القرآن عقولهم و وجدان ضمائرهم حتی یروا بطلان تلک الأفکار بأنفسهم.

ثم یقول: «أَمْ یُرِیدُونَ کَیْداً» ،و یبدو أن هذا هو جواب التساؤلات، و لکن،یعلموا أنهم هم المکیدون،و أنّه لا إله إلاّ اللّه الواحد لا شریک له،و لا علاج لمثل هؤلاء إلاّ عند ما یرون العذاب فیقولون سحاب مرکوم،فذرهم حتی یلاقوا یومهم الذی فیه یصعقون.

و بعد أن یذکّر القرآن أولئک الکفّار بأنّ عذاب الدنیا نذیر لعذاب الآخره یأمر الرسول و المؤمنین بالصبر لحکم اللّه فإنّه و هم فی رعایه ربّ العزه،و یأمره و إیاهم بالتسبیح لیلا و عند الأسحار.

[سوره الطور (۵۲): الآيات ۱ الى ۲۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . وَ اَلطُّورِ (۱) وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَ اَلْبَيْتِ اَلْمَعْمُورِ (۴) وَ اَلسَّقْفِ اَلْمَرْفُوعِ (۵) وَ اَلْبَحْرِ اَلْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ (۷) مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ (۸) يَوْمَ تَمُورُ اَلسَّمٰاءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ اَلْجِبٰالُ سَيْراً (۱۰) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۱) اَلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (۱۲) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلىٰ نٰارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (۱۳) هٰذِهِ اَلنّٰارُ اَلَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هٰذٰا أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ (۱۵) اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ نَعِيمٍ (۱۷) فٰاكِهِينَ بِمٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ عَذٰابَ اَلْجَحِيمِ (۱۸) كُلُوا وَ اِشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّكِئِينَ عَلىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲۰) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اِتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ اِمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱) وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنٰازَعُونَ فِيهٰا كَأْساً لاٰ لَغْوٌ فِيهٰا وَ لاٰ تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمٰانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ (۲۵) قٰالُوا إِنّٰا كُنّٰا قَبْلُ فِي أَهْلِنٰا مُشْفِقِينَ (۲۶) فَمَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ وَقٰانٰا عَذٰابَ اَلسَّمُومِ (۲۷) إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْبَرُّ اَلرَّحِيمُ (۲۸)

اللغه

۱[و الطور]:الطور هو جبل سيناء،و قيل:هو جبل بمدين.

۳[رقّ]:الرق هو الجلد الرقيق المدبوغ.

۴[البيت المعمور]:قيل:انه بيت اللّه الحرام،،و قيل:انه الضراح فى السماء الرابعه،و قيل السابعه،و هو بيت يلى البيت الحرام فوقه.

۵[السّقف المرفوع]:السماء.

۹[تمور مورا]:المور الاضطراب:و هو تردد الشىء جيئه و ذهابا.

ص:۸۹

۱۳[یدعّون]:الدّع الدفع بعنف و قوه.

۲۱[و ما ألتناهم]:ما أنقصناهم.

۲۳[یتنازعون]:یتعاطون،و قیل:علی سبیل المزاح و المفاکهه.

ص:۹۰

۲۶۶[مشفقين]:خائفين من العذاب،إذ من لا خوف له لا يعمل صالحا إلّا فى الأندر النادر.

۲۷[عذاب السموم]أى النار النافذه فى المسام و ثقب الجسد.

ص:۹۱

بينات من الآيات:

[۶-۱]للقسم الذی يرد فی القرآن،و يتركّز فی السور المكيه التی تعالج أكثر ما تعالج عقائد الإنسان،عدّه أهداف،أبرزها:

۱-الربط بين العقيـده التی يدعو اللّه الناس إليها و بين حقائق العالم، و أصل القسم هو إبداء الصـله بين شـيئين،فالحلف باللّه على فعل أمر أو عـدم فعله، صـدقه أو كذبه،هدفه الربط بين عقيده الإنسان بالرب و بين ذلك الأمر لاقناعه به.أمّا القرآن ففيه نوع من التجـاوز لهـذه القاعـده،لأـنّ كلاـم اللّه لاـ يحتاج إلى إثبات من خارجه،و إنّما الهـدف من القسم فيه هو بيان الصـله بين الغيب و الشهود،بين ما يجهله البشر من حقائق الخلق و بين ما هو ظاهر منها.

يقول تعالى: «وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشىٰ* وَ النَّهٰارِ إِذٰا تَجَلّٰى* وَ مٰا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثىٰ* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّٰى» (۱)و قال:

۱- ۱) الليل /(۱-۴).

«وَ الشَّمْسِ وَ ضُحٰاهٰا* وَ الْقَمَرِ إِذٰا تَلاٰهٰا* وَ النَّهٰارِ إِذٰا جَلاّٰهٰا* وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا* وَ السَّمٰاءِ وَ مٰا بَنٰاهٰا* وَ الْأَرْضِ وَ مٰا طَحٰاهٰا* وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا* فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا* وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» (۱)و قال: «وَ الضُّحىٰ* وَ اللَّيْلِ إِذٰا سَجىٰ* مٰا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مٰا قَلىٰ* وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولىٰ* وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ» (۲)ففى المثال الأوّل يربط القرآن بين الليل حين يلفّ الدنيا بظلامه،و النهار عند ما يظهر ظهورا تامّا بأنواره،و ما بينهما من اختلاف نجده بصوره أخرى عند الذكر و الأنثى،و بين اختلاف السعى و المذاهب عند الناس..و فى المثال الثانى يربط بين عظمه الشمس و القمر،و الليل و النهار،و السماء و الأرض،و النفس و طبيعتها،و بين فلاح من يزكّيها و خيبه الذى يغمسها فى رواسب الذنوب و الانحراف..و فى المثال الثالث نجد ربطا بين الضحى بإشراقه الذى هو وقت الحركه و النشاط،و الليل الذى هو وقت الراحه و السبات،و بين الحقائق التاليه:أنّ الوحى لم ينقطع عن النبى،و أنّ الآخره أفضل من الدنيا،و أنّ عطاء اللّه يعوّض للإنسان متاعبه و تضحياته و أكثر من ذلك حتى يرضى به.

و عند التدقيق فى الأمثله المتقدمه نجد أنّ المقسم به يمثّل الشهود(الجانب الظاهر من الحقائق)بينما المقسم عليه يمثّل الغيب(الحقائق الخافيه أو المعنويه)،و الصله بين الاثنين قائمه فى عالم التحقيق،و لكنّنا ربما جهلناها أو غفلنا عنها،فتأتى الآيات لتوضّحها و تذكّرنا بها،و هذا ما نجده فى سائر آيات القرآن.

۲-و فى القسم القرآنى علاج لغرور البشر،ليخرج من كبره و قوقعه ذاته الى رحاب الحقائق،ذلك أنّ القسم ينطوى على تذكيره بما حوله من مخلوقات عظيمه، كالبحار التى هى أعمق منه،و السماء التى هى أوسع منه،و الجبال التى هى

۱- ۱) الشمس/(۱-۴).

۲- ۲) الضحى/(۱-۵).

أطول و أضخم من جسمه،و هذا التوجيه و الألفات إلى الحقائق التی تلتقی کلّها عند التذکیر باللّه،لا شک أنّه سوف یحدث فی نفسه انبهارا إیجابیّا بعظمه الخالق ممّا یقوده إلی التسلیم إلیه..و القرآن یصرّح بهدف تحطیم کبریاء الإنسان من وراء ذلک عند ما یقول: «وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً» (۱).

۳-کما تبیّن الآیات من خلال القسم فی کثیر من موارده حسن التدبیر و سلامه الصنع فی الخلق،و بالتالی دلاله ذلک علی هدفیه الحیاه،هذه الحقیقه التی ینبغی للإنسان إدراکها،و تکییف تفکیره و سلوکه وفقها،فهل یعقل أن تکون مفردات الحیاه(الجبل،و الکتاب،و الجلد الذی یسطّر علیه،و بیت العباده، و السماء،و البحر)کلّها ذات حکمه و هدف إلاّ الإنسان حتی یخوض و یلعب؟! کلاّ..إنّه الآخر خلق لهدف فلا بد أن یتعرّف علیه،و یسعی لتحقیقه،و إلاّ راح طعمه لنار جهنّم تقع به ألوان من العذاب لا یدفعها عنه شیء.

وَ الطُّورِ قسما بالجبل و ما یمثّله من مظاهر قدره اللّه و حکمته،و أیّ جبل هو طور فی اللغه،و لکن أبرز الجبال و أعظمها و التی یتوجّه لها هذا القسم بصوره خاصه هو طور سیناء الذی تلقّی النبی موسی علیه السلام عنده الوحی،و الذی نتقه اللّه و رفعه علی رؤوس بنی إسرائیل حینما عصوا الرسول،و کذلک جبال مکّه التی تلقّی فیها نبینا محمد صلی الله علیه و آله الوحی عند غار حراء،فذکر الطور إذن یذکّر المؤمنین بآیات و جوانب کثیره من قصه رساله إلهیه عظیمه..لهذا نجد ذکره یقترن بذکر الکتاب الذی

۱- ۱) الإسراء/(۳۷).

أنزل على جنباته،لذلک یقسم الربّ مباشره بالکتاب فیقول:

وَ کِتٰابٍ مَسْطُورٍ و هذا التلازم نجده

فی دعاء لفاطمه عن أبیها(صلوات اللّه علیهما و آلهما)فیه:

«الحمد للّه الذی خلق النور،و أنزل النور علی الطور فی کِتٰابٍ مَسْطُورٍ، فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ ،بقدر مقدور،علی نبیّ محبور » (۱).

و لأنّ الکتاب بذاته لا یتم به النفع مهما بلغ من الکمال إذا کان معطّلا و مطویّا جاء القسم به حال کونه منشورا یری ما فیه من الآیات.

فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ و الرق هو الجلد الرفیق اللامع،یقال ترقرق الشیء إذا لمع،و هو أفضل ما یکتب علیه من الجلد.

ثم یقسم اللّه بالبیت الذی یعمر بالعباده کما یریدها أو بالبناء فیقول:

وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ و من أبرز تجلّیات هذه الآیه بیت العصمه و النبوّه الذی قال عنه تعالی: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ* رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ وَ إِقٰامِ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءِ الزَّکٰاهِ یَخٰافُونَ یَوْماً تَتَقَلَّبُ فِیهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصٰارُ» (۲)و الذی قال: «إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً» (۳)و هکذا بیوت العلم و العباده،و أبرزها الکعبه

ص:۹۵

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۵)ص(۱۳۶).
۲- ۲) النور/(۳۶-۳۷).
۳- ۳) الأحزاب/(۳۳).

المطهّره،و قيل انّه بيت فى السماء،و لا تناقض بين القولين،فالكعبه هى تجلّ دنيوى ظاهر لذلك البيت،و انعكاس له فى الأرض.

روى عن الامام الباقر-عليه السلام-أنّه قال :«إنّ اللّه وضع تحت العرش أربع أساطين،و سمّاهنّ الضراح،و هو(البيت)المعمور،و قال للملائكه:طوفوا به،ثم بعث ملائكته فقال:ابنوا فى الأرض بيتا بمثاله و قدره،و أمر فى الأرض أن يطوفوا بالبيت » (1).

و فى روايه أخرى عن النبى صلى الله عليه و آله قال :«البيت المعمور الذى فى السماء الدنيا يقال له الضراح،و هو بفناء البيت الحرام لو سقط لسقط عليه،يدخله كلّ يوم ألف ملك لا يعودون فيه أبدا » (2).

و فى روايه عن أبى عبد اللّه عليه السلام فى حديث المعراج قال :«فلمّا فرغ مناجاته ردّ الى البيت المعمور،و هو فى السماء السابعه بحذاء الكعبه » (3).

و يضيف القرآن قسما آخرا فيقول:

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ فما هو السقف،و ما هى دلالته؟ قد تصدق هذه الكلمه على سقف البيت أو المسجد،إلّا أنّ أظهر المصاديق و الذى وردت فيه الأدلّه هو السماء،قال تعالى:

ص:96

1- 1) نور الثقلين/ج(5)-ص(136).

2- 2) المصدر.

3- 3) المصدر.

«وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آيٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ» (۱)

و عن الصادق علیه السلام :«فخلق السماء سقفا مرفوعا و لولا ذلک لأظلم علی خلقه،بقربها،و لا حرقتهم الشمس بدؤبها و حرارتها » (۲)و قد أیّد صاحب المجمع(ر ض)ذلک عن علی علیه السلام (۳)، و فی السقف دلاله علی السلام و الأمن.

و قد یکون من المصادیق الظاهره و القریبه للکلمه طبقه الغلاف الجوی المحیطه بالأرض،حیث تصدّ النیازک و الشهب عن الوصول الی الأرض،کما تمتصّ و تحجب کمیّات من الوحدات الحراریه و الضوئیه الساقطه علی الأرض من الشمس و غیرها،و التی من شأنها لو سقطت بکلّها أن تضر بالحیاه علیها.

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قیل:یسجر یوم القیامه (۴)،یدلّ علیه قوله تعالی: «وَ إِذَا الْبِحٰارُ سُجِّرَتْ» (۵)أی صیّرت محمیه کالنار و التنّور،و یبدو لی أنّ المسجور الممتلئ و المتلاطم الموج، و هکذا فی المنجد قال:سجّر التنّور:ملأه وقودا و أحماه،و الماء النهر ملأه،و البحر فاض،و سجّر البحر هاج و ارتفعت أمواجه (۶).

و العلاقه بین هذه الأشیاء التی أقسم بها الربّ قد تکون علاقه المعنی بالماده، و المدنیه المادیه بحضاره القیم،فلو أخذنا ریشه،و حاولنا رسم صوره أو تصوّر عن مجموع ما ذکر لکان التالی:جبال عمران مدنی السماء البحار(ذات الأثر

۱- ۱) الأنبیاء/(۳۲).

۲- ۲) نور الثقلین/ج(۵)-ص(۱۳۸).

۳- ۳) مجمع البیان/ج(۹)-ص(۱۶۳).

۴- ۴) نور الثقلین/ج(۵)-ص(۱۳۸)عن تفسیر علی بن إبراهیم.

۵- ۵) التکویر/(۶).

۶- ۶) المنجد/باب سجر.

الکبیر فی تحضّر الشعوب)ذلک المجتمع الذی تحکمه رساله اللّه(الکتاب)، و هذه هی معالم الحضاره الأساسیه.

[۸-۷]و من الغلط أن یعتمد الإنسان علی نعم اللّه،و یسخّرها دون أن یحسب حسابا للعذاب فیضلّ أو یتعاطاها بعیدا عن بصیره الایمان،إنّما ینبغی أن یکون من العقلاء، «الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَکَ فَقِنا عَذابَ النّارِ» ،و هکذا من التعرّف علی هدفیه کلّ شیء حوله یهتدی إلی هدفه فی الحیاه فیسعی له،و من الشهود الذی یراه و یتحسسه ینفذ ببصیرته إلی الإیمان بالغیب..و من هنا تکون العلاقه واضحه و وثیقه بین ما تقدّم من الآیات و هذا التأکید علی العذاب.

إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ و یبدو أنّ المقصود بالعذاب هو المعنی الشامل کما فی الدنیا و ما فی الآخره یدل علیه قوله فی آخر هذه السوره:« وَ إِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِکَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ »ذلک أنّ عذاب الدنیا نفحه من عذاب الآخره،و دلیل علیه،و نذیر ملموس من نذره.

و الوقوع هنا لیس بمعنی الحدوث،بل بمعنی التحقّق و الواقعیه،فکما أنّ الجبال و الکتب و البیت و السماء و البحار کلّها حقائق لا یشک الإنسان فی وجودها،فإنّ عذاب اللّه هو الآخر واقع حق،یراه المخلصون بالیقین و بالآیات و الإشارات الدالّه علیه فی الدنیا،فیعملون علی تجنّبه،و یقیهم اللّه منه« وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِیمِ » (۱)،بینما یعمی عنه الآخرون،فیتخذون الحیاه خوضا و لعبا،فیقعون فی

۱- ۱) الطور/(۱۸).

العذاب دنيا و آخره، و لا يكتشفون هذه الحقيقه التى ذهلوا عنها إلا عند الموت «فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (1).

إنّ السعى من قبل الإنسان لتصحيح مسيرته و العمل الصالح يكون مجديا قبل تورّطه فى النتائج العمليه لأخطائه،أمّا إذا حلّ به العذاب فلن يجد وسيله للوقايه عنه،و بالذات إذا كان عذابا من اللّه.

مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ [9-10]و ماذا عسى أن تبلغ قدره هذا الإنسان الضعيف و المحدود حتى يقدر على تحدّى اللّه و دفع عذابه؟أم يحسب أنّه عذاب و غضب يصدر عن إنسان مثله حتى يكون ردّه ممكنا؟كلاّ.إنّه من الرهبه و العظمه بمكان تمور به السماء مورا على سعتها و سمكها الذى لا تصل إليه عقولنا،و تسير الجبال المتأصّله فى الأرض عن مواقعها.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمٰاءُ مَوْراً أى تتحرك بسرعه هائله،و يتداخل بعضها فى بعض،كما يتداخل ماء البحر الهائج فى بعضه،إلاّ أن المور هو الحركه السريعه من دون ضوضاء.

وَ تَسِيرُ الْجِبٰالُ سَيْراً و بالتدبّر فى القرآن نخلص الى أنّ للجبال يوم القيامه ثلاث حالات عبر مراحل ثلاث متتاليات أيضا،و هى:

الأولى:الحركه من مكانها و السير،كما فى هذه الآيه،و فى قوله تعالى:

1- 1) ق/(22).

«وَ إِذَا الْجِبٰالُ سُيِّرَتْ (١).

الثانيه:تحوّلها الى جزئيات و ذرّات صغيره يقول تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٢)، وَ كٰانَتِ الْجِبٰالُ كَثِيباً مَهِيلاً (٣).

الثالثه:و أخيرا تتلاشى،قال تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبٰالِ فَقُلْ يَنْسِفُهٰا رَبِّي نَسْفاً (۴)،و قال حاكيا التتالى فى هذه المراحل: وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً (۵)،و يبدو أنّ الجاذبيه تنعدم يوم القيامه فتفقد الأجسام وزنها،و حيث تقع فى الفراغ من الجاذبيه تتفكّك جزيئاتها فتصير أجساما و ذرأت صغيره ثم تتلاشى و تضحى كالسراب.

[١١]و حين تواجه النفس البشريه حقائق عظيمه تثقل عليها تتهرّب منها بالتكذيب بها زاعمه أنّ ذلك يجديها نفعا،و يوقفها القرآن أنّ التكذيب ليس لا يغنى عنها شيئا،بل هو بذاته يستدرج عذابا عظيما،فلا فرار إلاّ إلى اللّه و التسليم للحقائق.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و بما أنّ المكذّبين يعتمدون على قيم و علاقات ماديه،يزعمون أنّها تنفعهم شيئا عند ما يكذّبون بالحقائق، فقد نسفها نسفا،و بيّن أنّ النظام الكونى على عظمته لا يستقرّ يوم القيامه فكيف بهذه العلاقات و القيم؟

ص:١٠٠

١- ١) التكوير/(٣).

٢- ٢) القارعه/(۵).

٣- ٣) المزمل/(١۴).

۴- ۴) طه/(١٠۵).

۵- ۵) النبأ/(٢٠).

[۱۲]و يسقط المكذّبون من حسابهم حقيقه الجزاء،فلا يشعرون بالمسؤوليه، ممّا يجعل حياتهم عبثيه،بعيده عن الضوابط و الكوابح،هائجه فى غمرات اللهو و اللعب.

اَلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ و هذا التعريف لشخصيه المكذّبين يهدينا الى حقيقتين هامتين:

الأولى:إنّ المكذّب ليس الذى يقول ببطلان الرساله الاسلاميه و حسب،بل هو كلّ إنسان لا يتحمّل المسؤوليه فى الحياه.

الثانيه:إنّ المكذّبين إنّما يكذّبون بالرساله من أجل التهرّب من تحمّل المسؤوليه،أو ليست الرساله تدعو الى الجدّ و الجهاد و الإنفاق و..و..،إذن فليكفروا بها لكى لا يتحمّلوا شيئا من ذلك!و لكن أين المفرّ من عذاب اللّه؟ [۱۳]و لأنّ الحديث عن هؤلاء الفريق من الناس فإنّ جرس الخطاب يأتى عنيفا و غليظا.

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلىٰ نٰارِ جَهَنَّمَ دَعًّا و الدعّ ربما يكون الدفع بعنف و جفوه و تكرار،و قد يؤيّده قوله تعالى: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (۱)،و لعلّ احتمال شمول كلمه «الدع»لمعنى التكرار يأتى نصّا من وجود المفعول المطلق الجنس لا المفرد،فلم يقل اللّه:و يدعّون دعّه،إنّما قال«دعّا»،و لعلّ المكذّبين يحاولون يومئذ الخلاص من جهنم لعظيم عذابها،فلا يتقدّمون إليها،فيدفعون نحوها مكرهين المره بعد

ص:۱۰۱

۱- ۱) الماعون/(۱-۲).

الأخرى.

[۱۴]و عند ما يوقفون عليها يأتيهم الخطاب:

هٰذِهِ النّارُ الَّتِی کُنْتُمْ بِهٰا تُکَذِّبُونَ و هی جزء من تکذيبهم العام للحقائق التی جاءت بها الرساله.

[۱۵]و هناک حيث يرون جهنم و يصلون بنارها يسألون:

أَ فَسِحْرٌ هٰذٰا أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ إنّ الحقائق الغيبيه التی يتحدّث عنها الوحی الالهی ظاهره کظهور الحقائق الشاخصه أمام الإنسان،بل هی فی بعضها أشدّ تجلّيا و وضوحا،و لکنّ بصيره البشر محجوبه بالغفله و الشهوه،و قلبه محاط بالجحود و الکبر،فتراه لا يصدّق بها، و يفسّر آياتها و علائمها بما لها من قوه التأثير عليه بأنّها ضرب من السحر،عجبا لهذا الإنسان الخصم اللدود کيف يتعالی علی الحقائق و ينکرها،و يزعم أنّ آثارها علی نفسه ليست سوی الخيال المرکّز الذی يسمّی بالسحر،فهل يستطيع أن يفسّر نار جهنم أيضا بأنها سحر؟ [۱۶]إنّ النار حقّ جلی يراه المتقون فی کلّ إثم و معصيه،فالکذب و الغش و النفاق و الخيانه و..و..کلّ ذلک فی بصيرتهم قطعات من نار جهنم،لهذا تجدهم يتجنّبون الموبقات اتقاء جهنم،أمّا المکذّبون فهم محجوبون عن هذه الحقيقه،لذلک تجدهم يتخبّطون فی النار من حيث لا يشعرون،باقترافهم الذنوب التی تتجسد غدا نارا حاميه،و تتوضح لهم هذه الحقيقه فی الآخره عند ما تتحوّل جرائمهم الی تلال من الأفاعی و العقارب.

اِصْـلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكَمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الآخره بعكس الدنيا تماما،فلا الصبر و الاحتمال ينفع ثمّه و لاـ التحـدى و المواجهه،بينمـا يتألّم المرء فى الـدنيا فيتحمّل الألم بالصبر فيجـديه سـكينه،كما يسـتمطر بـذلك رحمه اللّه،و قد يتحـدّى الألم بعمل مضاد فيرتفع و يخفّف عنه،أمّا الآخره فإنّ الاستسـلام للعـذاب لا يخفّف عنه،كما أنّ مواجهته لا تجديه نفعا، ذلك أنّ العذاب الذى يصلاه المكذّبون فى الآخره هو بالضبط أعمالهم الدنيويه، و هناك حساب و لا عمل.

بلى.يسـتطيع الإنسان أن يتقى النار فى الـدنيا باجتناب السـيئات و بالتوبه منها،و متى ما عرف الإنسان بأنّه هو الذى يحدّد مسـتقبله بنفسه ترك الاسترسال مع الظروف و الخوض فى اللعب،و نظر إلى الحياه نظره جادّه،و انطلق نحو تحمّل المسؤوليه بثبات.

[۱۷]و هذا الايمان نجده عند المتقين.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰاتٍ وَ نَعِيمٍ إنّ الحيـاه الـدنيا(دار الابتلاء)تشـبه الى حـدّ بعيـد حقلا مزروعا بالألغام، و الفرق بين المتقين فيها و غيرهم أنّهم آمنوا بهذه الواقعيه فاتبعوا هدى ربّهم، و ساروا ضـمن الخط المرسوم لهم،فوقاهم اللّه شرّ ذلك اليوم،و لقّاهم نظره و سرورا، بينما كذّب الآخرون بذلك فصاروا طعمه للعذاب،و وقودا لجهنم.

[۱۸]إنّ اللّه خلق الناس ليرحمهم،كما صرّح بذلك فى قوله: إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ

رَبُّکَ وَ لِذٰلِکَ خَلَقَهُمْ (۱)،و ما علی الإنسان لکی ینال الرحمه إلاّ أن یتقی ما یسخط اللّه فهنالک تشمله رحمات اللّه.

فٰاکِهِینَ بِمٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ مهما بلغ الإنسان فی الـدنیا من الملک و الغنی فإنّه لا یحسّ بتمام الراحه،إمّا لنقص فی النعم أو لنقص فیه،فلذّته محدوده،و هی تتعب صاحبها مهما أوتی من ثراء عریض،و آخر ما قرأناه فی ذلک أنّ واحدا من أصحاب البلایین دفع أخیرا مبلغ ربع ملیون دولار و سیاره ثمنا لقتله بعد فشل فی عده محاولات انتحار،ففعل الأجیر ذلک مأثوما.هکذا لا تتم نعم الدنیا لأحد.

بینما فی الجنه یبلغ المؤمن غایه اللذه،فهو لا یعانی من نقص ینغّص علیه،کما أنّ اللّه یرزقه حاله الرضی بنعمته،فلا یحس بالشبع،إنّما یستلذّ و یستلذّ بالنعیم أبدا و بلا ملل.

قال الامام الصادق علیه السلام عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله مبیّنا ثواب المؤمن:فیرفع رأسه فإذا هو بزوجته قد کادت یذهب نورها نور عینیه،قال:فتنادیه:قد آن لنا أن تکون لنا منک دوله،قال:فیقول لها:و من أنت؟قال:فتقول:أنا ممّن ذکر اللّه فی القرآن: لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ ،فیجامعها فی قوّه مائه شاب، و یعانقها سبعین سنه من أعمار الأوّلین،و ما یدری أ ینظر إلی وجهها أم إلی خلفها أم إلی ساقها (۲)

و فی حدیث آخر :«فیعتنقان مقدار خمسمائه عام من أعوام الدنیا لا یملّها و لا تملّه » (۳).

ص:۱۰۴

۱- ۱) هود/(۱۱۱).

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج(۸)-ص(۲۱۴).

۳- ۳) المصدر/ص(۱۵۹).

و قال الامام الصادق علیه السلام :«إنّ الرجل فی الجنه یبقی علی مائدته أیّام الدنیا، و یأکل فی أکله واحده بمقدار أکله فی الدنیا » (1).

و من أعظم النعم التی یبلغها المتقون هی نعمه الشکر للّه التی تزیدهم نعیما إلی نعیمهم لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ ،و یکون الاحساس بالنعیم و بالتالی الشکر أعمق عند الاطّلاع علی أهل الجحیم بین ألوان من العذاب ممّا یذکّرهم بلذه النجاه منها، و هذا یوضح العلاقه الوثیقه بین ذکر اللّه للتفکّه بالنعیم،و ذکر نجاه المتقین من النار.

وَ وَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ عَذٰابَ الْجَحِیمِ [19]کما تتمیّز الجنه عن الدنیا بإباحه نعیمها جمیعا لأصحابها،فلا حرام فیها،و لا مکروه،و لا تکلیف،و لا مسئولیه،إنّما یأکلون و یشربون ما یشاءون.

کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً و لا یکون الأکل أو الشرب هنیئا إلاّ إذا کان ذاته طیّبا،و مذاقه لذیذا،و کان نافعا لا یعقبه ضرر،و لا یتصل به ما یسلب صاحبه الراحه أو الاطمئنان أو المتعه، و لکن لا طریق إلی تلک النعم إلاّ بالعمل الصالح،لذلک یترافق مع دعوه المتقین الی النعیم «کُلُوا وَ اشْرَبُوا» بیان لهذه الحقیقه:

بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هذا هو السبب الوحید الی الجنه،فمن یتقی اللّه یقیه عذاب الجحیم.و عند المقارنه بین جزاء أهل النار و بین هذه الآیه نری القرآن یعبّر هناک عن سبب

ص:105

1- 1) نور الثقلین/ج(4)-ص(614).

العذاب بقوله: مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ،بينما يعبّر عن سبب الرحمه هنا بقوله: بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بإضافه كلمه الباء الداله على البعضيه،مما يـدلّ بأنّ الجزاء هناك هو ذات أعمالهم و مساو لها نوعا و كمّا،بينما ثواب اللّه لأصـحاب الجنه مضاعف، و إنّما عملهم سـبب و وسيله له فقط.

[۲۰] مُتَّكِئِينَ عَلىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَهٍ قـال الراغب فى مفرداته:و السـرير الـذى يجلس عليه من السـرور،إذ كـان ذلك لأولى النعمه،و جمعه أسـره و سـرر،و سـرير الميت تشبيهـا به فى الصوره،و للتفـاؤل بالسـرور الـذى يلحق الميت برجوعه إلى جوار اللّه تعـالى و خلاصه من سجنه(يعنى الدنيا) (۱)،و سـرر المتقين فى الجنه تكون مرتبه فى نظام بحيث يتقابلون فيها لا يستدبر أحدهم الآخر،و يعمّق ذلك النظام حاله السرور،لأنّ النفس تهوى الترتيب.

وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ عنـد التعمّق فى هـذه الآيه و الـتى سـبقتها نجـد علاقه بيـن النعـم الثلاث الـتى يـذكرها القرآن جزاء للمتقين،فأولا ـ ذكر الاباحه فى الأكـل و الشـرب كجزاء لالتزامهم بالحلال و الحرام فى الـدنيا،و كبحهم لشـهوات البطن،ثم ذكر الاتكاء على السـرر مما يرمز الى الراحه جزاء تركهم الراحه و تحمّلهم أعباء المسؤوليه فى الـدنيا،و أخيرا يذكر نعمه الحور العين جزاء وفاقا لتجنّبهم الحرام من الجنس،و هذا التدبر يتصل بعمق مع كلمه المتقين.

[۲۱]و لأنّ المتقى كأىّ إنسان آخر يتطلّع إلى خير أسرته،يعرج القرآن ليعالج

ص:۱۰۶

۱- ۱) مفردات الراغب/ص(۲۳۴).

هذه المسأله علاجا مبدئيّا،و ذلک بإعطاء المؤمنين وعدا بإلحاق ذريتهم بهم فى الجنه ليتمّ لهم السرور،و لکن بشرط أن يتبعوهم بإيمان.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ و هکذا الإسلام لا يرى وسيله الى الجنه سوى العمل الصالح،فلا يتم التحاق الذريه لمجرد الانتساب،بل بالاتباع الواعى لمسيره الجيل المتقدّم«بإيمان»،أمّا مجرّد الانتماء النسبى أو حتى الاتباع الأعمى لا يغنى شيئا حسب منهج القرآن، بغضّ النظر عن کون العمل صالحا أو فاسدا.

إنّ المنطلق فى ممارسه العمل الصالح ينبغى أن يکون منطلقا سليما.أ ترى لو مارس أحد الطقوس الدينيه بغير نيه التقرب،بل لأنّه ولد فى أسره مسلمه أو يعيش فى مجتمع مسلم و يتماشى مع المحيط،أو خوفا من سلطان،أو لأهداف مصلحيه، فهل يکون عمله مقبولا-عند اللّه؟ إنّ الانتماء الحقيقى للصالحين ليس بالنسب و الحسب،و لا بالانضمام الى تجمّعهم،إنّما بالعمل الخالص لوجه اللّه.

يقول تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّالِحِينَ (۱)، و القرآن يضرب أمثله لهذه الحقيقه من تاريخ أقرب العباد إليه و هم الأنبياء،يقول تعالى: قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ -و أغلظ له الخطاب قائلا- فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۲)و قال:

ص:۱۰۷

۱- ۱) العنکبوت/(۹).

۲- ۲) هود/(۴۶).

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلاَ النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ* وَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّهِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ (۱).

بلی.إنّ الانتماء النسبی إلی المقرّبین و الصالحین یزید ذریتهم شرفا، و یضاعف لهم الجزاء،إکراما لآبائهم،و إکمالا للنعم علیهم،فلعلّ واحدا من الذریه لا ینهض به عمله لیبلغ درجه آبائه هنالک قد تدرکه شفاعتهم فیلتحق بهم بدعائهم لیجتمع شمل الاسره فی مقام أمین،و لعلّ تتمه الآیه تدلّ علی ذلک حین یقول ربّنا:

وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَیْءٍ فما ینقص اللّه من أعمال الأوّلین شیئا حین یلحق الآخرین بهم إکراما لهم.

کُلُّ امْرِئٍ بِما کَسَبَ رَهِینٌ و کون الإنسان مرهون بما کسب دلیل علی أنّ شفاعه الصالحین لذراریهم التی تهدی إلیها هذه الآیه لیست بعیده عن سنّه الجزاء،فهم إن لم یتبعوا آباءهم لم یدخلوا معهم الجنه.

و لعلّنا نجد انعکاسا و تفسیرا لهذه الآیه

فی الحدیث المروی عن الرسول صلی الله علیه و آله إذ قال:«من سنّ سنّه حسنه عمل بها من بعده کان له أجره و مثل أجورهم،من غیر أن ینقص من أجورهم شیئا » (۲)فالآباء یضاعف لهم الجزاء لأنّهم ساهموا فی هدایتهم الی ربّهم.

ص:۱۰۸

۱- ۱) التحریم/(۱۰-۱۱).

۲- ۲) میزان الحکمه/ج(۴)-ص(۵۶۶)نقلا عن کنز العمّال.

و من هـذه الآيه نهتـدى إلى أنّ القرآن يعارض صـراع الأجيال،بل و يسـعى لامتصاص هـذا الصـراع و تحويله الى صـله الحب و التعـاون و التكامـل،فهو يرسم للجيـل السابق شـعارا تجاه اللاحقين هو قوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الـدّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِـهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)، كما يرسم شـعارا للجيل الصاعد تجاه السابقين فيقول: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢).

و الآن دعنا نقرأ شيئا من الأخبار الوارده فى تفسير هذه الآيه الكريمه.

عن الامام الصادق عليه السلام فى قوله عزّ و جلّ:«الآيه»قال:«قصرت الأبناء عن عمل الآباء فألحق الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم » (٣).

و عن أبى بصـير قال:قال أبو عبد اللّه عليه السـلام :«إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين نادى مناد فى ملكوت السموات و الأرض ألاـ إنّ فلاـن ابن فلاـن قـد مات،فإن كان قـد مات والـداه أو أحـدهما أو بعض أهله من المؤمنين دفع إليه يغـذوه،و إلاّ دفع إلى فاطمه عليه السلام تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فتدفعه إليه » (٤).

[٢٣-٢٢]و يعود السياق يحدّثنا عن نعيم الجنه.

١- ١) الحشر/(٩).

٢- ٢) المصدر/(١٠).

٣- ٣) نور الثقلين/ج(٥)-ص(١٤٠).

٤- ٤) المصدر/ص(١٤١).

وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَهٍ وَ لَحْمٍ مِمّا يَشْتَهُونَ و هما معا غذاء متكامل،و هذه النعمه لا تنفذ و لا تنقطع عن المتقين،بل و تصلهم بالشكل و الحجم و النوع الّذى تهواه نفوسهم،فالعنان هناك مطلق للشهوه يبلغ الشخص ما يريد و ما يتخيّل،

و فى الروايه عن النبى صلى الله عليه و آله قال :«فإذا اشتهوا الطعام جاءهم طيور بيض يرفعن أجنحتهنّ فيأكلون من أىّ الألوان اشتهوا، جلوسا إن شاؤوا أو متكئين،و إن اشتهوا الفاكهه تسعّبت(تدلت و اقتربت) إليهم الأغصان فأكلوا من أيّها اشتهوا » (۱).

يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً قال الراغب:و التنازع و المنازعه:المجاذبه،و يعبّر بهما عن المخاصمه و المجادله،قال تعالى: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَ الرَّسُولِ ،و قال:

«فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» (۲)،أمّا المؤمنون فلا مخاصمه بينهم.إنّهم يمرحون مع بعضهم،و يتبادلون كؤوس المحبه.

و الكأس التى يشربونها ليست مسكره تسلب عقولهم فيلغون،و لا هى حرام عند اللّه.

لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ [۲۴]و فى الأثناء ترى الغلمان الذين ملّكهم اللّه فى طواف دائم عليهم، يخدمونهم و يسرّون ناظرهم،جزاء لاجتهادهم فى طاعه اللّه و خدمه الناس فى دار الدنيا.

۱- ۱) بح/ج(۸)ص(۲۱۴).

۲- ۲) مفردات الراغب/ص(۵۰۹).

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمٰانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ و يشير القرآن هنا إلى صفتين مهمتين(يريدهما المخدوم)فى الغلام،إحداهما الطاعه،و غلمان الجنّه للمتقين يطيعونهم فى كلّ شىء،و لا يكونون عليهم فهم «لهم»دائما،و الأخرى الشمائل الحسنه(الجمال)و ذلك مما تميل إليه فطره الإنسان،و يرتجى به الخير عند صاحبه،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«اطلبوا الخير عند حسان الوجوه فإنّ فعالهم أحرى أن تكون حسنا » (١)،و لا ريب أنّ الجمال وحده ليس ذا اعتبار فى الإسلام،إنّما إذا اجتمع مع طهاره القلب و حسن السيره،

قال الامام على عليه السلام :«لا ينفع الحسن بغير نجابه » (٢)،و قد جمع اللّه الاثنين فى غلمان المتقين.

[٢۶-٢۵]و يتعمّق إحساس أهل الجنه بنعيمها و لذّته عند تذكّر نعمه النجاه من النار.

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ عن حالهم فى الدنيا،و صفه التشاور و التفاعل بين أفراد المجتمع المؤمن من الصفات الحضاريه،و هى فى الآخره امتداد لما كانوا عليه فى الدنيا،فهم مقبلون على بعضهم،و على العكس من ذلك فإنّ التمزّق و التدابر من معالم التخلّف عند الأمم و المجتمعات.

قٰالُوا إِنّٰا كُنّٰا قَبْلُ فِى أَهْلِنٰا مُشْفِقِينَ إنّ خشيه اللّه هى التى تبعد الإنسان عن حياه الهزل و اللعب إلى حياه الجدّ

١- ١) بح/ج(٧۴)ص(١٨٧).

٢- ٢) غرر الحكم.

و السعی و النصب،و تزرع فی قلبه التقوی،و من ثمّ تدفعه نحو تنفیذ الحق بعزم راسخ.إنّها القوّه المحرّکه التی تدفعه نحو التطبیق المستمر و المتقن لمناهج الوحی، و بما أنّ الخوف من القوی الأخری،و الغرور بالذّات و بالعمل،و حبّ الراحه، و ضغط الشهوه،و ما أشبه،کلّها قیود تکبّل الإنسان عن السعی و التسلیم للّه،فإنّ خشیه اللّه تحرّر الإنسان من کلّ تلک القیود.

و ربما تقابل کلمه المشفقین فی هذه الآیه کلمه المسرور التی جاءت فی قوله تعالی: وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ وَرٰاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً* وَ یَصْلیٰ سَعِیراً* إِنَّهُ کٰانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (1)و التی تعنی الفرح و الاختیال،و اللّه لا یحبّ المختال و لا الفرح،ذلک أنّ هذا النوع من السرور(عدم الجد و المبالاه)یضلّ سعی الإنسان أو یعطّله تماما عن الکدح إلی ربّه،بل و یدفعه نحو أهداف تافهه أو فاسده.

[27]و إشفاق المتقین لیس لأنّهم لا یعملون بطاعه اللّه،و إنّما لایمانهم الراسخ بأنّ العمل وحده لا یدخلهم الجنه،و لا یخلّصهم من العذاب،إلاّ بفضل اللّه، و تتأکّد لهم هذه الحقیقه عند الحساب،و حینما یصیرون إلی النعیم.

فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَیْنٰا فأدخلنا الجنه.

وَ وَقٰانٰا عَذٰابَ السَّمُومِ و هو الحرّ الشدید الذی یلفح الوجوه فی النار.

[28]و ما کان المتقون یغفلون دور الدعاء الذی یزکّی نفوسهم،و یرفع

1- 1) الإنشقاق/(10-13).

أعمالهم،و يستنزل فضل اللّه و رحمته.

إِنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ و لم نكن نعتمد على عملنا وحده،إنّما نتوكّل على اللّه،و نسأله القبول و الرحمه.

إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ و البرّ:فاعل الخير و الإحسان.

[سوره الطور (۵۲): الآيات ۲۹ الی ۴۹]

اشاره

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِکَاهِنٍ وَ لاَ مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ اَلْمَنُونِ (۳۰) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ
اَلْمُتَرَبِّصِينَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (۳۲) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ (۳۳) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ
كَانُوا صَادِقِينَ (۳۴) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ اَلْخَالِقُونَ (۳۵) أَمْ خَلَقُوا اَلسَّمَاوَاتِ وَ اَلْأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ (۳۶) أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَائِنُ رَبِّکَ أَمْ هُمُ اَلْمُصَيْطِرُونَ (۳۷) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۳۸) أَمْ لَهُ اَلْبَنَاتُ وَ لَکُمُ اَلْبَنُونَ
(۳۹) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ اَلْغَيْبُ فَهُمْ يَکْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ کَيْداً فَالَّذِينَ کَفَرُوا هُمُ
اَلْمَکِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اَللّٰهِ سُبْحَانَ اَللّٰهِ عَمَّا يُشْرِکُونَ (۴۳) وَ إِنْ يَرَوْا کِسْفاً مِنَ اَلسَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْکُومٌ (۴۴)
فَذَرْهُمْ حَتّٰی يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِی فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لاَ يُغْنِی عَنْهُمْ کَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً
دُونَ ذٰلِکَ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اِصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ فَإِنَّکَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ حِينَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اَللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبَارَ اَلنُّجُومِ (۴۹)

اللغه

۳۰[نتربّص]:ننتظر.

۳۳[تقوّله]:اختلقه.

ص:۱۱۴

۴۰[مغرم]:التزام غرم.

۴۴[کسفا]:قطعا.

۴۵[یصعقون]:یموتون.

ص:۱۱۵

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

هدى من الآيات:

يعالج هذا الدرس الحجب التى منعت الكفّار عن الايمان بالرساله.إنّهم لم يعرفوا كيف يمكنهم أن يبرّروا موقفهم من الوحى،فقالوا عن الرسول بأنّه كاهن،ثم اتهموه بالجنون،بل و سمّوه شاعرا،ثم أكّدوا ضلالتهم بعد ما تبيّن لهم بطلان التهم السابقه و قالوا بأنّه ساحر،و لكنّ الأمر ليس كذلك،إنّما هم طاغون لا يريدون الايمان بالحق تهرّبا من المسؤوليه فبحثوا لموقفهم عن تبرير فلجئوا إلى تلك التهم الرخيصه،فموقفهم كما تبريراتهم إذا ليس بمعقول،و الجدال معهم لا ينبغى أن يكون جدلا عقليّا،إنّما ينبغى أن يهزّ ضمائرهم،لذلك نجد فى الآيات تهديدا مبطّنا بالعذاب: «قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ» كما نجد فى الآيات من جهه أخرى إثاره للكفار نحو التفكّر فى الخلق من حولهم،ليكبحوا جماع الغرور فى أنفسهم،و يخرجوا من قوقعه الذات إلى الآفاق الواسعه.

إن استشاره عقل الإنسان نحو التدبّر فى الآفاق(الطبيعه و القوانين التى

تحكمها)ركيزه أساسيه للتربيه و التوجيه فی نهج القرآن،و لكنّ ربط هذا التدبر بما يجری داخل النفس البشريه هو المهم فی المنهج،لذلک يبدو واضحا فی كثير من الآيات أنّ القرآن يريد بناء جسر بين الآفاق حتی أبعد مدی فيها و بين النفس حتی أعمق غور منها.

بينات من الآيات:

[۲۹]تزدحم التهم و الاشاعات ضد كلّ مصلح رسالی بمجرّد أن يرفع رايه الإصلاح،فإذا به يدعی كاهنا أو مجنونا أو عميلا يتصل بجهات خارجيه،من أجل تحطيمه أو الضغط عليه فی اتجاه التخلّی عن رسالته،فيجب إذن أن لا يفاجأ أیّ عامل إذا ما تعرّض لذلک فی مسيرته،بل يعتبره أمرا طبيعيّا،و يستمر فی حركته حتی يبلغ إحدی الحسنيين،متوكّلا علی ربّه،و مهتديا بوحيه،واثقا بنفسه.

و رسولنا الأكرم محمّد بن عبد اللّه صلی الله عليه و آله و هو الأسوه العظمی لنا،كان عرضه لمختلف الدعايات و التهم و لأنواع شتی من الأذی،و إذا لم تكن ثقته بربه و برسالته و بنفسه ثقه عميقه لم يستمر،و مع ذلک أمره اللّه بالاستمرار فی دعوته قائلا:

فَذَكِّرْ فَمٰا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكٰاهِنٍ وَ لاٰ مَجْنُونٍ و هذه الآيه تنفی عن النبی صلی الله عليه و آله جميع التهم التی وجّهت اليه بالتالی:

۱-أنّ رسالته تثير دفائن العقول البشريه بالتذكره.

۲-أنّ التذكره التی جاء بها الرسول ليست من عنده و لا من أحد،إنّما هی نعمه من اللّه تصله عبر الوحی،و من دونها لا يكون رسولا و لا مذكّرا.

ص:۱۱۷

و بهذين الدليلين نهتدى إلى أنّ الرسول ليس بكاهن لأنّ الكاهن هو الذى يتنبّأ بالمستقبل دون أن يستثير العقل،فتراه يصيب مره و يخطئ مرات،بينما لا نجد و لا خطأ واحدا فى آيات اللّه،و ليس بمجنون لأنّ ما يصدر عن المجنون لا يلتقى مع العقل،بينما تلتقى الرساله معه بكلّ مفرداته دون استثناء،و هو يعتمد خطّه واضحه فى تحرّكه هى رسالته،و ليس بمجنون-حاشا للّه-لأنّه ينبعث عن منطلقات إيمانيه و عقليه،و حسابات علميّه بالغه الدقه نافذه الحكمه.

كما يتميّز النبى بالشجاعه و التوكّل و الثقه،بينما المجنون لا يعتمد على شيء، و ليس الرسول بشاعر لأنّه يستثير العقل،بينما يعتمد الشاعر على إثاره مشاعر الإنسان،و أداته الخيال و المبالغه،و أخيرا ليس بساحر لأنّ الساحر إنّما يلعب بخيال البشر،و يسحر عيونهم،و لا يفلح الساحر حيث أتى،فهل رأيت ساحرا يقود أمّه أو يصنع تاريخا أو حتى يجمع ثروه طائله أو يكتسب جاها عريضا؟ كلاّ..لأنّ الساحر لا يعيش حقائق الحياه حتى يسخّرها لمصلحته أو لقضيّته بل يتقلّب فى سحره مع التمنّيات و الظنون،هذا أولا،و ثانيا تلتقى التهم الموجهه إلى النبى صلى الله عليه و آله فى كون المذكورين يعتمدون على قوى ليست مشروعه فى نظر العرب أنفسهم،فالكاهن يعتمد على اتصاله بالشياطين أو على مجرّد الحدس،و المجنون هو الذى سحرته الجن فهى توحى له بتصرّفاته و أقواله،و الذى اعترته الآلهه بسوء كما قالوا من قبل لهود عليه السلام : «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاكَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ» و الشاعر هو الذى يحس بما لا يحس به الآخرون،و يتلقّى الإلهام من الآلهه أو قوى أخرى كالجن،و الساحر هو الذى يستغنى بالشياطين و العفاريت أو يسخّرهما،أمّا الرسول صلى الله عليه و آله فهو يتصل عبر الوحى باللّه خالق الخلق و يعتمد عليه.

و القرآن إنّما يثبت هذه التهم ليعكس للرساليين عبر التاريخ طبيعه المسيره التى ينتمون إليها من جانب،و من جانب آخر لبيان اعتراف الأعداء بجوانب من

شخصيه الرسول صلى الله عليه و آله ،فهم بهذه الاتهامات يعترفون ضمنيّا بقوته و تأثيره فى الناس،فتهمه الكهانه تعكس صدقه،و تهمه الجنون تعكس شجاعته،و تهمه الشعر تعكس بلاغته و قوته على الاقناع،و تهمه السحر تعكس تأثيره العملى فى المجتمع، إلاّ أنّهم يسعون بهذه التسميات إلى النيل من شخصيته،و تحوير الحقيقه لكى لا يتأثّر به أحد.

[۳۰-۳۱]إنّ الحيره التى وقع فيها المشركون و الكفّار و عدم ثباتهم على تهمه معينه دليل واضح على اتباعهم الظنون لا العقل فى تقييم رسالته و شخصيته،ممّا يدلّ على أنّه جاء بحركه جديده لم يستطيعوا لها تفسيرا و لا تأويلا،و قد يدلّل اتهامهم له بالشعر بعد الكهانه و الجنون-مع كون الشاعر فى نظر العرب أعلى ثقافه من الآخرين-على تنازلهم أن الأخريتين الماضيتين.

أَمْ يَقُولُونَ شٰاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ و لكنّ الرسول يختلف عن الشاعر،و رسالته ليست شعرا للأسباب الأساسيه التاليه:

۱-إنّ الشاعر-و فى ذلك العصر بالذات-يعبّر تعبيرا بليغا عن الثقافه القائمه،بينما الرساله خارجه عن إطار الثقافه الفاسده الواقعيه الشائعه فى المجتمع، و الذى يقرأ أشعار العرب يلاحظ فيها و بوضوح تعبيرا صريحا عن الروح القبليه، و عن الأضغان و الفرقه و سائر مفردات الثقافه القائمه على الواقع،كقول الفرزدق:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أو كقول جرير:

فغضّ الطرف إنّك من ثقيف فلا كعبا بلغت و لا كلابا

۲-أنّ الشعر یعبّر فی کثیر من الأحیان عن المصالح و الأهواء الشخصیه، بینما الرساله کلّها قیم،و ربما تعارضت مع شهوات الإنسان.

۳-إنّ الشعراء عندهم ثقافه و لکنّها لا تستمر مع الزمن و عبر الأجیال،أمّا الرسول فخطه یبقی أبدا،و المستقبل لرسالته التی لا تبلی،و لا یتجاوزها تقدّم البشریه،و لعلّ السبب فی ذلک أنّ الشاعر ثقافته مربوطه به تموت عند موته أو بعده بقلیل،بینما الرساله یرعاها اللّه،و لیست متصله بشخص الرسول حتی تذهب بذهابه،و لذلک أمر اللّه تعالی نبیّه صلی الله علیه و آله بتحدّی الکفّار و المراهنه علی أنّ المستقبل فی صالحه و لرسالته.

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ و التربّص هو الانتظار،و لکن مع توقّع شیء ما یحدث،و منه قوله تعالی:

لِلَّذِینَ یُؤْلُونَ مِنْ نِسٰائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَهِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فٰاؤُ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱)و الکفّار ینتظرون نهایه للرساله بموت النبی صلی الله علیه و آله فی أیّ لحظه،بینما یعلم النبی أنّ الرساله تزداد علی الزمن بهاء و إشراقا.

[۳۲]ثم یأتی القرآن علی بیان المنطلقات الحقیقیه للکفر بالرساله مؤکّدا بأنّ التهم التی وجّهوها للرساله لا أساس لها حتی عند أصحابها،بل جاؤوا بها رغبه عن الحق،و تهرّبا من المسؤولیه.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاٰمُهُمْ بِهٰذٰا و الحلم هو الجانب العملی من العقل،و الحلیم الذی یستخدم عقله فی مواقفه

۱- ۱) البقره۲۲۶/

و أفكـاره فلا ينطلق فی أیّ موقف أو حکم من ردّات الفعل و إثاره المواقف المضاده، و الکفّار کبشـر لـدیهم مناهـج عقلانیه و لکنّهم خرجوا عن دائرتها فصاروا یعارضون الرسول و یتهمونه بالکهانه و الجنون أو بالشـعر و السـحر،لیس لأنّهم وجدوا ما عنده باطلا،و إنّما نتیجه اتباع الهوی و الطغیان و ردود الفعل.

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ و «أَمْ» هنا لیست بمعنی التخییر و عـدم التأکّـد،بل هی تأکیـد لما بعـدها،و لعلّ السـبب أنّ الاحتمالات السابقه واضـحه البطلاـن ممـا یبعث السامع إلی البحث عن الاحتمال الصـحیح،و یتساءل:إذا لماذا یعارض هؤلاء الرساله؟و یأتی الجواب بصیغه احتمال،و لکنّ السامع یتقبّله رأسا،فیکون کما لو أنّه هو الذی اکتشف الحقیقه.

و من عموم هـذه الآـیه نسـتفید فکره کثیرا مـا یشـیر القرآن إلیها،و هی أنّ الاحتیاط من العقل،فینبغی للمؤمن أن لا یسـتعجل فی رفض فکره یسمعها،بل یفترض إمکان صحتها،ثم یفکّر فیها ملیّا،و یتخذ موقفه منها علی ضوء تفکیر موضوعیّ دقیق.

و إنّ الـذین رفضوا الرسـاله لم یعتمـدوا فی رفضـهم علی العقـل بـل علی الطغیان، لأنّ العقل یقیّـد الشـهوه و یقنّنها،بینما الطغیان یسیّرها،بل و یجعلها هی القانون، و لو أنّهم اتبعوا هدی عقولهم لآمنوا بها،لأنّها تهدی إلی العقل کما یهدی العقل إلیها.

[۳۳]و من نتائج اتبـاعهم الهوی فی تقییم الرساله و النبی صـلی الله علیه و آله اتهامهم له بأنّه لا ینطق عن اللّه،و أنّ ما عنـده لیس رساله من الرب،إنّما هی من صنیع فکره.إنّ

ص:۱۲۱

عقولهم تهدى إلى صحه ما جاء به،و لكنّهم لا يريدون إلزام أنفسهم بالمسؤوليه، لذلك تراهم يبحثون عن تبرير لعدم إيمانهم،فقالوا:نحن نؤمن بعظمه الرسول و بعظمه ما جاء به و لكنّه من عبقريته،و لسنا ملزمين باتباع ما تفتقت عنه عبقريّات البشر،إنّما نحن ملزمون باتباع وحى اللّه و حسب، و هذا هو منهج المستشرقين و كثير من المسيحيين فى تقييم الإسلام و الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله .

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ [۳۴]و يتحدّاهم القرآن بأنّه إذا كان القرآن من عبقريه الرسول فهو بشر مثلهم فهل يستطيعون صناعه كلام يشبه القرآن؟ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ و تنكير كلمه «بِحَدِيثٍ» يدل على التبعيض،فالتحدى إذن واقع على جزء من القرآن كالسوره أو الآيه،و تبقى هذه المعجزه الالهيه الخالده تتحدّى ضلال البشر عبر الزمن و فى كلّ جيل من الانس و الجن،يقول تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۱)[۳۵-۳۶]و من الحديث المنطلق من واقع التشريع ينتقل السياق إلى الحديث من واقع الخلق،فبعد أن أثبت بأنّ الرساله ليست من صنيع البشر فلا هى كهانه و لا جنون و لا شعر و لا مخالفه للعقل،و أنّ الدليل على كونها من اللّه عدم قدره البشر على المجىء و لو بحديث واحد يشبهها،نجد السياق هنا ينعطف لاثبات وجود الخالق عزّ و جل عبر تساؤلات ثلاث:

الأولى:أن يكونوا(الكفّار و عموم الخلق)قد خلقوا من غير خالق.

ص:۱۲۲

۱- ۱) الإسراء/۸۸.

الثانيه:أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم.

الثالثه:أن يكونوا هم الذين خلقوا السماوات و الأرض.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ و التعبير هنا عن الخالق بالشىء ليس من باب أنّه سبحانه يشبه الخلق،و إنّما لاثبات أنّه حق فالشىء فى مقابل العدم،ففى مقام الربوبيه ليس لنا سبيل إلاّ بقدر الخروج من حدّ النفى و التعطيل،أو بتعبير آخر:نفى النفى و إعدام العدم،أمّا أن نثبت-وراء ذلک-لربّنا القدوس ذاتيه معلومه أو موهومه أو متخيله فلا،فهو شىء أى أنّه حق قائم قيّوم و لكن لا كالأشياء الكائنه التى يحيط بها العلم و يتصوّرها القلب.

و ليس أحد يعتقد فى نفسه و لا يعتقد فيه الآخرون العقلاء بأنّه مصداق لأحد هذه الفروض الثلاثه و لا التى ستأتى بعدها،ذلک أنّ المخلوق لا يأتى من الفراغ ما دامت شواهد الصنع ظاهره فيه،بل لا بد له من خالق،و واضح أنّه لا يمكن للشىء أن يخلق نفسه إنّما يحتاج إلى صانع غيره،و يكفى الإنسان شاهدا على نفسه بأنّه ليس الخالق أن ينظر حوله إلى السماوات و الأرض هل يعقل أن يكون قد خلقهما هو أو بشر مثله؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ ان المشكله مشكله نفسيه و لو كانت عقليه لا نحلت بشىء من التفكير فى مثل هذه الفرضيات انهم لا يريدون الايمان لكى لا يلزموا أنفسهم بمسؤولياته،اذن فالنقص موجود فيهم لا فى حجج الحق التى تقوى عليهم! [٣٧]ثمّ دعنا عن حديث الخلق و لنسأل:ماذا لدى الكفّار من الملک و السيطره

حتى يتكبرون على الحق اعتمادا عليهما؟إنّ أكثر من ٩٩٪من ثروات البشر و قدراته هى رزق مباشر من عند اللّه.و الذى يحتاج الحصول عليه من الثروه مع السعى أقل من ١٪،و ما هى نسبه ما يقع فى أيدى الناس حتى يتفاخروا به و يكون سببا لكفرهم؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ و الخزائن هى أماكن حفظ الثروات و مقاليدها،و من مصاديق الخزائن المنابع الأوّليه للثروه فى الحياه،كمناجم المعادن،و ينابيع الغيث،و مصادر الطاقه، و مواد الحياه فى الأرض،و هى جزء بسيط جدا من خزائن اللّه التى خلقها و وزّعها فى الكون.

و إذا نظرنا إلى جانب التدبير فى الحياه فلن نجد سلطه فعليّه تحكمها غير سلطان اللّه،فالإنسان لا سلطان له حتى على حياته الشخصيه إلاّ قليلا،فطالما تصوّر نفسه متمكّنا و قادرا فوجد العكس،و طالما قرّر شيئا فاكتشف عجزه المضى فيه.

أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ بالطبع لا سيطره لهم على الحياه فليحاولوا دفع الموت عن أنفسهم إن استطاعوا.

[٣٨]و يسترسل الوحى فى طرح السؤال تلو السؤال،و هذا جزء من منهج القرآن فى علاج الانحرافات النفسيه و العقائديه لدى البشر،أن يضعه أمام الحقيقه من خلال أسئله تسوق الاجابه الموضوعيه عليها إلى ذات الحقيقه،كما يحاول بها ضرب الفلسفات و الاعتقادات المنحرفه عنده.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ

إنّ الذی ینبغی الطاعه له و التسلیم لقیاده لیس الذی یملک ظاهرا من الثروه و السیطره قدرا ضئیلا لا یقاس إلی ما عند اللّه،و هم معترفون بـأنّهم لا یملکون أداه لالتقاط الغیب،فما ذا فی أعماق الأرض و أغوار الفضاء،و ما الـذی تخبّؤه الأقـدار، و ماذا یحـدث غـدا،و مـا هی الأرواح و الملائکه و الجن و عالمهم؟ و إنّما القیاده و الفضل لمن یتصل باللّه عبر الوحی و هو الرسول صـلی الله علیه و آله ،و لعـلّ اختیار کلمه «فِیهِ» فی الآیه و تجنّب التعبیر بکلمه«به»لأنّ الاسـتماع لا یکون بسـبب السـلّم بل فی السـلّم الـذی یعرجون فیه.

و إذا کانوا یزعمون أنّهم مطّلعون علی الغیب إذا دعهم یأتوا علیه بحجه داحضه.

فَلْیَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ کالقرآن بشـمولیته،و کماله،و روعه أسلوبه،و هیمنته علی عقل الإنسان و نفسه،و لن یستطیعوا إلی ذلک سبیلا.

[۳۹]و کیف یـأتی هؤلاء ببرهـان قـاطع و هم لا یتبعون إلا الظن،و لا یعتقـدون إلاّ بالباطل،و إلاّ فکیف قالوا بأنّ البنات للّه و لهم البنون؟!ما هو دلیلهم علی ذلک؟ أَمْ لَهُ الْبَنٰاتُ وَ لَکُمُ الْبَنُونَ و فی سوره الزخرف نجد علاجا أشـمل لهـذه العقیده المنحرفه لدی المشرکین، یقول تعالی: «أَمِ اتَّخَذَ مِمّٰا یَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاکُمْ بِالْبَنِینَ* وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ کَظِیمٌ* أَ وَ مَنْ یُنَشَّؤُا فِی الْحِلْیَهِ وَ هُوَ فِی الْخِصٰامِ غَیْرُ مُبِینٍ* وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ

سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ* وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ» (۱)و هنا يشير السياق مجرّد إشاره إلى سفاهه هذا القول و يسوقه مثلا لضلالاتهم الداله على بعدهم عن الغيب.

[۴۰]و الرسل لا يطالبون الناس بالأجر بإزاء تعبهم و نصبهم من أجلهم حتى يمكن الكفّار تفسير رفضهم الرساله بأنّهم لا يقدرون على إعطاء الأجر.

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ إنّ الرسول لا يتطلّع إلى أهداف ماديّه مصلحيّه من وراء قيادته للناس.إنّه ليس كالذين يتسلّطون على المجتمع من أجل فرض الضرائب و امتصاص خيرات البلاد و العباد،إنّما يريد أن يعطيهم شيئا هو الغنى بعد الفقر،و الأمن بعد الخوف، و الوحده بعد الفرقه،و بعباره أخرى يريد أن يتقدّم بهم نحو الحضاره الربّانيه التى فيها خيرهم، و هذا ما تتميّز به رسالات اللّه عن الدعوات البشريه الماديه حيث لا يجد فيها المجتمع إلاّ الكلفه و الغرم الثقيل.

[۴۱-۴۲]ثم يشير القرآن إلى حاجه فطريه عند الإنسان تدعوه إلى معرفه الغيب و الاتصال به،و كلّ إنسان يخشى من الغيب،و يعلم بأنه لا سبيل له اليه، لأنّ الاختيار فى هذا الأمر ليس مرتبطا به،إنّما يختار اللّه من يشاء من عباده، «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ» (۲)و البعض يدّعى الاتصال بالغيب و لكن دون أن يدّعى أنّه قادر على معرفه أبعاد الغيب بحيث تمكّنه من كتابته بوضوح كما كتب الرسول أبعاد الوحى،أى أنّهم

۱- ۱) الزخرف/۱۶-۲۰

۲- ۲) آل عمران/۱۷۹.

ليست عندهم معرفه شامله واعيه بالغيب،إنّما يتبعون الظنون و جانبا من أخبار الشياطين.

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ بلى.إنّهم لا يعتمدون على الغيب،إنّما يعتمدون على الكيد،و كلمه«أم» التى تأتى فى الآيه للتأكيد لا الاحتمال و التردّد.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً و الكيد هو القوّه المخططه و المقنّنه كالاستراتيجيّه،و إنّما نكّر اللّه الكيد ليجعله دالا على أنّه لا ينفع أىّ نوع أو أيّه درجه منه.

فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ لأنّهم مهما بلغوا من المكر و الحيله فلن يستطيعوا الغلبه على الحق(سنن اللّه فى الخلق و مشيئته القاهره)و منهجه المتكامل إذا اتبعه المؤمنون،و التاريخ شاهد على هذه الحقيقه.

[۴۳]و يعود القرآن إلى بيان الانحرافات النفسيه العميقه عند الإنسان فيقول:

أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحانَ اللّٰهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ إنّ اللّه منزّه عن الشركاء،و الإنسان يشرك به غيره للتهرّب من المسؤوليه، و ليس اعتمادا على عقيده راسخه بيّنه،إنّه إذا لم يدع شريكا مع اللّه فهو ملزم بالتسليم لرسالته عقلا و ضميرا،لذلك نجده يسعى لتخليص نفسه من هذا الالتزام بالشرك.

ص:١٢٧

[۴۴]و لأنّ العقائد المنحرفه عند الكفّار و المشركين،و التى استعرضتها الآيات الماضيه،تنتهى كلّها إلى غايه واحده هى محاوله التملّص من المسؤوليه،فإنّ القرآن لا ينى يؤكّد المسؤوليه من خلال بيان سنّه الجزاء الحاكمه فى الحياه،ففى الدنيا تجلّيات عديده لهذه السنّه ممّا يؤكّد وجود حياه أخرى للجزاء أيضا،و لكنّ الإنسان حينما يكفر أو يشرك لا تهديه العلامات إلى الحقيقه،بل يفسّرها تفسيرا ماديّا منحرفا،بل حتى لو رأى آيه ظاهره فسّرها تفسيرا بعيدا.

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمٰاءِ سٰاقِطاً يَقُولُوا سَحٰابٌ مَرْكُومٌ و فى سوره الأحقاف يضرب القرآن لنا مثلا على هذا النوع من التفسير عند الكفّار فيقول: فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهٰا فَأَصْبَحُوا لاٰ يُرىٰ إِلاّٰ مَسٰاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١).

[۴۵]و حينما يصل الإنسان إلى هذه الحاله النفسيه من الضلال و الجحود تصعب هدايته إلى الحق،لأنّه لن ينظر إلى الآيات نظره عقلانيه مجرّده،إنّما سينظر إليها من خلال أفكاره،و يسعى جاهدا لاستلابها دلالاتها الواقعيّه الحقّه،لذا لا ينبغى للداعيه أن يصرّ و يبخع نفسه لهدايته،إنّما يبيّن إليه الحق ثم يتركه يواجه مصيره بنفسه،لأنّ الإصرار الزائد عن حدّه قد يسبّب حالات و صفات خاطئه كالديكتاتوريه و الغصب،أو أن يغيّر هو من الدّين ليدخلهم فيه.

فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ إشاره إلى العذاب الذى ينتظر الكفّار يوم القيامه،فلأنّهم كفروا بالآخره

١- ١) الأحقاف۲۴/-۲۵

و غفلوا عنها فی حیاتهم فإنّهم یفاجأون بذلک.

[۴۶]و إذا کان مکرهم و کیدهم فی الدنیا نفعهم بعض الشیء و خدم مصالحهم،فربما انتصروا عسکریّا علی المؤمنین،أو ظهروا علی البلاد و أضلّوا الناس عن الحق،فإنّهم فی الآخره لا ینفعهم المکر شیئا،و لا یدفع عنهم خطرا.

یَوْمَ لاٰ یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً کما أنّ القوی الأخری التی اعتمدوا علیها فی کفرهم و کیدهم للحق و المؤمنین لا تعینهم،و إن أعانتهم فهی لا تبلغ بهم سبیلا إلی الغلبه و النصر.

وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ [۴۷]و لکنّ دعوه اللّه لرسوله(و للمؤمنین من خلاله)إلی ترک الظلمه و الکفّار یلاقون عذاب الآخره لا یعنی أنّ الدنیا لهم،یلعبون فیها کیفما شاءت أهواؤهم و مصالحهم،کلاّ..إنّما یلقون فیها نصیبا من العذاب متمثّلا فی غضب اللّه المباشر أو علی أیدی أولیائه،و لکنّه مهما بلغ لا یکون کعذاب الآخره.

وَ إِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عَذٰاباً دُونَ ذٰلِکَ أی غیره،و أقلّ منه ألما،و هو دلیل علی عذاب الآخره،قال تعالی: کَذٰلِکَ الْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۱)و قال: وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذٰابِ الْأَدْنیٰ دُونَ الْعَذٰابِ الْأَکْبَرِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۲)،و لکنّهم لا ینظرون إلی الآیات ببصیره الایمان و من ثمّ لا یصلون إلی الحق.

۱- ۱) القلم۳۳/

۲- ۲) السجده۲۱/

وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ و بالتالى فإنّ جهلهم يوقعهم فى العذاب الدنيوى و الأخروى معا.

[۴۸-۴۹]و بعد أن عالج القرآن مشكله التكذيب بالعذاب و الكفر باللّه من الناحيه النفسيه و العقليه،أكّد ضروره الاستمرار و الاستقامه على الحق فى سبيل اللّه.

وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ و حيث حذف متعلّق الصبر دلّ ذلك على كلّ معانيه(الصبر عند البلاء، و الصبر على الطاعه،و الصبر عن المعصيه)،فيجب إذن على المؤمن أن يتنازل عن جميع تطلّعاته و مصالحه و آرائه فى سبيل رسالته،مهما كان الصبر على ذلك صعبا، و أن يترك العجله فى الأمور،بل يصبر حتى يأتى أمر اللّه متمسّكا بمنهج الوحى، و هذا يوحى بأنّ على المؤمن تطبيق أحكام اللّه أثناء الصبر،و ليطمئنّ أنّ عين اللّه تحرسه و تسدّد خطاه.

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنٰا و عيون اللّه تتجسّد فى سننه و ملائكته و إرادته المباشره التى تؤيّد المؤمنين،و كما يقاوم المؤمن الضغوط،و يستمر فى الطريق،و يلتزم بحدود اللّه و أوامره بعامل الصبر،فإنه يستمدّ إرادته من الاتصال باللّه فى الصلاه،و لو تدبّرنا فى القرآن فإنّنا لا نكاد نجد دعوه إلى الصبر إلاّ و قد اقترنت بها دعوه إلى الصلاه أيضا،إذ بهما نستعين على الأمور،بلى.قد تختلف التعابير من موضع إلى آخر،فتأتى تاره صريحه كما فى قوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ (۱)،و أخرى دون ذلك بالدعوه

۱- ۱) البقره۴۵/

إلی التسبیح أو الرکوع و السجود کمظهر أو جوهر للصلاه،أو بإضافه أمر آخر مثل ضروره الاحساس بالرعایه الالهیه کما فی هذه السوره،و لکنّ الحقیقه واحده و هی اقتران الصبر بالتبتّل،و فی هذه الآیه نجد شاهدا علی ذلک فبعد أن دعا اللّه رسوله للصبر و الاطمئنان لرعایته أمره بالتسبیح.

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ حِینَ تَقُومُ قال علی بن إبراهیم:«لصلاه اللیل» (۱)وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ

قال الباقر و الصادق(علیهما السلام) :إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان یقوم من اللیل ثلاث مرات،فینظر فی آفاق السماء،و یقرأ الخمس من آل عمران التی آخرها «إِنَّکَ لاٰ تُخْلِفُ الْمِیعٰادَ» ثم یفتتح صلاه اللیل (۲)و التسبیح هو تعظیم اللّه عزّ و جل و تنزیهه،و ما أحوج الإنسان و هو یقاوم مختلف الضغوط فی مسیرته حتی لا ینهزم أمامها إلی ذلک.و لماذا یستسلم الإنسان إلی الضغوط؟ألیس لأنّه یجدها أکبر من إرادته؟إذن فهو بحاجه إلی تذکّر اللّه لیقاوم الهزیمه و الانبهار فی داخله.

وَ إِدْبٰارَ النُّجُومِ یعنی نافله الصبح،

عن زراره عن أبی جعفر علیه السلام قال :قلت له «وَ إِدْبٰارَ النُّجُومِ» قال:«رکعتان قبل الصبح » (۳)

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۴۳

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۱۴۴

و قد يكون القيام عموم الصلاه،و لكنّ القرآن يخصّ بالذكر صلاه الليل و نافله الصبح لغرض ما.

ص:١٣٢

سوره النجم

اشاره

ص:۱۳۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال باسناده الی أبی عبد اللّه علیه السلام قال :«من کان یدمن قراءه و النجم فی کل یوم أو فی کل لیله عاش محمودا بین الناس،و کان مغفورا له،و کان محبوبا بین الناس».

بحار الأنوار/ج ۹۲/ص ۳۰۵

ص:۱۳۵

الإطار العام

بالرغم من أنّ كثيرا من آيات هـذه السوره تحـدّثنا عن الوحى ممّا يـدع القارئ يظنّ لأوّل الأمر أنّها تعالـج هـذا الموضوع،إلاّ أنّ المتـدبّر يرى أنّ السـياق يهـدف معـالجه المسؤوليه البشـريه،و تزداد هـذه الفكره وضوحـا عنـد التأكيـد على المسؤوليه المباشـره للإنسان عن أفعاله و أن ليس له إلا سعيه،و أنّه سوف يراه إن عاجلا فى الدنيا أو آجلا فى الآخره.

و العلاقه بين هـاتين الفكرتين(فكره المسؤوليه و فكره الوحى)علاقه عضويه واضـحه،ذلك أنّ إحساس الإنسان بمسؤوليته نتيجه مباشـره لإيمـانه العميق بـالوحى، و هـل تنزّل الوحى برسالات اللّه للأمم على الأنبياء عبر التاريـخ إلاّ لإتمام الحجه على الناس،و تقرير مسـئوليتهم أمام اللّه؟ كما نجد فى السوره خطا موازيا لهذا السـياق يهدف تصـحيح منهجيّه التفكير عند الإنسان،إضافه إلى علاجه العقائد المنحرفه معالجه مباشره.

ص:١٣٧

[سوره النجم (۵۳): الآيات ۱ الى ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . وَ اَلنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ (۱) مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوىٰ (۲) وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ اَلْهَوىٰ (۳) إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ (۴) عَلَّمَهُ شَدِيدُ اَلْقُوىٰ (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ اَلْأَعْلىٰ (۷) ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰى (۸) فَكٰانَ قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ (۹) فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ (۱۰) مٰا كَذَبَ اَلْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ (۱۱) أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ (۱۲) وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ (۱۳) عِنْدَ سِدْرَةِ اَلْمُنْتَهىٰ (۱۴) عِنْدَهٰا جَنَّةُ اَلْمَأْوىٰ (۱۵) إِذْ يَغْشَى اَلسِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ (۱۶) مٰا زٰاغَ اَلْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ (۱۷) لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ اَلْكُبْرىٰ (۱۸)

اللغه

۵[شديد القوى]:هو اللّه و قيل جبرئيل عليه السلام .

۶[مرّه]:قوّه،و أصل المره خلط فى العروق كالصفراء و السوداء،و سمّى مره لقوّه البدن به،أو المراد بذى مرّه:

الحصافه فى العقل و الرأى.

۸[فتدلى]:أصل التدلّى استرسال مع تعلّق و هو مثل تدلّى الدلو فى البئر.

ص:۱۳۹

۱۴[سدره المنتهی]:سدره فی الأفق الأعلی بلغها الرسول صلی الله علیه و آله .

ص:۱۴۰

إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ

هدى من الآيات:

تهدينا آيات الدرس الأوّل إلى علاقه الرسول صلى الله عليه و آله بربّه من خلال الوحى، هذه الميزه التى تميّزه عن دعاه النظريات البشريه،و عما تتفتق به عقول النوابغ من أفكار.إنّه لا ينطق إلاّ بإذن اللّه،ممّا يجعله حجه و قدوه للبشريه فى كلّ مكان و زمان،و هو على يقين تام بنبوته،لا يشك فى ذلك طرفه عين أبدا.

و لا شك أنّ هذه منزله رفيعه بلغها النبى الأعظم صلى الله عليه و آله دون سائر البشر و أعلى من سائر الأنبياء،و لكن ذلك لم يصيّره إلها،بل تدلّى،و ذلك يعنى أنّه أرفع من الخلق،و أدنى من الخالق.

بينات من الآيات:

[١] وَ النَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ

ص:١۴١

قد یکون القرآن یقصد هنا نجما معیّنا أخبر المسلمین بسقوطه فی المستقبل،کما تشیر الروایات إلی ذلک،و لکنّنا بالنظر إلی الظاهر و إلی الهدف من وراء هذا القسم نستطیع اعتباره شاملا لکلّ نجم،و إنّما عرّف اللّه المقسم به ب(ال)لأنّه أبلغ من التنکیر فی القسم کما قیل،و لکن لماذا یقسم القرآن بالنجم حین یهوی؟ أولا:ربما لأنّ الکثیر من الناس کانوا یعتقدون بأنّ النجوم ثابته لا تتغیّر،و قد اتخذها بعضهم آلهه من دون اللّه،و سقوطها أبطل هذا الإعتقاد الضال.

ثانیا:قد لا یکون المقصود من الهوی السقوط و الانتشار،کما فی قوله تعالی:

وَ إِذَا النُّجُومُ انْکَدَرَتْ (1)، وَ إِذَا الْکَوٰاکِبُ انْتَثَرَتْ (2)کعلامه لیوم القیامه،و إنّما المیل إلی طرف من الأفق،الأمر الذی یجعله أفضل هدایه و تعریفا للإنسان بالطریق.

[۲]و کما أنّ النجم رمز للهدایه فإنّ الرسول صلی الله علیه و آله هو علم رفیع لهدایه البشریه،کما

قال الإمام علی علیه السلام :«ألا إنّ مثل آل محمّد(صلّی اللّه علیه و آله) کمثل نجوم السماء،إذا خوی نجم طلع نجم » (3)،و لکنّ الرسول صلی الله علیه و آله یختلف عن النجم فی أنّ دلالته و هدایته للناس تبقی قائمه فی رسالته و سیرته حتی بعد موته، أمّا النجم فإن دلالته تنتهی بهویه،کما

یقول الإمام علی علیه السلام :«أیّها الناس حذوها من خاتم النبیین(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم):إنّه یموت من مات منّا و لیس بمیّت،و یبلی من بلی منّا و لیس ببال » (4)،و أولی بالعاقل أن یتبع هدی الرسول الذی یتبع الحق،و لا یکذب أهله،لا أن یتبع ظنون نفسه،و لا تخرّصات

۱- ۱) التکویر ۲/

۲- ۲) الإنفطار ۲/

۳- ۳) نهج البلاغه/خ ۱۰۰

۴- ۴) نهج البلاغه/خ ۸۷

الکهنه و المنجّمین.

مٰا ضَلَّ صٰاحِبُکُمْ وَ مٰا غَویٰ الضـلاله هی الانحراف عن أصل الطریق،بینما الغوایه-حسـبما یبدو- الانحراف عن سواء الطریق،فقد یضل الواحد طریقه إلی مدینه شرقیه فیتجه غربا، و قد یغوی عنها فلا یتجه إلیها عبر خط مستقیم..و لم یضل النبی طریقه نحو اللّه فیختـار-حاشـاه-طریقا آخر،کما لم یتنکّب عن الخط المسـتقیم و لا شـیئا قلیلا، فلم یکن کأبینا آدم-علیه السـلام-الـذی قال عنه ربّنا: «وَ عَصیٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَویٰ» (۱).

[۴-۳]بلی.لقـد زعم البعض أنّ عصـمه النبی صـلی الله علیه و آله محـدوده فی الشؤون المتصـله بالرسـاله نفسـها و حسب،و لکن السؤال:إذا کیف نعرف أنّ ما یتحدّثه الرسول هل هو جزء من الرساله،أو هو شأن من الشؤون التی یخطأ فیها؟کلاّ..

إنّ اللّه قـد عصم الأنبیـاء جمیعـا،و أیّـدهم بروح القـدس،حـتی تتمّ حجته علی خلقه، و لا یبرّروا مخـالفتهم لهم بعـدم الثقه بـأنّ کلامهم من عند اللّه،و قد قال سبحانه:

«وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِیلِ لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْیَمِینِ ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ الْوَتِینَ» (۲)، و قال: «عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ» (۳).

إنّ الإنسان تنازعه من داخله قوّتان:نور العقل الـذی یهـدیه إلی الحق،و شـهوات الهوی التی تـدفعه باتجاه الباطل،و لقد أدّب اللّه نبیّه صلی الله علیه و آله إلی أن اعتصم من آثار الهوی،و جسّد الحق لا یزیغ عنه لحظه و لا قید شعره.

ص:۱۴۳

۱- ۱) طه ۱۲۱/

۲- ۲) الحاقه۴۴/-۴۶

۳- ۳) الجن۲۶/-۲۷-۲۸

إنّ العقل المحض لا يخطئ أبدا،و لذلك اعتبره الإسلام رسولا باطنا كما أنّ الأنبياء كانوا رسلا ظاهرين،و حجه خفيّه كما الرسالات حجه ظاهره.

وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ* إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ و من عمق الأدب القرآنى و بلاغته أنّه لم يكتف بكلمه «وَحْيٌ» بل أضاف إليها كلمه «يُوحىٰ» الفعل المبنى للمجهول،و ذلك لأنّ الوحى قد يكون من فعل نفس الإنسان،أمّا إذا بنى للفاعل المجهول فإنّه يكون من طرف آخر،و الآيه التاليه تبيّن الموحى و هو اللّه شديد القوى، نفيا لاحتمال أن يكون الرسول يتلقّى رسالته من قوى يتصل بها كالجن أو بعض الكهنه،كما ادّعى عليه الجاهلون «وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» (١)،كلاّ.إنّه يتلقّى رسالته عبر الوحى من اللّه،و هذا الاتصال هو الذى يمدّه بالعصمه،و حديث عصمه الرسول حديث طويل بحثه الدارسون،و قد اختلفوا فيه كثيرا،و أنا أترك الخوض فى هذا الموضوع بالصوره التى بيّنها الكثير،و أقتصر هنا على الحديث عنه من زاويه هامّه جدا،و هى دراسه حياه الرسول صلى الله عليه و آله ،لأنّ ذلك كما اعتقد سوف يكشف لنا شخصيته الفذّه،و كيف أنّها لم تتأثّر بأىّ عامل هوى،إنّما كانت دائما و أبدا صنيعه العقل و الوحى.

لقد عاش صلى الله عليه و آله فى مكّه المكرّمه-قبل أن يظهره اللّه على المشركين فيها- تلاحقه عصابات الضلاله و البغى من قريش،يحاولون أن يخدعوه عن دينه، و يصرفوه عن رسالته،بالإرهاب تاره و بالترغيب أخرى،حتى بلغ الأمر بهم أن عرضوا عليه السلطه المطلقه عليهم و على أموالهم،و لكنّه لم يخش إرهابهم،و لم تحرّفه عروضهم المغريه،إنّما تسامى على ذلك كلّه،و أجابهم:

«و اللّه لو وضعتم الشمس فى يمينى،و القمر فى يسارى،على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه »،

١- ١) الدخان/١۴

و اضطر من شدّه ضغوطهم و أذاهم إلى الهجره عن مكه، و كانت القبائل جميعها ترفض إيواءه عداوه له أو خوفا من قريش،و سار نحو الطائف لعلّه يجد مفزعا فيها، و لكنّه اصطدم بحقدهم الدفين ضدّه و ضدّ رسالته،حيث طردوه و أدموا ساقيه الشريفتين بالحجاره،لكنّه مع ذلک كان يتحدّى الواقع المر،و يسمو بروحه الطاهره إلى آفاق الإيمان باللّه،

فقد جاء فی الخبر أنّه رفع يديه إلى السماء و قال:«اللّهمّ اهد قومی فإنّهم لا يعلمون،إلهی إن لم يكن بک غضب علیّ فلا أبالی ».

و حينما هاجر إلى المدينه المنوّره انطلق منها يقهر القوى العسكريه المضاده، فحطّم كبرياء قريش،و دمّر حصون اليهود من أعداء الرساله و غيرهم،و إلى حين رفعه اللّه إليه كان قد جهّز جيشا ليقاتل الروم القوه العظمی يومذاک،و بين هذا و ذاک بنی أمّه و حضاره لا زالت البشريه و لن تزال كلّما تقدّم بها الزمن و التطوّر تجد نفسها دون عظمتها.و هو مع ذلک لم تتغيّر أخلاقه و لا ـ سيرته فی العيش،إنّما بقی و هو الحاكم العظيم يربط حجر المجاعه على بطنه،و يتواضع للصغير و الكبير،أ ترى من هذه حياته،و من جعله اللّه أسوه مطلقه وصفها بالحسن إلاّ ـ أن يكون معصوما؟ ثم أ ليست العصمه أن لا ـ يتأثّر الإنسان بالعوامل السلبيه،و لا يخرج عن خطّه و لا قيد شعره؟بلى.إذن فلندرس حياه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله هل نجد فيها و لو كلمه أو تصرّفا يخالف الحق؟ إنّ من السهل على العاقل أن يميّز الذی ينطق عن الهوى عمّن ينطق عن العقل، فالذی ينطق عن الهوى لا يصدق دائما،و لا يكون حديثه موافقا للعقل،إنّما يكون تعبيرا عن شهوات صاحبه،و متناقضا متقلّبا حسب الظروف و المصالح.

ثم لننظر إلى الرساله التی جاء بها النبی هل تخالف العقل و الحق؟و هل فيها شیء من التناقض؟كلاّ..إذن فهی معصومه،و من عند اللّه، وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ

غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً (۱).

ثمّ أنه کان ینقل ما ینزل علیه من اللّه بامانه تامّه إلی المجتمع لا یغیّر شیئا أبدا، و حتی الآیات التی تشتمل علی لومه کان یثبتها فی الرساله،و یبلّغها للناس،و لو کان یتبع أهواءه لکان یخفیها علیهم،و من هذه الآیات قوله تعالی: وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنٰا غَیْرَهُ وَ إِذاً لاَتَّخَذُوکَ خَلِیلاً* وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلاً* إِذاً لَأَذَقْنٰاکَ ضِعْفَ الْحَیٰاهِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَکَ عَلَیْنٰا نَصِیراً (۲)و قوله: عَفَا اللّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْکٰاذِبِینَ (۳)، و الآیه الکریمه: لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ أَوْ یُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظٰالِمُونَ (۴)و أشدّ من ذلک کلّه قوله تعالی:

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِیلِ* لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْیَمِینِ* ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ الْوَتِینَ* فَمٰا مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حٰاجِزِینَ (۵).

و أخیرا:لم یکن النبی یبلّغ الرساله للآخرین فقط،بل کان هو یطبّقها أیضا، و قبل غیره،بما فیها من واجبات تقتضی أن یخالف الإنسان أقوی منعطفات الهوی، فهو یتقدّم المؤمنین فی أمر حاسم و خطیر کالقتال.أ تری لو کان یتبع أهواءه یصنع کلّ ذلک؟! [۵-۶]و کیف یتبع الرسول هواه،فیخفی بعض الذی أنزل علیه،أو یتقوّل علی اللّه بدافع الشهوه و المصلحه،و هو یعلم ما عنده من البطش و الشده؟

۱- ۱) النساء/۸۲

۲- ۲) الإسراء/۷۳-۷۵

۳- ۳) التوبه/۴۳

۴- ۴) آل عمران/۱۲۸

۵- ۵) الحاقه/۴۰-۴۷

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ ذو الإراده المطلقه النافذه فی الحیاه،و هذه ضمانه لتنفیذ الحق الذی جاء به القرآن و تطبیقه علی الحیاه.

ذُو مِرَّهٍ أی مطلق العلم و الحکمه،ممّا یجعل الرساله(الوحی)کامله دقیقه لا یلحقها نقص و لا عیب، و لأنّ الرسول کان یتلقّی رسالته و علمه من صاحب هاتین الصفتین فقد تکامل بالتأیید و العلم الإلهیین..

فَاسْتَویٰ و فی الآیه أقوال شتی:فقال الکثیر من المفسّرین:أنّ من علّم رسول اللّه هو جبرئیل الذی هو شدید القوی،و هو أیضا ذو مرّه و قد استوی.

و فی کلمه «ذُو مِرَّهٍ» قال البعض:أنّ معناها صاحب قوّه،و قال آخرون:ذا عقل،و قیل:صاحب خلق حسن،أمّا عن الإستواء فقال البعض:أنّ معناه أنّ جبرئیل استوی هو و الرسول،و قال البعض:أنّ الرسول قد استوی،و قال البعض:

بل اللّه هو الذی استوی علی عرش القدره.

و لعل التفسیر الذی اخترناه آنفا هو الأقرب،لأنّ السیاق لا یحدّثنا شیئا عن جبرئیل،ثم أنّ الإستواء الذی یهتم به سیاق السوره متصل بالرسول،لأنّه یحدّثنا عن الرسول و لیس عمّن علّمه.

[۷]و بهذا الاتصال أیضا سمی النبی محمد صلی الله علیه و آله بروحه طهرا و عرفانا و زلفی إلی أفق الحقّ الأعلی،فصار سیّدا لأفضل خلق اللّه و هم النبیّون(علیهم السلام)،

ص:۱۴۷

و لقد كان عروجه إلى اللّه فى تلك الرحله المشهوده تجسيدا لذلك السمو.

لقد كان(صلّى اللّه عليه و آله)يتلقّى الوحى عبر جبرائيل حينا،و بصوره مباشره حينا،و لعلّ أعظم ساعات التلقّى كانت حينما رفعه اللّه إلى مقام قال عنه رفيقه جبرئيل:

«مكانك يا محمّد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط و لا نبى » حتى لم يبق بينه و بين ربه واسطه،و دنى من اللّه قربا فكان كما

قال الإمام الصادق عليه السلام :بينهما حجاب يتلألأ بخفق،فنظر فى مثل سمّ الإبره إلى ما شاء اللّه من نور العظمه، فقال اللّه تبارك و تعالى:«يا محمّد!قال:لبيك » (1)و كلّمه تكليما،كما كلّم موسى بن عمران(عليه السلام).

وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلىٰ يطوف معه جبرئيل و هو على البراق،يصعد من سماء إلى أخرى ينظر إلى آيات اللّه،و يزداد برؤيتها يقينا و صعودا فى آفاق الإيمان حتى بلغ السماء السابعه.

ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰى حتى بلغ حجب النور،

يقول النبى صلى الله عليه و آله : «فقال لى جبرئيل:تقدّم يا محمّد، و تخلّف عنى،فقلت:يا جبرئيل!فى مثل هذا الموضع تفارقنى؟!فقال:يا محمّد إنّ انتهاء حدّى الذى وضعنى اللّه عزّ و جلّ فيه إلى هذا المكان،فإن تجاوزته احترقت أجنحتى،بتعدّى حدود ربّى جلّ جلاله،فزخّ بى فى النور زخّه حتى انتهيت إلى حيث(ما)شاء اللّه من علوّ ملكه » (2).

و يخالف الفكر الإسلامى الأصيل النظره الفلسفيه،أو ما يسمّيها البعض

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۱۸-ص ۳۰۶

۲- ۲) المصدر/ص ۳۴۶

بالعرفانیه فی علاقه الخالق بالمخلوق،فبینما تری هذه وحده الوجود و إمکانیه الحلول،تعالی اللّه عمّا یصفون،تفصل النظریه الإسلامیه بین الإثنین،و تری أنّ الخالق غیر المخلوق،و أنّه لا یمکن بأیّ حال من الأحوال أن یصل الإنسان إلی مقام الربوبیه،مهما بلغ من الفضل و العلم و الإیمان،بل المجال مفتوح أمام البشر للتکامل فی معارج القرب من ربّه،أفقا أفقا،و درجه درجه،دون أن ینتهی ذلک أبدا،لأنّ

«اللّه خلو من خلقه، و خلقه خلو منه » (۱).

إنّ القرآن یقرّ رحله المعراج و دنوّ النبی صلی الله علیه و آله من ربّه،و لکنّه یعتبره دنوّا معنویّا لا مادیّا،و یقول بأنّه(صلّی اللّه علیه و آله)تدلّی فی علوّه،کما الدلو حینما یتأرجح فی البئر فلا هو إلی قعره حیث الماء،و لا هو إلی أعلاه حیث الأرض،إنّما بین الإثنین،و هکذا سمی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله حتی ارتفع عن سائر الخلق بقر به من اللّه،و لکنّه لم یصل إلی مقام الربوبیه،فهو فوق الخلق و دون الخالق،

و فی الخبر عن ثابت بن دینار قال :سألت زین العابدین علیّ بن الحسین(علیهما السلام) عن اللّه عزّ و جلّ جلاله هل یوصف بمکان؟فقال:«تعالی اللّه عن ذلک»،قلت:

فلم أسری بنبیّه محمّد صلی الله علیه و آله إلی السماء؟قال:«لیریه ملکوت السماوات و ما فیها من عجائب صنعه و بدائع خلقه»،قلت:فقول اللّه: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قال:«ذاک رسول اللّه صلی الله علیه و آله دنا من حجب النور،فرأی ملکوت السماوات،ثمّ تدلّی فنظر من تحته إلی ملکوت الأرض » (۲).

و فی حدیث آخر عن یونس بن عبد الرحمن قال :قلت لأبی الحسن موسی بن جعفر علیه السلام :لأیّ علّه عرج بنبیّه إلی السماء و منها إلی سدره المنتهی،و منها إلی حجب النور و خاطبه و ناجاه هناک،و اللّه لا یوصف بمکان؟فقال علیه السلام :«إنّ اللّه لا

ص:۱۴۹

۱- ۱) التوحید-للصدوق/ص ۱۴۳

۲- ۲) بحار الأنوار/ج ۸/ص ۳۴۷

یوصف بمکان و لا یجری علیه زمان،و لکنّه عزّ و جلّ أراد أن یشرّف به ملائکته و سکّان سماواته، و یکرمهم بمشاهدته،و یریه من عجائب عظمته ما یخبر به بعد هبوطه،و لیس ذلک علی ما یقوله المشبّهون،سبحان اللّه و تعالی عما یصفون » (۱)و قد یکون التدلّی الأخذ من المعرفه و العلم،کقولنا تدلّی فلان إذا أرسل دلوه فی البئر،و اغترف منه ماء،فإنّ الرسول کان یتدلّی معرفه من بحار العلم و النور التی مرّ بها فی ملکوت السماوات السبع أثناء رحله المعراج،

قال الإمام موسی بن جعفر علیهما السلام فی جواب له علی سؤال رجل عن هذه الآیه و معنی «فَتَدَلّی» :«إنّ هذه لغه فی قریش،إذا أراد الرجل منهم أن یقول:قد سمعت یقول:قد تدلّیت،و إنّما التدلّی الفهم » (۲)و کلّما فهم الإنسان الحقائق،و ازداد معرفه بربّه،کلّما تقرّب إلیه و دنی منه،و لعلّ مرور الرسول فی عروجه بملکوت السماوات،و مشاهدته لما فیها من الآیات التی کانت تعرّفه بربّه أکثر فأکثر کلّما صعد فی الأفق نحو الحدّ الذی وصل إلیه و تجلّی له فیه نور ربّه،کان تهیئه له لیری التجلّی الأعظم للّه فی نوره الذی قرب منه الرسول صلی الله علیه و آله .

فَکانَ قابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنی أبدا لیس اللّه بعیدا عن خلقه.أ و لم تقرأ

فی الدعاء :«و أنّ الراحل إلیک قریب المسافه،و أنّک لا تحتجب عن خلقک إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونک » (۳).

و لکنّ الإنسان هو البعید عن ربّه.أو لیس قد تراکمت علی نفسه حجب الغفله و الجهل و المعاصی،فکیف یتلقّی نور ربّه؟!

ص:۱۵۰

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین/ج(۵)/ص(۱۸۵).

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵-ص ۱۵۱

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۵-ص ۱۵۲

وهب أنّه طهر قلبه من كلّ ذلك فكيف تستقبل هذه النفس المحدوده العاجزه أنوار عظمه الخالق دون أن يتصدّع قلبه.أو ليست قدره الاحتمال عند النفس البشريه محدوده؟و هل تصبر العين على التركيز فى قرص الشمس طويلا؟كلّا..

لقد تجلّى الربّ لحظه للجبل فجعله دكّا،و لم يصبر قلب موسى ذلك النبى العظيم لرؤيه الجبل الذى تدكدك بتجلّى الرب فخرّ صعقا،فيا ترى كيف صمد قلب محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)لنور ربّه،و أىّ مقام سام تعالى إليه نبيّنا الأكرم حتى كان قاب قوسين من ربّه أو أدنى؟! و لم يحدّد القرآن المسافه بالضبط،لعلّه لبيان حاله التصاعد و التنازل التى يتعرّض لهما الإنسان فى القرب و البعد من ربّه،كما قال عن قوم يونس «وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَهِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» ،و لكنّه قال «قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ» فى مقام الرسول لأنّه فى حاله تصاعديه من الإيمان لا تنازليه.

و كلمه أخيره:

قال تعالى «قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ» معبّرا بهذه الوحده القياسيه العرفيه عن قرب الرسول للدلاله على شدّه القرب المعنوى من اللّه،و لتأكيد الفاصله بين الخالق و المخلوق،و قد قالوا فى قاب قوسين:أنّ القاب هو المسافه بين المقبض و السّيه.

[۱۰]و هنالك حيث اقترب الرسول من ربّه،و تهيّأ من الجانبين،أوحى اللّه إليه أمرا أبهمه فى النصّ ب «مٰا» دلاله على العظمه.

فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ قال علىّ ابن إبراهيم(ر ض):«وحى مشافهه» (۱)،

و قال الصادق عليه السلام

ص:۱۵۱

۱- ۱) مفاتيح الجنان/دعاء أبى حمزه الثمالى.

لأبی بصیر:«یا أبا محمّد ما جاءت ولایه علی من الأرض،و لکن جاءت من السماء مشافهه » (1).

[11-12]و إذا کان الرسول رأی نور ربّه بعینه لمّا دنی منه،فإنّه رأی ربّه ببصیره الإیمان فی وحیه المنزل علیه،و رؤیه القلب أجلی و أصدق من رؤیه البصر،بل إنّ هذه الرؤیه القلبیه کانت تأکیدا و تصدیقا لما رآه بعینه من النور.

و لا یمکن أن یری الإنسان ربّه بعینه مشافهه،و لا بعقله لأنّه هو الآخر نعمه محدوده من اللّه،إنّما یری ربّه بربّه من خلال تجلّیه فی آیات الخلق و الوحی،و فی الدعاء نقرأ إشاره إلی هذه الحقیقه عند

قول الإمام علیه السلام :«یا من دلّ علی ذاته بذاته،و تنزّه عن مجانسه مخلوقاته،و جلّ عن ملاءمه کیفیّاته،یا من قرب من خطرات الظنون،و بعد عن لحظات العیون » (2).

و قلب الإنسان حینما یری شیئا فإنّه لا یخطئ فی رؤیته،ذلک أنّ وجدان الإنسان یصدّق الحق.

مٰا کَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأیٰ من الحق النازل علیه من عند اللّه،بل هو علی یقین و قناعه راسخه،لا یمکن أن تزلزله الشبهات و جدلیّات الجاهلین،و أقوال الرسول صلی الله علیه و آله و سلوکیّاته الشخصیه و الاجتماعیه کلّها تدلّ علی أنّه لم یکن یتکلّف فی إیمانه،و إنّما کان ینطلق من قناعه صادقه.

أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلیٰ مٰا یَریٰ

1- 1) المصدر/ص 150.

2- 2) مفاتیح الجنان/دعاء الصباح

إنّكم لا يمكن أن تحرّفوا مسيرته،أو تدخلوا إلى نفسه الشك فى رسالته،لأنّه على اليقين.

قال محمّد بن الفضيل سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ربّه عزّ و جلّ؟فقال:نعم،رآه بقلبه.أمّا سمعت اللّه عز و جل يقول: «مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ» لم يره بالبصر،و لكن رآه بالفؤاد (۱)،و

سئل الرسول صلى الله عليه و آله عن الآيه نفسها فقال:«قد رأيت نورا » (۲).

[۱۵-۱۳] وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ و ذلك يحتمل معانى،منها:أنّ الرسول كان يرى اللّه متجلّيا فى كتابه (الوحى)،ثم رأى تجلّيا آخر لربّه عند ما عرج به جبرئيل عليه السلام إلى الأفق الأعلى، و دنى من ربّه فخاطبه مشافهه،و قد يكون المعنى:أن جبرئيل عرج بالنبى إلى حيث أوحى له اللّه ما أوحى،و هناك رأى ببصره نور اللّه،و بقلبه رأى ربّه،ثم عرج به إلى مقام آخر رأى فيه تجلّ ثان للّه عزّ و جل،و هو قوله تعالى:

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ و هى شجره فى السماء السابعه(عن على بن إبراهيم) (۳)

«و إنّ غلظ السدره لمسيره مائه عام من أيّام الدنيا» (۴)عن الباقر عليه السلام ،و ربما سمّيت بهذا الاسم لأنّها الموضع الذى ينتهى الملائكه إليه بأعمال العباد (۵)، و لأنّها منتهى ما يمكن أن يبلغ

ص:۱۵۳

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۵۳

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۱۵۵

۴- ۴) المصدر/ص ۱۵۴

۵- ۵) المصدر

إليه مخلوق قربا و دنوّا من ربّه. (1)

و قيل:هی شجره طوبی (2)،و قال علیّ بن إبراهيم(رض)هی الشجره:

«التی يتحدث تحتها الشيعه فی الجنان» (3)،و لعلّها البرزخ بين عالمی الدنيا و الآخره.

و الآيه الكريمه تشير إلی هذا التفسير،قال تعالی:

عِنْدَهٰا جَنَّةُ الْمَأْوىٰ [16-17]و هناك تجلّی نور الربّ لنبيه الأعظم صلی الله عليه و آله فغشی السدره،كما تجلّی من قبل لموسی بن عمران عليه السلام ففاض نور الوحی علی تلك الشجره التی أوحی اللّه إليه عندها.

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ من نور ربّها،و عندها ثبّت اللّه فؤاد نبيّه ليری ذلك النور،و يبصر به آياته،

قال الإمام أبو جعفر عليه السلام :«فتجلّی لمحمّد نور الجبّار عزّ و جلّ،فلمّا غشی محمّدا صلی الله عليه و آله شخص بصره،و ارتعدت فرائصه،فشدّ اللّه عزّ و جلّ لمحمّد قلبه، و قوّی له بصره،حتی رأی من آيات ربّه ما رأی » (4)فلأنّ اللّه ثبّته استطاع أن يستوعب الحقائق.

مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ

1- 1) المصدر/ص 155 و ص 156 رقم 44

2- 2) بحار الأنوار/ج 18-ص 289

3- 3) نور الثقلين/ج 5-ص 156

4- 4) المصدر/ص 154

و الزيغ هو الانحراف،قال تعالى: فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ (۱)يعنى لمّا انحرفوا عن الحق،و قال: «رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا» (۲)أى لا تحرفها عن الحق،و قال: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ أى انحراف فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ (۳)،و لكنّ زيغ البصر هنا يعنى انحرافه بعامل الخوف،و يشبهه قول اللّه:

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا (۴).

أمّا الطغيان فهو الزياده السلبيه فى الشيء،و منه طغيان الحاكم إذا بالغ فى الظلم،و طغيان النهر إذا فاض ماؤه،و طغيان البصر أن يرى الإنسان الشيء أضخم من حجمه،و الرسول لم يزغ بصره،بل كان مطمئنّا ركّز نظره فى الحقيقه لم ينحرف عنها بما ثبّته اللّه تعالى،و لم تطغ عينه فكان ما رآه صغيرا و لكنّه صوّره لنا أكبر من حجمه عند ما رجع من عروجه.

[۱۸]إنّ الآيات التى رآها كانت كبيره بالفعل.

لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى كسدره المنتهى التى تظلّ الورقه منها الدنيا بأجمعها،و يقف عليها ملك يسبّح اللّه لا يفتر عن ذلك،و كنور اللّه الذى تجلّى للنبى صلى الله عليه و آله عندها،و هكذا الكثير من الآيات التى تعرّضت إليها أحاديث الإسراء و المعراج،إلاّ أنّ الكبر فى الآيات لا ينصرف إلى حجمها و حسب،إنّما هى قبل ذلك كبيره فى دلالتها على الحق.

۱- ۱) الصف/۵

۲- ۲) آل عمران/۸

۳- ۳) آل عمران/۷

۴- ۴) الأحزاب/۱۰

و كلمه أخيره:

إنّ الآيات التى رآها الرسول صلى الله عليه و آله لا يلمّ بها الكلام مهما كان طويلا و واضحا،و قد لا تستوعبها أذهاننا،لأنّ الكثير منها حقائق غيبيّه مجرّده،لذلك يأتى ذكرها فى القرآن كما فى الأخبار ذكرا إجماليّا.

ص:۱۵۶

[سوره النجم (۵۳): الآیات ۱۹ الی ۳۰]

اشاره

أَ فَرَأَيْتُمُ اَللاّٰتَ وَ اَلْعُزّٰى (۱۹) وَ مَنٰاةَ اَلثّٰالِثَةَ اَلْأُخْرىٰ (۲۰) أَ لَكُمُ اَلذَّكَرُ وَ لَهُ اَلْأُنْثىٰ (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزىٰ (۲۲) إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى اَلْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ اَلْهُدىٰ (۲۳) أَمْ لِلْإِنْسٰانِ مٰا تَمَنّٰى (۲۴) فَلِلّٰهِ اَلْآخِرَةُ وَ اَلْأُولىٰ (۲۵) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اَللّٰهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْضىٰ (۲۶) إِنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ اَلْمَلاٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ اَلْأُنْثىٰ (۲۷) وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً (۲۸) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ اَلْحَيٰاةَ اَلدُّنْيٰا (۲۹) ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِهْتَدىٰ (۳۰)

اللغه

۲۲[ضیزی]:جائره،من ضاز یضیز إذا جار.

ص:۱۵۷

أَمْ لِلْإِنْسٰانِ مٰا تَمَنّٰى

هدى من الآيات:

المسافه بين الحق و الباطل و بين الهدى و الهوى هى بالذات المسافه بين الحقّ و التمنّيات،و بين السعى و الأحلام،و إذا عرفنا الفارق بين واحده من هذه المفارقات فإنّها ستكون مقياسا لنا نعرف بها مثيلاتها.

فالذين يعيشون على التمنّيات هم الذين يعبدون الأصنام،زاعمين بأنّ عبادتهم لها سوف تغنيهم عن الحقّ الواقع،و هم الذين يزعمون بأنوثه الملائكه و بنوّتهم للّه، و أنّهم يشفعون لهم من دون إذنه تعالى،و هم كذلك الذين يتبعون الظن طلبا للتخلّص من مسئوليه الحقّ و العلم.

ففى الدرس السابق بيّن القرآن و بوضوح كاف أنّ الوحى رؤيه مباشره و حضور النبى صلى الله عليه و آله عند اللّه بدئ كلّ حق و بديع كلّ واقع سبحانه،و كذلك شهوده الواعى للملك المنزل من عنده و هو جبرئيل عليه السلام و وعيه و عرفانه لآيات اللّه،و بالتالى

ص:١٥٩

فإنّ مسافه لا متناهيه تفصل بين واقع الحضور و الشهود و العلم عند الرسول و بين الأهواء و الظنون عند أولئك الكفّار.

و هنا يلج السياق فى الحديث المفصّل ببيان الضلالات التى وقع فيها المشركون بابتعادهم عن الهدى،و اعتقادهم بالأصنام ليس عن قناعه،بل لأنّهم أرادوا منها الشفاعه،و الفرار من المسؤوليه،و الآيات تنسف هذا الضلال بالتأكيد على أنّ الملائكه مع كرامتهم عند اللّه لا يملكون الشفاعه إلاّ من بعد إذنه و رضاه،فكيف بهذه الأصنام الحجريه التى لا تبصر و لا تسمع،و لا تنفع و لا تضر،بل يستوجب الإعتقاد بها الغضب و العذاب؟!بلى.إنّهم يتمنّون ذلك و يزعمون،و الظن لا يغنى من الحق شيئا،إذ ليس فى هذا العالم إلاّ الحق،و إنّما الحق أن يبلغ الإنسان ما يسعى إليه.

بينات من الآيات:

[۱۹-۲۰]الجهل أرضيه أكثر العقائد الفاسده،فلأنّ المشركين لم يعرفوا عظمه اللّه و آياته طفقوا يعبدون الأصنام،و لذلك نجد القرآن بعد تأكيد علم النبى صلى الله عليه و آله بربّه من خلال الوحى يأتى على بيان فساد عقائد المشركين بالآلهه المزيّفه التى عبدوها من دون اللّه،بتوجيههم إلى العلم و تبصّر الحقائق دون الاسترسال مع الأهواء،و يقول مستنكرا هذا الضلال:

أَ فَرَأَيْتُمُ اللاّٰتَ وَ الْعُزّٰى* وَ مَنٰاةَ الثّٰالِثَةَ الْأُخْرىٰ و هى من أهمّ و أشهر الأصنام التى عبدها المشركون فى الجاهليه،فأمّا «اللاّت» فقيل أنه صنم لأهل الطائف جعلوا له سدنه و كهنه و حجّابا،و زعموا أنّه تأنيث للّه سبحانه و تعالى،و قالوا:إن كان لأهل مكّه بيتا يزورونه و يطوفون حوله كلّ عام فنحن لنا هذا الإله،و كانت قبيله ثقيف التى تسكن الطائف تقدّسه

ص:۱۶۰

و تحترمه،و أمّا «الْعُزّی» فقیل أنّه تأنیث عزیز،و هو شجره بین الطائف و مکه یقدّسونها و یعبدونها،و قیل عن «مَنٰاةَ» أنّه بین مکّه و المدینه(و لعلّ التعبیر مستوحی من الأمنیه)و کانت قبیلتی الأوس و الخزرج و أخری غیرهما یزورونه و یطوفون حوله،و ربما کانوا یحرمون عنده فی طریقهم إلی مکّه المکرّمه.

و المشرکون عبدوا هذه الأصنام و لم یروا علیها برهانا قاطعا،إنّما نطقوا عن الهوی،و اتبعوا الظن،أمّا الرسول فهو علی بصیره من أمره،و هدی من ربّه.إنّه آمن باللّه من خلال وحیه الذی تنزّل علیه،الذی کان من الدلاله و الحجّیه أن رآه متجلّیا فیه،کما رآه متجلّیا فی مشاهدات المعراج.

[۲۱-۲۲]و ربما کان المشرکون یعتقدون بأنّ هذه الأصنام هی رموز لملائکه فی السماء،فهم یقدّسونها لکی تقرّبهم إلی تلک الملائکه،و هی بدورها تشفع لهم عند اللّه،کما قالوا: «مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اللّٰهِ زُلْفیٰ» (۱)،و حیث یعتقد الجاهلون بأنّ الملائکه إناث فقد سمّوا هذه الأصنام تسمیه الأنثی و نسبوها إلیه عزّ و جل،و القرآن یستنکر هذه النسبه التی لا تقوم علی أساس من العلم و الحق.

أَ لَکُمُ الذَّکَرُ وَ لَهُ الْأُنْثیٰ و حیث یعتقد المشرکون بأنّ الذکر أفضل من الأنثی فکان ینبغی علی ضوء عقیدتهم أن یتقرّبوا إلی اللّه بالأحسن لا الأسوأ،و من هذا المنطلق تکون قسمتهم ظالمه حتی حسب معتقداتهم الضاله.

تِلْکَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِیزیٰ بعیده عن الحق،و هم لم یروا الملائکه و لم یشهدوا خلقهم حتی یزعموا بأنّهم

۱- ۱) الزّمر۳/

كانوا إناث!،و هنا تتضح منهجيه القرآن،فهو يحطّم العقائد المنحرفه من بناها الأساسيه،و ذلك يزيل القدسيه التى يعتقدونها فى أصنامهم،ببيان أظهر الأدلّه على زيفهم و انحرافهم،مع أنّ الأظهر قد لا يكون هو أهمّ الأدلّه،و قد لا يعبر عن كلّ الحقيقه،و لكنّه يحطّم القدسيه التى أضفوها على معتقداتهم و رموزها من الأصنام و الطغاه،و بعد أن تزول عقبه القدسيه الموهومه عن طريق النفس يتحرّر الفكر، و ينطلق للبحث عن الحقيقه،فيطرح القرآن الحقائق الأعمق للنظر فيها.

[۲۳]و بعد التمهيد المتقدّم الذى استهدف إزاله قدسيه معتقدات المشركين ينسف القرآن أفكارهم من أساسها نسفا،و ذلك ببيان أنّها لا رصيد لها أبدا من الواقع و الحق،و أنّها لا تقوم إلّا على الأوهام و الظنون.

إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ فهى لا واقعيه لها،بل هى مجرّد أسماء و رموز لا مسمّيات لها،و لعلّ معنى ذلك أنّ قوّه هذه الأصنام نابعه من ظنونكم و أوهامكم،لا من واقع حق وراء ذلك.أو ليس ما يتصوّره البشر من صور خياليه قائمه بنفسه،و يكفى لإزالتها مجرد توقّف الخيال عن تصوّرها؟ تصوّر الآن نهرا من لجين مذاب،و اختر له اسما مثلا(نهلجين)،ثم أوقف عمليه التصوّر،ماذا يبقى من هذا الذى سمّيته(نهلجين)؟لا شىء،كذلك حين يوقف المشرك توهّمه لقدسيه الأصنام لا يبقى منها شىء،و كذلك الطغاه(و هى الأصنام البشريه)تزول قوّتهم و هيبتهم بمجرّد إحساس المستضعفين بواقع أمرهم و انتزاع و هم القدسيه عنهم.أ ليس كذلك؟

ص:۱۶۲

ثمّ أنّ هذه الأسـماء لا شرعيه لها،لأنّ الشرعيه تأتى من عند اللّه وحده،و ليس هناك دليل على أنّ اللّه أمر بعبادتها أو التوسّل بها إليه.

و مجرّد عدم وجود دليل(و سلطان مبين)من عند اللّه يسـمح للإنسان بالتسـليم لقوّه سياسـيه(صـنم حجرى أم بشـرى)يكفى دليلا على حرمه هـذا الأـمر.أو ليس اللّه قـد خلقنا،و نحن عبيـده.أ فينبغى للعبـد أن يطيع غير مولاه؟! و إنّما قال تعالى: «أَنْتُمْ» و أضاف إليها «وَ آبٰاؤُكُمْ» لكى يؤكّد مسـئوليتهم هم عن انحرافهم،و أنّه لا يجوز إلقاء مسئوليه الانحراف على آبائهم وحدهم، و نستوحى من هذه الآيه أنّ منهج المشركين الخاطئ خليط من أمور ثلاثه:

الأوّل:وراثه الضلاله من الآباء،بينما الشرعيه الحقيقيه يأخذها الإنسان من ربّه لا من آبائه.

الثانى:الظنون،و هى الإفرازات السلبيه للذهن البشرى حينما تعمل فيه المؤثّرات الخاطئه.

الثالث:أهواء النفس،و دورها:أوّلا:التمهيد للظنون،و ثانيا:ترسيخها كما ترسيخ ذلك التقديس الخاطئ للآباء،لأنّها تلتقى معه.

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدىٰ و بالتـدبّر فى هـذه الآيه و ما سـبقها يتضـح لنا أنّ حركه الإنسـان نحـو الزيـغ تبـدأ من أهـواء النفس،الـذى يتحـوّل إلى تمنّى،و التمنّى إلى ظن(خيـال)،ثمّ تتحوّل التمنّيـات إلى عقيـده و فكره،ثم يؤطّر البشر ذلك برموز و أسماء يزعمها،فالأصنام

ص:١٦٣

إذن ليست رموزا للملائكه و لا للقوى الطبيعيه،إنّما هى تجلّيات للأهواء النفسيه و المصالح الماديه،فحينما يحبّ الإنسان الثروه يحبّ الثرى،و يتخيّل لهذا الحب رمزا و مذهبا،ثمّ حينما يعبده فهو لا يعبد الصنم و لا الثرى أو الثروه،إنّما يعبد أهواءه و شهواته،و هكذا الذى يعشق الجمال أو الجنس،و لو قمنا بدراسه تحليليه عن الأوثان و الأصنام التى عبدها الجاهلون فى شبه الجزيره العربيه،أو تلك التى علّقوها فى الكعبه،أو الأخرى التى تقدّس و تعبد هنا و هناك،لخلصنا إلى نتيجه واحده و هى أنّها ترمز إلى قوى اجتماعيه و اقتصاديه و سياسيه أو ثقافات و تقاليد و أساطير عند أصحابها،و أنّ عبادتها ليست إلاّ عباده للأوهام و الأهواء المتجذّره فى نفوسهم.

و هذا الضلال ليس نتيجه انعدام الهدى أو غموضه،فقد جاءهم الهدى من ربّهم،و على لسان أفضل خلقه و أبلغهم و هم الأنبياء،و لكنّهم تركوا العقل إلى الجهل،و العلم إلى الظن،و الهدى إلى الهوى.

[۲۴]و لو تساءلنا عن سبب هذا الإختيار الضال لوجدناه محاولتهم التهرّب من ثقل المسؤوليه بالأعذار المختلفه التى جاءت السوره لعلاجها،و يبدو أنّ السياق يمهّد لذلك و يقرّبنا شيئا فشيئا منه،فمن أهداف الرسالات الإلهيه جميعا ترسيخ المسؤوليه،و تعريه الإنسان من حجب التبرير و الأهواء التى يحاول أن يتخلّص من المسؤوليه باسمها.

أَمْ لِلْإِنْسٰانِ مٰا تَمَنّٰى التمنّى هو خداع الإنسان لنفسه بشىء جميل من خلال الظنون و الأوهام التى يصنعها بتخيّلاته،فالجائع يتمنّى الشبع فيتخيّل القرص،و العطشان يتمنّى الارتواء فيتوهّم الأنهار الرقراقه،و الشبق يتخيّل نفسه يلصق بمعشوقته،و هذه حاله طبيعيه فى

الإنسان،تعطيه التوازن فى الحياه،و كلّما كانت الحقائق و التطلّعات التى يصبو إليها كبيره و هامّه كلّما كانت تمنّياته تأخذ أشكالا و أبعادا جديده،إلاّ أنّ المبالغه فى التمنّى تضرّ به لأنّه يخرجه من التعايش الواقعى مع الحياه إلى الأوهام و الأساطير، و من السعى الجاد نحو الهـدف إلى مجرد الظنّ و الهوى.أ ترى لو جلس أحـد فى بيته و تمنّى وصول الرزق إليه هل يتحقّق ذلك له؟و هكذا لو مشـى فى الـدنيا خبـط عشواء، فـإنّ مجرّد تمنّيـاته-المنطلقه من أهوائه و الظنون و المبنيه على اعتقـاده بالأصـنام-لن تـدفع عنه المشاكل و الويلات،و لن تنقذه من العذاب،بلى.للإنسان سعيه و عمله خيرا أو شـرّا،و هذا ما سـنجد الآيات تنتهى إليه كمحصّـله نهائيه لعلاج فكره التمنّى،

قـال الإمـام الصادق عليه السـلام :«تجنّبوا المنى،فإنّها تـذهب بهجه ما خوّلتم، و تستصـغرون بها مواهب اللّه جلّ و عزّ عنـدكم، و تعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم » (١).

[۲۶-۲۵]و بطلان فكره التمنّى ليس مختصا بالآخره و حسب،بل يشـمل الدنيا أيضا،ذلك أنّ اللّه الذى خلقهما رسم خريطتهما،و أركز فيهما سبلا و سننا واقعيه تجريان على أساسهما،و ليس على أساس الأحلام و التمنّيات،يقول تعالى:

لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (٢).

فَلِلّٰهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولىٰ اللّه هو الحق،و هو الآمر به،و سلطانه الدائم،و تدبيره المهيمن،و قضاؤه النافذ،كلّ أولئك ضمانه لتنفيذ الحق رغم تمنّيات البشر المعاكسه له،و ليس فى

ص:۱۶۵

١- ١) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۴۲

٢- ٢) النساء/۱۲۳

ظلّ حكومه اللّه مجال لظنون الإنسان و تمنّياته،و من يزعم أنّه يتخلّص من سنن اللّه و حاكميته بالاعتماد على أمانيه فهو يخطئ،لأنّه ينازع اللّه فى سلطانه سبحانه، و لكى يعمل أمنياته لا بد أن يخرج من سلطان اللّه،و يبحث له عن حياه تغنى فيها الأمنيات،و لن يحصل ذلك لأنّ الحياه كلّها له عزّ و جلّ،أو يبحث له عن حكومه يمكنها أن تواجه سلطانه و إرادته،و لن يجد إلى ذلك سبيلا،و حتى الملائكه الموكّلين بالطبيعه لا تغنى شفاعتهم شيئا، لأنّ قوّتهم من اللّه و ليست ذاتيه،و هم لا يشفعون إلاّ لمن شاء و ارتضى.

وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً لو افترض أنّهم بادروا للشفاعه،فكيف بتلك الأصنام؟!بلى.إنّ شفاعتهم و الأولياء تنفع بإذنه تعالى،و لأفراد مخصوصين يرضى لهم اللّه الشفاعه.

إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْضىٰ و إذنه لا يحصل بسبب ضغط قوى أخرى،تعالى عن ذلك علوّا كبيرا،إنّما يأذن بإرادته العليا،كما أنّه لم يجعل الشفاعه بعيده عن القوانين و السنن التى خلق الحياه وفقها،و من هذه القوانين أن يكون الشفيع مرضيّا عنده.

و هكذا يحدّد القرآن الشفاعه بحدّين:

(أ)حدّ للشافع الذى لا يكون إلاّ من يرتضيه اللّه،فلا تجوز الشفاعه أساسا إلاّ للأنبياء و الأولياء و الملائكه المقرّبين،أمّا الأصنام الحجريه و البشريه فليست أهلا للشفاعه أبدا.

جاء فى الحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله :

«الشفاعه للأنبياء و الأوصياء و المؤمنين و الملائكه » (۱).

و عنه صلى الله عليه و آله :«ثلاثه يشفعون إلى اللّه عزّ و جلّ فيشفعون:الأنبياء،ثمّ العلماء،ثمّ الشهداء » (۲).

(ب)حدّ لمن يشفعون له،فلا يشفع من وصل إلى درجه الشفاعه إلاّ لبعض الناس ممّن يأذن اللّه له بأن تشمله الشفاعه و ممّن رضى اللّه عنه.قال عزّ و جلّ:

وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ (۳).

و روى عن الإمام الصادق عليه السلام :«اعلموا أنّه ليس يغنى عنكم من اللّه أحد من خلقه شيئا،لا ملك مقرّب و لا نبى مرسل،و لا من دون ذلك،فمن سرّه أن ينفعه شفاعه الشافعين عند اللّه فليطلب إلى اللّه أن يرضى عنه » (۴).

و عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله :«الشفاعه لا تكون لأهل الشك و الشرك،و لا لأهل الكفر و الجحود،بل يكون للمؤمنين من أهل التوحيد » (۵).

و عن الإمام الصادق عليه السلام :«لو أنّ الملائكه المقرّبين و الأنبياء المرسلين شفعوا فى ناصب ما شفّعوا » (۶).

و لا تنفى الآيه بقوله تعالى «لاٰ تُغْنِي» الشفاعه كلّيّا،و إنّما تنفى حتميتها، كما تؤكّد على ضروره أن لا تكون علاقه الإنسان بالغير حتى العباد المكرمين

ص:۱۶۷

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۸ ص ۵۸

۲- ۲) المصدر/ص ۳۴

۳- ۳) الأنبياء/۲۸

۴- ۴) بحار الأنوار/ج ۸ ص ۵۳

۵- ۵) المصدر/ص ۵۸

۶- ۶) المصدر/۴۲

كالملائكه و الأولياء من الناس مضادّه لعلاقته بربّه،و لا بديلا عنها،بل امتدادا لها،و قوله «لِمَنْ يَشٰاءُ» يهدينا إلى أنّ الشفاعه قضيه شخصيه تتوجّه إلى الإنسان الفرد بذاته بعيدا عن النظر الى انتمائه،فقد ينتمى اجتماعيّا إلى فريق الضالين و لكنّها تناله،و قد تفوته بالرغم من انتمائه إلى فريق المؤمنين،و الذى يحدّد الشفاعه هو علم اللّه النافذ إلى حقيقه الإنسان.

[۲۷]ثمّ يقول تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاٰئِكَهَ تَسْمِيَهَ الْأُنْثىٰ و السؤال:لماذا يسمّى المشركون الملائكه إناثا،و ما هى علاقه ذلك بالكفر بالآخره؟ لعلنا نجد الجواب فى أنّ الأنثى رمز العطف و الحنان،و هم يسمّون الملائكه بذلك رجاء عطفهم و شفاعتهم لهم عند اللّه،و بهذا الإعتقاد يحاول المشركون تبرير ممارستهم للذنوب فى الدنيا،و اقناع أنفسهم بإمكانيه التخلّص من مسئولياتها فى الآخره بالتوسّل بمن يعطف عليهم و هم الإناث من خلق اللّه و هم الملائكه حسب زعمهم،و هذا كفر صريح بالآخره كدار للجزاء العادل.

[۲۸] وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ و هو الإفرازات(التصوّرات و الأفكار)الناتجه من إعمال الإنسان لخياله بعيدا عن البراهين الواقعيه.

وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و نفى البعض ينفى الكل،و ليس العكس،و هو أبلغ فى النفى،فلا شىء من الحق يغنيه الظنّ أبدا،و القرآن هنا يستثير قضيه وجدانيه هى قبح كلام الإنسان

ص:۱۶۸

فیما لا یعلم،و قد تحدّث هؤلاء عن طبیعه الملائکه و ذلک جزء من الغیب المحجوب عن علم البشر بشهاده وجدانه.أو لیس الإنسان ینفذ عقله إلی معرفه الأشیاء عبر حواسه؟أو لیس لکلّ علم أداته و وسیلته،فما هی الحاسه التی نعلم بها غیب السموات و الأرض،و ما هی الأداه التی نعرف بها طبیعه الملائکه،و أنّهم إناث لا ذکور؟! إنّها مشکله البشر.إنّه یهوی شیئا فیتمنّاه،ثم یظن أنّه واقع فیسعی وراء ظنّه خادعا نفسه.

[۲۹]و إنّما اتبع هؤلاء الظن لأنّهم اختاروا الدنیا علی الآخره،فاکتفوا بالظن بدل العلم و الحق،و بالتمنّی بدل السعی،و کلّ ذلک لأنّهم لم یعترفوا بالمسؤولیه، و لم یبتغوا مرضاه الربّ،و لو آمنوا بالآخره،و ظنوا أنّهم ماثلون أمام ربّهم للحساب غدا عن کلّ صغیره و کبیره،إذا عرفوا أنّ الطریق إلی الحق هو العلم و لیس الظن، و لکنّهم آمنوا بالدنیا فقط،و الدنیا هی حیاه اللامسؤولیه،و علی الداعیه الرسالی أن لا یبخع نفسه علیهم،بل یترکهم و شأنهم.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰی عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا لأنّ مشکله هذا النوع من البشر لیس عدم قناعته بالحق،فهو یعلم بأنّه الهدی و الصواب،و لکنّه یتولّی عنه ابتغاء الدنیا،و إنّما أمر اللّه بالإعراض عنهم لکی لا یتأثّر المؤمن بهم سلبیّا،فیغیّر من رسالته صوب الدنیا،تنازلا عن بعض أهدافها،أو من أجل إقناعهم باتباعها،ثم أنّه لا ینبغی للمؤمن أن یبدّد جهوده الغالیه فیما لا یرجو نفعا منه،بل فیما یخدم الرساله،و یقدّم المؤمنین خطوه إلی الإنتصار.

و قد قال تعالی: «عَنْ ذِکْرِنٰا» و هی للتعظیم،و لم یقل عن ذکری،لأنّ

الضمير المفرد يستخدمه اللّه فى موضع إثبات التوحيد و تأكيده،أو فى مجال الرحمه و العطف،و الحال أنّ هؤلاء تكبّروا عن الحق،و تولّوا معرضين عنه،فالمقام مقام التعالى و التكبّر عليهم ممّا يتناسب و استعمال ضمير التعظيم(أو ما يسمّى بضمير الجمع)،ذلك لأنّ إعراضهم لا ينال شيئا من عظمه اللّه،كما أنّ إيمان المؤمنين لا يزيده سبحانه شيئا.و سمّى القرآن هنا بالذكر لأنّه فى مقام علاج العقائد،و هى قضايا وجدانيه،و لفظ الذكر بما يحويه من إيحاءات و إشارات لعلاقه القرآن بالفطره البشريه أخدم للمعنى من غيره فى هذا الموضع.

كما تنطوى نهايه الآيه: «إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا» على فكرتين مهمّتين:

الأولى:إنّ المؤمن يفترق عن الكافر و المشرك فى قضيه أساسيه هى أنّ الأوّل يريد الدنيا و الآخره،و يسعى لهما معا،موفّقا بين الحق الذى يجب عليه الالتزام به،و بين نصيبه الذى أحلّ اللّه له من الدنيا.

و الثانيه:إنّ على المؤمن أن لا يضعف أمام أعداء اللّه أو يتملّق إليهم لأنّهم ظفروا بشيء من حطام الدنيا،فذلك حظّهم،بل يجب عليه أن يستمسك برسالته، و يتصلّب فى ولائه للحق، و يعرض عنهم،لأنّهم لا يملكون إلاّ هذه الدنيا الزائله.

[۳۰]و إنّ عدم إراده المعرضين عن الذكر للحياه الآخره ليس ناشئا من حسن اختيارهم،و إنّما لجهلهم بتلك الحياه و ما فيها من الثواب،و لو علموا يقينا ما فيها من الفوز لأرادوها و اشتدّت فاقتهم إليها،و عظمت رغبتهم فيها،و لكنّهم حصروا أنفسهم و حبسوا عقولهم فى سجن الدنيا،و هذه من معضلات الإنسان أنّه يصنع لنفسه سقفا من العلم،و يكبّل عقله بأغلال الهوى و إصر الشهوات عن الانطلاق فى رحاب العلم و الحق،

و صدق الإمام على عليه السلام حيث قال :«كم من عقل أسير تحت

هوی أمیر » (۱).

ذٰلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ و هذه الآیه تؤکّد بأنّ الإیمان بالآخره حجر الزاویه فی تفکیر الإنسان المؤمن.

و لکی یتم إعراض المؤمن عن الجاهلین یحتاج إلی أمور أهمّها:

۱-العلم بأنّهم علی باطل،و قد بیّن القرآن ذلک حینما أکّد بأنّهم إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَی الْأَنْفُسُ ،ثم ضرب أمثله علی ذلک کموقفهم من الملائکه، و کفرهم بالآخره،و تولّیهم عن الذکر.

۲-الیقین بأنّهم ضعفاء فی المحصّله النهائیه بخسرانهم الآخره.

۳-المعرفه بأنّ حساب الناس لیس من مسئولیات المؤمنین،إنّما اللّه یفصل بینهم،و یعلم المهتدین و الضالین.

إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدیٰ إذن فغلبه الضالین علی المؤمنین عند الجدال أو عدم غلبه المؤمنین علیهم لا یغیّر من الواقع شیء،فأهل الباطل هم أهل الباطل و أهل الحقّ هم أهله،ذلک أنّ کلام الناس لیس مقیاسا،إنّما الحق و الباطل هما المقیاس بذاتهما.

ثمّ أنّ الخلافات-حسبما نستوحی من الآیه الکریمه-لا تحسم فی الدنیا لأنّها لم تخلق لذلک،و کما قال اللّه:

ص:۱۷۱

۱- ۱) نهج البلاغه/حکمه ۲۱۱.

«وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لاٰ یَزٰالُونَ مُخْتَلِفِینَ» (۱)،و الدار الآخره هی محلّ الحسم و الجزاء،فلا ینبغی للمؤمن أن یکون جبّارا علی الناس یحاول إکراههم علی الهدی إن أوتی السلطه علیهم،کما لا ینبغی عند ضعفه أن یهلک نفسه إذا ما تولّوا عن دعوته.

کما نستوحی من کلمه «عَنْ سَبِیلِهِ» فی الآیه أنّ فی الحیاه سننا و قوانین،و هی السبیل إلی الحق،و هذه یعلمها اللّه و یحاسب علیها،یضلّ عنها جماعه فیصیرون إلی الباطل و العذاب،و یهتدی إلیها آخرون فیصیرون إلی الحقّ و السعاده،و السبب أنّ الفریق الأوّل ینکر هذه الحقیقه،بینما یؤمن بها فریق المهتدین فیبحثون عنها،فإذا وجدوها طبّقوها،و کیّفوا حیاتهم وفقها،و تجاوزوا الأخطاء و الضلال.

ص:۱۷۲

۱- ۱) هود۱۱۸/.

[سوره النجم (۵۳): الآیات ۳۱ الی ۶۲]

اشاره

وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ أَسٰاؤُا بِمٰا عَمِلُوا وَ یَجْزِیَ اَلَّذِینَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی (۳۱) اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ إِلاَّ اَللَّمَمَ إِنَّ رَبَّکَ وٰاسِعُ اَلْمَغْفِرَهِ هُوَ أَعْلَمُ بِکُمْ إِذْ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّهٌ فِی بُطُونِ أُمَّهٰاتِکُمْ فَلاٰ تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِتَّقیٰ (۳۲) أَ فَرَأَیْتَ اَلَّذِی تَوَلّٰی (۳۳) وَ أَعْطیٰ قَلِیلاً وَ أَکْدیٰ (۳۴) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلْغَیْبِ فَهُوَ یَریٰ (۳۵) أَمْ لَمْ یُنَبَّأْ بِمٰا فِی صُحُفِ مُوسیٰ (۳۶) وَ إِبْرٰاهِیمَ اَلَّذِی وَفّٰی (۳۷) أَلاّٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ (۳۸) وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعیٰ (۳۹) وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُریٰ (۴۰) ثُمَّ یُجْزٰاهُ اَلْجَزٰاءَ اَلْأَوْفیٰ (۴۱) وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ اَلْمُنْتَهیٰ (۴۲) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکیٰ (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْیٰا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ اَلزَّوْجَیْنِ اَلذَّکَرَ وَ اَلْأُنْثیٰ (۴۵) مِنْ نُطْفَهٍ إِذٰا تُمْنیٰ (۴۶) وَ أَنَّ عَلَیْهِ اَلنَّشْأَهَ اَلْأُخْریٰ (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنیٰ وَ أَقْنیٰ (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ اَلشِّعْریٰ (۴۹) وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عٰاداً اَلْأُولیٰ (۵۰) وَ ثَمُودَ فَمٰا أَبْقیٰ (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کٰانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغیٰ (۵۲) وَ اَلْمُؤْتَفِکَهَ أَهْویٰ (۵۳) فَغَشّٰاهٰا مٰا غَشّٰی (۵۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکَ تَتَمٰاریٰ (۵۵) هٰذٰا نَذِیرٌ مِنَ اَلنُّذُرِ اَلْأُولیٰ (۵۶) أَزِفَتِ اَلْآزِفَهُ (۵۷) لَیْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ کٰاشِفَهٌ (۵۸) أَ فَمِنْ هٰذَا اَلْحَدِیثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) وَ تَضْحَکُونَ وَ لاٰ تَبْکُونَ (۶۰) وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ (۶۱) فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ اُعْبُدُوا (۶۲)

اللغه

۳۲[إلاّ اللّمم]:أی الذی یلم بالإنسان،و یرد علیه مما لا علاج من وروده غالبا،و هی الصغائر مثل:کلمه نابیه،أو ضحکه غیر جائزه،أو نظره محرّمه،أو ما أشبه ذلک.

[أجنه]:جمع جنین،الإنسان حینما یکون فی رحم أمّه.

۳۴[و أکدی]:أی قطع العطاء،و اشتقاقه من کدیه الرکیه، و هی صلابه تمنع الماء إذا بلغ الحافر إلیها یئس من الماء،فیقال:

أکدی إذا بلغ الکدیه.

۴۹[الشّعری]:هو نجم فی السماء یطلع آخر اللیل،کان جماعه من العرب یعبدونه.

۵۳[و المؤتفکه]:و هی قری قوم لوط علیه السلام التی ائتفکت بأهلها أی انقلبت،و قیل للکذب إفکا لأنّه قلب للمعنی من جهته.

۵۷[أزفت الآزفه]:أی قربت القیامه و دنت.

ص:۱۷۴

۶۱[سامدون]:لاهون،و السمود اللهو،و السامد اللاهی.

ص:۱۷۵

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى

هدى من الآيات:

بصراحه الحقيقه،و بقوه اليقين،يتقدم بنا السياق القرآنى شيئا فشيئا الى الفكره المركزيه فى هذه السوره،و هى فكره المسؤوليه التى نجدها فى تضاعيف أغلب آياتها و كأنها خافيه لكل فكره فيها و شاهد،الا انها تتجلى كصراحه الشمس عند قوله تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى الآيه(٣٩).

و لكنّ اللّه قبل ان يقذف بهذا الحق على باطل التبرير و اتباع الهوى و الظن، يذكرنا بلون من ألوان الشفاعه المقبوله عنده و هى شفاعه الأعمال الحسنه للإنسان عن اللمم من السيئات كما نجد تصريحا به فى الآيه الكريمه: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذّاكِرِينَ» (١)ان تقوى الإنسان التى تجنبه كبائر الإثم تشفع له فى الصغائر(اللمم)،و لعل

ص:١٧٦

١- ١) هود/١١۴

تقدیم هذه الفکره(الشفاعه)المشحونه بالرجاء و اللطف الالهی،علی فکره المسؤولیه و ما فیها من الشده و الصرامه،یهدف اعطاءنا الأمل فی رحمه اللّه،لکی لا نیأس فنتوغل فی الجریمه و الذنب،أو نقعد عن عمل الصالحات،بناء علی تصوراتنا البشریه المرتکزه فی القنوط و الجزع.کلا ان اللّه رحیم و یحاسبنا بفضله لا بعدله، و الا لما دخل الجنه أحد کما

قال الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله :«و لا أنا إلاّ أن یتغمدنی اللّه برحمه منه و فضل » (1).

ثم یؤکد القرآن بخطاب فصل مسئولیه الإنسان عن سعیه،انه یجازی علیه ان خیرا فخیر و ان شرا فشر،و هی تتعلق بنفی الشرک و برفض الأنداد و مدی عمق حقیقه التوحید فی النفس فکلما زاد یقین الإنسان باللّه و انه المالک الحاکم الأحد لکل شیء،کلما کان أقرب من المسؤولیه ایمانا و عملا،و ابعد عن الحجب و التبریرات التی تمنعه من حملها.

ان التوحید یجعله لا یتوسل بوشائج الشرک،التی هی بذاتها نوع من التبریرات التی یلجأ إلیها الإنسان تهربا من المسؤولیه.انک تراه یقبل کل شیء،یقبل ان یکون عبدا للشجر و للحجر و للبقر لا فرق من أجل ذلک لکی یفر من ثقل المسؤولیه.

إذا فمتی ما طهرت نفسه من درن تلک الأصنام،القائمه علی أساس الثقافه الجاهلیه الضاله،القائمه بدورها علی الظن و هوی النفس،فانه یومئذ مجرد ان یقف امام المسؤولیه بلا تبریرات یجد نفسه امام حجه بالغه تضطره الی التسلیم لها عملیا.

بینات من الآیات:

[31-32]لقد دعا اللّه المؤمنین الی الاعراض عمن تولی،و لان البعض لا یعرض عن الکیان الجاهلی خشیه الضعف و الفقر،أکد القرآن بان اللّه هو الغنی

1- 1) بح/ج /7ص 11

الـذی یملک خزائن الکون،و القوی الذی یهیمن علی الحیاه.فلما ذا الخشـیه إذا من مقاومه الانحراف؟و رفض هیمنه المنحرفین؟ وَ لِلّهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ فهو وحده الذی وضع سنن الکائنات و یهیمن علیها و یجریها بقدرته و عدالته.

لِیَجْزِیَ الَّذِینَ أَسٰاؤُا بِمٰا عَمِلُوا عدلا السیئه بمثلها.

وَ یَجْزِیَ الَّذِینَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی فضـلا،فالحسـنه بعشر أمثالها،و تتضاعف «وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ» (۱)و بالتـدبر فی شـطری الآیه الکریمه الشـطر الاـول الـذی ینطوی علی فکره التوحیـد (وَ لِلّهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ) ،و الشـطر الثانی الـذی ینطوی علی فکره المسؤولیه المنبثقه من حقیقه الجزاء (لِیَجْزِیَ..) فاننا نعرف العلاقه الوثیقه بینهما،و ذلک ان الـذین ینحرفون یحاولون التملص من مسـئولیاتهم بالشـرک.و الحق ان التوحیـد یعنی نفی الشـریک،و هذا بدوره ینفی التبریر،اذن فالموحد الحق هو الّذی یتهیأ لحمل المسؤولیه.ان هـذه الآـیه تنسف ثقـافه التـبریر المتجسـده فی عبـاده الأنـداد کالملاـئکه و الأصـنام و حتی العبـاد الصـالحین تمنیا للشـفاعه،و ذلک ببیان ان اللّه یجری عدالته فی الحیاه،و لا أحد یسـتطیع فرض إرادته علیه،لان الحیاه تکوینیا و تشـریعیا له وحده لاـ یشـارکه فیهـا أحـد،و إذا کـانت ثمـه هیمنـه ظـاهریه للملاـئکه فهی تنفیـذیه و بـإذن اللّـه،و تبقی الهیمنه الحقیقیه المطلقه للّه وحده،فلا مهرب منه إلّا الیه و لا شفاعه الا من بعد اذنه،و لا أنداد قادرین علی تغییر سنن اللّه فی الخلیقه حسب أهوائهم

۱- ۱) ق/۳۵

و بالذات سنه الجزاء العادل.

ثم ان تأكيد القرآن على بيان العداله الالهيه فى الجزاء فى أكثر سور القرآن انما هو ليزرع الاطمئنان العميق فى قلب البشر الى وقوع الجزاء.الأمر الذى يبعثه نحو عمل الخير و يزجره عن الشر الا ان العداله و بالتالى المسؤوليه فكره قاسيه لا يتحملها القلب البشرى الذى من طبيعته الانحراف.لذلک تأتى الآيه اللاحقه لتخفف وطأتها ببيان مدى رحمه اللّه و غفرانه.

اَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ و الإثم هو عموم الذنب(بين العبد و ربه أو بينه و بين نفسه أو بينه و بين الناس)بينما الفواحش هى الذنوب الاجتماعيه.

قال الامام الصادق عليه السلام :

«الفواحش الزنا و السرقه » (1)و هما ذنبان اجتماعيان.

و ذكر الفواحش من دون اضافه كلمه الكبائر بخلاف الإثم أضيف اليه لفظ الكبائر،لان الفواحش بذاتها من الكبائر فلا يقال للذنب الاجتماعى فاحشه، بينما الإثم فيه الصغائر(اللمم)و فيه الكبائر.و فيما يلى نذكر حديثا

فى كتاب الإثم مرويا عن الامام الرضا عليه السلام قال:سمعت أبى موسى بن جعفر عليه السلام يقول:

دخل عمرو بن عبيد البصرى على أبى عبد اللّه عليه السلام ،فلما سلم و جلس تلا هذه الآيه (اَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ) ثم أمسک فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام :ما أمسكک؟فقال:أحب ان اعرف الكبائر من كتاب اللّه عز و جل فقال:يا عمرو!أكبر الكبائر الشرک باللّه.يقول اللّه تبارک و تعالى: (إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) و يقول عز و جل: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّةَ وَ مَأْوٰاهُ اَلنّٰارُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ) ،و بعده اليأس من روح اللّه لان اللّه عز و جل يقول:

1- 1) نور الثقلين/ج /5ص 161

(وَ لاٰ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ،إِنَّهُ لاٰ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكٰافِرُونَ) و ثم الأمن من مكر اللّه.لان اللّه عز و جل يقول: فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخٰاسِرُونَ ،و منها عقوق الوالدين.لان اللّه عز و جل جعل العاق جبارا شقيا فى قوله تعالى: وَ بَرًّا بِوٰالِدَتِى وَ لَمْ يَجْعَلْنِى /۱۵ جَبّٰاراً شَقِيًّا ،و قتل النفس التى حرم اللّه الا بالحق.لان اللّه عز و جل يقول: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا... الى آخر الآيه)،و قذف المحصنات.لان اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ ،و أكل مال اليتيم ظلما لقول اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ الْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ،و الفرار من الزحف لان اللّه عز و جل يقول: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَهٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ،و أكل الربا لان اللّه عزّ و جلّ يقول: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لاٰ يَقُومُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰانُ مِنَ الْمَسِّ و يقول اللّه عز و جل: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ذَرُوا مٰا بَقِىَ مِنَ الرِّبٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ ،و السحر لان اللّه عزّ و جلّ يقول: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰاهُ مٰا لَهُ فِى الْآخِرَهِ مِنْ خَلاٰقٍ ،و الزنا لان اللّه عزّ و جلّ يقول: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰاماً يُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰاناً إِلاّٰ مَنْ تٰابَ الآيه،و اليمين الغموس لان اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَهِ الآيه،و الغلول قال اللّه عزّ و جلّ: وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمٰا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ ،و منع الزكاه المفروضه لان اللّه عزّ و جلّ يقول: يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهٰا فِى نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هٰذٰا مٰا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ،و شهاده الزور و كتمان الشهاده لان اللّه عزّ و جلّ يقول وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ،و شرب الخمر لان اللّه عزّ و جلّ عدل بها عباده الأوثان و ترک الصلوه متعمدا أو شيئا مما

فرض اللّه عز و جل لان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:(من ترك الصلوه متعمدا فقد برىء من ذمه اللّه و ذمه رسوله صلى الله عليه و آله ،و نقض العهد،و قطيعه الرحم،لان اللّه عزّ و جلّ يقول: أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ قال:فخرج عمرو بن عبيد و له صراخ من بكائه و هو يقول:هلك من قال برأيه و نازعكم فى الفضل و العلم (1).

و فى حديث آخر :«و اليأس من روح اللّه،و الأمن من مكر اللّه تعالى،و القنوط من رحمه اللّه تعالى،و معونه الظالمين و الركون إليهم،و اليمين الغموس،و حبس الحقوق من غير عسر،و الكذب،و الكبر،و الإسراف،و التبذير،و الخيانه، و الاستخفاف بالحج،و المحاربه لأولياء اللّه،و الاشتغال بالمناهى،و الإصرار على الذنب » (2).

و الى جانب هذه الكبائر هناك الذنوب الصغيره التى يقترفها الإنسان-بطبيعته الضعيفه-عن قصور أو من دون قصد مبارزه اللّه،فان حسناته و تجنبه للكبائر، الذى يدل على سلامه مجمل مسيرته يشفعانها له،و هذا من رحمه اللّه و سعه غفرانه، اما لو مارس الصغائر عن عناد و إصرار فانها تصير كبائر أيضا.

إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وٰاسِعُ الْمَغْفِرَهِ

قال الامام الصادق عليه السلام «اللمام العبد الذى يلم بالذنب بعد الذنب،ليس من سليقته اى من طبعه » (3)و كما ان الإصرار يصير الإثم الصغير من الكبائر، فان التوبه و الاستغفار يصيران الكبائر صغائرا،أو يمحو انها من كتاب السيئات.

لذلك نجد تفسيرا لكلمه اللمم غير صغائر الإثم،انما عموم الإلمام بالذنب بصوره

١- ١) المصدر ص ١٦٠

٢- ٢) المصدر ص ١٦٣

٣- ٣) المصدر ص ١٦٢

طارئه و غير متعمده.و يؤكد الامام عليه السلام ان غفران اللّه يسع كل ذنب بشرط الاستغفار،

قال الامام الصادق عليه السلام «و اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر اللّه منه»قال الراوى:بين الضلاله و الكفر منزله؟فقال:«ما أكثر عرى الايمان » (۱).

ان السبب الحقيقى للذنب بالاضافه الى هوى الإنسان هو الشيطان الرجيم، و هو قد يمر مرورا على قلبه فيجعله يلم بالمعصيه،و قد يسكن فيه و يفرخ فيجعله يقترف الخطيئه تلو الخطيئه،و بالنسبه للمؤمنين فانه لا يطيق السكون فى قلوبهم لأنهم يستعيذون باللّه منه،و يلعنونه قبل كل شىء و بعده،و لو افترض ان أصابهم بسهم منه فإنهم سرعان ما يرجعون الى الصواب «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ» (۲).

و كلمه اخيره ان فى الإسلام نوعين من الذنوب،الصغائر و الكبائر،و لكن المعوّل الحقيقى فى تحديد نوع الذنب هو مدى وعى الإنسان به و موقفه من ممارسته له، فقد يندفع الإنسان نحو ذنب صغير،و لكن تحديا لسلطان اللّه،و عنادا و استكبارا عليه،فيكون كبيرا.

فقد جاء فى الحديث الشريف :«قد يرى اللّه العبد على ذنب فيقول له افعل ما شئت فانى لا اغفر لك أبدا.

و قد يأتى الإنسان بذنب كبير استرسالا و استجابه لضغوط هائله،و لكن سرعان ما يندم و يتراجع فان اللّه سبحانه يغفر له..قال تعالى:

۱- ۱) المصدر ص ۱۶۱

۲- ۲) الأعراف/۲۰۱

وَ الَّذِينَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَرُوا اللّٰهَ،فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّٰهُ،وَ لَمْ يُصِـرُّوا عَلىٰ مٰا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ* أُولٰئِكَ جَزٰاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ،وَ جَنّٰاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا،وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعٰامِلِينَ» (١).

و لكن من الذى يحدد الذنب الذى يقترفه الإنسان،هل هو من الصغائر أم من الكبائر على ضوء هذه القاعده؟ انه اللّه الذى يحيط علما بدقائق حياه الإنسان،و فى جميع مراحل نشأته.و لا يخدع اللّه عن جنته.نعم فهو الذى خلقنا و ربانا من يوم كنا فى بطون أمهاتنا حتى نموت.فحتى العوامل الوراثيه و التربويه التى تؤثر فى شخصيه الإنسان التى تنقل اليه و هو جنين يعلمها اللّه.

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ و يبدو ان كلمه الأرض هنا تشير الى القوى و العوامل السلبيه المؤثره فى شخصيه الإنسان،كالهوى و حب المال و الظهور و...و تشير الآيه الكريمه الى بصيرتين هما:

سبق رحمه اللّه الى الإنسان إذ والى نعمه عليه قبل ان يصير الى رحم امه فأنشأه من دون شىء سبق منه اليه تعالى،ثم لما صار جنينا انشأه و أسبغ عليه من نعمه حتى استوى،و هذه الآيه تؤكد سعه رحمه اللّه و مغفرته.

و قد تجلت هذه البصيره القرآنيه أيضا فى دعاء الامام الحسين فى يوم عرفه، حيث جاء فيه:«ابتدأتنى بنعمتك قبل ان أكون شيئا مذكورا.خلقتنى من التراب ثم اسكنتنى الأصلاب آمنا لريب المنون،و اختلاف الدهور و السنين.

فلم أزل ظاعنا من صلب الى رحم فى تقادم فى الأيام الماضيه،و القرون الخاليه، لم تخرجنى لرأفتك بى،و لطفك لى،و إحسانك الىّ فى دوله أئمه الكفر الذين

١- ١) آل عمران١٣٥/-١٣۶

نقضوا عهدک،و کذبوا رسلک و لکنک أخرجتنی للذی سبق لی من الهدی الذی له یسرتنی،و فیه انشأتنی،و من قبل ذلک رؤفت بی بجمیل صنعک،و سوابغ نعمک.فابتدعت خلقی من منیّ یمنی،و اسکنتنی فی ظلمات ثلاث بین لحم و دم و جلد،لم تشهدنی خلقی،و لم تجعل الیّ شیئا من أمری،ثم أخرجتنی للذی سبق لی من الهدی الی الدنیا تاما سویا،و حفظتنی فی المهد طفلا صبیا،و رزقتنی من الغذاء لبنا مریا،و عطفت علیّ قلوب الحواضن، و کفلتنی الأمهات الرواحم،و کلاتنی من طوارق الجان،و سلمتنی من الزیاده و النقصان.فتعالیت یا رحیم یا رحمان حتی إذا استهللت ناطقا بالکلام،أتممت علیّ سوابغ الانعام، و ربیتنی زایدا فی کل عام.حتی إذا اکتملت فطرتی،و اعتدلت مرّتی،أوجبت علیّ حجتک،بأن ألهمتنی معرفتک،و روّعتنی بعجائب حکمتک،و ایقظتنی لما ذرأت فی سمائک و أرضک من بدائع خلقک،و نبهتنی لشکرک و ذکرک،و أوجبت علیّ طاعتک و عبادتک.... » (۱)البصیره الثانیه:نفوذ علم اللّه الی جمیع جوانب حیاه الإنسان و دقائقها،اذن لا یفوته شیء عنه.

و فائده بیان هذه الحقیقه هی ان الإنسان قد یبتلی بالغرور و التبریر فیزکی نفسه،و یسمی کل ما یقترفه من الذنوب حتی الکبائر و الفواحش لمما،أو یصل الی حاله ذلک الإنسان الذی یشرب الخمر و یقول انه یتحول خلا بمجرد بلوغ فاه، و یبرر ذلک بأنه وصل الی درجه من الایمان حیث یتحول فی جسمه الخمر خلا،أو الاخر الذی امر اتباعه بالصلاه و قعد عنها لأنه عند نفسه بلغ مقاما فوق الصلاه.

فَلاٰ تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقیٰ

ص:۱۸۴

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء یوم عرفه

لأنه إذا وصل الإنسان الى هذه المرحله،بدأ رحله الانتكاس ثم لا يتوقف بل ينحدر الى أسفل سافلين.

[۳۴-۳۳]ان عباده الأصنام(الشرك باللّه)و تزكيه النفس تبريرات يتشبث بها الإنسان،و هناك تبريرا آخر يتمثل فى محاوله الاعتماد على البدائل فمثلا أصحاب المال يظنون انهم حينما يعطون مالا فى سبيل اللّه،فسوف يحررون أنفسهم من تطبيق القيم و الالتزام بالمسؤوليه،أو يرفعون عنها مسئوليه ممارسه الكبائر و الفواحش.كلا.

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِی تَوَلّی عن ذكر اللّه،و عن تطبيق الحق و تحمل الامانه،ثم اعطى بعض المال ليتهرب من المسؤوليه؟ وَ أَعْطی قَلِيلاً وَ أَكْدی اى اعطى شيئا قليلا ثم توقف كليا عن العطاء.

قال صاحب المجمع نزلت الآيات السبع فى عثمان ابن عفان كان يتصدق و ينفق،فقال له اخوه من الرضاعه عبد اللّه بن سعد بن أبى سرج:ما هذا الذى تصنع؟يوشك ان لا يبقى لك شىء فقال عثمان:ان لى ذنوبا و انى اطلب ما اصنع رضى اللّه و أرجو عفوه،فقال له عبد اللّه اعطنى ناقتك برحلها و انا أتحمل عنك ذنوبك كلها،فأعطاه و اشهد عليه و أمسك عن النفقه فنزلت: (أَ فَرَأَيْتَ الَّذِی تَوَلّی) اى يوم أحد حين ترك المركز و اعطى قليلا ثم قطع النفقه الى قوله (وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُری) فعاد عثمان الى ما كان عليه عن ابن عباس و السدى و الكلبى و جماعه

ص:۱۸۵

من المفسرين (۱)و قيل نزلت فى الوليد بن المغيره (۲) [۳۵-۳۸]بل ان أصحاب المال يظنون انهم على حق و من أهل الجنه لمجرد كونهم من المترفين،و هذا التمنى عميق لديهم بدليل آيات سوره الكهف: «وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً* وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً* وَ ما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» (۳).

و القرآن يستنكر على المترفين هذا الظن قائلا:متى عرف هؤلاء ما فى الغيب حتى يحكمون بأنهم أفضل الناس عند ربهم؟! أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرىٰ كلا.انه لا يعرف شيئا عن الغيب،و هذه قضيه وجدانيه.فلا يملك أحد ان يدعى علما بالغيب.اذن فكيف يطلع على الحقيقه و يتمنى خلاصه من النار بقياس حاله فى الآخره بحاله فى الدنيا،و الاعتقاد بان اللّه لم يسبغ عليه نعمه فى الدنيا الا انه يحبه فينبغى ان يكون محبوبا عند اللّه فى الآخره أيضا.

بلى يمكنه ذلك لو اتبع هدى الأنبياء و رسالاتهم التى تكشف عن جوانب منه.

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِى صُحُفِ مُوسىٰ* وَ إِبْراهِيمَ الَّذِى وَفّٰى لا يعلم الغيب و لا يتبع الرسالات الالهيه و لقد جاءت الرسالات كلها بالمسؤوليه،و لكن الإنسان و هو أكثر شىء جدلا،و يحاول التهرب منها بطبعه

۱- ۱) الفخر الرازى ص ۱۱ عند تفسير الآيه.

۲- ۲) المجمع عند تفسير الآيه.

۳- ۳) الكهف ۳۴/-۳۶

الضعيف،و بحنينه الدائم نحو التراب.و يبرر ذلك بأنه ينتمى الى أنبياء اللّه، كما زعم اليهود بان انتماءهم الى موسى عليه السلام يرفع عنهم المسؤوليه.فقالوا: (نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ) (۱).

و كما زعمت قريش بان انحدارها من صلب إبراهيم يعطيها الشرف و يمنع عنها العذاب الالهى..كلا «إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» (۲)،ان إبراهيم كان وفيا للّه،ضحى بماله و نفسه و قدم ابنه للّه قربانا، و أودع زوجته هاجر و ابنه الرضيع إسماعيل فى الصحراء.و الذى يريد ان يكون فى شيعته لا بد ان يتحمل من المسؤوليه كما تحمل عليه السلام،و لم يكن فى صحف موسى و إبراهيم التى أنزلت عليهما من عند اللّه اى كلمه تسمح للإنسان بالتحلل من مسئولياته بتبرير الانتماء إليها،و قد قرءوا تلك الصحف و عرفوا ما فيها.

ان ابرز ما جاءت به صحف موسى و إبراهيم هو المسؤوليه،فكل إنسان مسئول عن نفسه،و لا يمكنه بحال من الأحوال ان يلقى بتبعه اعماله على الآخرين.

أَلاّٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ و الوزر هو الحمل الثقيل.و الوازره هى النفس التى تحمله.و لا تزر اى لا تحمل فكل نفس مثقله بحملها و لا تحمل حمل غيرها أبدا،و لو عرف الإنسان ماذا تعنى المسؤوليه و كيف تقف كل نفس امام ربها فى يوم القيامه ضعيفه متهاويه القوى لا تملك عذرا و لا قوه،لعرف مدى بطلان فكره إلقاء المسؤوليه على الآخرين بزعم انهم يتحملونها عنه.كلا انه موقف رهيب ترى فيه كل نفس تجادل عن نفسها،و لها من شأنها ما يغنيها عن الاهتمام بغيرها.

۱- ۱) المائده/۱۸

۲- ۲) آل عمران/۶۸

و هذا السياق من الآيات يضرب فكره الفداء التى ألصقها النصارى فى عيسى عليه السلام حيث قالوا انه قتل ففداهم بنفسه بالرغم من انه جاء ليقاوم مثل هذا الانحراف عند اتباع موسى.

[۴۱-۳۹]و كما ان أوزار الإنسان لا يتحملها أحد سواه،فان حسنات الآخرين لا تصير اليه،انما

«قيمه كل امرء ما يحسن» كما قال الامام على عليه السلام .

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى و السعى هو ما يقوم به الإنسان بإرادته و وعيه،من قول و فعل و غيرهما.فالتحرك جزء من السعى و الوعى و الهدف و النيه جزء منه أيضا.و الإنسان هو الذى يصنع واقعه و مصيره الحقيقى بنفسه،و مهما كان السعى صغيرا أو كبيرا،و فى اى مكان قام به الإنسان فانه لا بد ان يعود عليه فى الدنيا أو فى الآخره.لان هناك سنه الهيه تحكم الحياه،و هى ان كل شىء يرجع الى أصله ضمن دوره حياتيه قد تطول و قد تقصر.لا بد ان تعود المياه التى تبخرت من البحار إليها بعد رحله متطاوله من ساعه تحولها الى البخار حتى نزولها كامطار ثم جريانها فوق الأرض ينتفع بها الإنسان.

هكذا عملك الذى ينبعث من جوانح قلبك أو جوارح بدنك لا يفنى.انه يتقلب فى صور شتى قد يتحول مالا فيعود إليك،أو تصبح حاله اجتماعيه تتأثر بها،أو يحفظ عند ربك يجازيك غدا به،و هكذا مهما هرب المجرمون من جزاء جرائمهم فانه ملاقيهم.

و من طريف ما قرأته فى هذا الحقل أنّ أحد الخلفاء اقام مأدبه غذاء و حضر عليها أحد كبار قادته العسكريين فرأى فيما رأى من صنوف الطعام طير القطى مشويا،فضحك مقهقها،فسأله الخليفه عن السبب.فحاول ان يكتم.فأصر

علیه.فأخذ یقص واقعه حدثت له قبل عشر سنوات مسترسلا قال:کنت فی رحله صید فی الصحراء،فلقیت رجلا معه بعض المال فسلبته قهرا،ثم أردت قتله فتوسل بی ان اترکه و لکن عزمت علی سفک دمه.فلما رفعت علیه السیف نظر حوله فلم یجد أحدا الا سربا من القطی صادف مرورها فی ذات اللحظه.فقال اشهدی بانی اقتل غریبا مظلوما فی هذه المفازه.فضحکت من قوله ثم قتلته.و الآن لما رأیت القطا فی السماط تذکرت ما قاله و سیفی یهوی علیه فلم أتمالک من الضحک علی ذلک الرجل المسکین الذی اشهد القطا علی قتله.فقال الخلیفه بلی لقد أدت القطا شهادتها و امر بجمع السماط،و قال للجلادین احضروا النطع و السیف فاحضروهما و ضرب عنقه.

وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُریٰ و هناک فکره نجدها فی هذه الآیه و هی ان کل سعی یقوم به الإنسان یتحول الی کیان مادی،و ان الکلمه الطیبه،و الموقف الشجاع،و النشاط السلیم،کل ذلک یتحول الی شیء ملموس یراه الإنسان.کذلک الکلمه الخبیثه،و الموقف الجبان، و الفساد.

أ رأیت هذه الحرکات المبارکه،التی تشیع الفضیله و تزرع السلام و تبنی الحضارات،انها کانت فی الأصل دعوات صالحه و مساعی حمیده.أ رأیت هذه الویلات التی تصیب البشریه هنا و هناک،انها کانت فی الأصل کلمات خبیثه أو مساعی فاسده.

و ما معنی المسؤولیه فی الدنیا الا ارتداد صدی سعی البشر الیه،فمن قاوم الظالم،عاش فی ظل العداله دهرا،و من جبن عن مقاومته ساعه شمله خسفه و ضیمه.و أمه تنشط فی بناء حضاره تنعم فی ظلها طویلا و أختها التی تتکاسل

تعیش أبدا فی بؤر التخلف و الفساد.

و ان مرور الزمان علی سعی الإنسان لا ینقصه انما یزیده نماء أو لا أقل یبقیه کاملا وافیا.

ثُمَّ یُجْزٰاهُ الْجَزٰاءَ الْأَوْفیٰ [۴۲-۴۸]و ان هناک تسلسلا فی السنن و المسببات فی الحیاه،و منها سنه الجزاء،و لکنها لا تتحرک فی الفراغ أو ما یسمیه الفلاسفه بالدور،بل لها بدایه و نهایه،و هناک من یشرف علیها و هو اللّه،فالعالم اذن لیس بعیدا عن العقلانیه، و لا مجرد قوانین،و انما هناک تدبیر الهی حکیم یهیمن علیه،کما قال اللّه تعالی:

إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهٰارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرٰاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبٰارَکَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ (۱)و ما دام الأمر بید اللّه و ینتهی الیه فلتطمئن النفس الی الجزاء و تثق بنتائج سعیها،و فی القرآن تذکره بهذه البصیره فی مواضع شتی و بصیغ مختلفه.

وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ الْمُنْتَهیٰ بلی ان الظاهر من الحیاه هی النظم الدقیق و السنن الحاکمه.و لکن الجانب الخفی منها و لبّها هو هیمنه اللّه علیها.و المؤمنون مطمئنون الی هذه الحقیقه و موقنون بها،بینما الآخرون لا یعلمون الا الظاهر من الحیاه.

و القرآن هنا یؤکد هذه الهیمنه و یمثل لها بلطائف الأمور.

۱- ۱) الأعراف/۵۴

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکیٰ ان الإنسان یضحک للجزاء الحسن،و یبکی من الجزاء السیء.سواء فی الدنیا أو الآخره.و اللّه سبحانه یقدرهما للإنسان،فیمنح له من السعاده النفسیه و المادیه ما یضحکه(جزاء لما قدمه من عمل صالح).أو ینتقم(لسوء عمله)فیسلب منه نعمه و یعصر قلبه بالهم حتی یبکیه.و القرآن لم یقل افرح و احزن لان الضحک و البکاء هما غایتا الفرح و الحزن،و اجلی مصادیقهما.و لان بینهما مسافه شاسعه لا بد من بیانها لنعرف عمق الهوه الفاصله بین الخیر و الشر،و بین الجزاء الحسن و العقاب، و لعلنا نفقه بعض ابعاد مسئولیتنا تجاه أفعالنا.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْییٰا ربما یکون معنی الحیاه هنا استمرارها و المحافظه علیها کقوله تعالی: وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً (۱)،و امر الموت و الحیاه بیده تعالی،مهما کانت أسبابهما الظاهره،لان اللّه یجری الأمور بأسبابها،فقد یحفظ الحیاه لا حد علی ید الطبیب،أو یقدر له الموت بید جلاد.

وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثیٰ* مِنْ نُطْفَهٍ إِذٰا تُمْنیٰ و انما یؤکد ربنا علی هذه الحقیقه(ان الیه المنتهی)ثم یضرب الامثله من أهم ما یتحکم فی کیاننا لان الإنسان قد یکتشف القوانین التی تسیر الحیاه وفقها، فیفسر الظواهر و الحوادث تفسیرا مادیا مبنیا علی أساس ان القانون هو کل شیء، فیری ان الولاده تبدأ من الجماع حیث یقذف الرجل بالحیامن فی رحم المرأه،ثم ان الرحم المهیأ لتکوین الجنین یبدأ بدوره ضمن قوانین و معادلات معینه فتصیر

۱- ۱) المائده/۳۲

(البويضه الحيمن)جنينا ذكرا إذا غلب ماء الرجل،و أنثى إذا غلب ماء المرأه.

ثم يقف عند هذا الحد دون البحث عن منتهى هذه الظواهر بينما إذا أمعنا النظر لبصرنا بالحلقات الفارغه الموجوده فى سلسله العلل و التى تفصل بين مشيئه الإنسان و تحقق العمل،فأنت تريد انجاب أولاد،و لكن هل تملك فى صلبك القدره على ذلك؟و هل توفق لزوجه مناسبه؟و هل تضمن ألا تكون عقيمه،أو تجهض حملها بسبب طارئ؟و عشرات الاسئله التى ترتسم فى ذهن أى واحد منا حين يريد أن يحقق إنجازا.و إذا فتشنا عن جذر هذه الاسئله لعرفنا ان الاهداف التى شئنا بلوغها و خابت مساعينا إليها بما لم نحسب لها حسابا خلفت فى عقولنا هذا الخوف الرهيب ألاّ نوفق-مره أخرى-الى ما نبتغيه.و

صدق الامام أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول :«عرفت اللّه بفسخ العزائم و نقض الهمم ».تعال و جرب للمره الالف اعقد عزم قلبك على خطه بعيدا عن التوكل على اللّه ثم انظر كيف تقفز أمامك العقبات غير المحسوبه.

من هنا اركزت فى فطره الناس هذه الحقيقه،ان أزمه الأمور ليست بأيديهم و ان هناك قدرا من الغيب فى كل عمل يساهم فى نجاحه أو فشله.و قدره اللّه على النشأه الاولى من حين النطفه حتى الموت تؤكد على بعثه إياه مره اخرى للجزاء.

وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَهَ الْأُخْرىٰ و كلمه عليه تشير الى ان البعث للحساب حق و عهد قطعه اللّه على نفسه.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنىٰ وَ أَقْنىٰ قد يتصور الإنسان بالنظر الى الأسباب الظاهره للغنى انه الذى يغنى نفسه، و لكنه حينما يتعمق يجد ان غناه من عند اللّه و بتوفيقه.اذن فلما ذا يغتر بماله

ص:١٩٢

و یتکبر علی الحق اعتمادا علیه؟! و یتساءل البعض:إذا کانت الأمور بید اللّه و ان الیه منتهاها فلما ذا السعی إذا؟و کیف ان ربنا بیّن آنفا أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعیٰ ؟و ربما اتخذ البعض من آیات کهذه تبریرا لتقاعسهم أو دلیلا علی مذهب الجبر المرفوض عقلا و شرعا.

بید ان النظر الشامل فی الآیات یجیب علی هذه التساؤلات،کیف؟ ان الأمور بید اللّه،و لکن اللّه یأمر بالحق و یجریه،فهو الذی یضمن العداله الجاریه فی الخلق،و هو الذی یعید سعی الإنسان الیه،و یجازیه علیه الجزاء الأوفی.

و لو لا العقیده بان اللّه یضمن تنفیذ العداله لزعم البعض انه یستطیع ان یتهرب من مسئولیه سعیه.أو کان یخشی من ضیاع سعیه.

اذن السعی هو محور الجزاء،و لکن الجزاء بید اللّه فلیس سعیک یوصلک إلی ما ترید مباشره،بل عبر اراده اللّه و جزاءه،فتکون المعادله کالتالیه:

سعی البشر أو عمله توفیق اللّه أو إرادته الجزاء.

[۴۹]ثم و فی سیاق تأکید انتهاء الأمور الی اللّه،ینسف القرآن الاعتقاد بألوهیه غیره تعالی،و یضرب مثلا من واقع الذین یعبدون النجوم اعتقادا بان حرکتها تؤثر فی حیاه الناس،فتجلب لهم الخیر أو الشر،و عباده النجوم کانت منتشره عند قدماء المصریین کما فی بلاد الرافدین کما ان القرآن یلمح فی حدیثه عن إبراهیم علیه السلام الی ان قومه کانوا یعبدونها.

و لعل من أشهر النجوم التی بقیت عبادتها رائجه حتی زمن الرسول صلی الله علیه و آله کانت نجمه الشعری قال علی ابن إبراهیم«نجم فی السماء کانت قریش و قوم من

العرب يعبدونه،و هو نجم يطلع فی آخر اللیل» (۱)و القرآن هنا ینسف الاعتقاد بألوهیه هذا النجم،مبینا بأنه لیس إلّا خلقا من خلق اللّه،لا حول له و لا قوه.

وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْریٰ [۵۰]بعد ذلک تعرج بنا الآیات الی الحدیث عن تاریخ الأمم السالفه،بما یؤکد هیمنه اللّه علی الخلق و انه یقدر الجزاء حسب اعمال العباد،أ تری ان هلاک الأمم حینما خالفت الحق و عصت الرسل،و عتت عن أمر ربها کان صدفه؟أذن لماذا تتکرر التجربه لاکثر من قوم و لنفس السبب؟ وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عٰاداً الْأُولیٰ و هم القوم الذین أرسل اللّه إلیهم هودا علیه السلام و قال اللّه(الأولی)ربما لواحد من الأسباب التالیه:

آ-لأنهم أول الأقوام بعد هلاک البشریه بسبب الطوفان الذی ابتلع الأرض فی عهد نوح علیه السلام .

ب-لأنهم جیلان و لم یهلک إلّا الجیل الاول.

ج-ان اللّه أراد ان یسفه فکره التقدیس للأولین،الذی سار علیه الجاهلون و من بینهم قریش.

[۵۱]و بعد عاد کانت ثمود،قوم صالح علیه السلام الذین کذبوه و عقروا الناقه و قد کانت آیه مبصره فأهلکهم اللّه.

ص:۱۹۴

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۱۷۴

وَ ثَمُودَ فَمٰا أَبْقىٰ هناك قال(الاولى)و هنا يقول(فما أبقى)و ذلك لان ثمود اهلكوا عن بكره أبيهم بريح صرصر جعلتهم كاعجاز نخل منقعر،فلم تبق و لم تذر،على خلاف عاد الذين أهلك اللّه الأولين منهم فقط،كما تكشف لنا هذه الكلمه مدى تشبث ثمود بالحياه،حيث سعوا للبقاء بكل ما أوتوا من القوه و لكنهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا حينما حل بهم غضب الرب.

[۵۲]و قبل هؤلاء و أولئك كان قوم نوح عليه السلام طعمه للهلاك.

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كٰانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغىٰ لأنهم أول الأقوام كفرا باللّه و عصيانا للأنبياء،و لأنهم أصروا على ضلالهم و استكبروا على الحق جيلا بعد جيل بالرغم من(۹۵۰)عاما من التبليغ المبين و المستمر للرساله من قبل نوح عليه السلام .

و قد سبقوا الأقوام ظلما لأنهم تحرروا من كل القيم الدينيه و الانسانيه،و طغيانا لأنهم ملكوا من الامكانات الشيء الكثير و استخدموا كل ذلك ضد الرساله و الرسول.و بالرغم من ذلك اهلكهم اللّه و لم يحجز العذاب عنهم شيء أبدا.

[۵۳-۵۴]و هناك قوم لوط عليه السلام الذين أسرفوا فى الشذوذ الجنسى،فحل بهم غضب اللّه،و ذلك بان حمل قراهم جبرئيل بطرف جناحه و رفعهم ثم أهوى بهم.

وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوىٰ قال العلامه الطبرسى فى مجمع البيان:و المؤتفكه المنقلبه و هى التى صار أعلاها أسفلها و أسفلها أعلاها،و منه أهوى بيده ليأخذ كذا و هوى يهوى نزل فى الهواء،

فاما إذا نزل فی سلم أو درج فلا یقال أهوی و لا هوی،و حیث حل أجلهم عمّهم العذاب المهول من کل صوب.

فَغَشّٰاهٰا مٰا غَشّٰی أ صحیح ان اللّه یعذبنا بنار جهنم تلک النقمه الکبری التی لا تحتملها السماوات و الأرض و الجبال.أو لیس ربنا الرحمن الذی تجلت فی کل شیء آیات رحمته الواسعه.یتساءل البعض و یقول لا..انا لا أصدق ان اللّه یعذبنی و لم أعهد منه فی الدنیا إلاّ کل نعمه؟بلی و هذه شواهد تعذیبه فی الدنیا للأمم التی ناهضت الحق و تحدت رسله.ان اللّه واسع الرحمه و لکنه أیضا شدید العذاب.

و لعله لذلک یذکرنا الرب،بین الفینه و الاخری-بعذابه العظیم الذی حل بالأمم السابقه حتی ینقض الشک بالیقین ان وعید اللّه العاصین بالعذاب لیس ضربا من الوهم و التخویف المجرد بل هو واقع و قد حدث فعلا یشهد بذلک التاریخ البشری و ما تقدم بعض شواهده.

[55]إنّ عبر التاریخ المرعبه هی من الآیات الالهیه الجدیره بان ترفع حجب الشک و المراء عن قلب الإنسان الذی یتفکر فیها و یتبع هداها.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکَ تَتَمٰاریٰ الآلاء هی الآیات.یدل علی ذلک قوله فی سوره الرحمن «فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ» (1).و التماری هو الشک المتوالی أو ترامی الشک من البعض الی الآخر، ذلک لان الشاک فی مثل هذه القضایا المصیریه و العامه لا یدع شکه فی قلبه بل یلقیه علی من هو مثله و یتلقی منه الشک أیضا،و ینبغی مواجهه کل ذلک بتلک الآیات

ص:196

1- 1) سوره الرحمن13/

المتواليه.

[۵۶]ان من أعمق مشاكل الإنسان انه يستبعد عن نفسه العذاب الالهى و هو يمارس الضلال،أما لشكه فى قدره اللّه كاليهود الذين قالوا يد اللّه مغلوله،أو لرجائه غير المنطقى فى رحمته،و القرآن يذكر عواقب الأمم الذين ضلوا و كذبوا بالحق و يضعها بين أيدينا نذرا لعلها ترد عنا عن الباطل.

هٰذٰا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولىٰ و قيل ان المعنى بالنذير هنا هو الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الذى يمثل امتدادا للأنبياء،فكما ان هودا و صالحا و نوحا و لوطا عليهم السلام انذروا اقوامهم،فان محمدا صلى الله عليه و آله هو الآخر نذير مثلهم،

قال الصادق عليه السلام و قد سئل عن معنى الآيه:

«يعنى محمدا صلى الله عليه و آله حيث دعاهم الى الإقرار باللّه فى الذر الأول » (۱).

و لقد أهلك اللّه الأقوام السابقه لأنهم كذبوا أنبياءهم و الحق الذى جاؤوا به، و يكفى بذلك نذيرا لنا ما دامت سنن اللّه فى الأولين هى سننه فينا و فى اللاحقين الى يوم القيامه.

[۵۷-۵۸]و تبقى القيامه أبلغ النذر و آخرها و أعظمها،و القرآن يؤكد حدوث القيامه فى المستقبل القريب جدا فحتى إذا بقيت من القيامه الكبرى ۵۰۰ مليون عام فانه يمثل واحدا من ثلاثين أو حوالى ۳٪من دوره واحده لهذا الكون التى تبلغ حسب بعض التقديرات العلميه ۱۵ الف مليون عام،كيف و لعله لم يبق حتى قيام الساعه ذلك اليوم الرهيب الذى أشفقت منه السماوات و الأرض إلاّ بضعه ألوف من السنين و ربما أقل و من يدرى؟أو ليس علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلاّ هو؟

۱- ۱) نور الثقلين ج ۵ ص ۱۷۳

فيقول:

أَزِفَتِ الْآزِفَهُ أى اقتربت،و التأكيد على اقتراب هذه الحقيقه الكبرى يجعلنا نعيش الساعه بوعينا فنستعد كما

يقول أمير المؤمنين عليه السلام :«اتقوا اللّه عباد اللّه،و بادروا آجالكم بأعمالكم،و استعدوا للموت فقد أظلكم،و ترحلوا فقد جد بكم،و كونوا قوما صيح بهم فانتبهوا،و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا،فما بين أحدكم و بين الجنه و النار إلاّ الموت أن ينزل به » (۱)و إذا مات ابن آدم قامت قيامته،و لا يستطيع أحد أن يدفع الموت عن نفسه.

لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اللّٰهِ كٰاشِفَهٌ بلى قد يظن الإنسان أو يتمنى بان الأصنام التى يشرك بها تستطيع أن تصنع له شيئا،كلا..اللّه وحده القادر على جلب الخير و رفع الضر،و إذا اقترب العذاب و بانت أمارته فلا مفزع إلاّ اليه، «فَفِرُّوا إِلَى اللّٰهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ* وَ لاٰ تَجْعَلُوا مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (۲).

[۶۱-۵۹]و هذا الحديث ليس ضربا من الوهم أو الظنون،بل هو حق يقين يجب على الإنسان أن يصدق به و يستعد له «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَ مٰا هُوَ بِالْهَزْلِ» (۳).

أَ فَمِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ انهم لم يصدقوا و يستعدوا للساعه:

۱- ۱) نهج خ ۶۴

۲- ۲) الذاريات ۵۰/-۵۱

۳- ۳) الطارق۱۳/-۱۴

«بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ* أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» (۱)هكذا يكون موقف الكفار من الحقائق الجاده،و القرآن يستنكر عليهم هذا الموقف الهازل.

وَ تَضْحَكُونَ وَ لاٰ تَبْكُونَ* وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ ان حديث القيامه بما يتضمنه من حقائق حاسمه،و عظيمه،ينبغى أن يبعث العاقل على البكاء و الخوف من غضب اللّه،و يثير فيه طاقاته الكامنه ليفكر فى النجاه،و يستعد للقيامه،و السامد هو الغافل،و كما ان الغفله نتيجه للضحك و التعجب،فان الجد و السعى نتيجه طبيعيه للتصديق و البكاء من أهوال الساعه.

[۶۲]و فى مقابل هذا الموقف الخاطئ من حديث الساعه يهدينا القرآن إلى الموقف السليم الذى يجب علينا اتخاذه تفاعلا مع النذر الالهيه و هو الفرار الى اللّه عز و جل،و التقرب إلى مقام عظمته بالسجود.

فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ اعْبُدُوا و السجود و هو مظهر الاتصال باللّه،بينما العباده جوهره و محتواه،فلا قيمه للسجود الذى لا يقربنا الى اللّه،و الى العمل بمناهجه فى الحياه،ان ممارسه الطقوس و الشعائر الاسلاميه ممارسه بعيده عن أهدافها لا تنفع صاحبها شيئا،فما هو نفع الصلاه التى لا تنهى عن الفحشاء و المنكر؟و ما هى فائده الصوم الذى لا يزكى النفس؟ و كلمه أخيره:

اننا نجد السياق القرآنى يختتم هذه السوره المباركه،بدعوه إلى السجود حيث

ص:۱۹۹

۱- ۱) ق۲/-۳

يجب شرعا على من يقرأ هـذه الآيه أو يستمع لها أن يسجد فورا مهما كانت الظروف، و ذلك لأنها تعرضت الى ذكر الأصنام التى أشرك بها الناس كاللات و العزى و مناه و الشعرى فهدف الآيه اذن تنزيه الناس عن عبادتها و توجيههم الى عباده اللّه وحده و السجود له.

ص:۲۰۰

سوره القمر

اشاره

ص:۲۰۱

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره

قال الامام ابو عبد اللّه الصادق علیه السلام :«من قرأ سوره اقتربت الساعه أخرجه اللّه من قبره علی ناقه من نوق الجنه».

تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۱۷۴

ص:۲۰۳

الإطار العام

تحيط آيات هذه السوره المباركه بثلاثه محاور رئيسيه،هی:

١-إعراض الكفّار عن الآيات الالهيه،سواء تمثّلت فی الرسالات النازله،أو المعاجز التی تظهر علی أيدی الأنبياء،أو ما تتجلّی فی الكائنات أو السنن التی تتجلّی فی تاريخ الأمم الغابره،و نجد مرتكزا لهذا المحور فی قوله تعالی: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (الآيه ٢).

٢-التكذيب بالحق،و يبرز هذا المحور عند قوله تعالی: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (الآيه ٣)،و هكذا شبيهاتها(الآيه ٩،١٨، ٢٣، ٣٣،٤٢).

٣-التذكره،و يظهر ذلك من تكرار قول اللّه تعالی: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فی أربعه مواضع،بالاضافه إلی الآيتين(١٥/٥١).

ص:٢٠٥

و بالتدبّر العميق فی السوره نجد ارتباطا وثيقا بين المحاور الثلاث فيها، فالاعراض بالاضافه إلی كونه مظهرا للتكذيب هو سبب له أيضا،و هذا يبيّن لنا أنّ تكذيب الرسالات ليس منطلقا من قناعه المكذّبين بها،و إنّما من انحراف حقيقی فی أنفسهم،لأنّك تجدهم يعرضون عنها و بالتالی يكذّبونها قبل دراستها و التفكّر فيها.

و لكن ما هو علاج الاعراض و التكذيب عند البشر؟إنّه التذكره.و القرآن إنّما جاء ليحقق هذا الهدف الهام و الكبير،لذلك نجده من حيث المحتوی و الأداء الأدبی و النفسی و الفكری حكمه بالغه،تنفذ إلی أعمق أغوار نفس الإنسان،و أبعد آفاق عقله،و لكن« لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ »،فهو ميسّر من قبل اللّه،و هذا التيسير هو الذی جعل كلام الخالق الذی لا يتناهی عظمه و جلالا و علوّا بيّنا و واضحا عند خلقه..

قال الامام الصادق عليه السلام :«لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفّظ بحرف من القرآن،و أنّی لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال » (1)، و لكنّ المعنی الذی يرتبط بعلاج الاعراض و التكذيب عند البشر هو أنّ القرآن يصوّر لنا الحقائق الكبری،كحقائق الغيب التی ينحسر عنها-لو لا تيسير القرآن-وعی الإنسان،و منها الآخره،تصويرا بليغا بحيث تصبح يسيره الفهم و الاستيعاب،الأمر الذی يحدث تعادلا فی عقل الإنسان بين ما غاب ممّا يحدث فی المستقبل و ما هو حاضر يحسه و يعايشه.إنّه يدعوه إلی التعايش مع الحاضر الذی تشتهيه نفسه علی أساس المستقبل،أو ينهاه عن استهلاك شیء حاضر لأنّه يوقعه فی مهالك المستقبل.

۱- ۱) تفسير روح البيان/ج(۸)-ص(۴۳۳).

[سوره القمر (۵۴): الآیات ۱ الی ۲۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ . اِقْتَرَبَتِ اَلسّاعَهُ وَ اِنْشَقَّ اَلْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ یَرَوْا آیَهً یُعْرِضُوا وَ یَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ کَذَّبُوا وَ اِتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ کُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ اَلْأَنْباءِ ما فِیهِ مُزْدَجَرٌ (۴) حِکْمَهٌ بالِغَهٌ فَما تُغْنِ اَلنُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ یَوْمَ یَدْعُ اَلدّاعِ إِلی شَیْءٍ نُکُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ یَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْداثِ کَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِینَ إِلَی اَلدّاعِ یَقُولُ اَلْکافِرُونَ هذا یَوْمٌ عَسِرٌ (۸) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَکَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ اُزْدُجِرَ (۹) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ اَلسَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا اَلْأَرْضَ عُیُوناً فَالْتَقَی اَلْماءُ عَلی أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلی ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِی بِأَعْیُنِنا جَزاءً لِمَنْ کانَ کُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَکْناها آیَهً فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۱۵) فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۱۷) کَذَّبَتْ عادٌ فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ (۱۸) إِنّا أَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی یَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ اَلنّاسَ کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ (۲۱) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۲۲)

اللغه

۴[مزدجر]:متّعظ،و هو بمعنی المصدر،أی ازدجار عن الکفر،و تکذیب الرسل.

۷[الأجداث]:جمع جدث،بمعنی القبور.

۸[مهطعین]:الإهطاع هو الإسراع فی المشی.

ص:۲۰۷

٩[و ازدجر]:أی زجر بأنواع الأذیه عن تبلیغ الرساله.

١١[منهمر]:الهمر:هو صب الدمع و الماء بشده،و الانهمار:

الإنصاب،و انهمر:تساقط بکثره کأنّه أفواه القرب.

١٣[و دسر]:الدسر هی المسامیر،و هو جمع:دسار.

١٩[ریحا صرصرا]:بارده،شدیده البرد.

٢٠[أعجاز]:أصول.

ص:٢٠٨

[منقعر]:منقلع عن مغارسه،لأن قعر الشیء قراره،و تقعّر فی کلامه إذا تعمّق.

ص:۲۰۹

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

هدى من الآيات:

إذا كانت هدايه البشر هدف رسالات اللّه فإنّ الوسيله المثلى التى تتبعها هى تذكرته و إنذاره،لكى تتساقط حجب الغفله و الكبر عن قلبه.إنّ فى ضمير الإنسان خوف دفين من مستقبل مجهول،و يستثير القرآن هذا الخوف بتذكرته بالساعه، و ما الساعه؟إنّها أدهى و أمرّ.

و هذا النهج نجده أكثر تجلّيا فى السوره المكيه ذات المقاطع القصيره،و بالذات سوره القمر التى تتجلّى فيها هذه الوسيله بأظهر مصاديقها،و قد سمّيت بذلك بسبب إشارتها إلى آيه انشقاق القمر،الظاهره التى حدثت فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله بمكه المكرّمه،حسبما يقول أغلب المفسرين.

و يوصل القرآن بين هذه الظاهره المعجزه و بين اقتراب يوم القيامه لأنّه قريب من بعثته صلى الله عليه و آله ،و

هو القائل :«إنّنى بعثت و الساعه كهاتين،و جمع بين إصبعيه »

ص:٢١٠

دلاله علی قربهما الزمنی،أی لا یلبث العالم بعده أن یشهد الساعه،و قال علی بن إبراهیم(ر ض):«اقتربت القیامه فلا یکون بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلاّ القیامه،و قد انقضت النبوّه و الرساله» (۱).

و سواء کانت الساعه بعد آلاف أو ملایین السنین من بعثته صلی الله علیه و آله فإنّها قریبه، إذ کلّ آت قریب،و لأنّ البعد و القرب لا یقاسان بحیاه الإنسان المحدوده فی الدنیا،بل یقاسان بما فی الکون من أرقام و أبعاد زمانیه کبیره،فقد یکون عمر الشمس عشره ملایین سنه و لکنّها انقضی أکثرها،و أصبحت نهایتها قریبه جدا، ثمّ ما هی نسبه هذه المده إلی الزمن اللامتناهی الذی یلی الحیاه الدنیا؟! إنّ الکفّار کذّبوا هذه الآیه المعجزه مع وضوحها،و أعرضوا عن دلالاتها، و لکنّهم لم یکونوا أوّل و لا آخر المکذّبین،فقد سبقهم إلی هذا الضلال قوم نوح و عاد،و کانت عاقبه أولئک الخزی و العذاب،فلا ینبغی للرسالی أن یصاب بهزیمه نفسیه إذا رفض البعض الاستجابه إلی دعوته،فإنّ دعوته منصوره،و إنّ المکذّبین فی ضلال بعید.

بیّنات من الآیات:

[۱]یعیش الإنسان فی وجدانه خوفا عمیقا من شیء مجهول،و القرآن یبیّن أنّه الساعه،فالموت الذی یعقبه مصیر مجهول بالنسبه إلیه أمر رهیب جدّا،و الآیات تؤکّد بأنّ خوف الإنسان الحقیقی لیس من الموت،و إنّما من البعث بعد الموت، و إنّما یخشی الموت لأنّه بوّابه الحساب.

اِقْتَرَبَتِ السّاعَهُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ

ص:۲۱۱

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۵)-ص(۱۷۵).

قال ابن عباس :«اجتمع المشركون إلى رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقالوا:إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين،فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :إن فعلت تؤمنون؟قالوا:

نعم،و كانت ليله بدر فسأل رسول اللّه صلی الله علیه و آله ربّه أن يعطيه ما قالوا،فانشق القمر على عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله فرقتين،و رسول اللّه صلی الله علیه و آله ينادى:يا فلان يا فلان! اشهدوا» (۱)حتى قال بعضهم:«إنّنى كنت أرى حراء بين فلقتى القمر. » و انشقاقه الذى حدث فى عصر الرسول أو الذى يحدث فيما بعد،من الظواهر الكونيه الدالّه على قرب الساعه،و لكنّ القرآن يقدّم الحديث عن الساعه على ظاهره انشقاق القمر،لأنّه محور الكلام و الغايه منه.و كم هى رهيبه ساعه القيامه، و كيف لا تكون كذلك و فيها تسير الجبال الشاهقه فتصير سرابا،و تنتثر الكواكب كخرزات العقد المنفرط،و تزلزل الأرض زلزالا عنيفا! إِنَّ زَلْزَلَهَ السّٰاعَهِ شَيْءٌ عَظِيمٌ !إنّها مهوله جدّا!و تترك أثرا جذريّا لا نعرف نحن مداه،و لا يقتصر ذلك الأثر على تاريخ البشريه وحدها،كلاّ..بل هو تغيير كونى حاسم،لأنّه اليوم الذى ينتهى فيه دور الإنسان على وجه الأرض،و قد خلق اللّه ما فى الأرض لأجله،إذا فذهابه منها يقتضى تغيرا حاسما فيها.و ربنا لم يقل(قربت)بل قال «اقْتَرَبَتِ» و هذه الزياده التى لحقت بالفعل سببها دخوله فى باب الافتعال الدال على بدل المزيد من القوه و الجهد، كما يدلّ قولنا اكتسب على استعمال القوه فى الحصول على الرزق،فالساعه تمرّ بمخاض عسير،لأنّ حدوثها يقترن بتغييرات هائله.

[۲]و انشقاق القمر ليس الآيه الوحيده التى تهدينا إلى الساعه و البعث،فهناك من الآيات الأخرى الكثير ممّا يكفى سلطانا مبينا،و حجه بالغه لنا على واقعيه الساعه،و لكنّ المشكله فى نفس الإنسان حينما يضل،و يتبع هواه.إنّه يرى الآيات و يعقلها،و لكنّه يعرض عن دلالاتها،و يصرّ على باطله،و لكى يتخلّص

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۵)-ص(۱۷۴).

من وخز الضمير و نداء العقل يبحث لضلاله عن تبرير،و للآيات عن تأويل،مهما كانا سخيفين و متناقضين مع أبده المسلّمات الوجدانيه و العقليه،كلّ ذلك تهرّبا من مسئوليه الاعتراف بالحق.

وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ لقد اعتذر المشركون عن الايمان بالرساله بأنّهم لا يؤمنون بشيء غيبى لا آيه محسوسه عليه،فألحّوا على الرسول صلى الله عليه و آله بنظرتهم الشيئيه أن يريهم من الآيات الماديه ما يصدّق نبوّته و رسالته،فسأل ربّه ذلك ليقيم الحجه عليهم و أعطاه،إلاّ أنّهم أعرضوا عن الايمان،

قال على بن إبراهيم(ر ض) :«فإنّ قريشا سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يريهم آيه،فدعا اللّه فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم،فقالوا:هذا سحر مستمر » (1)أى دائم،و السحر لا يدوم،إنّما هو لحظات يخدع فيها الساحر أعين الناس ثم ينتهى،و المشركون يدركون هذه الحقيقه،و لكنّهم قبلوا أن يضيفوا إلى السحر نوعا جديدا لا عهد لهم و لا عهد لهم و لا للتاريخ به،و لم يقبلوا أنّ يكون القرآن رساله من اللّه،لأنّه يجعل من الايمان به و تطبيقه مسئوليه واجبه عليهم،فهو حينئذ رساله اللّه إلى أنفسهم أيضا،و الحال أنّهم يسعون بكل ما أوتوا من حيله و مكر إلى التهرّب من المسؤوليه،و يحتمل أن تنطوى كلمه المستمر على معنى القوى أيضا،و السحر لا قوه له لأنّه خيال لا واقع،و سواء هذا أو ذاك فإنّ القرآن يثبت أفكارهم و أقوالهم و مواقفهم المتناقضه فى ذاتها لبيان بطلانها و ضلاله أصحابها.

و قد سبق أن قلنا بأنّ فى قولهم بأنّ الرساله و آياتها سحر اعترافا بتأثيره البالغ عليهم،و بالعجز عن الإتيان بمثله،و بسلطانه على أفئده الناس كما السحر،

١- ١) نور الثقلين/ج(٥)-ص(١٧٥).

فيؤخذون بهذا الاعتراف،و ينبذ تفسيرهم لذلك بأنّه يشبه السحر،إذ مستحيل أن يستمرّ السحر الذى حقيقته التأثير الموقّت فى خيال الإنسان.

[۳]و الآيه التاليه تؤكّد على أنّ التبرير الباطل يساوى عند اللّه الكذب المحض،بل هو أشدّ،لأنّ أهداف التكذيب هى ذاتها أهداف التبرير،و أهمّها اتباع الأهواء و الشهوات،إذا فتبرير الإنسان لا يغيّر من واقعه شيئا،و لا من جزائه عند ربّه،لأنّه تعالى لا ينظر إلى المظاهر و لا يحاسب عليها،إنّما ينظر إلى الحقائق الواقعيه،و يجعلها ميزانا للجزاء،إنّه «يَعْلَمُ خٰائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي الصُّدُورُ» (۱).

وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ و اتباع الهوى هو سبب التكذيب،كما أنّه الهدف منه،و هذه الآيه دليل صريح على بطلان عذرهم،و رفض اللّه له كمبرّر مشروع لاعراضهم عن الحق،حيث اعتبرهم و المكذّبين سواء.

وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ إنّ سنن الحياه الدنيا و الآخره و مقاييسهما حقائق قائمه و ثابته لا تتغيّر (مستقرّه)،فلا يمكن تغييرها بهوى النفس أو بتمنّيات البشر،و تشير هذه الآيه إلى ما بيّنته الآيات الأخرى كقوله سبحانه: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ (۲)، وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۳)، وَ لاٰ يُفْلِحُ السّٰاحِرُ حَيْثُ أَتىٰ (۴)، إِنَّ الْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقاً (۵)،كما أنّ

حكمه الامام على عليه السلام :«الأمور مرهونه بأوقاتها »مستوحاه

۱- ۱) غافر/(۱۹).

۲- ۲) الرعد/(۳۸).

۳- ۳) الأعراف/(۱۲۸).

۴- ۴) طه/(۶۹).

۵- ۵) الإسراء/(۸۱).

من هذه الآيه الكريمه،و هذا التفسير يجمع بين آراء المفسرين القائله بأنّ الأمر المستقر هو العواقب،أى أنّ عاقبه الأمور مستقره على قيم ثابته،كما ترسى السفينه بالتالى عند الشاطئ،أو ما قالوا:بأنّ عاقبه الخير الحسنى و الشر السوئى،و قال بعضهم:

أنّها القيامه حيث تستقر عندها سفينه الدنيا،لأنّها تبرز كأمر واقعى محسوس، و يتميّز الحق من الباطل.

بلى.إنّ كلّ أمر واقعى حق سوف يستقرّ مكانه،و يتكرّس أكثر فأكثر رغم الظروف و العوامل المضادّه،و استقراره أعظم دلاله من ملايين الكلمات، فلو اجتمع الإنس و الجن على إنكار وجود الجبال،و جاؤوا بملايين الأدله،هل يتغيّر الواقع؟ كلاّ..ذلك أنّ المحور الحقيقى هو الواقعيات الخارجيه الحقّه،و ليست الأهواء و التمنّيات و الظنون،و لعلّ معنى «حِكْمَةٌ بٰالِغَةٌ» التى تأتى لاحقا هو هذا الأمر، إذ أنّ الحكمه هى وضع الشىء موضعه،و لا يقدر على ذلك إلاّ من عرف السنن الالهيه النافذه فى الخلق،و النظام العادل الحاكم فى كلّ شىء،و إنّما كانت رسالات اللّه حكمه بالغه لأنّها تهدى الإنسان إلى المستقرّات من الحقائق الواقعيه، و من ثمّ إلى منهج الحياه الأقوم و القائم على أساسها.

[۴]و إذا كانت القيم هى المستقره(لا الأهواء)فإنّ أعذار أولئك الكفّار تذهب باطلا.أو ليس قد توافرت الشواهد على صدق الرساله،فلم كفروا بها؟أو ليس قد تواترت الأنباء على أنّ من كفر بها أهلك،و كفى بذلك زاجرا؟ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنَ اَلْأَنْبٰاءِ مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ و من تلك الأنباء آيه انشقاق القمر،و المزدجر هو التخويف و الترهيب،و ربّنا لم يكتف بإرسال الآيات،و بيان القوانين للإنسان،بل و أقام عليه الحجه البالغه حينما حذّره من مخالفتها،

«لئلاّ يقول أحد لو لا أرسلت إلينا رسولا منذرا،

و أقمت لنا علما هاديا، فَنَتَّبِعَ آ یاتِکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزیٰ » (۱).

[۵]و لیس فی آیات اللّه تعالی نقص أبدا،بل فیها الحجه القاطعه،إذ جعلها اللّه من الوضوح و الکمال درجه لا عذر لأحد فی الاعراض عنها و عن دلالاتها،فهی کما یصفها تعالی:

حِکْمَهٌ بٰالِغَهٌ و البلوغ هنا بمعنی التمام و الکمال،و منه بلغ الرجل إذا اکتمل نفسیّا و عقلیّا و عضویّا،و بلغت الثمره إذا نضجت و حان قطافها،و هناک معنی آخر تنطوی علیه الکلمه و هو الوصول،و الحکمه الالهیه کامله عمقا و شمولا،لا یعتریها نقص فی المحتوی و لا الأسلوب،ثم انّ اللّه أوصلها إلی الناس عبر أنبیائه المبلّغین،فلا عذر لهم بأنّه لم یرسل رسولا،و هذه الآیه تشبه قوله تعالی: فَلِلّٰهِ الْحُجَّهُ الْبٰالِغَهُ فَلَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ (۲).

إذن فالحیاه لیست فوضی،بل و لها قوانینها و سننها المستقره الثابته،و الإنسان یحتاج إلی الحکمه البالغه المنطلقه من تلک الواقعیّات الحق،لکی یعیش فیها کما ینبغی،و هذه نجدها مبثوثه فی کتاب اللّه،الحکمه البالغه العظمی،و النعمه الکبری،و الهدیه الالهیه إلی الإنسان،و قد بلّغها رسوله صلی الله علیه و آله ،فلما ذا إذن هذا الضلال الذی تعیشه البشریه؟و الجواب:لأنّها لم تؤمن به،و لم تطبّق آیاته.إنّها وضعت بینها و بین تلک الحکمه حجب الاعراض و التبریر و التکذیب و الهوی.

فَمٰا تُغْنِ النُّذُرُ

ص:۲۱۶

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء الندبه.

۲- ۲) الأنعام/(۱۴۹).

کان یفترض أن تزجرهم عن الضلال و الباطل فإذا بها تزیدهم طغیانا و کفرا، و کان ینبغی أن تبکیهم فإذا بهم یضحکون و یهزأون،و جاءت لتذکّرهم فإذا بهم یتوغّلون فی الغفله،و القرآن یبیّن هذه الحقیقه فی أواخر سوره النجم،و یستنکر علی المکذّبین واقعهم: «أَ فَمِنْ هٰذَا الْحَدِیثِ تَعْجَبُونَ* وَ تَضْحَکُونَ وَ لاٰ تَبْکُونَ* وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ» ؟! (۱).

[۶]و إذا وصل الإنسان إلی حدّ الاعراض عن الحکمه البالغه أو کله اللّه الی نفسه،فلا ترتجی له هدایه بعد ذلک،و صرف عنه أولیاءه،لیزداد إثما علی إثم، و یتسافل درکا بعد درک،فیلقی جزاءه المریع الذی یقصر عنه خیال البشر.

و یأمر ربّنا مکرّرا أصحاب الرساله بترک المعرضین عنها،و نتساءل:لماذا؟إنّما لحکمه بالغه تتمثّل فی أنّ الاستمرار فی إنذارهم و محاوله هدایتهم سوف یتسبّب فی ضیاع وقت کثیر منهم لا بد أن یوفّروه لما هو أنفع،فعلیهم إذن أن یبلّغوا الرساله إلی الحدّ الذی تقوم فیه الحجه علی الآخرین،و یسقط عنهم الواجب،فإذا تبیّن لهم عدم نفعه وجب أن یتوجّهوا إلی هدایه غیرهم،و إلی تطبیق الرساله علی أنفسهم، و تکوین الکیان الرسالی المتکامل،أمّا متی یتولّی الرسالی عن دعوه الآخرین؟فإنّ تحدید ذلک یکون علی ضوء البصائر الالهیه،و القیاده الرسالیه تعرف ذلک.

و هناک حکمه أخری لواجب الاعراض عمّن یجحد آیات اللّه هی أنّهم هم المحتاجون إلی الرساله،و الرساله غنیه عنهم،فلا داعی للإلحاح الزائد علیهم،أو تغییر بعض القیم و تطویعها وفق أهوائهم لیقبلوها، کما فعل بعض علماء النصاری حیث أدخلوا فی دین اللّه ما لیس فیه مجاراه للسلطان أو للعوام من الناس حتی یستهویهم الدّین،و کذلک فعل بعض الجهله من الدعاه عند المسلمین حیث أضافوا

۱- ۱) النجم/(۵۹-۶۱).

إلی الدّین ما یستهوی الطغاه أو رعاع الناس ابتغاء کسبهم،و اللّه غنی عنهم و عمّن یدعونه بهذه السبل إلی دینه.

و لا ریب أنّ المؤمن حریص علی هدایه الناس،و یرید الخیر لهم،فمن الصعب علیه أن یترکهم حصبا لجهنم،

فهذا سید الشهداء الامام الحسین علیه السلام تبتّل لحیته بالدمع،و حینما یراه رجل من الأعداء یخاطبه:یا ابن فاطمه!أ تبکی خوف القتل؟!فیقول:«لا و لکن لأنّنی أعلم أنّکم تدخلون النار بقتلی »،من أجل کلّ ذلک توالی الأمر بترک المعرضین فی القرآن.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ اترکهم و شأنهم،و انتظر،و تقدیر هذا الفعل أقرب إلی السیاق من قول بعض المفسّرین بأنّه:و اذکر یوم القیامه حیث یدع الداع إلی شیء مکروه،ذلک لأنّ انتظار یوم البعث لفضّ الخلافات مسأله معروفه فی آیات القرآن الکریم.

و قد لا یقتصر الأمر بالتولّی علی الدنیا وحدها بل یشمل الآخره،حیث یأمر الربّ نبیّه بالاعراض عنهم و ترکهم و هو صاحب الشفاعه الکبری یوم القیامه، و حیث یلتمس الناس بأجمعهم حتی الرسل و الأنبیاء الشفاعه منه صلی الله علیه و آله لأنّها الصراط الأقرب إلی الجنه.

جاء فی الحدیث عن سماعه بن مهران قال:قال أبو الحسن علیه السلام :«إذا کانت لک حاجه إلی اللّه فقل:«اللهمّ إنّی أسئلک بحقّ محمّد و علیّ فإنّ لهما عندک شأنا من الشأن»فإنّه إذا کان یوم القیامه لم یبق ملک مقرّب و لا نبیّ مرسل و لا مؤمن ممتحن إلاّ و هو یحتاج إلیهما فی ذلک الیوم » (۱)

و عن الامام الصادق علیه السلام :«ما من أحد من الأوّلین و الآخرین إلاّ و هو یحتاج إلی

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۸)ص(۵۹).

شفاعه محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)يوم القيامه » (۱)و كم تكون حاجه هؤلاء إلى الرسول فى ذلك اليوم عظيمه!و لكنّ اللّه يأمره بالتولّى عنهم جزاء لتولّيهم و إعراضهم فى الدنيا.

يَوْمَ يَدْعُ الدّاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ و عدم ذكر الداعى هنا(هل هو اللّه،أم إسرافيل،أم جبرئيل،أم الروح؟) يدلّ على أنّ المهم الدعوه و ما تنطوى عليه،و ليس شخص الداعى،لذلك أبهم،و فى ذلك من الترهيب الشىء العظيم،ثم انّه تعالى زاد الأمر رهبه حينما جعل المدعو إليه مجهولا،فقال «شَيْءٍ» و الشىء نكره،و الإنسان مجبول على الخوف من المجهول،و أخيرا جاءت صفه الشىء تفيض رهبه و زجرا و تخويفا بتأكيدها على أنّ الشىء منكر،و أصله أن يرد على الإنسان ما لا يتصوّره و يستسيغه،و قيل للذنوب و الخطايات منكرات لأنّها يمجّها عقل البشر و وجدانه و لا يستسيغانها.

[۷-۸]و إذا كان الإنسان فى دار الامتحان قادرا على الاعراض عن دعوه اللّه و عدم إجابه داعيه،فليس لأنّه يغلب اللّه بمعصيه أو يعجزه هربا من عقابه،كلاّ..

«وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» (۲)،أمّا فى يوم القيامه فإنّه تسلب حرّيته،و يخلص الملك و الحكم للّه الواحد القهّار،فلا مجال لأحد أن يتمرّد على أمره أو يرفض دعوته، «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّٰاعِيَ لاٰ عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً» (۳)، هنالك يبدّل تكبر المعرضين و المكذّبين ذله و هوانا.

۱- ۱) المصدر/ص(۳۸).

۲- ۲) الأحقاف/(۳۲).

۳- ۳) طه/(۱۰۸).

خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ خشوع صغار و ندامه يعكس عمق المذلّه فى نفوسهم.

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ كَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ و الأجداث هى القبور،و حيث تبعث البشريه بجميع أجيالها التى تعاقبت على الأرض يصير العدد عظيما،بحيث يركب بعضهم على بعض،

«فأحسنهم حالا من وجد لقدميه موضعا،و لنفسه متّسعا» (1)كما يقول الامام على عليه السلام ،و القرآن يشبّه الناس فى حشرهم بالجراد حينما ينتشر،أى يتكاثر بأعداد هائله فى مثل حالات البلاء،فهو حينئذ كثير متراكم،و القرآن هنا يقدّم الحديث عن حالتهم «خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ» على خروجهم من القبور،لأنّ بيانها هو هدف السياق من ذكر القيامه،و هو يمضى يحدّثنا عن حال الذين أعرضوا و كذّبوا و اتبعوا أهواءهم بدل أن يتبعوا الدعاه إلى اللّه عزّ و جل.

مُهْطِعِينَ إِلَى الدّٰاعِ قال صاحب المجمع:الهطع المشى السريع بالإلجاء و الإكراه و الاذلال،و قال الزمخشرى:بمدّ الأعناق،أو ناظرين إليه (إِلَى الدّٰاعِ) لا يصرفون أبصارهم عنه إلى غيره،و قال الراغب:هطع بصره أى صوّبه،و بعير مهطع إذا صوّب عنقه،و الذى يبدو أنّ اللّه قطع الكلمه عن الاضافه،فلم يقل مهطعين رؤوسهم مثلا،و ذلك ليتسع معناها إلى مضمون أشمل هو تجميع كلّ جوارح البدن و جوانح القلب فى اتجاه الداعى،و هذا يدلّ على عمق طاعتهم لداعى اللّه.

١- ١) نهج البلاغه/خطبه(١٠٢).

يَقُولُ الْكافِرُونَ هٰذا يَوْمٌ عَسِرٌ لأنّه يوم الدّين و الحق،و قد أعرضوا عن الدّين،و اتبعوا الأهواء و الظنون،أمّا المؤمنون الذين آمنوا بالآيات الربّانيه،و صدّقوا بالحسنى،و اتبعوا داعى اللّه فى الدنيا،فذلك يوم سعادتهم،و أىّ سعاده أسمى من لقاء العبد بربّه،و بلوغه الوعد الذى طالما تاقت إليه نفسه؟! «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ* لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ* لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (١)، «وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» (٢).

قال الامام على عليه السلام يحدّث الناس عن أحداث المحشر :«إذا كان يوم القيامه بعث[بعثهم]اللّه تبارك و تعالى من حفرهم عزلا بهما جردا مردا فى صعيد واحد، يسوقهم النور،و تجمعهم الظلمه،حتى يقفوا على عقبه المحشر،فيركب بعضهم بعضا،و يزدحمون دونها،فيمنعون من المضى فتشتدّ أنفاسهم،و يكثر عرقهم، و تضيق بهم أمورهم،و يشتدّ ضجيجهم،و ترفع أصواتهم»،قال:«و هو أوّل هول من أهوال يوم القيامه»قال:«فيشرف الجبّار تبارك و تعالى عليهم من فوق عرشه فى ظلال من الملائكه،فيأمر ملكا من الملائكه فينادى فيهم:يا معشر الخلائق!أنصتوا و اسمعوا منادى الجبّار»قال:«فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم»قال:«فتنكسر أصواتهم عند ذلك،و تخشع أبصارهم،و تضطرب فرائصهم،و تفزع قلوبهم،و يرفعون رؤوسهم إلى ناحيه الصوت، مُهْطِعِينَ إِلَى الدّاعِ» ،قال:«فعند ذلك يقول الكافر هذا يوم عسر » (٣).

١- ١) الأنبياء/(١٠١-١٠٢).

٢- ٢) النمل/(٨٩).

٣- ٣) نور الثقلين/ج(٥)-ص(١٧٥).

[۱۲-۹]ثم انّ التكذيب بالرساله أمر طبيعى واجهه كلّ الأنبياء السابقين.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنٰا التكذيب الأوّل بالآيات و الرساله،و التكذيب الثانى بنبوّته عليه السلام ،و لم يقفوا عند حدّ التكذيب و حسب بل سعوا إلى النيل من سمعته.

وَ قٰالُوا مَجْنُونٌ لإصراره على الحق،و استبساله فى الدعوه،بالرغم من تكذيبهم،فهو فى نظرهم يطلب المستحيل اللاّمعقول،و حيث وجدوا فيه الشجاعه التى تحدّى بها ثقافاتهم و عاداتهم و لم يريدوا الاعتراف له بهذه الايجابيه،حوّروها إلى الجنون حتى يصنعوا بينه و بين الناس حجابا يمنعهم من التأثّر به،و هذه من طبيعه الطغاه،فهم اليوم يسمّون الأصاله تطرّفا،و الجهاد فى سبيل اللّه إرهابا،و على المؤمنين أن لا يهزمهم الاعلام المضاد فهم امتداد لخط الأنبياء،و هم على حق،و عليهم أن يتحمّلوا ما تحمّل الرسل من أذى فى سبيله،فهذا شيخ الأنبياء نوح عليه السلام يزجره قومه قصد ثنيه عن رسالته و الاساءه إليه.

وَ ازْدُجِرَ و هذه الكلمه هى تلخيص لمجمل ما تعرّض له نوح-عليه السلام-من البلاء و الإيذاء،و هى ليست معطوفه على «مَجْنُونٌ» ممّا يجعلها داخله فى جمله القول،بل معطوفه على «فَكَذَّبُوا» كما يبدو،فهم كذّبوه نفسيّا،وسعوا فى تشويه سمعته بألسنتهم و ما أمكنهم من وسائل الاعلام،و آذوه فعلا،و إنّما استفتح السياق بذكر نوح بين الأنبياء لأنّه أشدّهم ابتلاء بسبب الاعراض عنه فقد لبث فى قومه ألف سنه إلاّ خمسين عاما يدعوهم فيعرضون عنه.

فَدَعٰا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ و هـذه الآـيه تـدلّ على المعنى المتقـدم لكلمه«ازدجر»،إذ لو لا دعاؤه لتأثّر بزجرهم نفسيّا،أو صار ضحيه له،كما تـدل على أنّ نوحا-عليه السـلام-وصل إلى حـدّ اليأس من قومه،قال الرازی:إنّ الرسول لا يـدعو هذا الدعاء ما دام فيه نفس احتمال،و ما دام الايمان منهم محتملا،و اسـتجاب ربنا دعاء نبيه،ففتـح السـماء ماء منهمرا،و فجّر الأرض عيونا،فنصـره و أهلك الكافرين.

و بنظره شامله و دقيقه إلى القصه التی يعرضـها القرآن فی ثلاثه فصول،يحـدّثنا فی الأوّل عن معاناه نوح مع قومه،و فی الثانی عن دعائه الـذی يلخّص موقفه منها،و فی الثالث عن عذاب اللّه لقومه الكافرين،نكتشف حقيقه هامّه هی أنّ دعاء المؤمنين بالنصـر لا يستجاب إلاّ إذا تحرّكوا فی سبيل اللّه،و إلى تحقيق النصـر بأقصى ما يمكنهم معنويّا و ماديّا.إنّ اللّه كان قادرا على نصر نوح من أوّل لحظه كـذّبوه فيها،و لكنّه تركه يدعوهم جيلا بعد جيل(٩٥٠ عاما)حملت فی أحشائها ألوان الأذى و الابتلاء،فكان يعـده ثمّ يؤخّر عنه النصر مره بعد أخرى إتماما للحجّه على الناس.

و فی سوره نوح استشـهاد مفصّل بـدعاء نوح عليه السـلام يكشف عن عمق المعانـاه التی واجهها،و يسلّط الضوء على كثير من الأفكار المتقدّمه،و لكنّه هنا يختصر الحديث اعتمادا على تفصيله فی مواضع أخرى،و يقول:

فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ السَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً

قـال الامـام الصـادق عليه السـلام :«لمّا أراد اللّه عزّ و جـلّ هلاـك قوم نوح(و ذكر حـديثا طويلا،ثمّ قال:)فصاحت امرأته لمّا فار التنّور،فجاء نوح إلى التنّور فوضع عليها طينا و ختمه حتى أدخل جميع الحيوان فی السفينه،ثم جاء إلى التنور ففضّ

الخاتم،و رفع الطين،و انكسفت الشمس،و جاء من السماء ماء منهمر صبّا بلا قطر،و تفجّرت الأرض عيونا » (1)و التاريخ يؤكّد أنّ الأرض قد غطّاها الماء فی یوم من الأيّام،و يستدل الباحثون على ذلك بآثار الحيوانات البحريه،كالأصداف و هياكل السمك الموجوده فی كلّ مكان حتی علی الجبال،إلاّ أنّ التحليل التاريخی يختلف عن القرآن بأنّه يبقى تحليلا ماديّا بحتا،و بغضّ النظر عن عدم مطابقته للواقع فی اعتقادنا فإنّه يبقى القضيه علما مجرّدا عن الموعظه و العبره،فأصحاب النظريات فی هذا المجال يفسّرون الطوفان-مثلا-بأنّه نتج صدفه،حيث مرّت بالأرض عواصف بارده تسبّبت فی تكوّن جبال جليديه ضخمه،ثم حدث انفجار فی الشمس أخذت الثلوج على أثرها بالذوبان،فتكوّنت السيول التی أغرقت اليابسه،و القرآن يقول:كلاّ.إنّه لم يكن صدفه،بل بتقدير إلهی حكيم نقرأ لمساته على هذه الظاهره الكونيه الخارقه للعاده،حيث سبق إخبار نوح به،و حيث لم يغرق فيه و لا مؤمن واحد،و لم ينج منه و لا كافر واحد،فهل هذا مجرّد صدفه؟! فَالْتَقَى الْمٰاءُ المنهمر من السماء،و المنفجر من الأرض.

عَلىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ و نجد إشاره إلى هذا الأمر الالهی فی قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ (2)،و كان الأمر حكيما فی جميع دقائقه،فهو مقدّر من حيث الزمن بدء و نهايه،و من حيث العوامل و طريقه تنفيذه،فلو تقدّم مثلا عن زمنه المحدود لربما كان يغرق نوح عليه السلام و من معه لعدم الاستعداد،و لو تأخّر أمر اللّه بإنهائه ربما لم تكن

ص:224

1- 1) نور الثقلين/ج(5)-ص(178).

2- 2) هود/(40).

الأرض بعدها صالحه للحياه عليها.

[۱۳-۱۶] وَ حَمَلْنٰاهُ عَلىٰ ذٰاتِ أَلْوٰاحٍ وَ دُسُرٍ و هى السفينه التى تتكوّن من الجذوع المقطّعه شرائحا،و لا يقال لوح إلاّ للصفائح،أمّا الدسر فهو ما يشدّ الألواح إلى بعضها،سواء كان ذلك المسمار أو الحبل أو غيرها،و إذ يتعرّض القرآن إلى المواد الأوّليّه التى تتألّف منها سفينه نوح فلكى يؤكّد بأنّ الأمر لم يكن صدفه،بل هو مقدّر تقديرا حكيما من قبل اللّه،و إلاّ كيف ينجو راكب سفينه هذه طبيعتها من الغرق بطوفان هائل أمواجه كالجبال؟!! و يؤكّد القرآن على هذه الحقيقه مره أخرى،حينما يبيّن بأنّ سير الفلك فى غضب الطوفان و بالتالى نجاه ركّابها كان برعايه مباشره من اللّه،و فى ظلّ رحمته.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنٰا جَزٰاءً لِمَنْ كٰانَ كُفِرَ و عين اللّه لطفه و رحمته و رعايته لنبيّه عليه السلام إذ نجّاه و من معه جزاء معاناته و إيمانهم، فقد لبث فى قومه مدّه طويله يدعوهم إلى اللّه بإلحاح رغم كفرهم به و أذاهم له،و لم تكن نجاته صدفه،و لا لعنصره،و لا لركوبه فى السفينه و حسب، بل لعمله و سعيه،إذ أكّد ربّنا أنّه كان جزاء لنوح الذى كان قد كفر من لدن أولئك الكافرين،و هذا رأى فى التفسير،و هناك آراء أخرى لا أراها تنسجم مع ظاهر السياق.

و فى الوقت الذى دمّر اللّه أولئك و نجّى هؤلاء،أبقى قصصهم-و ربما السفينه أيضا-علامه تهدينا إلى الحق،و لكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد.

وَ لَقَدْ تَرَكْنٰاهٰا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

ص:۲۲۵

إنّها واقع مر لفريق،و نعمه لفريق آخر فی وقتها،و لكن دورها لا ينتهی عند هذا الحدّ،بل تبقی موعظه للاّحقين،لذلک يسجّلها اللّه فی كتابه لكی لا تنساها البشريه و يفوتها نفعها،و أن يتذكّر الإنسان بغيره خير من أن تدور رحی التجارب عليه فيصير عبره للآخرين،و كما

فی الخبر :«السعيد من اتّعظ بتجارب غيره »، من هنا ينبغی أن ندرک مدی أهميه القرآن للبشريه،و دوره فی حفظ تاريخها و تجاربها التی تطاولت عليها السنون،و كانت لولاه تبيد و تنسی أو تنتزع منها عبرتها و لبابها، و تضحی قشره باليه لا تكسب الناس حكمه،و لا تهديهم سبيلا،كما نجد فی التواريخ التی تمجّد قصص الغابرين لا تحكی سوی ظواهرها،أمّا ما ينفع الأجيال المتلاحقه فإنّه ينسی.حقّا:إنّها سمه مميّزه لمنهج الرساله فی بيان قصص الأوّلين، حيث تحوّلها إلی حقائق معاشه بيننا،و ذلک بالتركيز علی بيان عبرها الدائمه و الخطوط المشتركه بيننا و بينهم.

و هكذا أشار ربّنا سبحانه فی آيات أخر إلی جانب من ذلک بعد بيان قصه نوح فقال: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (1).أ تری كيف وصل الحدث الموغل فی التاريخ بالحدث الراهن المتمثّل فی الصراع المستمر بين المتقين و غيرهم و أنّ العاقبه لهم؟و هذه من أبرز العبر فی قصه نوح عليه السلام ،و لكنّ السفينه ذاتها آيه أيضا،ذلک أنّها حافظت علی النوع البشری من الانقراض،و من الآيات التی تجلّت فی القصه آيه العذاب الالهی المهول الذی تشير إليه الآيه الكريمه التاليه بهدف إصلاح النفسيه البشريه القائمه علی الظنون و التمنّيات،حيث يستبعد البعض العذاب من قبل اللّه بناء علی تصوّر خاطئ بأنّه رحيم و رؤف و قد

۱- ۱) هود/(۴۸-۴۹).

خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذبهم،و يتخذ البعض من هذا التصوّر مبرّرا للذنوب التى يمارسها،كلاّ..يقول تعالى:

فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ بلی.إنّ الغضب الالهی عـذاب للأقوام التی يحلّ بها،و لكنّه فی ذات الوقت نذير للاّحقين،فلا يعتمدوا إذن على التمنّيات،ليتفكّروا فی التاريخ،و ليـذكّروا آياته الواعظه المنـذره،و الاسـتفهام الوارد فی الآيه يفيـد التعظيم،و يستهدف استثاره العقل نحو الموعظه بوقعه الخاص،ذلك أنّ الاستفهام بحاجه إلى وقفه تفكّر و تدبّر.

[۱۷]و تلك الآيه و آيه العـذاب،و ما تنطوی عليه قصه نوح مع قومه من نـذر، تلتقی مع القرآن فی هـدف واحد هو التذكره،إذن فهی الهـدف الأسـمی للقرآن، و إليها تهـدی كلّ سوره و آياته و مفرداته،و لكن كيف يحقّق القرآن هذا الهدف؟ و كيف ينفذ إلى أعمـاق ضـمير الإنسـان و عقله،و يخـترق حجب الهوی و الغفله و الجهـل التی تلوث فطرته،و تستر عقله عن الحق؟لاـ بـدّ أن يكون ميسّرا بعيدا عن العسر و التعقيد للأسباب التاليه:

أوّلا:لأنّه كلام الخالق العليم القدير إلى المخلوق الجاهل الضعيف،و ليست ثمّه نسبه بينهما فی علم و لا منطق.

ثانيا:لأنّه يحدّث الإنسان عن حقائق كبری فی الحياه و فوق الحياه،بعضها يحسها و يراها و البعض الآخر يغيب عنه.

ثالثا:لأنّ اللّه أراد لهذا الكتاب الصغير فی حجمه الكبير فی محتواه أن يكون تبيانا لكلّ شیء يهمّ الإنسان فی حاضره و مستقبله،و فی دنيـاه و آخرته،و يرسم له مناهـج الحيـاه فی أبعادهـا المختلفه،فی الشؤون الشخصـيه و الاجتماعيه و السياسـيه و الاقتصاديه و العلميه و الثقافيه..و لقد يسّر ربّنا القرآن إذ

جعله عربيّـا مبينـا،و أنزلـه فى أرفع الأسـاليب البلاـغيه و النفسـيه و العقليـه فـإذا بـه الحكمـه البـالغه،و القصــص القرآنى الـتى تبلغ(٤٠٪)من عموم آيـاته تقريبـا هى من أبرز معـالم منهجه فى تيسـير التـذكره،لـذلك نجـد الآيه الكريمه: وَ لَقَـدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ تتكرّر فى هذه السوره بعد كلّ قصّه مباشره،و هى قصص واقعيه بتفاصيلها التى تعرّض لها القرآن.

إذن لا نقص فى كتاب ربّنا سبحانه،و لا غموض،و لا يكلّف الإنسان أكثر من وسعه،بل هو ميسّر،و إذا كانت ثمّه تزمّت أو تعقيد عنـد بعض المؤمنين به فهو من عنـد أنفسـهم،و لأـنّ قلوبهم قـد ملئت بثقافـات دخيله،بأسـاطير الشـعوب البـدائيه،بأفكـار الجاهليه الوافده،بالاسرائيليّات المتلصلصه إلى كتبهم،و بالعقد المتراكمه من جرّاء التخلّف،و إذا لم يتذكّر البشر به فلا حجّه له.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ و السعيد من صدّق بالقرآن و تذكّر به فتجنب العذاب.

[٢٠-١٨]إنّ اللّه ضـرب للبشـر مثلا من واقع المكذّبين و عاقبتهم بقوم نوح عليه السلام ،و لكنّ الأهم بيانه مصير أولئك الذين لم ينتفعوا بتجارب السابقين من الأقوام،تحذيرا للناس من تكذيب القرآن و عصيان الرسول.

إنّ اللّه ترک قصـص قوم نوح آيه للاّـحقين،و كان بإمكان من بعـدهم أن يتجنّبوا غضب اللّه لو اعتبروا بها،و لكنّهم كـذّبوا فحلّ بهم العذاب.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ و عاد هم القوم الذين أرسل إليهم النبيّ هود عليه السلام فلمّا كذّبوه أهلكهم اللّه

بالريح،و هذا نذير آخر لنا يسوقنا إلى التصديق بالرساله.

إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً و هى الريح شديده البرد،و ذات الصوت الرهيب،عن علىّ بن إبراهيم (۱)، و أصله الصرير،و

عن أبى بصير قال:قال أبو جعفر عليه السلام :إذا أراد اللّه عزّ ذكره أن يعذّب قوما بنوع من العذاب أوحى إلى الملك الموكّل بذلك النوع من الريح التى يريد أن يعذّبهم بها،قال:فيأمرها الملك فتهيج كما يهيج الأسد المغضب، قال:و لكل ريح منهم اسم (۲)و الذى يجعل الريح ذات أثر أعمق أنّها أرسلت فى يوم رفع اللّه عنه الرحمه.

فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ دائم،بدأ فى الدنيا بثمانيه أيّام حسوما،و لكنّه يمتدّ إلى الآخره حيث العذاب المقيم،و إنّما أرسل اللّه عليهم الريح تقتلعهم من الأرض لأنّهم تكبّروا على الحق، و تحدّوا هودا و ربّه،و جحدوا بالآيات،فكانوا يتصوّرون أنّهم باقون و أنّه لا غالب لهم،قال تعالى: فَأَمّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّهً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ* فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياهِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَهِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۳)،و يشير هذا النص القرآنى إلى الفكرتين المتقدّمين و بالربط مع قوله تعالى: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَهَ أَيّامٍ حُسُوماً (۴)نفهم أنّ «مُسْتَمِرٍّ» صفه للنحس و ليس لليوم،لأنّ اليوم ينقضى

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۵)ص(۴۰۱).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۸۱).

۳- ۳) فصلت/(۱۵-۱۶).

۴- ۴) الحاقه/(۷).

و یأتی آخر غیره،بینما بقی النحس عاملا مشترکا مستمرا.

أمّیا مـا قیـل من أنّ النحس مختص ببعض الأیّام کالأربعـاء أو الثـالث عشـر من کـلّ شـهر فـإنّه بعیـد،لأنّ الأقـدار لیست مرهونه بالأیّام،بل بعمل الإنسان فردا و مجتمعا،فالیوم الـذی یطیع اللّه فیه و یعمل صالحا هو یوم خیر و برکه و یمن،سواء فی الـدنیا حیث الشـعور بلذه فراغ الذمه و أداء الواجب،و جلب التوفیق،أو فی الآخره حیث یرقی به درجه من الرضـی و الجنه،و هکذا الیوم الذی تتنزّل فیه رحمه اللّه و آلاؤه مبارک و سعید،کیوم أنزل المائده علی بنی إسرائیل و حواری عیسی علیه السلام ،و لیله أنزل القرآن علی نبیّه التی هی خیر من ألف شهر،و فی المقابل یکون یوم المعصیه یوم نحس،یقطع عن صاحبه التوفیق،و یجعله عرضه لسخط ربّه فی الدنیا و الآخره.

أ تری کیف صار عقر الناقه سببا لدمار أمّه برمّتها؟

قـال سویـد بن غفله :دخلت علیه(یعنی الامـام علی علیه السـلام فإذا عنـده فاثور (خوان)علیه خبز السـمراء(الحنطه)و صـفحه فیها خطیفه(اللبن یختطف بالملاعق)و ملبنه(ملعقه)فقلت:یا أمیر المؤمنین یوم عید و خطیفه؟!فقال:«إنّما هذا عید من غفر له » (۱)

و عنه أیضا :«إنّما هو عید لمن قبل اللّه صیامه،و شکر قیامه،و کلّ یوم لا تعصی اللّه فیه فهو یوم عید » (۲).

و تتصل الآیات تحـدّثنا عن عاقبه المکـذّبین من قوم هود علیه السـلام لتضع أمام أعیننا لقطات رهیبه من العذاب،و ما فعلته الریح بهم إنّها من الشده بحیث تنتزع الإنسان من الأرض،کما تنزع أعجاز النخل المسـنّه الیابسه المنخوره من جذوعها لتلقی بها أرضـا من أساسها! تَنْزِعُ النّٰاسَ

۱- ۱) بح/ج-ص(۷۳).
۲- ۲) نهج/حکمه(۴۲۸).

و کلمه «تَنْزِعُ» تـدل بوضوح علی مـدی تشبّثهم بالحیاه،و اعتمادهم علی أسـباب القوه و البقاء الظاهریه،بالرغم من أنّهم یعیشون فی داخلهم الضـعف و الانهیـار، کسـائر الأنظمه الطـاغوتیه التی یشـبّهها اللّه ببیت العنکبوت مع أنّ ظاهرها القوه و المتانه،و هـذا الضـعف ناتج من اتباعهم الباطل،و مخالفتهم سنن الحیاه،ذلک أنّ أسباب القوه الحقیقیه تکمن فی اتباع الحق و التسلیم للّه،و قد اعتمد قوم عاد علی ذاتهم کما بیّنا ذلک فی الآیتین(۱۵/۱۶)من سوره فصّلت.

یقول تعـالی: مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۱)،و هنا یشبّههم بشیء آخر فیقول عزّ من قائل:

کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ اهـترأ و تجوّف بمرور الزمن و تعرّضه للعوامـل الطبیعیه المتلفه،و تقطّعت عروقه، فهو لا یحتـاج حتی یهوی إلی الأرض من أصوله فیتحطّم إلاّ لأدنی دفع،و قـد شـبّههم اللّه بالنخل الـذی اجتثّ من قعره(و إنّما أراد تعالی أنّ هؤلاء اجتثوا کمـا اجتثت النخـل الـذاهب فی قعر الأرض فلم یبق لهم رسم و لا أثر) (۲)، «فَتَرَی الْقَوْمَ فِیها صَرْعیٰ کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَهٍ» (۳)تهاوت علی بعضها و متفرقه هنا و هناک.

[۲۱-۲۲]و مع ما تحمل هـذه الآیات الکریمه من بلاغه و أسلوب أدبی رفیع، إلاّ أنّها ما جاءت لکی یظهر ربنا إعجازه البلاغی و الأدبی للناس و حسب،أو لتکون میدانا للصراع بین علماء البلاغه و اللغه أو بین المفسّرین،بل جاءت موعظه

۱- ۱) العنکبوت/(۴۱).

۲- ۲) مفردات الراغب/ص(۴۰۹).

۳- ۳) الحاقه/(۷).

و نذيرا للبشريه.

فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ أ ترى هيّنا أن يحلّ غضب اللّه القوى العزيز على الإنسان الضعيف الذى خلقه أساسا للرحمه؟!التفكر فى تضاعيف الآيات الماضيه،و نقف على آثار الماضين و قصصهم نتعظ من قبل أن نذلّ و نخزى،فهذه الآيات إنّما جاءت لتحملنا إلى التذكره،و تيسّر علينا حقائق القرآن.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ نحن لا نرى جهنّم بأعيننا لأنّها من الغيب الذى حجب عنّا علمه،و لكن لننظر إليها بقلوبنا و من خلال بصائر القرآن الحكيم،ليهدينا عذاب اللّه فى الأقوام السالفه إلى شديد عذابه فى الآخره،و ليزجرنا قبل ذلك عن التكذيب بالحق..فهل يكون ذلك منّا،أم نكون أنفسنا عبره لمن بعدنا؟إنّ الحجّه بليغه و بالغه،و السبل مشرعه،و الأعلام واضحه،و الآيات ميسّره،و بأيدينا القرار،و به نرسم مصيرنا و مستقبلنا،بتوفيق اللّه سبحانه.

ص:۲۳۲

[سوره القمر (۵۴): الآیات ۲۳ الی ۴۰]

اشاره

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقٰالُوا أَ بَشَراً مِنّٰا وٰاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنّٰا إِذاً لَفِی ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أَ أُلْقِیَ اَلذِّكْرُ عَلَیْهِ مِنْ بَیْنِنٰا بَلْ هُوَ كَذّٰابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَیَعْلَمُونَ غَداً مَنِ اَلْكَذّٰابُ اَلْأَشِرُ (۲۶) إِنّٰا مُرْسِلُوا اَلنّٰاقَهِ فِتْنَهً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اِصْطَبِرْ (۲۷) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ اَلْمٰاءَ قِسْمَهٌ بَیْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنٰادَوْا صٰاحِبَهُمْ فَتَعٰاطیٰ فَعَقَرَ (۲۹) فَكَیْفَ كٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۰) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ صَیْحَهً وٰاحِدَهً فَكٰانُوا كَهَشِیمِ اَلْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۳۲) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ حٰاصِباً إِلاّٰ آلَ لُوطٍ نَجَّیْنٰاهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَهً مِنْ عِنْدِنٰا كَذٰلِكَ نَجْزِی مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنٰا فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَیْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْیُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۷) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَهً عَذٰابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰)

اللغه

۲۵[أشر]:أی بطر متكبّر،یرید أن یترفّع و یتعظّم.

۲۸[محتضر]:یحضره صاحبه،و لا حق لأحدهما فی الماء فی الیوم الآخر.

ص:۲۳۳

۳۱[کهشیم المحتظر]:الهشیم هو حطام الشجر المنقطع بالکسر و الرض،الذی یجمعه صاحب الحظیره، یتخذه لغنمه حظیره،تمنعها من برد الریح،و المعنی:أنهم بادوا و هلکوا فصاروا کیبس الشجر المفتّت إذا تحطم،و قیل:معناه صاروا کالتراب الذی یتناثر من الحائط فتصیبه الریاح فیتحظّر مستدیرا.

۳۴[حاصبا]:ریحا ترمیهم بالحجاره،یقال:حصبه أی رماه بالحجاره.

۳۶[فتماروا]:أی تدافعوا بالإنذار علی وجه الجدال بالباطل،و قیل:معناه فشکّوا فیه،و لم یصدّقوه،و قالوا:

کیف یهلکنا و هو واحد منّا؟!

ص:۲۳۴

۳۷[راودوه]:المراوده:الرواح و المجیء،فقد جاء لوط علیه السلام ضیوف فأراد قومه أن یلوطوا بهم،فکانوا یراودونه من أجل ذلک.

[فطمسنا أعینهم]:أی محوناها،و مسحناها،و سوّیناها بسائر الوجه حتی عمیت عیونهم،و شوّهت خلقتهم.

۳۸[بکره]:البکره أول الصبح.

ص:۲۳۵

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

هدی من الآیات:

إنّه لأسلوب جدید فی القرآن الکریم فی هذه السوره و التی تلیها:أن تتکرّر الآیه الواحده مرّه بعد الأخری،ممّا یهدی المتدبر-و من أوّل وهله-إلی کونها محورا أساسیّا بین أخواتها فی السوره الواحده،ففی سوره الرحمن تتکرّر الآیه الکریمه:

«فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ» ،و هنا قوله تعالی: «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» ،و یطرح الذکر الحکیم هذا الاستفهام مدویّا فی أفق الزمان و المکان و فی قلب کلّ بشر:هل هناک من یتذکّر بالقرآن الذی یسّر الذکر بقصص الماضین؟ الإنسان من جهته لا یعلم بعواقب الأمور،و بسنن الحیاه الفردیه و الاجتماعیه من حوله،إلاّ عبر منهجین:

/١تجارب الآخرین.علما بأنّ الإنسان لا یعاد إلی الحیاه مره أخری بعد الموت

ص:٢٣۶

حتی یجرّب فی الأولی و یتعظ فی الثانیه.

/٢الوحی الالهی.

و قد یکشف القرآن السنن الالهیه فی الخلیقه بصوره مباشره،و قد یبیّنها عبر قصص الغابرین،فهو إذا یجمع بین المنهجین و من أراد أن یتذکّر(یتنبّه ضمیره و عقله)فعلیه بالقرآن،کمکمل و هاد لفطرته و عقله،فإن لم ینتفع به فلیس ینفعه شیء أبدا.

بینات من الآیات:

[٢٣]قصه ثمود(قوم صالح علیه السلام)من النذر التی تکشف لنا عن عاقبه التکذیب بالحق،و لکنّ ربنا لا یقول أنّهم کذّبوا بالحق،بل قال کذّبوا بآیاته و نذره،و ذلک لیکشف لنا عمق الضلال و الانحراف فی نفوسهم،فالإنسان یکذّب بالحق تاره ثم یزعم أنّه لا یجد آیه تدلّه علیه،و تاره یکذّب به بالرغم من الآیات الهادیه إلیه.قوم صالح دعاهم نبیّهم إلی اللّه،و حذّرهم من التکذیب،و أظهر لهم أکثر من آیه منذره بیّنه،و لکنّهم أصرّوا علی باطلهم،و کذّبوا بکلّ شیء.

کَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ قال بعض المفسرین أنّها نذر العذاب المباشره حیث اصفرّت وجوههم فی الیوم الأوّل،و احمرّت فی الثانی،و اسودّت فی الثالث..و الذی یظهر من سیاق القرآن أنّ النذر هو کلّ ما یحذّر الإنسان و یخوّفه من غضب اللّه و عذابه،و قد کذّبت ثمود بالرسول،و رسالته،و بآیاته العذاب،و بالناقه،و کلّها من نذر اللّه.

[٢۴]و حیث یحتاج الإنسان إلی تبریر مواقفه و تصرّفاته مهما کانت،فقد لجأوا بعد رفض الحق إلی الأفکار و الضلالات الجاهلیه،التی تناقض أبسط المعاییر

ص:٢٣٧

المنطقيه عند البشر.إنّهم حاولوا تقييم الرساله و قياده الرسول صلى الله عليه و آله من خلال مصلحتهم و واقعهم المادى المنحرف،فما داما لا يلتقيان معهما فليسا بحق.هم أرادوا الرساله رساله هوى و تبرير فجاءت بالحق و المسؤوليه،و أرادوا الرسول مثلهم فى قيادته و مظهره فوجدوه قدوه الخير و الصلاح.

فَقالُوا و يبدو أنّ القائلين هم الملأ المستكبرون الذين كانت قياده صالح عليه السلام مناقضه لمصالحهم،لذلك سعوا جهدهم إلى محاربته،و يدلّ على ذلك قوله تعالى: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ (1)،و أرادوا بذلك تشكيكهم فى شرعيه قيادته،و هنا أرادوا نفس الغايه،و حيث لم يجدوا سبيلا لمواجهه الرساله نفسها سعوا إلى النيل من شخصيه الرسول،فقالوا:إنّه ليس مرسلا من قبل اللّه لأنّ اللّه لا يرسل بشرا،و بالتالى فاتباعه ليس واجبا،و هذه الفكره تشبه إلى حدّ بعيد قول البعض عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه عبقرى و حسب ليثبتوا عدم لزوم طاعته،و قد أضاف قوم صالح إلى ذلك أنّه مثلنا و من محيطنا و لا شيء يميّزه عنا يدعونا إلى اتباعه،ثم انه واحد لا مال له و لا أعوان، فهو مجرّد عن عوامل القوه التى تبعثنا إلى طاعته و الخضوع له،و قد يكون معنى «واحِداً» أنّه جاء بنظام سياسى يدعو إلى قياده موحده،و نبذ النظم القبليه و العشائريه القائمه على أساس تعدّد القيادات،و التى تفسح المجال لكلّ مترف و مستكبر لممارسه شهوه الرئاسه،و هذا لا يتفق مع أهوائهم،كما قال كفّار قريش:

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (2) أَ بَشَراً مِنّا واحِداً نَتَّبِعُهُ

ص:238

1- 1) الأعراف/(75).

2- 2) ص/5

و اعتبروا اتباعه مع هذه الصفات ضربا من التيه،بل الجنون،و اعترافا صريحا منهم بخطإ سيرتهم الماضيه،إضافه إلى كونه يجرّدهم من الرئاسه،و لذلك رفضوا قيادته و اتباعه.

إِنّٰا إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ السعر هو الجنون الشامل المستمر،و الحق أنّ هذه كلّها مقاييس باطله لا تصلح لتشخيص القياده الحقيقيه في المجتمع،إنّما الكفاءه الاداريه و العمليه و السياسيه، و مدى الالتزام بالحق(التقوى)،و التصدى الفعلى للقياده،ثم إذن اللّه و إعطاؤه الشرعيه هي المقاييس الصادقه للرئاسه.

[۲۵]بلى.إنّهم اعتبروا الوجاهه الاجتماعيه،و كثره المال و الأتباع،هي المقاييس،و لو تجرّد صاحبها عن الكفاءه و التقوى،و هذه متوفّره لديهم،و هذا منطق المترفين و المستكبرين على مرّ التاريخ و مع كلّ الأنبياء و المرسلين، «وَ قٰالُوا» لرسولنا الأعظم «لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» . (۱)

و هكذا قال مترفو بني إسرائيل من قبل،قال اللّه عزّ و جلّ: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ إِذْ قٰالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنٰا مَلِكاً نُقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ قٰالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتٰالُ أَلاّٰ تُقٰاتِلُوا قٰالُوا وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نُقٰاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنٰا مِنْ دِيٰارِنٰا وَ أَبْنٰائِنٰا فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتٰالُ تَوَلَّوْا إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ* وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طٰالُوتَ مَلِكاً قٰالُوا أَنّٰى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنٰا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمٰالِ . (۲)

و هذه بالضبط هي كانت مقاييس قوم صالح،لذلك استنكروا أن يصطفيه اللّه

۱- ۱) الزخرف ۳۱/

۲- ۲) البقره۲۴۶/-۲۴۷

من بينهم و هو لا يضاهيهم مالا و لا أتباعا،بل اتهموه بأرذل أنواع الكذب.

أَ أُلْقِيَ الـذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ قال البعض:الأشر الذى يتجاوز الحد فى الكذب، و يبدو أنّه الطمع فى الرئاسه بلا استحقاق لها،و لعلّ معنى

كلام سيد الشهداء الامام الحسين عليه السلام :

«إنّى لم أخرج(أشرا)و لا بطرا و لا ظالما و لا مفسدا »أنّنى حيث نهضت و طالبت بالامامه فهى من حقّى،و لست أدّعى ما هو للغير،و ظاهر كلمه «مِنْ بَيْنِنا» فى هذه الآيه يؤيد هذه الفكره،لأنّ المعنى بها يكون:إنّه طلب يصلح و يحق لنا دونه،و ربما دلّت هذه التهمه الباطله على أنّ خشيه أولئك الكافرين من تحويل الرئاسه عنهم كانت وراء تكذيبهم برساله صالح،حيث أنّهم اتهموه بأنّه طالب رئاسه بالباطل قياسا على أنفسهم الذين تسلّطوا على الناس بغير حق.

[۲۶]و أمام هذا المنطق المتوغّل فى التكبر على الحق،و الاستهزاء بولىّ اللّه و رسوله صالح عليه السلام ،و الإعراض عن الآيات و النذر،و من ثمّ مبارزه الحق تعالى، يتوعّدهم ربّنا بالعذاب.

سَيَعْلَمُونَ غَداً فى المستقبل الدنيوى و الأخروى إذا نزل بساحتهم العذاب.

مَنِ الْكَذّابُ الْأَشِرُ و حينئذ سيكتشفون مدى ضلالتهم و هوانهم على اللّه،كما يوقنون عين اليقين صدق النذر،و لكن دون جدوى،لأنّ العلم و الايمان ينفعان ما بقيت فرصه للتغيير و العمل،و الآيه تهدينا إلى أنّ حبل الكذب قصير ينقطع بصاحبه سريعا،و عاقبته

الخسران،لأنّه يخالف سنن اللّه فی الحیاه.

[۲۹-۲۷]و منـذ أوحی اللّه إلی نبیّه بذلک الوعید کان عالما بعاقبتهم،قادرا علی إبادتهم،و لکنّه-و قد کتب علی نفسه الرحمه-لا یأخذهم بالعذاب قبل النذر،لأنّ حکمته اقتضت أن یجعل لنفسه الحجه البالغه، لئلّا یقول الناس:

لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَيْنٰا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيٰاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱)،لذلک شاء و قضی أن یظهر لهم آیات العذاب أوّلا.

إِنّٰا مُرْسِلُوا النّٰاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ نبتلیهم و نمتحنهم بها،و حینما یتعرّض المجتمع للفتنه فإنّ مسـئولیه القیاده الرسالیه و کـذلک المؤمنین أن یکونوا شـهداء للّه علیه،بالـدعوه إلی الحق،و بیـان البصائر و المواقف المطلوبه أثنائها،و التصـدّی لقیادته،و أن یسـتعدوا لهـذه المسؤولیه الحسّاسه،و یتحمّلوا من أجلها الضغوط المختلفه،و یستقیموا صامدین حتی یحکم اللّه تعالی.

فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ* وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمٰاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ و بین الناقه التی أخرجها اللّه من الجبل «قٰالَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (۲)و کانت القسمه واضحه مقبوله لأنّها تمّت بحضورهم و رضاهم، فکلّ صاحب یوم یحضر شربه فی یومه.

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ

ص:۲۴۱

۱- ۱) القصص/۴۷

۲- ۲) الشعراء/۱۵۵

و حينما يرسل اللّه الآيات الماديه الواضحه إلى قوم أو أمّه من الأمم فإنّ ذلك دليل على أنّه يريد حسم الموقف بعذاب الاستئصال إذا كذّبوا بها، و لقد كانت الناقه آيه مبصره إلاّ أنّها فى نفس الوقت كانت صعبه على نفوسهم المنحرفه،و من طبيعه الإنسان أنّه حينما يواجه أمرا صعبا يفرز حاله نفسيه يضخّم بسببها ذاته و يستهين بذلك الأمر،فإذا بالقيم الساميه و الدين يستحيلان إلى شيء حقير عنده، بلى.قد يكون الأمر ذاته ليس عظيما إلاّ أنّ عظمته الحقيقيه تكمن فى القيم التى يتصل بها،

جاء رجل إلى الامام الباقر عليه السلام يسأله عن حكم دهن سائل وقعت فيه فأره ميته،فقال له الامام:أرقه،فقال:الفأره أهون عليّ من ذلك،فما ذا كان جواب الامام؟قال له(بما معناه):إنّك لم تستخف بالفأره،و إنّما استخففت بدينك ،و فى الواقع الاجتماعى أيضا نجد شواهد لهذا الانحراف الخطر عند الإنسان،فإذا بك تراه لا يحترم العالم و لا يقدّره لا لقلّه علمه،أو ضعف شخصيته،و إنّما لأنّ شكله لا يدعوه للاحترام،و لا يعلم أنّه بذلك يستهين بقيمه العلم لا بالعالم نفسه،و علاج هذه الحاله بإيجاد توازن داخل الإنسان بين نفسه و بين القيم،و ذلك بتصوّر العاقبه التى ينتهى إليها هذا الانحراف.

إنّ قوم صالح احتقروا الناقه،و ظنّوا أنّهم أكبر من أن يقدّروها،و يلتزموا بعهدهم مع النبى عليه السلام لشأنها،و بالرغم من تحذيره لهم تآمروا و رضوا بعقرها.

فَنٰادَوْا صٰاحِبَهُمْ قدّار أو أحيمر،بعد تخطيطهم للمؤامره،و كان أشقى القوم و أجرأهم على الحق،و لعلّ معنى المناداه ليس التنادى بالكلام فقط،و إنّما أيضا بالرضا و عدم تحمّل مسئوليه الدفاع عن الحق،بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و مقاومه أهل البغى و الطغيان.

ص:۲۴۲

قال الامام على عليه السلام :

«أيّها الناس!إنّما يجمع الناس الرضى و السخط،و إنّما عقر ناقه ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لمّا عمّوه بالرضى،فقال سبحانه و تعالى: فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفه خوار السكّه المحماه فى الأرض الخوّاره » (1).

و كان هذا الفرد يعكس الشخصيه الحقيقيه لذلك المجتمع،إذ كان يعبّر -بعمله-عن ضميرهم الفاسد،و عزمهم الخائر،و إرادتهم المشلوله،و فكرهم الضال،و غياب المؤسسات الاصلاحيه بينهم،و هكذا حينما تحكم أىّ مجتمع أفكار سلبيه فإنّها تتجسّد فى قياده ضاله طاغيه،و نظام سياسى منحرف،و عاقبه سوأى لا تخص الظالمين أنفسهم بل تطال كلّ أبناءه،و ربما أقدم الشقى على عقر الناقه للوصول إلى حاجه فى نفسه هى الرئاسه،و قد دخل بعمله هذا فى صفقه مع المترفين و المستكبرين مباشره،و مع المجتمع بصوره غير مباشره حيث رضوا عنه و لم يمنعوه.

فَتَعٰاطىٰ لعلّ معناه أنّه استعد للقيام بجريمته،و أخذ يتعاطى و سائلها،و يهىء الأجواء لها،و نستوحى من هذه الكلمه أنّ الجريمه لم تمر بسرعه،و إنّما احتاجت إلى التآمر، و هذه طبيعه أكثر الجرائم أنّها تسبقها إرهاصات تمهيديه تعطى الفرصه لأهل الحق بالتصدى لها،و لقد كان مجتمع ثمود قادرا على مقاومه قدّار بعد أن شاهدوا إرهاصات الجريمه عنده،و لكنّهم تركوه،فبدأ عدّهم التنازلى نحو النهايه و العذاب، و وجد هو الفرصه سانحه لتنفيذ جريمته،و القرآن فى موضع آخر يصوّر طبيعه المجرم

۱- ۱) نهج/خ ۲۰۱

و موقف المجتمع فيقول: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقٰاهٰا» (۱)و لا ينبعث الإنسان إلّا إذا كان نفسه متحفّزا نحو ما ينبعث إليه،و لا يجد ما يمنعه من نفسه و لا من خارجها،و هذا حال الأشقى الذى ضرب عرقوب الناقه و قتلها.

فَعَقَرَ [۳۰-۳۱]و لم ينتبه هو و لا ـ من حوله بـأنّه يبـارز اللّه بعمله،فنزل العـذاب بسـاحتهم،و الإنسـان لا يتصوّر أنّه ينتهى إلى عاقبه كهـذه لسـبب يبـدو تافها فى نظره، إذ قدره الإنسان على استيعاب كل ظواهر الخليقه و عواملها قدره محدوده،لذلك جاء القرآن ليرفع الإنسان من حاله الشيئيه و اللهو إلى القيمه و الجدّ.

فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِى وَ نُذُرِ بقدر ما كانت النذر مبينه بالغه كان العذاب مهولا و رهيبا.و يبيّن الوحى واقع ذلك العذاب فيقول:إنّه لم يكن صدفه،بل كان مرسـلا من عند اللّه،بلى.قد يأتى العذاب ضـمن سـنن الحياه الطبيعيه و الاجتماعيه،و لكنّ السـنن لا يمكن أن تتحرك فى الفراغ،و بعيـدا عن تـدبير الخالق و هيمنته،و هذا البلاغ الالهى يضع حدّا لمشـكله عميقه هى تفسـير ظواهر الخلق تفسيرا ماديّا محضا دون التوغّل إلى خلفيّاتها المتصله بسلوك البشر،الأمر الذى يصرفه عن العبره و التذكره.

إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وٰاحِدَةً صوتا هائلا صاعقا،ربما يشبه انفجار القنبله الذريه فى العصر الحاضر أو أعظم،

فعن أبى بصـير عن الامام الصادق عليه السلام قال :«فلمّا كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخه،خرقت تلك الصرخه أسماعهم،و فلقت قلوبهم،

۱- ۱) الشمس/۱۲

و صدّعت أكبادهم،و قد كانوا فى تلك الثلاثه أيّام(التى سبقت الصيحه بالنذر) قد تحنّطوا و تكفّنوا و علموا أنّ العذاب نازل بهم،فماتوا أجمعين فى طرفه عين، صغيرهم و كبيرهم،فلم يبق لهم ناعقه و لا راغيه،و لا شىء إلاّ أهلكه اللّه، فأصبحوا فى ديارهم و مضاجعهم موتى أجمعين،ثم أرسل اللّه عليهم مع الصيحه النار من السماء فأحرقتهم أجمعين » (۱)لكى لا يبقى لهم أثر فى الحياه،و تحدث اللّه بضمير الجمع «إِنّٰا» الدال على التعظيم و التكبر لأنّ المقام مقام عزّه اللّه و سلطانه.

فَكٰانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ و هو بقايا العلف و الحشائش و الأعواد اليابسه التى تتراكم فى حظيره الماشيه، و تبقى و تهشّمها بأظلافها و حوافرها،و حيث لا تجد طريقا للخروج منها تظل تدوسها بكثافه و قد ذكر معانى أخر للهشيم الا ان ما ذكرنا يبدو أقرب منها.

[۳۲]هكذا كان مصيرهم و عذابهم،و ما تصوّره الآيات لنا عنه مجرّد لقطات يحفظها القرآن لإنذار البشريه و تذكيرها عبر الزمن،و نحن لا نستطيع تصوّر الصيحه التى عبّر بها الربّ يومئذ عن غضبه بعقولنا المحدوده،و لا نستطيع أن نتخيّل ثمود و قد تعرّضوا لها،بالذات لو كنّا فى مجتمع القرآن الأوّل أيّام الرسول صلى الله عليه و آله حيث لم يصنع الإنسان الأسلحه التدميريه المعاصره،لذلك نجد القرآن يقرّب لنا الصوره بتشبيه واقعى تستوعبه عقولنا،و يفهمه حتى ذلك البدوى الذى يقطن الصحراء، و هذا من منهج اللّه فى تيسير كتابه المجيد.

قال الإمام الصادق عليه السلام يحكى قصتهم:

«هذا كان بما كذّبوا صالحا،و ما أهلك اللّه عزّ و جلّ قوما قط حتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم،فبعث اللّه إليهم صالحا فدعاهم فلم يجيبوه،و عتوا

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۱۸۴

علیه عتوّا و قالوا:لن نؤمن لک حتی تخرج لنا من هذه الصخره الصمّاء ناقه عشراء، و کانت الصخره یعظّمونها،و یعبدونها،و یذبحون عندها فی رأس کلّ سنه، و یجتمعون عندها،فقالوا له:إن کنت کما تزعم نبیّا رسولا فادع لنا إلهک حتی یخرج لنا من هذه الصخره الصمّاء ناقه عشراء،فأخرجها اللّه کما طلبوا منه،ثم أوحی اللّه تبارک و تعالی إلیه،یا صالح قل لهم:إنّ اللّه قد جعل لهذه الناقه شرب یوم و لکم شرب یوم،فکانت الناقه إذا کان یوم شربها شربت الماء ذلک الیوم فیحلبونها،فلا یبقی صغیر و لا کبیر إلاّ شرب من لبنها یومهم ذلک،فإذا کان اللیل و أصبحوا غدوا إلی مائهم فشربوا منه ذلک الیوم و لم تشرب الناقه ذلک الیوم،فمکثوا بذلک ما شاء اللّه،ثم إنّهم عتوا علی اللّه،و مشی بعضهم إلی بعض،و قالوا:اعقروا هذه الناقه و استریحوا منها،لا نرضی أن یکون لنا شرب یوم و لها شرب یوم،ثم قالوا:من ذا الذی یلی قتلها،و نجعل له جعلا ما أحب؟،فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا یعرف له أب،یقال له قدّار،شقیّ من الأشقیاء،مشؤوم علیهم، فجعلوا له جعلا،فلمّا توجهت الناقه إلی الماء الذی کانت ترده ترکها حتی شربت الماء و أقبلت راجعه،فقعد لها فی طریقه فضربها بالسیف ضربه فلم یعمل شیئا، فضربها ضربه أخری فقتلها،فخرّت إلی الأرض علی حینها،و هربت فصیلها، حتی صعد إلی الجبل فرغا ثلاث مرات إلی السماء،و أقبل قوم صالح فلم یبق أحد إلاّ شرکه فی ضربته،و اقتسموا لحمها فیما بینهم،فلم یبق صغیر و لا کبیر إلاّ أکل منها،فلمّا رأی ذلک صالح أقبل إلیهم فقال:یا قوم ما دعاکم إلی ما صنعتم أ عصیتم ربکم؟فأوحی اللّه تبارک و تعالی إلی صالح علیه السلام :إنّ قومک قد طغوا و بغوا و قتلوا ناقه بعثها اللّه إلیهم حجه علیهم،و لم یکن علیهم منها ضرر،و کان لهم أعظم المنفعه،فقل لهم:إنّی مرسل إلیکم عذابی إلی ثلاثه أیّام،فإن هم تابوا و رجعوا قبلت توبتهم و صددت عنهم،و إن هم لم یتوبوا و لم یرجعوا بعثت إلیهم عذابی فی الیوم الثالث،فأتاهم صالح(صلّی اللّه علیه)فقال لهم:یا قوم إنّی

رسول ربكم إليكم،و هو يقول لكم:إن أنتم تبتم و رجعتم و استغفرتم غفرت لكم و تبت عليكم،فلمّا قال لهم ذلك كانوا أعتا ما كانوا و أخبث،و قالوا:«يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» قال:يا قوم إنّكم تصبحون غدا و وجوهكم مصفرّه،و اليوم الثانى و وجوهكم محمرّه،و اليوم الثالث و وجوهكم مسودّه،فلمّا كان أوّل يوم أصبحوا و وجوههم مصفرّه،فمشى بعضهم إلى بعض و قالوا:قد جاءكم ما قال لكم صالح،فقال العتاه منهم:لا نسمع قول صالح،و لا نقبل قوله و إن كان عظيما،فلمّا كان اليوم الثانى أصبحت وجوههم محمرّه،فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا:يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح،فقال العتاه منهم:لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح،و لا تركنا آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها،و لم يتوبوا و لم يرجعوا،فلمّا كان اليوم الثالث أصبحوا و وجوههم مسودّه،فمشى بعضهم إلى بعض و قال:يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح،فقال العتاه منهم:قد أتانا ما قال لنا صالح،فلمّا كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخه،خرقت تلك الصرخه أسماعهم،و فلقت قلوبهم،و صدّعت أكبادهم،و قد كانوا فى تلك الثلاثه أيّام قد تحنّطوا و تكفّنوا و علموا أنّ العذاب نازل بهم،فماتوا أجمعين فى طرفه عين، صغيرهم و كبيرهم،فلم يبق لهم ناعقه و لا راغيه و لا شىء إلاّ أهلكه اللّه،فأصبحوا فى ديارهم و مضاجعهم موتى أجمعين،ثم أرسل اللّه عليهم مع الصيحه النار من السماء فأحرقهم أجمعين،و كانت هذه قصتهم » (1)و هى و سابقاتها و ما يليها من القصص و إن تضمّنت الكثير من الأفكار إلاّ أنّها تدور حول فكره محوريّه بهدف تيسيرها و تقريبنا منها.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

۱- ۱) المصدر/ص ۱۸۵

هکـذا یکرّر الـذکر الحکیم آیاته و عبره،و لعلّنا نتنبّه من الجهل و الضـلال و الغفله،و لکنّه بالرغم من ذلک لا زال غریبا مهجورا فی واقعنـا بجمیع أبعاده، فنحن لا زلنا بعیـدین عن دعوته للوحـده و العمل،و الاسـتقامه علی الحق،و محاربه الجبت و الطاغوت،و الاتعاظ بالنذر السالفه.

[۳۳]و مع ذلک ما یبرح یتابع إلینا سوره فسوره،و آیه فآیه،و مثلا فمثلا،فهـذه آیاته و قـد انتهت من عرض قصه ثمود،تضـرب لنا مثلا آخر عن عاقبه التکـذیب بقصه قوم لوط،الـذین تورّطوا أخلاقیّا فی الشـذوذ الجنسـی،و صاروا یأتون الرجال شـهوه من دون النساء،فحذّرهم نبیهم علیه السـلام من هذا الانحراف عن طاعه اللّه و سـنن الحیاه،و لکنّهم لم یعتبروا بمصـیر الماضین و لا بنصح لوط علیه السلام ،بل راحوا یکذّبونه، و یریدون به الشرّ و الأذی،رغم النذر الظاهره.

کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ قیل أنّه من النذر الذین أرادوا الفاحشه بضیف لوط من الملائکه

«فأشار إلیهم جبرئیل بیده فرجعوا عمیانا یلتمسون الجدار بأیدیهم» (۱).

إلاّـ أنّ القـوم لـم یتعظـوا بهم،بـل أصـرّوا علی فسـادهم،و تمـادوا فی التکـذیب، و لعـلّ بعضـهم راح یـؤوّل عمـاهم إلی أسـباب أخری،فهم کما وصفهم فی أوّل السوره: وَ إِنْ یَرَوْا آیَهً یُعْرِضُوا وَ یَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲).

[۳۵-۳۴]بلی.إنّهم کـذّبوا فمـا أهملهم اللّه،بـل أرسـل علیهم ریحا محشوّه بالحجاره الصـغیره فی بادئ الأمر،لتکون آخر النـذر و علامه إلی لوط و المؤمنین معه بقرب العذاب،و ربما کان ذلک أواخر اللیل،أمّا العذاب الحقیقی فقد أخّره إلی

ص:۲۴۸

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۱۸)/ص(۳۴۸).

۲- ۲) القمر/۲

الصباح ريثما يخرجون.

إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً و لكن بقيت العنايه الالهيه تحفظ المؤمنين و ترعاهم،حيث أمر اللّه لوطا عليه السلام و المؤمنين بالخروج من القريه الظالم أهلها ليكونوا فى مأمن من العـذاب: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (1)،فارتحلوا منها،و هـذا يدل على أنّ العمليه كانت تجرى بإشـراف إلهى مباشـر لا صـدفه،فحتى خروجهم لم يكن بسـبب الارهاصـات الطبيعيه للعـذاب،بـل كـان بـأمر نزل من اللّه،و لولاـه لربمـا كـانوا يبقون،لذلك يؤكّد القرآن بأنّ اللّه هو الذى أنجاهم و أنقذهم.

إِلاّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ يعنى نهايات الليل و بـدايات الصـباح،و لا يكتفى الوحى بـذلك بل يضـيف بأن النجاه كانت نعمه إلهيه،و ليست نتيجه حاله بشريه أو صدفه.

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا و لكنّها مرتبطه بواقع بشـرى هو الشكر.إنّها مرّت بدوره متكامله:إيمان عمل و شكر صاعد من قبل الإنسان الاراده الالهيه بالتوفيق النعمه النازله من اللّه للإنسان،و ربنا لا يخصص هذه الدوره بشخص لوط عليه السلام بل يخلص من ذكر الخاص إلى العام و من الشاهد إلى السنه.

كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ

ص:۲۴۹

۱- ۱) هود/۸۱

أيّا كان،و فی أیّ مکان و زمان.

[۳۷-۳۶]و یعود القرآن إلی التأکید علی أنّ العذاب مرّ بدوره متکامله:

انحراف بشری نذر إلهیه تکذیب بشری و إصرار علی الانحراف العذاب من عند اللّه(النقمه فی مقابل النعمه)،إنّ لوطا شخّص الانحراف الاجتماعی، و سعی جاهدا إلی التغییر و الإصلاح،فأنذر قومه من عواقب ضلالهم و أنّه یؤدی بهم إلی الانتقام الشدید الذی لا قبل لهم به من عند ربّهم.

وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا و بدل أن یفکّروا فی النذر و یتعظوا بها صاروا یتمارون،و التماری کما یبدو هو الشک الذی یتحوّل إلی تشکیک اجتماعی،و قوم لوط لم یکتفوا بتکذیبهم،بل صار الواحد یدخل الشک إلی الآخر لکی یمعنه من الایمان بالنذر البالغه، و سمّی الجدال مراء لأنّ أطرافه یشکل الواحد علی الآخر بقصد ردّ حجته و إبطالها.

فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ فکانوا یدافعون عن ضلالهم و باطلهم فی مقابل الحق،استهزاء و جمودا، و یسعون إلی تغلّب أفکارهم و باطلهم علی الحق المبین فی أذهان بعضهم،و ذلک بصرف الآیات و تأویلها إلی غیر مضامینها،و هذا منهج المکذّبین عبر التاریخ، فها هم قوم عاد یدعوهم هود إلی الایمان،فإذا بهم یصرّون علی باطلهم إلی آخر لحظه: «فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِیحٌ فِیها عَذابٌ أَلِیمٌ* تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ کَذلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ» (۱)،و إلی مثل هذا انتهی انحراف قوم لوط

۱- ۱) الأحقاف۲۴/-۲۵

و تکـذیبهم و مراءوهم،فلقـد أرسل اللّه إلی نبیّه الملائکه و من بینهم جبرئیل علیه السـلام ، و لکنّه أنزلهم فی صوره جمیله لتبدأ البطشه من محـاوله الاعتـداء علیهم فیتأکّـد للقوم بـأنّ هلاکهم کان نتیجه لـذلک الانحراف الـذی حـذّرهم من عواقبه لوط علیه السلام ،و یؤخذوا بالجرم المشهود.

وَ لَقَـدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَـیْفِهِ یریـدون بهم الفـاحشه، «قٰالَ یٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَـیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِـیدٌ* قٰالُوا لَقَـدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِیـدُ* قٰالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ» (۱)إنّه حـاول إصـلاحهم فی بـادئ الأـمر بتوجیههم إلی الجنس الآـخر علاجـا لانحرافهم،و رفعا للحرج مع الضـیوف،ثم هدّدهم باستخدام القوه«فصاح به جبرئیل فقال:

یا لوط!دعهم یدخلون،فلمّا دخلوا أهوی جبرئیل علیه السـلام بإصبعه نحوهم فذهبت أعینهم» (۲)فَطَمَسْنٰا أَعْیُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذٰابِی وَ نُـذُرِ قیـل أنّ الطمس هو حجب البصـر مع وجود العین علی طبیعتهـا،و قیل أنّه القلع و المسـح،و الـذی یبـدو أنّه ذهاب الرؤیه مع ضمور المعـالم الظاهریه للعین،و عنـد ما أنزل اللّه بهم العـذاب ربما رفع قـدرتهم علی الاحساس إلی أقصاها تفاعلا و وعیا زیاده فی العذاب،إذ لا قیمه لعذاب لا یتذوّقه صاحبه.

[۳۸-۴۰]کان ذلک(طمس الأعین)عذابا مؤقتا،أمّا العذاب الأوهی و المستمر،الذی یتصل بالعذاب المقیم فی الآخره،فقد ابتدرهم أوّل الصباح.

۱- ۱) هود/۷۸-۸۰

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۸۵

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ لقد كان عذابا مستقرا لا يجدون منه فكاكا لا فى دنياهم و لا فى الآخره.

و يبدو أنّ كلمه «مُسْتَقِرٌّ» تفسير لقوله سبحانه فى فاتحه السوره: «وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ» ،و معناها أنّ عذاب أولئك القوم كان من السنن الثابته و المستقرّه فى الحياه،و نجد تفصيلا للعذاب،و بيانا لهذه الفكره،فى موضع آخر من القرآن،إذ يقول تعالى: فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (١)،لأنّ العذاب لم يكن خارقا لسنن الحياه،و لا عرضا طرأ عليها،بل هو جزء منها و مظهر لها،و هى مستقره لا تحويل لها و لا تبديل إلى يوم القيامه،و قد أذاقهم اللّه هذا العذاب كما أذاقهم عذاب الطمس.

فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ* وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ هكذا يصرخ فينا القرآن يدعونا إلى مأدبه اللّه،و يعيد هذه الدعوه بصيغه أخرى فيقول: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (٢). إنّ القرآن ذاته ميسّر للذكر و التدبّر،و لكن قلوبنا هى المعقدّه،إنّه يفتح لنا يفتح أبواب العلم و الايمان،و نغلق قلوبنا عنه بالذنوب و الأفكار المتخلّفه.أ رأيت كيف يرفع البعض دعوه تضاد دعوه اللّه،و تصد عن كتابه؟!إنّهم يقولون:لا يجوز لأحد أن يتدبّر فى القرآن،و لا يفسّره،و يبرّرون ذلك بالحساسيات المفرطه المتزمته،و بأنّه معقّد لا يفهمه إلاّ المجتهدون و الفقهاء،و لكنّ القرآن جاء ليردّ هذه الفكره و يهدينا للتى هى أقوم بنصّ قرآنى ظاهر لا يقبل التأويل و لا الاجتهاد.

ص:٢٥٢

١- ١) هود٨٢/-٨٣

٢- ٢) محمّد٢٤/

[سوره القمر (۵۴): الآيات ۴۱ الى ۵۵]

اشاره

وَ لَقَدْ جٰاءَ آلَ فِرْعَوْنَ اَلنُّذُرُ (۴۱) كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا كُلِّهٰا فَأَخَذْنٰاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲) أَ كُفّٰارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرٰاءَةٌ فِي
اَلزُّبُرِ (۴۳) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَيُهْزَمُ اَلْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ اَلدُّبُرَ (۴۵) بَلِ اَلسّٰاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ اَلسّٰاعَةُ أَدْهىٰ وَ أَمَرُّ (۴۶)
إِنَّ اَلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي اَلنّٰارِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ
مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا أَشْيٰاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي اَلزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ
كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵)

اللغه

۴۳[براءه]:أی براءه من العذاب.

۴۶[أدهى]:الأدهى الأعظم فی الدهاء،و الدهاء عظم يسبب الضرر مع شدّه انزعاج النفس،و هو من الداهيه أی البليه التی ليس فی إزالتها حيله.

۴۸[سقر]:جهنم،و قيل:علم على جهنم،و أصل السقر التلويح،يقال:سقرته الشمس و صقرته إذا لوحته.

ص:۲۵۳

۵۲[الزّبر]:أی الکتب التی کتبها الحفظه.

۵۳[مستطر]:مسطور مکتوب.

ص:۲۵۴

إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ

هدى من الآيات:

فی الـدرس الأخیر یذکّرنا الوحی بأهمّ عبره فیها،و التی یسّرها اللّه بقصـص واقعیه من تاریخ البشـریه،ابتداء من قوم نوح و انتهاء بآل فرعون،و هی عـاقبه السوء للـذین یعرضون عن آیات اللّه و نـذره،و یکـذّبون برسالته و رسـله،لأنّهم حینئـذ یسـیرون بعکس آلاف القوانین و السنن فی الحیاه،و لأنّهم-و هو الأهم-یخالفون الحق،و یعصون ربّ العزه سبحانه،مؤکّدا بأنّ ما لحق أولئک من شدید العذاب فی الدنیا بتکذیبهم لیس إلاّ شـمّه و ضغثا بالنسبه إلی العذاب الأدهی و الأمرّ الذی ینتظرهم فی الآخره،حیث تدقّ أجراس بدئه ساعه البعث و الحساب.

و بعـد أن یضع الذکر الحکیم لوحه من مشاهد الآخره و العذاب أمام قلوبنا و أعیننا یؤکّد لنا حقیقه هامه،هی أنّ الدنیا بنیت بکلّ مفرداتهـا من الـذرّه حتی المجرّه و أصـغر من ذلـک و أکبر علی أساس من السـنن و المقاییس و القوانین الحکیمه إِنّٰا کُلَّ شَـیْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ الآیه(۴۹)،و بالتالی یجب علی الإنسان أن یکیّف

ص:۲۵۵

نفسه و حیاته و علاقاته بکلّ شیء فیها علی هذا الأساس،أمّا إذا انتظر أو سعی لتسیر الحیاه من حوله بسننها و مقادیرها و خلقها وفق هواه فلن یستطیع الی ذلک سبیلا،لأنّها ثابته و أقوی منه،بل و سیخسر إلی الأبد.

فلا یظن الإنسان إذا أنّه یتحرّک فی الفراغ،کلّا..إنّ حوله ملایین الأنظمه التی تحصی علیه أخطاءه و أفعاله و أقواله،و حتی نیّاته مسجّله علیه تسجیلا دقیقا،و لهذا یقول اللّه عزّ و جلّ مبیّنا حال المجرمین حین یرون کتبهم فی یوم القیامه:

فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّٰا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یٰا وَیْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا الْکِتٰابِ لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَهً وَ لاٰ کَبِیرَهً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِراً وَ لاٰ یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (۱)و بعد الحساب یلقون جزاءهم إذ یسحبون فی النار علی الوجوه،أمّا المتقون فیعطون کتابهم بیمینهم،أمّا جزاؤهم جنات و نهر فی مقعد صدق عند ملیک مقتدر.

بینات من الآیات:

[۴۲-۴۱]کما جعل اللّه للساعه علامات و نذرا تؤذن باقترابها کانشقاق القمر،فإنّه تعالی أخذ علی نفسه أن لا یعذّب أمّه و لا شخصا قبل إقامه الحجه البالغه علیه،و قبل أن یقدّم له من الأنبیاء و نذر البطش ما فیه مزدجر له و هدایه لمن أراد وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ حَتّٰی نَبْعَثَ رَسُولاً (۲).

و یضع القرآن شاهدا لهذه الحقیقه أمام ضمائرنا و عقولنا هذه المرّه من واقع فرعون و قومه الذین أغرقوا فی الیمّ.إنّهم ضلّوا عن الحقّ ضلالا بعیدا،إذ اعتمدوا نظاما سیاسیّا ینطلق من عباده شخص فرعون،و ینتهج الإفساد و الإرهاب و القتل و التضلیل،و کانت هذه الأسباب کافیه لأن یمحقهم اللّه،أ تری أعظم جرم عند اللّه

ص:۲۵۶

۱- ۱) الکهف/(۴۹).

۲- ۲) الإسراء(۱۵).

من بشر يقول أنا ربّكم الأعلى؟!كلاّ..و لكنّه أمهلهم،و أراد لهم الرحمه التى خلقهم من أجلها،فتابع عليهم الآيات و النـذر بلسان موسى و على يديه و من خلال الطبيعه،بما أبطل به سحرهم و معتقداتهم الواهيه،و أقام عليهم الحجه البالغه.

وَ لَقَدْ جٰاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ إنّ اللّه لم يتركهم حتى يؤمنوا بأنفسـهم،بل ابتدرهم بالهدى الذى بلغ فردا فردا منهم يوم الزينه،و لم يكتف اللّه بنـذير واحد و هو يكفى حجه عليهم،إنّما جاءهم بنذر كثيره بيّنه،كان من بينها تسع آيات إلى فرعون و قومه،و لكنّهم كما يصفهم القرآن:

كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا كُلِّهٰا لا لغموض فيها فقد كانت مبصره،بل لمرض فى قلوبهم،و لو أنّك بحثت فى أعماق نفوسـهم لرأيت سلطان الآيات مهيمنا عليها،و يعلم اللّه كم تجرّعوا من وخز الضـمير الذى يدعوهم للإيمان و هم يصدّون عن الحقّ المبين.إنّهم ما كانوا يقـدرون على التكذيب مجرّدا أمام ذلك الوخز لذلك لجأوا إلى التبرير،و هذه من طبيعه الإنسان حينما يخالف الحق بالرغم من استيقانه به، «قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ* وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (١)،فكانوا عند اللّه يستحقّون أشدّ العذاب،و كذلك فعل بهم.

فَأَخَذْنٰاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ لا يقبل الجور على الحق.

ص:٢٥٧

١- ١) النمل/(١٣-١۴).

مُقْتَدِرٍ لا يشكو ضعفا و لا قصورا،و هذا ما جعل عذابهم قاسيا،فمره يكون العزيز غير مقتدر فهو لا يستطيع أن يحيل عزّته فعلا،و مرّه يكون المقتدر غير عزيز فهو لا يغضب لحرمه قيمه،و إذا أخذ المخالف له فإنّ أخذه يكون محدودا.

هكذا و بهاتين الآيتين القصيرتين فی كلماتهما العميقتين فی معناهما يوجز ربّنا قصه قوم لا زالت آثارهم ظاهره و مثيره للعجب،بينما يحتاج الحديث فيها إلى مئات أو آلاف الصفحات،بل القرآن نفسه تناولها فی صفحات و آيات عديده فی مواضع أخرى،و السبب أنّ القرآن أراد من ذلك التأكيد على السنّه الواحده التی أجراها على كلّ الأمم و فی مختلف الأمصار بصور شتى،لكی نعتبر بها،و نبصر عواقب التكذيب بالحقّ أنّى كان،و قد اكتفى السياق بإيجاز قصه فرعون التی فصّلها فی مختلف السور،و التی من المفروض أن يعرفها من يتلوا الذكر،و ذلك عبر آيتين تعكسان إعجاز القرآن البلاغی.

[۴۳-۴۵]و من شواهد عاقبه المكذّبين فی أغوار التاريخ،ينتقل بنا السياق إلى الحديث عن المجتمع المعاصر للرساله الاسلاميه و موقفهم من الرساله،بما هو تأويل لقوله تعالى: وَ مٰا هِيَ مِنَ الظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۱)،و قوله بلسان رسوله شعيب عليه السلام : وَ يٰا قَوْمِ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقٰاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۲). إنّ القصه القرآنيه لا تأت للتسليه،إنّما لتكشف للإنسان عن سنن الحياه من حوله،فتعطيه تاره إشاره خضراء ترغّبه و تشوّقه،و تضع بين يديه إشاره حمراء تنذره و ترهبه تاره أخرى،و هو

۱- ۱) هود/(۸۳).

۲- ۲) هود/(۸۹).

بین هذه و تلک یجب أن یشقّ طریقه نحو الحقّ و السعاده،أمّا إذا تفرّج علی وقائع التاریخ و مواعظه،أو استبعد عن نفسه الجزاء بفکره تبریریه کالعنصریه و الفداء،أو بالاعتماد علی غرور النفس و ظنونها و أهوائها،فسوف یجد نفسه وجها لوجه أمام مصیر الماضین ممّن سبقوه بالتکذیب فی الدنیا و الآخره،و لن تغیّر تمنّیاته و ظنونه من الواقع شیئا، «ذٰلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النّٰارِ» (۱).

کیف یکذّب الآخرون بالرساله و هم یبصرون ما نزل بالغابرین عند ما کذّبوا بها؟!إنّهم یستبعدون حلول العذاب بهم اعتمادا علی واحد من أمرین:

أوّلا:الثقافه التبریریه،و أبرز مفرداتها علی صعید التکذیب بالرسالات العنصریه و نظریه الفداء،ذلک أنّ الإنسان حینما یکذّب حقّا ما و یرفضه یبحث داخلیّا أمام ضمیره،و خارجیّا أمام الآخرین،عن عذر یبرّر له موقفه،و یستمد منه الشرعیه لممارسه الخطأ أو الإصرار علیه.

و ربّنا ینسف هذه الثقافه فیقول-مخاطبا المعاصرین للإسلام-:لما ذا تستثنون أنفسکم من العذاب الذی حلّ بتلک الأقوام؟ أَ کُفّٰارُکُمْ خَیْرٌ مِنْ أُولٰئِکُمْ بعنصرهم و أعمالهم حتی لا ینالهم العذاب؟! أَمْ لَکُمْ بَرٰاءَةٌ فِی الزُّبُرِ أم هم یملکون کتابا من عند اللّه یبرّئهم من سوء أعمالهم؟! کلاّ..فالتکذیب هو التکذیب سواء صدر من أولئک أم منکم،و السنن الالهیه

ص:۲۵۹

۱- ۱) ص /(۲۷).

واحده على مرّ الزمن لا تتحوّل و لا تتبدّل،و ليس عند اللّه قرابه مع خلقه،و لو كان نبيّا مرسلا أو ملكا مقرّبا،و لا ينفع إلاّ العمل الصالح،كما لم تسبق منه كلمه على لسان نبى و لا رسول و فى كتاب من كتبه المنزله بزكاه أحد أبدا،حتى يتحصّن بها ضدّ العذاب،و الضلال الذى عليه كفّار المجتمع أيّام رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليس بأقلّ من ضلال أولئك،بل هو أسوء و أبعد.

و إذا كانت ثمّه براءه لأحد فى كتب اللّه فهو و رسوله أعلم بها،و الحال أنّهما ينفيانها.

بلى.حاول النصارى تبرير انحرافهم بفكره الفداء،و لكنّهم أضافوا انحرافا جديدا إلى مسيرتهم الضاله إذ أصبحوا بها كفّارا عند اللّه،و هكذا زعموا هم و اليهود بأنّهم لا يعذّبون مهما ما رسوا من الذنوب،لأنّ عنصرهم يتصل باللّه و ينتمى إليه، و لكنّ القرآن ردّ عليهم هذه المزاعم ردا عنيفا و حازما،فقال تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (1)و انطلاقا من هذه الثقافه الضالّه صاروا يبرّرون لأنفسهم الخيانه و الغدر و مختلف الذنوب،فإذا بهم لا يقيمون وزنا لعهودهم و إيمانهم مع الشعوب الأخرى على أساس أنّهم أميّون،و لا حرج عليهم إذا نكثوا بهم أو خانوهم: قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (2)،و لكن اللّه أبطل هذا التبرير فقال: بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (3).

١- ١) المائده/(١٧-١٨).

٢- ٢) آل عمران/(٧۵).

٣- ٣) آل عمران/(٧۶).

ثانيا:الاغترار بالقوه.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ هل يعرضون عن الآيات،و يكـذّبون الحق،و يتبعون أهواءهم،ثمّ يتحـدّون سـنن الحياه،اعتمادا على جمعهم و قوّتهم؟!و مـا عسـى أن تكون قوّتهم و جمعهم بالنسـبه إلى الأـمم السـابقه؟! «أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ (كلّ واحـد منهم) أَنَّ اللّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً» (١)، وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٢)،ثمّ أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣).

و يؤكّـد اللّه لأولئـك الـذين اعتمـدوا على عـدّتهم و عـددهم أنّ المسـتقبل كفيـل بـالكشف عن مـدى ضـلالتهم في الاعتمـاد عليهما،حيث يهزمون،و تبطل تبريراتهم و مزاعمهم بأنّ العذاب لا يطالهم.

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الـدُّبُرَ و قـد رأينـا كيف أنزل اللّه عـذابه بهم على أيـدي المؤمنين في مواطن كـثيره،و أظهر رسوله و دينه عليهم بالرغم منهم،و بالرغم من أنّهم كانوا في موقعه كبدر أكثر جمعا و عدّه من المسلمين بثلاثه أضعاف أو أكثر!

١- ١) القصص/(٨٧).

٢- ٢) ق/(٣۶)

٣- ٣) الأنعام/(۶).

[۴۶]و مع ذلک فإنّ الأدهی من هزیمتهم و عذابهم فی الدنیا ما ینالهم من العذاب فی الآخره.

بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السّاعَةُ أَدْهی وَ أَمَرُّ إنّها أکثر رعبا فی مظهر عذابها و أسالیبه،و أعمق ألما و مراره علی أبدانهم و نفوسهم.

و نستلهم من هذه الآیه أنّه حتی إذا کان عذاب الاستئصال مرفوعا عن أمّه محمّد صلی الله علیه و آله ببرکته و دعائه،فإنّه لا ینبغی أن نجعل هذه الفکره مبرّرا لنا لاقتحام الذنوب،فإنّ من ورائنا الساعه فی الآخره،و تهدّدنا فی الدنیا ألوان من العذاب التی لا تقل ألما عن الاستئصال،کالتخلّف،و التفرقه،و تسلّط الظلمه، و الصراعات الداخلیه،و..و..أ تری هزیمه الأمّه أمام أعدائها فی الدنیا أمرا هیّنا؟!کلاّ..لأنّها تفقد بذلک الکثیر الکثیر.

[۴۷-۴۸]و یعود القرآن مؤکّدا بأنّ تلک المزاعم:الأفضلیّه علی الآخرین، و البراءه من العذاب،و الاغترار بالنفس،باطل،و إنّما تدلّ علی مدی ضلال أصحابها و عذابهم.

إِنَّ الْمُجْرِمِینَ فِی ضَلالٍ وَ سُعُرٍ و قد سمّاهم اللّه بالمجرمین لأنّ تلک المزاعم لا شک سوف تقودهم إلی التوغّل فی الجریمه،و السعر قد یکون الجنون أو النار،و هما من ألوان العذاب التی یؤدی إلیها الضلال فی الدنیا و الآخره.

یَوْمَ یُسْحَبُونَ فِی النّارِ عَلی وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ

ص:۲۶۲

و هنا إشاره إلى نوعين من العذاب:أحدهما المادى حيث يسحبون نكايه بهم، و السحب وحده يعتبر عذابا للإنسان،فكيف إذا كان على الوجوه أكرم مناطق الجسم،و أكثرها حسّاسيه،و فى أعظم أوديه جهنّم عذاب و هو سقر؟!الذى

قال الامام الصادق عليه السلام عنه :«إنّ فى جهنّم لواديا للمتكبرين يقال له سقر،شكا إلى اللّه شدّه حرّه،و سأله أن يتنفّس،فأذن له فأحرق جهنّم » (۱)

«إن فى سقر لجبّا يقال له هبهب،كلّما كشف غطاء ذلك الجبّ ضجّ أهل النار من حرّه،و ذلك منازل الجبّارين » (۲).

و الآخر العذاب المعنوى الذى يفوق فى بعض حالاته عذاب الجسم،فهناك تتلقّاهم زبانيه جهنّم قائله: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ» ، «ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» (۳).

و لعلّنا نفهم من المس أنّ النار لا تحرق كلّ أبدانهم،بل تحرق جلودهم التى فيها تتركّز أعصاب الإحساس عند الإنسان،ممّا يجعل العذاب أكثر ألما،و هذا ما تؤكّده الآيه الكريمه: كُلَّمٰا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنٰاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهٰا لِيَذُوقُوا الْعَذٰابَ (۴).

[۴۹]و هذا العذاب لا شک ليس اعتباطيّا و بلا حكمه،كلاّ..فهو كسائر مفردات الوجود مقنّن مقدّر من قبل اللّه،فلو أنّنا كشف لنا الغطاء لرأينا أنّ العمل السيء الذى نقوم به هو نفسه الجزاء الذى نلقاه.

إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ

۱- ۱) بح/ج(۱)ص(۲۹۴).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۹۷).

۳- ۳) الدخان/(۴۹-۵۰).

۴- ۴) النساء/(۵۶).

حینما یسأل الامام علی علیه السلام عن هذه الآیه یجیب:یقول عز و جل:إنا کل شیء خلقناه لأهل النار بقدر أعمالهم (۱)و

قال الامام الصادق علیه السلام :«انّها ردّ علی القدریه الذین نفوا تقدیرات اللّه،و فیهم نزلت هذه الآیه » (۲)و قد استدلّ البعض بهذه الآیه علی أنّ أعمال الإنسان هی الأخری مقدّره فزعم أنّها تدل علی الجبر،بینما الصحیح أنّ کلّ شیء مقدّر من قبل اللّه،و من تقدیراته الاختیار الذی وهبه للإنسان.

و الذی یظهر أنّ الآیه تثبت أکثر من أیّ فکره أخری حکمه اللّه فی الحیاه،التی تهدینا معرفتها إلی الایمان بالمسؤولیه،و الدار الآخره أعظم تجلّیاتها،حیث یحاسب الناس علی سعیهم،و یلقون جزاءهم الأوفی خیرا أو شرّا،جنه أو نارا،یقول السید قطب فی تفسیره(فی ظلال القرآن):(و إنّ هذا النص القرآنی الیسیر لیشیر إلی حقیقه ضخمه هائله شامله،مصداقها هذا الوجود کلّه،حقیقه یدرکها القلب جمله و هو یواجه هذا الوجود،و یتجاوب معه،و یتلقّی عنه،و یحس أنّه خلیقه متناسقه تناسقا دقیقا،کلّ شیء فیه بقدر یحقّق هذا التناسق المطلق،الذی ینطبع ظلّه فی القلب جمله و هو یواجه هذا الوجود)،و یضرب أمثله للحکمه الالهیه فی الخلق فیقول نقلا عن کتاب«اللّه و العلم الحدیث»للاستاذ عبد الرزّاق نوفل:(إنّ الجوارح التی تتغذی بصغار الطیور قلیله العدد،لأنّها قلیله البیض،قلیله التفریخ، فضلا علی أنّها لا تعیش إلاّ فی مواطن خاصه محدوده،و هی فی مقابل هذا طویله الأعمار،و لو کانت مع عمرها الطویل کثیره الفراخ مستطیعه الحیاه فی کلّ موطن لقضت علی صغار الطیور،و أفنتها علی کثرتها و کثره تفریخها،أو قلّلت من أعدادها الکبیره اللازمه بدورها لطعام هذه الجوارح و سواها من بنی الإنسان،و للقیام بأدوارها الأخری و وظائفها الکثیره فی هذه الأرض.

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۵)ص(۱۸۶).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۸۵).

بغاث الطیر أکثرها فراخا و أمّ الصقر مقلات نزور

و ذلک للحکمه التی قدّرها اللّه کما رأینا،کی تتعادل عوامل البقاء و عوامل الفناء بین الجوارح و البغاث!).

و یستطرد قائلا:(و الذبابه تبیض ملایین البویضات،و لکنّها لا تعیش إلاّ أسبوعین،و لو کانت تعیش بضعه أعوام تبیض فیها بهذه النسبه لغطّی الذباب وجه الأرض بنتاجه،و لغدت حیاه کثیر من الأجناس و أوّلها الإنسان مستحیله علی وجه هذه الأرض،و لکن عجله التوازن التی لاـ تختل فی ید القدره التی تدبّر هذا الکون أوزنت بین کثره النسل و قصر العمر فکان هذا الذی نراه! و المیکروبات-و هی أکثر الأحیاء عددا،و أسرعها تکاثرا،و أشدها فتکا- هی کذلک أضعف الأحیاء مقاومه،و أقصرها عمرا،تموت بملاـیین الملاـیین من البرد و من الحر،و من الضوء،و من أحماض المعدات،و من أمصال الدم،و من عوامل أخری کثیره،و لا تتغلّب إلاّ علی عدد محدود من الحیوان و الإنسان،و لو کانت قویه المقاومه أو طویله العمر لدمّرت الحیاه و الأحیاء!).

و یستعرض مثلاـ من واقع الإنسان فیقول:(و الثدی یفرز فی نهایه الحمل و بدء الوضع سائلا أبیض مائلا إلی الاصفرار،و من عجیب صنع اللّه أنّ هذا السائل عباره عن مواد کیمیائیه ذائبه تقی الطفل من عدوی الأمراض،و فی الیوم الثانی للمیلاد یبدأ اللبن فی التکوین،و من تدبیر المدبّر الأعظم أن یزداد مقدار اللبن الذی یفرزه الثدی یوما بعد یوم،حتی یصل الی حوالی لتر و نصف فی الیوم بعد سنه،بینما لا تزید کمیته فی الأیّام الأولی علی بضع أوقیات،و لا یقف الاعجاز عند کمّیه اللبن التی تزید حسب زیاده الطفل،بل إنّ ترکیب اللبن کذلک تتغیر مکوّناته،

و تتركّز مواده،فهو يكـاد يكون مـاء به القليل من النشويات و السـكريات فى أوّل الأمر،ثم تتركّز مكوّناته فتزيـد نسـبته النشويه و السكريه و الدهنيه فتره بعد أخرى، بل يوما بعد يوم،بما يوافق أنسجه و أجهزه الطفل المستمر النمو).

هكـذا قـدّر اللّه شؤون الحيـاه و الخلق،و هكـذا تتجلّى حكمته فى كـلّ شـىء،و نحن يجب أن نهتـدى إلى ما غاب عنّا بما نراه و نشاهـده،كما نسـتدل على وجود التيار الكهربائى بالمصـباح و المروحه،ينبغى أن نهتـدى إلى الآخره بالحكمه الربّانيه الظاهره فى الـدنيا،و حـتى فى الـدنيا نفسـها يجب أن نـؤمن بالسـنن الحـاكمه فيهـا، و نكيّف أنفسـنا وفقهـا،فالـذى يصـلّى من دون خشوع و إخلاص لا تقبل صـلاته، و الـذى يتصـدّق من دون تقوى تبطل صدقته،و هكذا الذى يعرض عن آيات اللّه و يكذّب برسالاته و يتبع الهوى فـإنّه يلقى العـذاب فى الـدنيا و الآـخره،مهمـا زعم و تمنّى بـأنّه لا يعـذّب أو أنّه قادر على الانتصار على سـنن اللّه فى الحياه.

[۵۰-۵۱]و فوق تلـك الأقـدار و السـنن تبقى للّه المشـيئه العليا و الاراده المطلقه يهيمن بها على كلّ شـىء،و يخرق بها القـدر أو ينفذه متى شاء فى أسرع من طرفه العين و لمح البصر،فلا يجوز للإنسان إذن أن يعبد السنن،إنّما يجب عليه عباده ربّها.

وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ سواء كان هـذا الأمر ممّا يختص بشؤون الدنيا أو الآخره،و الأشـياء كلّها تسـتجيب لأمر اللّه بمجرد نزوله من عنـده دون تردّد أو إقناع،فلا يحتاج تعالى إلى تكرار الأمر أبـدا،و لعلّ «وٰاحِدَةٌ» إشاره إلى وحـده زمنيه،كما نقول نحن لحظه أو جزء من الثـانيه،بـل فوق الزمن إذا نسب الأـمر إلى اللّه،و حيث لاـ نسـتوعب نحن المسـافه بين أمر اللّه و نفـاذه،و لا حتى أضـخم الكومبيوترات الحديثه،فإنّه تعالى قرّب

لنا المعنى مشبّها بقوله:

كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ أى كما لو أغمض بشر عينه ثم فتحها ليلمح شيئا ما،و اللمح هو النظره السريعه الخاطفه،و لعلّ تقدير الزمن إنّما هو من جانب المخلوق،فهو بحاجه الى زمن حتى يتحقّق فيه أمر اللّه،أمّا جانب الخالق فلا يتصوّر زمن مديد أو قصير تعالى ربنا عن أوصاف المخلوقين.

نعم فى مثل هذا الزمن المحدود ينفذ أمر اللّه لو أراد إهلاككم أيّها الكافرون المكذّبون،دون أن يمنعه مانع،و التاريخ شاهد على هذه الحقيقه،و قد قدّم القرآن فى آياته السابقه قوم نوح و عاد و ثمود و لوط مثلا لها،و لا زال يؤكّد ذلك للكافرين فيقول:

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا أَشْيٰاعَكُمْ نظائركم و أشباهكم،و ربما أراد القرآن بذلك الذين عاصروهم ممّن أهلكوا لا الذين من قبلهم و حسب،و ربّنا قادر على أن يفعل بهم ذلك،و لكنّه برحمته و لطفه يقدّم النذر على العذاب و التذكره على الجزاء،و يدعوهم إلى الايمان،لأنّه خلق البشر ليرحمهم و ليربحوا عليه لا للشقاء و النقمه،لذلك يهتف بهم كتابه الكريم:

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ و قد كرّر ربّنا هذا المقطع بعد قوله: «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ» ،فكما يجب على الإنسان أن يتعظ بالقرآن و يتذكّر بآياته كذلك يجب عليه أن يستنصح التاريخ،و يعتبر بأمثاله و قصصه،فإذا وجد نظائره و قد أهلكوا فلا يمنّى نفسه

بالنجاه.أ ترى لو ذهب شخص إلى الطبيب،و شخّص فيه مرضا مات به آخرون قبله،أ يمنّ نفسه بالحياه؟! [۵۲-۵۳]و حينما أهلك أولئك لم ينته حسابهم و جزاؤهم،بل سجّلت أعمالهم ليلاقوا جزاءهم الأوفى فى الآخره.

وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ أى الكتب وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً* اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (۱).

و قد فسّر البعض هذه الآيه بما يخدم مذهبه الجبرى زاعما أنّ كلّ أفعال الإنسان مكتوبه سلفا عليه فى الزبر،و هذا التفسير لا يتناسب و السياق،كما لا يتناسب و ما نعرفه من حريه الإنسان فى حدود قدر اللّه و قضائه.

و يؤكّد القرآن أنّه لا يُغادِرُ صَغِيرَهً وَ لا كَبِيرَهً إِلاّ أَحْصاها .

وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ يجدونه فى سطور ذلك الكتاب.

و هاتان الآيتان تهديانا إلى فكره المسؤوليه،و أن الإنسان هو الذى يرسم مستقبله بنفسه من خلال أفعاله صغيرها و كبيرها،و ما دامت الأعمال لا تذهب إلى الفراغ،بل تكتب له أو عليه عند اللّه،و ما دام مستقبله الأخروى الأبدى مرتكز على حياته هنا،فحرى به إذن أن يتحمّل الأمانه بصدق و قوه.

۱- ۱) الإسراء/(۱۳-۱۴)).

[۵۵-۵۴]و يختم اللّه هذه السوره التى تلاحقت فيها النذر المخوّفه بالترغيب، لكى لا ينتهى التخويف إلى اليأس،بل يبقى الإنسان متوازنـا يتحرك باتجاه الحق بيـن الخـوف من العـذاب و رجـاء الرضـى و الاثـابه، فيحـدّثنا عن عـاقبه المتقين فى مقابـل عـاقبه المكذّبين فيقول:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی جَنّاتٍ وَ نَهَرٍ أى الأنهار،و قال بعض المفسّرين أنّه المكان الواسع،و هو بعيـد،و قوله «فِی» يـدلّ على دوام النعيم و خلودهم فيه،و ذلك ممّا يميّز نعيم الآخره عن الدنيا المحدوده.

و إلى جانب النعم الماديه هناك النعم المعنويه،و أعظمها و أهمّها رضى اللّه عزّ و جلّ الذى ينالها المتقون.

فِی مَقْعَدِ صِدْقٍ و يـدل المقعـد على الدوام و الثبات،فهم لا يزحزحون عن النعيم، «لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَ لاٰ يُنْزِفُونَ» (۱)،كما تدل كلمه «صِدْقٍ» أنّهم استحقّوا الجلوس فى ذلك المقعد بعملهم و إيمانهم بعد توفيق اللّه،فلأنّ عملهم كان صادقا مخلصا استحقوا مقعـد الصدق،و لكن عند من؟ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ حيث النظر إلى نور الربّ،و هذا بدوره يكمّل النعيم،بل هو النعمه الكبرى! و ما الجنان و النهر و سائر النعم الأخرى إلاّ مظهر لمقعد الصدق،و هذان النوعان من

۱- ۱) الواقعه/(۱۹).

النعم(الجنات و النهر،و حبّ اللّه و جواره)يلبّيان تطلّعات المؤمن الماديه و المعنويه إلى أقصاهما.

و المليك هو مالك الأشياء المهيمن عليها،و لكن قد يوجد من هو أقوى منه،إلاّ أنّ ذلك ينتفى بإضافه «مُقْتَدِرٍ» ،و فى هاتين الصفتين ضمان للمؤمنين بأنّ ما يوعدون واقع حاصل،لأنّ الذى يعدهم يملك ما وعدهم،و يقدر على تحقيقه فهو لا يمنعه مانع،كقدرته على إنزال العذاب بالمكذّبين،بلى.إنّ المؤمنين يتطلّعون إلى نعيم الآخره،و لكن طموحهم الأكبر يبقى هو جوار اللّه و رضاه،فهذا

زين العابدين و سيّد الساجدين يناجى ربه :«فقد انقطعت إليك همّتى،و انصرفت نحوك رغبتى،فأنت لا غيرك مرادى،و لك لا لسواك سهرى و سهادى،و لقاؤك قرّه عينى،و وصلك منى نفسى،و إليك شوقى،و فى محبّتك ولهى،و إلى هواك صبابتى،و رضاك بغيتى،و رؤيتك حاجتى،و جوارك طلبى،و قربك غايه سؤلى، و فى مناجاتك روحى و راحتى،و عندك دواء علّتى،و شفاء غلّتى،و برد لوعتى، و كشف كربتى،فكن أنيسى فى وحشتى،و مقيل عثرتى،و غافر زلّتى،و قابل توبتى،و مجيب دعوتى،و ولىّ عصمتى،و مغنى فاقتى،و لا تقطعنى عنك،و لا تبعدنى منك،يا نعيمى و جنّتى،و يا دنياى و آخرتى،يا أرحم الراحمين » (1).

و نقرأ

فى دعاء كميل :«يا ولىّ المؤمنين،يا غايه آمال العارفين،يا غياث المستغيثين،يا حبيب قلوب الصادقين ».

١- ١) مفاتيح الجنان/مناجاه المريدين.

سوره الرّحمن

اشاره

ص:۲۷۱

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

-۱

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال :

لاـ تـدعوا قراءه سوره«الرحمن»و القیـام بهـا،فإنهـا لاـ تقرّ فی قلوب المنافقین، و یؤتی بها یوم القیامه فی صوره آدمی،فی أحسـن صوره،و أطیب ریـح،حتی تقف من اللّه موقفا لا یکون أحـد أقرب إلی اللّه منها،فیقول لها:من ذا الـذی کان یقوم بک فی الحیاه الدنیا،و یدمن قراءتک؟فتقول:فلان و فلان فتبیض وجوههم،فیقول لهم:اشفعوا فیمن أحببتم،فیشفعون،حتی لا یبقی لهم غایه،

ص:۲۷۳

و لا أحد يشفعون له،فيقول لهم:ادخلوا الجنه،و اسكنوا فيها حيث شئتم.

تفسير نور الثقلين/ج /۵ص ۱۸۷ ۲-

و بإسناده عن أبى عبد اللّه عليه السلام قال :من قرأ سوره«الرحمن»فقال عند كل «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» :لا بشیء من آلائک ربّ اكذّب،فإن قرأ ليلا ثم مات مات شهيدا،و إن قرأها نهارا ثم مات مات شهيدا.

المصدر ۳-

و عن الصادق-عليه السلام-أنه قال :من قرأ سوره«الرحمن» ليلا،يقول عند كلّ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» :لا بشیء من آلائک يا رب أكذب،و كل اللّه به ملكا إن قرأها من أول الليل يحفظه حتى يصبح،و إن قرأها حين يصبح و كلّ اللّه به ملكا يحفظه حتى يمسى.

المصدر ۴-

عن جابر بن عبد اللّه(ر ض)قال :لما قرأ رسول اللّه صلى الله عليه و آله سوره«الرحمن» على الناس سكتوا،فلم يقولوا شيئا،فقال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله):الجنّ كانوا أحسن جوابا منكم،لما قرأت عليهم «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» قالوا:لا و لا بشیء من آلاء ربنا نكذّب.

المصدر

ص:۲۷۴

الإطار العام

لما ذا خلق ربّنا الغنى العزيز هذه الكائنات؟أو ليس لأنّه سبحانه الرحمن؟ آيات رحمته الواسعه تجلّت فى كلّ شىء:فى هذا الكتاب الذى يهدينا إلى نوره و لولاه لما عرفناه.فى هذا الإنسان الذى أحسن خلقه و أكرمه و علّمه البيان ليفضله على كثير ممّن خلق.فى الشمس المضيئه،و القمر المنير.فى النجم المسخّر برحمته، و فى الشجر الساجد لعظمته.فى السماء التى رفع سمكها و جعلها سقفا محفوظا.فى النظام المحسوب الذى قدّره،و فى الميزان الذى وضعه للناس حتى يحكّموا العدل بينهم و لا يطغون...

بلى.سبحات وجهه الكريم تتجلّى فى آياته.أ فلا تتجلّى فى قلوب عباده ليعرفوه و ليسكنوا إلى رحمته فلا يبتغوا عنه بدلا؟ما أعظم خيبه من عاش على شاطئ رحمه اللّه ظامئا لأنّه لم يهتد إليها؟ هكذا تتواصل آيات سوره الرحمن مذكّره بهذا الاسم المبارك الذى لو انعكس

نوره فی أفئدتنا غمرها بالسکینه و الأمل،بالتطلع و التوکّل،بالعطاء و الکرامه.

لماذا الیأس و ربّنا الرحمن؟ لماذا الانغلاق و خالقنا الرحمن؟ أ فلم یجعل الأرض للأنام،فیها فاکهه و النخل ذات الأکمام،فلما ذا التکذیب بآلاء ربّنا و الکفر بنعمه؟(و من التکذیب:تحریم الطیبات علی أنفسنا بعد أن خلقها لنا،و من الکفر:القنوط من روحه،و الانطواء علی أنفسنا یائسین).

خلق اللّه الإنسان هذا العالم الکبیر ابتداء من صلصال کالفخّار(أو لیس بقادر علی أن یبعثه مقاما محمودا لیکون أکرم من خلقه،فلما ذا الیأس و التکذیب؟).

و خلق الجان من مارج من نار فبأیّ آلاء الربّ یکذّب الجن و الإنس؟ و یبصّرنا السیاق بتجلّیات رحمه اللّه فی اختلاف الفصول بحساب دقیق، و بحرکه المیاه عبر نظام قاهر یفصل بین الفرات و الأجاج،و إذا باللؤلؤ و المرجان یستخرجان منهما،و أجری فیهما السفن الکبیره بتقدیر حکیم، فأنّی یکذّبون بآیاته؟ و بعد أن یشیر إلی أنّ الثقه لیست بنظام الخلیقه لأنّها فانیه،بل بخالقها لأنّ وجهه الکریم باق لا یفنی،یعود و یذکّرنا بأنّ خزائن رحمته لا تنفذ،و منها یسأل من فی السموات و الأرض فلنسأله أیضا.لماذا نکذّب و نخسر عطاءه؟ إنّ التکذیب بآیات اللّه و نعمائه لیس فقط خیبه أمل فی الدنیا،بل خساره عظمی فی الآخره،و هکذا تنذرنا الآیات من عاقبه التکذیب یوم الحساب العظیم فأنّی یمکن أن نهرب من حکومته؟هب أنّنا نفذنا من أقطار السموات و الأرض

فهل ننفذ إلاّ بسلطان منه؟أ فلا نحسب حساب شواظ النار و النحاس،فهل نقدر على مقاومتها؟فلما ذا إذا التكذيب بآلاء ربّنا الغنى العزيز؟فيوم تنشق السماء و تتحوّل حمراء كأنّها ورده أنى يمكن التكذيب بآلاء الرحمن؟ يومئذ لا داعى للسؤال عن المجرمين.أو ليسوا معروفين بسيماهم؟فيؤخذ بالنواصى و الأقدام و يلقى بهم فى نار جهنّم التى كذّبوا بها(حينما كذّبوا بالحساب و كذّبوا بآلاء اللّه).

تعالوا نؤمن بربّنا المقتدر الجبّار و نخشاه حتى يرزقنا الجنّه،فلمن خاف مقام ربّه جنتان ذواتا ظلال وارفه،و عيون جاريه،و فواكه متنوّعه،و أسره موضونه عليها الحرير و الإستبرق...هنالك تجد قاصرات الطرف من الحور الطاهرات كأنّهن الياقوت و المرجان،بلى. ذلک جزاء إحسانهم،و أقل منهم بدرجه جنتان ملتفّه الأغصان،تتفجّر فيهما عينان،فيهما من أنواع الثمار،كما فيهما الخيرات الحسان من النساء حور محفوظات فى الخيام لم تصل إليهنّ يد إنس و لا جان..

هنالک يستريح الصالحون على رفرف خضر و عبقرىّ حسان..كلّ هذه النعم التى يبشّر بها القرآن لماذا التكذيب بها بعدم السعى إليها؟ تَبارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ .

ص:۲۷۷

[سوره الرحمن (۵۵): الآیات ۱ الی ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . اَلرَّحْمٰنُ (۱) عَلَّمَ اَلْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ (۳) عَلَّمَهُ اَلْبَيٰانَ (۴) اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ (۵) وَ اَلنَّجْمُ وَ
اَلشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ (۶) وَ اَلسَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ اَلْمِيزٰانَ (۷) أَلاّٰ تَطْغَوْا فِي اَلْمِيزٰانِ (۸) وَ أَقِيمُوا اَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تُخْسِرُوا اَلْمِيزٰانَ (۹)
وَ اَلْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ (۱۰) فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ اَلنَّخْلُ ذٰاتُ اَلْأَكْمٰامِ (۱۱) وَ اَلْحَبُّ ذُو اَلْعَصْفِ وَ اَلرَّيْحٰانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا
تُكَذِّبٰانِ (۱۳) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ (۱۴) وَ خَلَقَ اَلْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ (۱۵) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۱۶) رَبُّ
اَلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ اَلْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۱۸)

اللغه

۵[بحسبان]:یجریان بحساب معلوم مقدّر،بلا زیاده و لا نقصان.

۶[و النجم]:هو نبت الأرض الذی لیس له ساق،و قیل:

أراد بالنجم نجم السماء،فهو ینجم أی یظهر من الأفق.

۱۰[للأنام]:للنّاس.

ص:۲۷۹

۱۱[الأكمام]:الأوعيه و الغلف،و ثمر النخل يكون فى غلف ما لم ينشق.

۱۴[صلصال]:هو الطين اليابس،الذى له صلصله أى صوت.

[كالفخار]:الفخّار هو الطين الذى طبخ بالنار حتى صار خزفا.

۱۵[مارج]:اللهب الذى يتداخل بعضه فى بعض.

ص:۲۸۰

اَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ

هدى من الآيات:

إنّ أهمّ حكمه وراء خلق الإنسان و الكائنات أن يتعرف الرب لخلقه فی كل شیء حتی لا يجهلوه فی شیء فيعبدونه حق عبادته،و لا ينظرون إلی شیء إلا و يرونه قبله و معه و بعده.لقد كان سبحانه و تعالی كنزا مخفيا فأراد أن يعرف فخلق الخلق (۱)،لا لحاجه منه إليهم،بل لحاجه منهم إليه،و لا ليربح عليهم،بل ليربحوا عليه.

و هكذا فان السمه البارزه فی الخليقه هی رحمه اللّه،و إن طبيعه الخلق الأولی للإنسان قبل أن تدنّس من المخلوقين أنفسهم لهی طبيعه إيجابيه حميده،و إنّ فطرته ليست نابيه و لا معاديه.إنّه يتفكّر فی نفسه فيراها غارقه فی محيط من النعم و الآلاء، خلقه رحمه،و تعليمه و بيانه نعمه أيضا،ثم يجول بفكره فی العالم من حوله فيری

۱- ۱) محتوی حديث قدسی معروف.

الشمس و القمر،و النجوم و الشجر،و السماء،و الميزان،و هكذا الأرض و ما تحتويه كلّها نعم،و كلّها خلقت و لا زالت تؤدى دورها ضمن نظام محكم فى صالحه..

لذلك تجد سلوكه تجاه الخلق سلوكا وديعا نابعا من حبّه له،فهو يأبى أن يسلب نمله جلب شعيره،و إذا مشى على الأرض وطأها برفق و هون.

بينات من الآيات:

[۱][اَلرَّحْمٰنُ] هكذا تأتى هذه الكلمه وحدها آيه قرآنيه،و لعلّها أقصر آيه بعد الحروف المقطّعه،و لكنّها من حيث المعنى تشكّل محورا فى السوره بتمامها،يتصل بآيه آيه فيها،و يعكس ظلّه على كلماتها،و حينما تنطلق من هذه السوره المباركه إلى العالم الواسع تجد هذا الاسم الالهى منبسطا على كلّ مفرده فيه،لأنّه تعالى كتب الحياه بلغه الرحمه و اللطف،و لك أن تتصور كم ينبغى أن يكون الإنسان ضالا-و مجرّدا عن أى إحساس حتى يكون جاهلا-بربّه و برحمته،بل جاحدا بآلائه،حتى يتساءل بصلافه: «وَ مَا الرَّحْمٰنُ» ؟! (۱)إنّه لا شك أقلّ قدرا و وعيا من البهيمه،لأنّها تعى رحمه ربّها،و تؤمن به بقدر شعورها،بينما الإنسان و قد أعطاه اللّه العقل و لكنّه لا ينتفع به!و صدق عزّ و جلّ حين قال عنهم: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً» (۲).

[۲]إذا تعال معا نستمع الوحى و هو يعرّفنا جانبا من رحمه اللّه،و يهدينا إلى تجلّيات اسم الرحمن فى الخلق و فى أنفسنا قبل ذلك.

عَلَّمَ الْقُرْآنَ

ص:۲۸۲

۱- ۱) الفرقان ۶۰/

۲- ۲) الفرقان۴۴/

إنّ للرحمه الالهيه درجات،و لكنّ أعظمها بالنسبه للإنسان الهدى المتمثّل فى القرآن،فالخلق بحدّ ذاته رحمه و هى تسبق تعليم القرآن،إلاّ أنّ ذكره يأتى متأخرا، ذلك أن الهدى هو الهدف من الخلق،و لو لم يهد اللّه عباده إليه تكون الحكمه من وجودهم و إيجادهم قد انعدمت.أو لم يقل ربنا سبحانه: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» ؟.

و القرآن يهدى البشر إلى معرفه ربّه،و لأنّه لا يمكنه ذلك إذا كانت بينه و بين اللّه حجب الغفله و الجهل و الذنوب،فانّ القرآن يزكّيه حتى يتجاوز تلك الحجب، و حتى شرائع الدين تهدف فى النهايه تمهيد السبيل إلى معرفه الرب.كيف؟لأنّه لا يقدر الإنسان على معرفه الرب ما دام يعيش فى مجتمع فاسد منحرف عن سنن الحق لا ينى يعتصره حتى يكون متوافقا معه،فكيف يتخلّص من ضغوطه،و يتحدّى فساده؟هذا ما تضمنه تعاليم الدين،و كيف يبنى مجتمعا فاضلا بديلا عنه؟هذا ما تفصّله أحكامه القيّمه،و بالتالى كيف يتجنّب عوامل الخطيئه حتى يعرف اللّه؟ هذا ما يتكفّل به القرآن بهداه و بيّناته،ببصائره و مفصّلاته،بأحكامه و شرائعه.إنّه يحقّق بكلّ ذلك الحكمه من خلق الإنسان ألاّ و هى معرفه اللّه،التى هى بدورها تجلّ لرحمانيّته تعالى.أ ليست معرفته عين الكمال،و محض النعمه،و وسيله الزلفى، و سبب تسخير الخليقه؟ و السؤال:كيف علّم اللّه القرآن للإنسان؟ أولا:بأن علّمه رسوله صلى الله عليه و آله و هو علّمه للبشريه تبليغا و بيانا.

ثانيا:بأنّ القرآن تعبير صريح عن الحقائق التى أودعها اللّه فى فطره كلّ بشر، ممّا يجعل إيداعها بمثابه تعليم القرآن نفسه،ممّا يجعل دوره بالنسبه للحقائق دور المذكّر بما ينطوى عليه وجدان الإنسان.

و يبدو أنّ حذف:مفعول التعليم الثانى فلم يفصح عمن علّم القرآن كان لحكمه بالغه هى:إن جعل القرآن علما بحيث ينتفع به كلّ من شاء هو المناسب لرحمانيه اللّه،كما قال ربنا سبحانه: «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» .

[۴-۳]و حينما نوجّه نظرنا صوب الإنسان نفسه نراه بكلّه مظهرا لرحمه اللّه.

إنّه لم يكن شيئا،فأوجده اللّه من غير استحقاق منه،و من دون أىّ جبر أو اضطرار،إلاّ رحمه منه عزّ و جلّ.

خَلَقَ الْإِنْسٰانَ و كفى بخلق الإنسان دليلا على رحمته.ألا تراه عالما كبيرا بذاته،تماوجت فى كيانه بلايين النعم التى لو فقد واحده منها انتقصت الرحمه؟ بيد أن أعظم ما فى الإنسان قلبه(مخّه و عقله)،ذلك أنّ اللّه خلق الإنسان فى أحسن تقويم،و فضّله على كثير من خلقه،ثم أكمل خلقه بالعقل،و أكمل العقل بالقرآن،و أكمل كلّ ذلك بنعمه البيان،الذى يقوم بدور تواصل المعلومات و تناقل الخبرات من إنسان لآخر،و من أمه لأخرى،و من جيل إلى جيل،و لو لا هذه الميزه لما كانت حضاره،و كان البشر و سائر الأحياء سواء،فحياه الهرّه قبل مليون سنه هى حياتها الآن،لأنّ كلّ فرد من هذا الجنس يعيش فى حدود غرائزه أو تجاربه الذاتيه،بينما تنمو حضاره البشر بتواصل التجارب و المعلومات و تراكمها،و هذا كلّه مرتكز على البيان،و ما كان قادرا عليه لو لا فضل اللّه و رحمته إذ تلطّف عليه به.

عَلَّمَهُ الْبَيٰانَ و هذه النعمه هى الأخرى مظهر لاسم الرحمن،و آيه هاديه إليه،و ما يجب على الإنسان هو الاعتراف بهذه الآلاء،و أداء شكرها،و لكنّك تراه بدل ذلك يمارس

ص:۲۸۴

الخطيئه بتلك النعم،فاذا به يسخّر البيان من أجل الباطل.

[۶-۵]و من الحديث عن آثار رحمه اللّه فى كيان الإنسان تنقلنا الآيات إلى آفاق العالم لعلّنا نرى فيها تجلّيات اسم الرحمن،هكذا يوصل القرآن الحديث عن الإنسان و الكون لكى يخرجنا من قوقعه الذات الى الآفاق الواسعه،لكى يؤكد لنا بأن الكائنات جميعا خاضعه للّه،حيث يؤدى كلّ شىء دوره و هدفه من الخلق بالتزامه بالنظام الذى رسمه اللّه له.أنظر الى الشمس تجدها تتحرّك بدقه متناهيه جدا،و بتناسق رائع مع حركه القمر، لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۱). إذن فأى خروج من قبل الإنسان عن حدود اللّه هو شذوذ و شقاق و ضلال و تيه.

اَلشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ لقد خلق اللّه الخلق متناسقا يكمل بعضه بعضا،فلو لا الإنسان ما خلق اللّه الشمس و القمر و النجوم،و الشجر،و السماء و الأرض و ما فيهما،و لو لا هذه الأشياء ما كان للإنسان أن يجد سبيلا للحياه..و الشمس و القمر لهما آثار مباشره فى حياه الإنسان،بل فى الحياه على كوكبنا كلّه،فالشمس توفّر لنا الضوء،و لها صله ماسّه بالنباتات على الأرض،و هكذا يؤثر القمر فى بحار الأرض و محيطاتها،و فوائد أخرى لهما لا يزال العلم الحديث يحث الخطى لاكتشافها،و لكن تبقى أعظم فائده لهما و لكلّ شىء أنّهما آيتان تهديانا إلى اللّه،و نلمس هذا الهدى بصوره أجلى و أفضل بالاطلاع على دقّه النظام الذى يتحكّم فيهما.

فلو أنّ الشمس اقتربت إلى الأرض أو ابتعدت عنها أكثر،أو تبدّل نظامها فى الغروب و الشروق،أو تصاعدت حرارتها أو انخفضت،لأصبحت الحياه صعبه أو

۱- ۱) يس ۴۰/

مستحیله..و کـذلک القمر فـاذا رأیناه یحمل ملایین الأطنان من میاه البحر فانّه لا شک یؤثّر فی مـخّ الإنسان الـذی یشـکّل الماء حوالی ٧٠٪منه.

وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْـجُدانِ قال بعض المفسـرین:إنّ النجم هو النباتات الصغیره، و الشجر هی النباتات الکبیره ذات الساق،و ذلک لیوجـدوا ارتباطا بین الإثنین،و الذی یبدو من ظاهر الآیه أنّها لا تحتاج إلی هکذا تأویل،فالنجم هو الذی فی السـماء،و الشـجر هو الشـجر الـذی نعرفه،و ربما الهدف من ذکرهما معا بیان العلاقه بین أبعد الأشـیاء عنّا و أقربها إلینا فی الطبیعه،فهی و إن کانت فی نظرنا جوامـد إلاّ أنّها تملک قدرا من الوعی و الإحساس یدعوها لعباده ربّها «وَ إِنْ مِنْ شَـیْءٍ إِلاّ یُسَـبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ» (١).

و حیث یدل السـجود علی غایه الخضوع و العبودیه،فإنّ سجود النجوم و الشجر یتجلّی فی خضوعها لسنن اللّه المرتبطه بها،فإنّک لا تجد نجمه تنحرف عن مسارها، و لا شجره تنبت غیر ثمرها.

و لاـ ریب أنّهمـا مظهر لرحمه اللّه بالإنسـان،فللنجـوم علاـقه وثیقه بتنظیم هیکلیه الجـاذبیه فی هـذا الفضـاء الرحب،ثمّ أنّهـا تـؤثّر بأشـعتها علی الأـرض و علی الکائنـات فیهـا،حتی قیل بأنّ کلّ مادّه فی جسم الإنسان تسـتمد قـدرا من وجودها و کیانها -بلطف اللّه-من الأشـعه المبثوثه فی الفضاء،و العلاقه بین النجوم و الشـجر لیست علاقه علمیه و حسب،بل انّ الزرّاع و الفلاّحین یستدلّون بها علی میعاد زراعه الأنواع المختلفه من النبات،و أوقات اللقاح و التشذیب و ما إلی ذلک.إذن فلا ینبغی أن

١- ١) الإسراء۴۴/

نتصوّر بأنّ تلك النجوم التى تفصلنا عنها ملايين السنين الضوئيه لا علاقه لها بنا، كلّا..و هذا يفسّر

الحديث القدسى :«خلقت الأشياء لأجلك و خلقتك لأجلى » الذى يشير إلى العلاقه بين كلّ شىء و بين الإنسان،و قد قدّم ربّنا الإشاره إلى خلق الإنسان على الحديث عن الكون لأنّه الهدف.

[۹-۷]ثم أنّ السوره المباركه تذكّرنا بتجلّ آخر لاسم الرحمن فى نعمه السلام و الأمن،سواء كان أمن وجود الإنسان أو أمن حقوقه،فالسماء رفعت كى تحافظ بطبقاتها على وجوده،فهى تمنع عنّا النيازك و الشهب الساقطه،كما يمتص الغلاف الجوى الأشعه الضارّه أنّ تصل إلينا،و يخفّف من الأشعه الأخرى التى من شأنها لو وصلت إلينا بصوره مركّزه الإضرار بنا أيضا،و هكذا..و كما ضمن اللّه حياتنا بالسماء ضمن برحمته الحقوق للإنسان عند ما وضع الميزان.

وَ السَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ الْمِيزٰانَ الحياه كلّها من النبته الصغيره حتى الشجره الكبيره،و من الذره المتناهيه فى الصغر حتى المجرّه المتناهيه فى السعه و الضخامه،و فيما بينها الإنسان و الشمس و القمر،كلّ ذلك يتجلّى فيه التدبير اللطيف و النظام الدقيق،حتى قالوا أنّ الحياه كتبت بلغه رياضيه،و لذلك فإنّها تنعكس فى ضمير الإنسان و فى رسالات اللّه بصوره موازين و قيم.أليس الفكر مرآه صافيه؟أو لا تعكس هذه المرآه ذلك النظم الدقيق،و التدبير الحسن؟بلى.و كذلك الوحى يذكّرنا بالعقل،و يفصح عن تلك الموازين الحق التى انبثّت فى الخليقه.

فالإنسان يعرف الخير من الشر،و الحسن من القبيح،بل و يزن أيضا أىّ الشرّين أهون و أىّ الحسنيين أفضل،كما أنّه يتمتع بحسّ جمالى.ألا تراه كيف يميّز بين لوحه و أخرى، و وجه و آخر،كما أنّه بحواسه يفرّق بين الأحجام،و الألوان،

و المسافات،و الأصوات.هل فكّرت كيف يميّز الإنسان بأذنه بين الأصوات المختلفه،يقيس-مثلا-صوتين متقاربين لأخوين،بل صوت الإنسان الواحد فى حالتين أو مرحلتين،حينما يستيقظ من نومه،و حينما يكون مريضا..و لو أنّك قارنت بين أكثر المسجّلات تطوّرا و بين الأذن،أو بين المصوّرات المتقدمه و بين العين،لوجدت حواس الإنسان تتميّز بدقه الموازين،و هذه الموازين عكسها الإنسان فى صور محسوسه،فصنع للثقل ما يسمّى بالميزان،و للمسافات المتر و الذراع و ما إلى ذلك،و للزمن الساعه،و للحراره و الرطوبه مقياسا آخر،كما وضع قوانين و أنظمه تجسّد موازين العدل و الأخلاق و القيم و الأعراف.إذن ربّنا هو الذى خلق الموازين فى الطبيعه،إذ خلق كلّ شىء بحسبان و قدر،ضمن زمن،و حجم،و لون،و شدّه، و ضعف،و عدد من الموازين الأخرى،و عكس ذلك فى ضمير الإنسان و حواسه و عقله.

و هناك علاقه بين رفع السماء و وضع الميزان فى الآيه الكريمه،فالسماء رفعت بالميزان و من أجل الميزان(القوانين و الأنظمه الطبيعيه الخاصه بها)،و لولاها لكانت تقع على الأرض،و هكذا كلّ شىء فى الحياه،فحياه الإنسان تستحيل عذابا لو لم يلتزم بالميزان،لذلك يؤكّد ربّنا مباشره بعد هذه الآيه و بآيه أخرى على ضروره احترامه و إقامته.

إنّ اللّه وضع الميزان فى الطبيعه،و لكنّ رحمته لا تتجلّى فيها فقط بل على يد الإنسان أيضا،فهو بحكم حريته قد ينغّض صفو الأمن على نفسه و يفسد السلام، كما أنّه يستطيع أن يساهم فى جلب السلام و السعاده إليها لتتجلّى رحمانيه اللّه على يديه،و ذلك إذا لم يطغ فى الميزان و أقامه بحق،فلم يسرف فى الأكل و الشرب، و لم يبذّر فى الصرف،و لم يستهلك أكثر ممّا ينتج،و لم ينم أكثر من حاجته،بل أقام الوزن فى جوانب حياته الشخصيه و الاجتماعيه.

أَلاّ تَطْغَوْا فِی الْمِیزانِ و الطغیان هو إخسار المیزان بصوره فظیعه ظاهره،و ربّنا ینهانا عن ذلک، و یلحق بالنهی دعوه إلی إقامه الوزن باحترامه و الالتزام الدقیق به،و بأفضل صور العدل و هو القسط.

وَ أَقِیمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ و هو أقرب الی التقوی حتی من العدل،ذلک أنّ القسط لیس مجرّد العدل،بل العدل بإضافه الاحتیاط الذی یضمن حصوله بالفعل،فمثلا إذا کنت صاحب محل تزن للناس تعادل ما تبیع بالوزن المطلوب ثم تضیف إلیه شیئا،و إذا کنت تشتری تنقص ما تشتریه عن الوزن المتفق بینک و بین البائع،و ذلک للتأکّد من فراغ الذّمّه فی الحالتین.هذا هو القسط،و کم تکون البشریه سعیده لو عملت بهذه القاعده.

و الإقامه هی الالتزام بالشیء و أداؤه علی أحسن وجه،و إقامه الوزن تکون فی أفضل صورها عند العمل بالقسط.

و ربّنا لا ینهی عن إخسار المیزان بصوره ظاهره و فظیعه،بل و ینهی حتی عن مخالفته بصوره بسیطه،أو خفیه باستغلال غفله الناس و ثقتهم،أو بالاحتیال علی القانون،فیقول:

وَ لاٰ تُخْسِرُوا الْمِیزانَ و العمل بالقسط یضمن من جانب تحقّق العداله،و من جانب آخر یجنّب الإنسان مخالفه الحق و النظام،و السؤال:کیف یخسر الإنسان المیزان؟ من المفاهیم الحضاریه بل من الإنجازات الهامه فی عالمنا الیوم وحده الموازین

ص:۲۸۹

(الکیلوغرام،الکیلومتر مثلا،و کذلک المقاییس و الأوزان الأخری)و هذه یتفق علیها الناس،و یعتمدونها فی معاملاتهم،و لعل هذا من أبرز معانی إقامه المیزان و احترامه و عدم التلاعب به،بأن یعتبر البعض الکیلوغراما ۹۰۰،و البعض الآخر ۱۰۰ غراما،فذلک یفقد البشریه إنجازا حضاریّا،و یفسح المجال للمزید من الظلم و التلاعب بالحقوق،بل إنّ إقامه الوزن(الهدف)لا یتحقّق إلا بالمیزان،و إخساره تضییع لهذا الهدف.

و کلمه «الْمِیزانَ» واسعه تشتمل علی کثیر من المضامین،فالعقل میزان، و القرآن میزان،و العهد میزان،و ما تتفق علیه التنظیمات فی اجتماعها إلی بعضها میزان،و لا یصح لأحد أن یخرج علیه مهما کان مخالفا لمصالحه الشخصیه،و لکنّ أظهر معانی المیزان هو القیاده الرسالیه،بأقوالها و أفعالها و آرائها باعتبار قربها من القیم فهما و تطبیقا،

قال الإمام الرضا علیه السلام :«و المیزان أمیر المؤمنین (صلوات اللّه علیه)نصبه لخلقه،قال الراوی:قلت: أَلاّ تَطْغَوْا فِی الْمِیزانِ ؟قال:

لا تعصوا الإمام،قلت: وَ أَقِیمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ؟قال:و أقیموا الإمام بالعدل، قلت: وَ لا تُخْسِرُوا الْمِیزانَ ؟قال:لا تبخسوا الإمام حقّه و لا تظلموه » (۱)و القرآن یضرب لنا مثلا لإخسار المیزان فی الحقل الاجتماعی و الاقتصادی فیقول متوعّدا:

وَیْلٌ لِلْمُطَفِّفِینَ* الَّذِینَ إِذَا اکْتالُوا عَلَی النّاسِ یَسْتَوْفُونَ* وَ إِذا کالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ یُخْسِرُونَ (۲)و التطفیف کما یظهر من الآیه یناقض بالضبط إقامه الوزن بالقسط.

[۱۰]و الأرض هی الأخری تجلّ لرحمه اللّه الشامله،حیث خلقها و وفّر فیها عوامل الحیاه التی من شأنها أن تجعل عیش الإنسان علیها ممکنا بل طیّبا، کالجاذبیه و الأکسجین و الماء و مختلف أنواع الأکل،و کذلک وفّر فیها الضوء و الحراره

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۱۸۸

۲- ۲) المطففین ۱/-۳

بقدر حاجه البشر.

وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ و القرآن يشير إلى معنى الوضع هنا فى آيه أخرى إذ يقول: اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱)و لو لا رحمه اللّه و تمهيده الأرض لنا لاستحال عيشنا على هذا الكوكب كما هو مستحيل على الأجرام الأخرى كالشمس و الزهره و غيرهما،و فى الآيه فكرتان حضاريه و شرعيه نستفيدهما من كلمه «وَضَعَها» :

الأولى:أنّ اللّه سخّر الأرض عمليّا للإنسان،و أعطاه الوسائل و القدرات العلميه و الماديه يسمّيها القرآن«سبلا»للانتفاع بها و الهيمنه عليها من قمم الجبال الشاهقه إلى قعر المحيطات،فعليه أن يسعى لتسخيرها فى مصلحته،و أى بقعه لم يسخّرها الإنسان من الأرض أو أىّ فرصه أو طاقه فإنّما ظلم نفسه،و ألحق بها خساره و غراما،و التبصّر بهذه الحقيقه يزيل عن البشر الانطواء و التردّد و الخشيه من التقدّم،و هكذا تحرّض هذه الحقيقه الإنسان نحو المزيد من التقدم،و تفتح له آفاقا واسعه.

الثانيه:ثم انّ الآيه تهدينا شرعا إلى أنّ الإباحه هى الأصل فى النعم حتى يدل الدليل على الحرمه،كما قال اللّه عزّ و جلّ: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ (۲).

و لعل النصوص الشرعيه لا تدلّ فقط على إباحه كلّ شىء للإنسان(إلاّ ما أقيمت الحجه على حرمته)،بل و أيضا على ضروره الانتفاع بما فى الأرض،ممّا

ص:۲۹۱

۱- ۱) الزخرف/۱۰

۲- ۲) الأعراف/۳۲

يدلّ على أنّ تحريم الطيبات و الجمود و الانغلاق نوع من السفه بل من الظلم للنفس.

قال تعالى: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (۱)و

قال الإمام على عليه السلام :اتقوا الله فى عباده و بلاده،فإنكم مسئولون حتى عن البقاع و البهائم (۲)

و فى احتجاجه على عاصم بن زياد حين لبس العباء،و ترك الملاء (أى تصوّف فتخلّى عن الدنيا و اعتزل الناس)و شكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قد غمّ أهله،و أحزن ولده بذلك،فقال أمير المؤمنين عليه السلام :

«علىّ بعاصم بن زياد»،فجىء به فلمّا رآه عبس فى وجهه فقال له:«أما استحيت من أهلك؟أما رحمت ولدك؟»ثم دعاه إلى عماره الأرض و الانتفاع بالطيبات فيها قائلا:أ ترى اللّه أحلّ لك الطيبات و هو يكره أخذك منها؟! أنت أهون على اللّه من ذلك.أو ليس اللّه يقول: «وَ الْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنٰامِ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذٰاتُ الْأَكْمٰامِ» ؟!إلى أن قال:فباللّه لابتذال نعم اللّه بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال،و قد قال عزّ و جلّ: «وَ أَمّٰا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» فقال عاصم:يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت فى مطعمك على الجشوبه،و فى ملبسك على الخشونه؟!فقال:«ويحك!إنّ اللّه عزّ و جلّ فرض على أئمه العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفه النّاس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره » (۳).

إذن ليست النعم و الإمكانات فى الأرض مباحه للإنسان فقط،بل ينبغى له أن يسعى لتسخيرها و الانتفاع بها أيضا.

[۱۲-۱۱]ثمّ إنّ القرآن يذكّرنا ببعض النعم التى مهّد اللّه بها العيش على الأرض،و التى هى مظهر لاسم الرحمن أيضا،و يبدأها بالفاكهه و هى ذات فائده

۱- ۱) هود/۶۱

۲- ۲) نهج/خ ۱۶۷

۳- ۳) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۸۹ و تتمته ص ۱۹۱

و نفع للجسم بما تحتويه من فيتامينات و مواد أخرى.

فِيهٰا فٰاكِهَةٌ و يبـدو أنّ تقـديم ذكرها على النخل النعمه الوسط،و على الحبّ المأكول الرئيسـى للإنسان،لأنّها كمال نعمه الخلق و كمال نعم المائـده،و هذا يتناسب مع سياق هذه السوره التى جاءت لبيان تجلّيات رحمه اللّه أن تشير إلى النعمه ابتداء من أكمل النعم،و لا شكّ أنّ رحمه اللّه أكثر تجلّيا فى المائده ذات الفاكهه من الأخرى التى لا فاكهه فيها.

وَ النَّخْلُ ذٰاتُ الْأَكْمٰامِ و هى كـذلك مظهر لرحمه اللّه،و لعلّنا نقترب أكثر إلى مهمّ هـذه الحقيقه إذا رجعنا إلى الوراء فى التاريخ بذاكرتنا،و تعرّفنا على أهميه النخل و دورها بالنسبه للإنسان آنذاك،إنّه يستفيد منها حتى النخاع،من النواه التى يقدّمها مع العلف للحيوان، إلى جـذعها و خوصـها و كلّ شـىء فيها،فبكر بها يوقد النار للطبخ و التدفئه،و بسـعفها و جذوعها يبنى بيته،و من ثمرها يأكل طيله السنه.

و لكنّ القرآن يلفت انتباهنـا إلى أكمام النخل،لأنّ ما تحتويه من الثمر هو أهمّ النعم بالنسـبه للإنسان.إنّه يسـتطيع العيش من دون بيـت السـعف،و مـن دون التـدفئه بالنـار أيضـا،و لكنـه لاـ يعيش من دون الأكـل،و الأكمـام هى الـتى تحفـظ الثمر من الآفـات و السـموم،بل و تقوم بدور أساسـى جدّا فى تكوينه،لأنّها تشبه الرحم الذى يتكوّن فيه الجنين،و القرآن فى آيه منه يوجّهنا إلى هذا الـدور عند ما يلحق ذكر الأكمام التى تحمل بالثمر ثم تلده بانشـقاقها بذكر المرأه حينما تحمل و تلد،قال تعالى: «وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ

إلّا بِعِلْمِهِ» (۱)،و لولاها لانعدم الثمر،و انقرض النخل بمرور الزمن حين تتوقّف دورته الحياتيه.إذا فهی أظهر لرحمه اللّه من كلّ شیء فی النخل.

و كما النخل كذلک مختلف الحبوب كالحنطه و الأرز و الشعير حيث يتجلّى فيها اسم الرحمن،فهی ذاتها ينتفع بها الإنسان غذاء يحتوی على ما يحتاجه،كما يستفيد من حطامها كالأعواد و القشره و الورق بعد الحصاد و قبله فی أغراض عديده كالبناء،كما يقدّمها علفا للحيوان،و هو عصف الحب.

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ قال الراغب:(العصف و العصيفه الذی يعصف من الزرع،و يقال لحطام النبت المتكسّر عصف،قال: «وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ، كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ،ريح عاصف»). (۲)

وَ الرَّيْحٰانُ الرائحه الطيبه الزكيه،و سمّی به نوع من الورد،و يقال لكلّ نبات طيّب الرائحه (۳)،فتلک نعمه تلبّی الحاجات الماديه للإنسان،و هذه تلبّی حاجه معنويه بشمّها،و إضافه طيبها إلى الأكل و الشراب ليضفی عليهما نكهه خاصه.

[۱۳]هكذا تحيط نعم اللّه و آياته بنا،و أخرى كثيره يتعرّض السياق لذكرها فيما بعد،و لكنّه قبل ذلک يستوقفنا بآيه محوريه فی السوره ليطرح علينا من خلالها أهمّ سؤال يجب طرحه على أنفسنا و نحن نرى آلاء اللّه.

۱- ۱) فصّلت/۴۷

۲- ۲) مفردات الراغب الاصفهانی/ماده:(عصف).

۳- ۳) المنجد.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ إنّها من الكثره و الوضوح بما لا يجد أحد سبيلا لإنكارها،لنقف ساعه تفكّر.

كم هی نعم اللّه علينا؟كلّ ذرّه فی كياننا و فی المحيط من حولنا هی نعمه من اللّه، و كلّ لحظه نمارس فيها الحياه هی الأخری نعمه.و لو أنّنا صيّرنا أغصان الشجر أقلاما و الورق كتبا،و البحار مدادا،فإنّنا لا نزال عاجزين عن إحصائها،و ربّنا إذ يكرّر هذه الآيه الكريمه بعد كلّ مقطع يشتمل علی ذكر لشیء من آلائه،فإنّما ليؤكّد لنا بأنّ ما ذكر هو شیء بسيط من النعم الكثيره،كما فی قوله عزّ و جلّ: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهٰارَ* وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دٰائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ* وَ آتٰاكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ (١).

بلی.إنّ نعم اللّه جاءت لكی تلبّی حاجات الإنسان الماديه و المعنويه،و لكنّ هدفها الأعظم أن يهتدی بها إلی المزيد من المعرفه بربّه،و ربّنا فی سوره النحل يقول و قد تعرّض لذكر جانب من نعمه فی(١۵)آيه: وَ أَلْقیٰ فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ* أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ* وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

إذا فالأهمّ من الاهتداء بالسبل فی الأرض و بالنجوم إلی معرفه الطرق و الوصول إلی الأهداف المحدوده،و الأهمّ من معرفه عدد النعم،أن يهتدی الإنسان بذلك كلّه إلی ربّه عزّ و جلّ.و كم يكون البشر ظلوما و جهولا إذا أشرك بربّه أو كفر به و هو

١- ١) إبراهيم٣٢/-٣۴

فی هـذه البحبوحه من النعم؟!!و لک أن تدرک مدی ضـلال أولئک الذین أنکروا علی اللّه أظهر أسـمائه إذ «قٰالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ» ؟!!و أنا و أنت قد لا نقول ذلک،و لا نکذّب بآلاء اللّه بألسنتنا،و لکنّنا کثیرا ما نکذّب بها بأعمالنا و سلوکنا،و بغفلتنا عن الشکر.

الخلیقه کلّهـا تجلّیـات لرحمه اللّه،فهی وجهه «وَ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَیْنَمٰا تُـوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ» (۱)،و لکنّ الإنسـان حینما یضل لیس فقط لا یهتـدی بالآثار إلی معرفه رحمه ربّه و شـکره،بل و یتخـذ النعم مطیّه للمزیـد من التکـذیب،فإذا أصـبح غنیّا و وجب علیه الشـکر تراه یبطر معیشـته،و یزداد ترفـا و فسادا فی الأرض،أو حین یمنّ علیه بالملک تراه یسـتعلی علی الناس و یطغی و یستبد،و لعلّنا نجد إشاره إلی ذلک عند قوله «فَبِأَیِّ آلاٰءِ» إذا اعتبرنا الباء سببیه.

إنّ الحیـاه و هی وجـه اللّـه بکـلّ مفرداتهـا السـلبیه و الإیجـابیه تـدعونا إلی الإیمـان بـاللّه،و التصـدیق بآیـاته،و التسـلیم بالطـاعه لأوامره،فما هو تبریرنا و نحن نکذّب بآلائه؟!لماذا ندخل فی سـجن ذواتنا أکثر فأکثر عند کلّ نعمه،بدل أن ننطلق منها إلی آفاق الإیمان بربّنا و ربّها عزّ و جل؟!إنّنا عوض ذلک یجب أن نقول کلّما تـذکّرنا النعمه،و کلّما انتفعنا بها،بل و کلّما قرأنا آیه تذکّرنا بآلاء ربّنا،و من بینها و أهمّها الآیه الکریمه «فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ» ،یجب أن نقول:

لاـ بشـیء من آلائک ربّنا نکـذّب ،و ذلک زیاده فی الهـدی و الشـکر و الفضل من اللّه،و لا ریب أن هـدف الإمام الصادق علیه السلام من هذه العباره لیس مجرّد الکلام،فالأهمّ من تصدیق اللسان بالنعمه هو تصدیق القلب و الجوارح،فالذی یصدّق بآلاء اللّه هو الذی یؤدّی واجب الشکر له عزّ و جلّ،

«و لا یعرف النعمه إلاّ الشاکر،و لا یشکر النعمه إلاّ

ص:۲۹۶

۱- ۱) النحل/۱۶-۱۸

العارف» كما قال الإمام العسكرى عليه السلام .

و الشاكر كما يقول الإمام الهادى عليه السلام :

«أسعد بالشكر منه بالنعمه التى أوجبت الشكر،لأنّ النعم متاع،و الشكر نعم و عقبى » (۱)،

«و شكر المؤمن يظهر فى عمله،و شكر المنافق لا يتجاوز لسانه » (۲)

و جاء فى الصحيفه السجاديه :الحمد للّه الذى لو حبس عن عباده معرفه حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعه،و أسبغ عليهم من نعمه المتظاهره،لتصرّفوا فى مننه فلم يحمدوه،و توسّعوا فى رزقه فلم يشكروه،و لو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانيه إلى حدّ البهيميه،فكانوا كما وصف فى محكم كتابه: «إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً» (۳).

و الذى يلاحظ سوره الرحمن يجد آياتها تنصبّ فى منهج محدّد،فمقاطعها ترتكز على اسم الرحمن الذى جاءت السوره لتعرّفنا به من خلال تجلّياته فى جوانب الحياه المختلفه،و من هذا المنطلق يذكّرنا كلّ مقطع فيها ببعض آلاء اللّه ثم يضع أمامنا التساؤل الذى تكرّر(۳۱)مرّه،و هكذا تتوالى المقاطع بنفس الصيغه حتى الأخير.

إذن فالسوره تستهدف تعريفنا بربّنا،كخطوه أولى تنقلنا بها إلى الهدف الأسمى من المعرفه ألاّ و هو العباده بتمام المعنى.أ ترى هذه النعم كلّها جاءت لهدف و دور محدّد هو مصلحه الإنسان،فما هو هدف الإنسان نفسه،و ما هو الدور الذى يقوم به لتحقيق ذلك الهدف؟إنّه معرفه اللّه من خلال آياته و نعمه،و القيام بها كما يريدها عزّ و جلّ خلال عبادته.

[۱۴-۱۶]و هنا يوجّه القرآن أنظارنا و عقولنا إلى تجلّ آخر لرحمه اللّه متمثّلا فى خلقه الإنس و الجن.

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۱۸۷.

۲- ۲) بح/ج ۷۸-ص ۳۷۸

۳- ۳) الدعاء الأول.

خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ قيل أنّ الصلصال هو المنتن من الطين،من قولهم صلّ اللحم (1)إذا تعفّن و تغيّر،و قال عليّ ابن إبراهيم:هو«الماء المتصلّل بالطين» (2).إذن خلق اللّه الإنسان من هذه المادّه الوضيعه فى نظرنا ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (3)،و لكنّه بقدرته صيّره خلقا محكما،فيه الأذن التى تلتقط بمثلثاتها أدقّ الأصوات و تميّز بينها،و الكبد التى تقوم بأكثر من(٧٠٠)عمليه،و المخّ الذى هو أكثر الأشياء إعجازا فى الإنسان،و النخاع الذى هو امتداد لخلايا المخ،و الذى لو حاولنا استبدال سانتيمتر مربّع منه لاحتجنا إلى جهاز كمبيوتر ضخم بحجم الغرفه الكبيره،يستطيع أن يستوعب حسابات الدنيا كلّها! إنّنا لا نستطيع أن نتصوّر العدم المحض حيث خلقنا اللّه و لم نك شيئا،و لكنّنا قد نستطيع تصوّر المسافه الهائله بين صلصال من طين و بين إنسان سوى لنعرف جانبا من عظمه الخلق.هذا فى الجانب المادى،أمّا إذا تجاوزناه إلى عالم الروح حيث نفخ اللّه فى آدم من روحه فهنالك التجلّى الأعظم،و سبحان اللّه أحسن الخالقين.

وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ أى النار المختلطه فهى إذا قويت التهبت،و دخل بعضها فى بعض،كما يتداخل ماء البحر فى بعضه،و أساس الخلق نعمه ينبغى على الجن شكرها،فكيف و قد منّ اللّه عليه من القوه ما يستطيع بها نقل عرش عظيم كعرش بلقيس من اليمن حتى فلسطين قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه!و إذا نظر كلّ منهما إلى أصله،

١- ١) مفردات الراغب.

٢- ٢) نور الثقلين/ج ٢-ص ٧

٣- ٣) السجده/٨

و إلی نعم اللّه المسبغه علیه،علم أنّه ما نال من الشرف إلاّ بفضل اللّه تعالی،فکیف یکذّبان بآلائه؟! (۱)فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ

و من آلاء اللّه علیهما أن خلقهما من مادّه تتناسب مع تطلّعات و دور کلّ منهما فی الحیاه،فخلق الإنسان من صلصال نتن ضعیف،و لکنّه قوّمه و قوّاه بالعقل و العلم،بحیث یستطیع أن یسخّر حتی الجن،و خلق الجن من النار،و جعل تفوّقه فی بعض جوانب القدره و القوّه المادیه،و لکنّ هذا الاختلاف فی الخلقه لا یعنی تمایزا لعنصر علی عنصر،لأنّ القیمه للعمل الصالح،سواء صدر من الصلصال أو من مارج النار،و لا یعنی أنّ أحدهما رب و الآخر مربوب حتی یعبده و یشرک به،بل هما مخلوقان و ربّهما واحد و هو اللّه.

[۱۷-۱۸]و جانب آخر من الرحمه الإلهیه یطالعنا کلّ یوم فی حرکه الشمس و الأرض.

رَبُّ الْمَشْرِقَیْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَیْنِ الآیه الکریمه تلفت انتباهنا إلی حرکه الأرض حول الشمس و التی تکتمل فی کلّ عام مرّه،و تتسبب فی تغیر الفصول الأربعه و خلالها تتبدل یومیا منازل الشمس بالنسبه الی الأرض شروقا و غروبا،فهی تشرق فی أول یوم من أول منزله لتبلغ الأقصی فی الیوم الأخیر،و فی المقابل تجد ذات الحرکه و بذات النسبه غروبا،

و فی الاحتجاج للطبرسی رحمه اللّه،قال أمیر المؤمنین علیه السلام : «و أما قوله تعالی:(الآیه)فان مشرق الشتاء علی حده،و مشرق الصیف علی حده.أما تعرف ذلک من غروب الشمس و بعدها»؟و یفصل فی بیان حرکه الشمس قائلا:«و أما قوله:

۱- ۱) التفسیر الکبیر للفخر الرازی(بتصرّف).

«بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ» فان لها ثلاثه و ستين برجا تطلع كل يوم من برج،و تغيب فى آخر،فلا تعود اليه إلاّ من قابل فى ذلك اليوم » (۱)و لا شك ان الفصول الأربعه نعمه إلهيه تدخل رقما أساسيا فى تكامل الحياه و نموها.و لولاها لكانت تنتفى الكثير من صفات التنوع و التكامل عند الإنسان و فى الطبيعه و الأحياء و من حوله،و قد قال بعض العلماء ان أكثر الحضارات نشأت فى البلاد ذات الفصول القاسيه،فمن أجل مواجهه الحر الشديد دأب الإنسان على اكتشاف وسائل التكيّف فى لباسه و منزله و الوسائل التى يستخدمها،و بذات الروح تحدى قسوه البرد،و لا شك أيضا ان تنوع الفصول يكمل الوجود النفسى و الروحى و الجسمى للإنسان و يخدم مصلحته،و يفسح المجال أكثر فأكثر لتفجير طاقاته و استغلال الطبيعه و تسخيرها.

و تذكرنا الآيه أيضا بحركه الأرض حول نفسها مره واحده فى كل يوم،و ما ينتج من تعاقب الليل و النهار،الذى يكمل هو الآخر مسيره الإنسان و يخدم مصالحه و تطلعاته فى الحياه،فسباته بالليل و نشاطه و سعيه بالنهار،و قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ لا يحتاج إلى تفصيل و بيان،لأنه و قد تقدم بنا العلم أصبح الكل يعى هذه الحقيقه و هى انقسام الأرض الى شطرين،فاذا كان النصف الأول يستقبل الشمس بالشروق فانها لا ريب تودع الآخرين غروبا،و العكس صحيح،إذا فهناك مشرقان و مغربان يتعاقبان على الكره الأرضيه.

و كلتا الحركتين نعمه تعكس لنا اسم الرحمن،و لكنك ترانا و نحن نعيش بكل ذره فى وجودنا محاطين بآلاء اللّه نكذب بها.أ فلا يحق لربنا إذا أن يكرر معاتبتنا و تذكيرنا؟!! فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

ص:۳۰۰

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۱۹۰

الإنسـان حينما يكون عارفا برحمانيه ربه،و انه تعالى سـخر الوجود لمصـلحته،فانه يعيش متفائلا و نشـيطا لأنه سـيكون مطمئنا الى سعيه،انطلاقـا من إحساسه بأنه خلق ليرحم لا ليعـذب،و من جانب آخر انه سوف يتعايش مع الحياه من حوله تعايشا ايجابيا.يعتمد السـعى من أجـل الاسـتفاده القصوى ممـا خلق من أجله.و هـذا لاـ يتحقق إلاّـ إذا صـدق بأنه فعلا من نعم ربه و آلائه عليه،اما إذا كذب بذلك شل سـعيه،و خارت إرادته،و قنطت نفسه من امكانيه تسـخير الحياه،و كم عاش الإنسان على هذا الكوكب دون أن يسـعى للتعرف على حركه الشـمس،و الاسـتفاده من ذلك فى حياته،و تحقيق أهدافه الشخصـيه و الحضاريه،لأنه لا يؤمن بعلاقته بها، أو كان يعتقـد بسـبب بعـدها انها لا يمكن تسـخيرها بل لم تخلق من أجله؟!و الآن جاء العلم الحديث ليؤكد بأنها نعمه إلهيه عظيمه،و انمـا خلقت لصالـح الإنسان، و انطلاقا من ذلك عكس حركتها على حساباته الزمنيه،و لا يزال العلماء يقومون بمختلف الدراسات التى من شأنها تسخير الشمس الى أقصى حد ممكن فى خدمه الأهداف و التطلعات الحضاريه للبشر.

ص:٣٠١

[سوره الرحمن (۵۵): الآیات ۱۹ الی ۳۶]

اشاره

مَرَجَ اَلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ (۱۹) بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۱) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اَللُّؤْلُؤُ وَ اَلْمَرْجٰانُ (۲۲) فَبِأَيِّ
آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۳) وَ لَهُ اَلْجَوٰارِ اَلْمُنْشَآتُ فِي اَلْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ (۲۴) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۵) كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ (۲۶) وَ
يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْجَلاٰلِ وَ اَلْإِكْرٰامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۸) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
(۲۹) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۳۰) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ اَلثَّقَلاٰنِ (۳۱) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۳۲) يٰا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنِ
اِسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ (۳۳) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۳۴) يُرْسَلُ
عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَ نُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ (۳۵) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۳۶)

اللغه

۱۹[مرج]:خلط.

۲۰[برزخ]:حاجز.

۲۴[الجوار المنشئات]:جمع جاریه أی السفینه،و المنشئات المرفوعات،و هی التی رفع خشبها بعضها علی بعض،و رکّب حتی ارتفعت و طالت.

[کالأعلام]:جمع علم و هو الجبل العالی.

ص:۳۰۲

۳۱[الثقلان]:أصله من الثقل،و كلّ شیء له وزن و قدر فهو ثقل،و إنّما سمّیت الإنس و الجن ثقلین لعظم خطرهما و جلاله شأنهما.

۳۳[أقطار]:جمع القطر،و هو الناحیه و الجانب.

۳۵[شواظ]:اللهب الخالص أو القطع الناریه المتطایره

ص:۳۰۳

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ

هدی من الآیات:

«لا بشیء من آلائک ربّ أکذّب»إنّها العباره التی ینبغی أن نکرّرها کلّما تساءل السیاق القرآنی «فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ» ،و لکن هل یکفی أن نکرّر ذلک کشعار دون معرفه و تطبیق؟کلاّ..فما ذا یعنی إذا التکذیب بآلاء اللّه، و کیف نصدّق بها؟ هناک فریقان من الناس یکذبون بآلاء اللّه.الاول الذین لا یعتقدون بالنعمه، لأنهم ینظرون الی الحیاه من خلال رؤیه مشؤومه،و نفسیه معقده فاذا بکل شیء عندهم نقمه، وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ أَ نَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا وَ زٰادَهُمْ نُفُوراً (1)و الفریق الآخر هم الذین یعترفون بالنعمه،و لکنهم ینکرون عملیا انها من اللّه فتراهم یتوجهون بالشکر الی غیره و من آیاته اللیل و النهار و الشمس و القمر،لا تسجدوا للشمس و لا للقمر و اسجدوا لله الذی خلقهن ان کنتم

۱- ۱) الفرقان ۶۰/.

إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱)و هـذا نوع من التكذيب أيضا فالذى لا يؤمن برب النعمه أو يشـرك به لا يشكره عليها،و من لا يشـكر النعمه لا يعمـل على ضـمان اسـتمرارها و نموّهـا، و الاسـتفاده منهـا فى مواردهـا السـليمه،أليس ذلـك كلـه مرهـون بالشـكر على وجهه الصـحيح؟جهـاز الهضم عنـد الإنسـان مثلاـ(الفم،المرىء،المعـده،الأمعـاء)ينبغى أن نسـتفيد من هـذه النعمه،فالـذى يعلم بأنها من اللّه،سوف يبحث عن برنامـج الرسـاله فى الاكـل و الشـرب،نوع الطعام و الشـراب المطلوب،و مقـداره،و طريقه اسـتهلاكه(آداب الاكل و الشرب)أما الآخر المكذب باللّه فلن يلتزم بحد فى ذلك، سيسرف فيهما و لن يمتنع عما يضرّه كالخمر و لحم الخنزير،و هذا نوع من التكذيب أيضا،و كذلك يكذب بالنعمه الذى يسـتخدم الثروه من أجل استغلال الآخرين و استبدادهم،و الإسراف و التبذير على النفس،كما ان الذى يتخذ السلطه وسيله للقهر و الاستعلاء هو الآخر يكذب بآلاء ربه.

و الـذى لاـ يسـتخدم النعمه فى الخير لنفسه و للبشـريه،و بالتالى لا يعمل على ضـمان اسـتمرارها باسـتمرار عواملها،فانه ليس فقط يحرم من نموها،بل و يجعلها عرضه للزوال وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِى لَشَدِيدٌ (۲) إذا فتطبيق قولنـا«لا بشـىء من آلائك ربّ أكـذب»يكون بالتزام شـكر النعمه دائما،و ذلك يعنى أن نعترف بأنها نعمه فعلا،و ثانيا أن نعرف بأنها من اللّه فنشكره قولا،و نطبق منهجه عملا،و هذا هو التصديق بآلاء اللّه.

بينات من الآيات:

[۲۱-۱۹]و من حركه الشـروق و الغروب فى آفـاق السـماء،يأخـذنا القرآن الى ميـاه البحار التى تلتقى مختلفه مع بعضـها دون أن تبغى أو تطغى.

ص:۳۰۵

۱- ۱) فصّلت۳۷/

۲- ۲) إبراهيم۷/.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيَانِ و فی الآیه إشاره الی عده ظواهر طبیعیه،الاولی التقاء میاه البحار المالحه بالمیاه الاخری العذبه،کمیاه الشط و الأنهار،فانها و ان کانت تلتقی مع بعضها و لکنها تبقی علی طبیعتها لا تتغیر لفتره من الوقت.و صوره أخری من حکمه الربّ انه جعل الأنهار فی کل العالم مرتفعه عن البحار،قال تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (1)و الظاهره الثانیه هی التقاء البحار حتی المالحه مع بعضها.إن ثلاثه أرباع کوکبنا یتکون من ماء البحار و المحیطات،و هی متصله مع بعضها،و الأرض فی حرکه دائمه حول نفسها و حول الشمس إلاّ ان منسوب المیاه فیها کلها یبقی ثابتا،و لم نجد یوما انها انسکبت فی بحر واحد لیطغی ماؤه مثلا.

و حینما نبحث فی الطبیعه من حولنا نجد شواهد أخری لهذه الآیه الکریمه،فان شطری البیضه(الصفار و البیاض)مهما رججتها لا یمتزجان،و کذلک بحار النور و الظلمه فی حرکه اللیل و النهار فإنهما یتحرکان حرکه ذاتیه و بینهما نقطه التقاء دائمه و لکنهما لا یختلطان یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهٰارِ وَ یُولِجُ النَّهٰارَ فِی اللَّیْلِ (2)و حینما نعود من رحله التفکر فی الآفاق الی شوط آخر من التفکر فی أنفسنا نجد مظهرا لهذه الحقیقه فی حیاه الإنسان،حیث یلتقی ماء الرجل بماء المرأه و یکونان النطفه التی تنمو حتی تصیر خلقا سویا ذکرا أو أنثی،و تظل خصائص المرأه و خصائص الرجل هی هی لا تتغیر،بل ان المیاه العذبه التی نستخرجها من باطن الأرض لشربنا تلتقی أحواضها مع میاه البحر التی تتشبع بها الأرض حتی الأعماق و لکن «هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ» (3)و فی الواقع

۱- ۱) الفرقان/۵۳

۲- ۲) فاطر/۱۳

۳- ۳) المصدر

الاجتماعی یلتقی المؤمنون بالکافرین و تبقی بینهما الفواصل.

اما البرزخ الذی یقف حائلا بین البحرین فقد یکون جسما مادیا کالیابسه تفصل بین بحر و آخر،و لو طغت البحار علیها لانعدمت حیاه الإنسان فوقها،أو الغشاء الذی یمنع صفار البیض من الاختلاط ببیاضها لو کانا یختلطان لما صلحت البیضه ان تکون فرخا و لانقرضت الطیور بأنواعها.و قد یکون البرزخ هو السنن و القوانین الطبیعیه کالجاذبیه و الکثافه و الخصائص المختلفه للخلیطین،و قد یکون القیم و الثقافه التی یؤمن بها کلا التجمعین الکافر و المؤمن،و کلها لا شک من صنع اللّه،و مظهر لهیمنته علی الحیاه،و رحمته بالإنسان إذ جعل التنوع و الحدود قائمین فی ذات الوقت،ألیس ذلک یدل علی حسن النظم،و دقه التدبیر،و متانه الصنع،و عزه الخالق و حکمته؟ و حینما ندقق النظر و نرکز الفکر فی هاتین الآیتین نجدهما بکل کلمه وردت فیهما تعبیر عن رحمه اللّه و إشاره إلیها،أ تری لو طغت البحار علی الیابسه أو علی بعضها و انعدمت الفوارق هل ذلک فی صلاح الإنسان؟کلا..ثم ان القرآن یقول «مَرَجَ» و هو الحرکه الذاتیه فی کلا البحرین بفعل التموجات کما یقول «یَلْتَقِیٰانِ» إشاره الی الحرکه الثنائیه،و هما معا رحمه إلهیه ظاهره،فلو جعل اللّه البحار راکده لأسن ماؤها و تعفن و بالتالی استحال عیش الأسماک و الکثیر من الأحیاء الاخری فیها،و ما کان الإنسان یستخرج منها حلیه و لا لحما طریا.ثم انه جعل البحار متصله تلتقی ببعضها لیسهل علی الأحیاء البحریه الانتقال مهاجره عبرها،و یسهل السفر الی أکثر نقاط العالم.و لو لم تکن الأنهار-و بالذات الکبیره منها-تلتقی بالبحار لتصب فیها فائض میاهها لکانت تطغی و تهلک الحرث و النسل.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

[۲۲]و یـذکرنا السـیاق بنعمه الزینه التی أودعها اللّه فی البحار،و هی من الحاجات الکمالیه لا الأساسـیه عند الإنسان، انسـجاما مع سیاق السوره الذی یهدف بیان تجلیات رحمه اللّه(اسم الرحمن)فی الحیاه،لأن الزینه أقصی النعمه و أرفعها.

یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجٰانُ إن اللّه لم یودع فی البحار حاجاتنا الضـروریه و حسب،بل الکمالیه أیضا، وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا،وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَهً تَلْبَسُونَهٰا، وَ تَرَی الْفُلْکَ مَوٰاخِرَ فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱)و القرآن بهـذه الآیه من سوره الرحمن یفنـد المزاعم القـدیمه بأن الأنهار لا تربی اللؤلؤ و المرجان،و قـد جاء العلم الحدیث فأثبت خلاف ذلک،و هکذا یبقی کتاب اللّه سابقا للحضاره.

و لعل الآیه تشیر إلی إباحه استخراج الزینه و التحلی بها أو لم یقل ربنا سبحانه:

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّیِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ،قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا..» کما قال «خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ» .

[۲۳-۲۵]تلک کانت مظهر من آلاء اللّه التی تتجلّی للإنسان کلما رکب البحر،و کلما غاص فی أعماقه،و هکـذا کلما دار البصـر فی آفـاق الخلیقه و نظر الی الشـمس و القمر و النجوم و الأرض و البحار و الأنهار،ثم غار فی أعماق النفس و ما فیها من أبعاد و آمـاد،کلّمـا وجـد آلاـء ربـه تنهمر علیـه من کـل حـدب و صـوب أو لاـ تکفیه دلیلاـ الی ربه،و هادیـا الی معرفته،و باعثـا له الی شکره؟لکنـک تری أکثر الناس یکـذبون بالنعم و یقصـرون فی الشـکر بل یشـکرون أبـدا،و حتی أولئک الـذین یقضون سـحابه أعمارهم فی خوض لجج العلم أو متابعه قوانین الطبیعه عبر البحوث

ص:۳۰۸

۱- ۱) الکهف/۱۰۷

المیدانیه و الاکتشافات الجدیده،لا ینطلقون من اکتشافاتهم الی خلفیاتها،حیث الایمان برب العزه و الرحمه،بل تراهم ینظرون الی الحیاه نظره سطحیه فلا یزدادون إلاّ ضلالا و تکذیبا بالحق،انهم یقفون عند ذلک الحد و یظنون انها التی تحرک الحیاه و لا یتساءلون من الذی وضع القوانین و الانظمه و السنن؟!و من الذی یسیرها و یهیمن علیها؟!بلی.ان العلم الذی لا یتأسس بالایمان و المعرفه باللّه،قد یضر الإنسان أکثر مما ینفعه،لأنه قد یصبح وسیله للکفر و التکذیب بالرب و إرادته.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ و من آلائه السفن التی تحملنا الی الأقطار المتباعده فی أسفارنا و تجارتنا و مظان الصید،أ تری لولاها هل استطعنا أن نرکب البحر.أو وصلت أیدینا الی کنوزه لحما و زینه؟کلا..و لهذا کان من البدیهه فی هذه السوره الرحمانیه أن یحدثنا القرآن عن السفینه فور حدیثه عن البحر.

وَ لَهُ الْجَوٰارِ الْمُنْشَآتُ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلاٰمِ و الجری هو المشی السریع و لا یقال للسفینه سارت،قال تعالی: وَ هِیَ تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبٰالِ (۱).

و المنشآت من الإنشاء و الصناعه،و شبهها اللّه بالأعلام(الجبال)لارتفاعها کالعلم فی البحر.و هذا المعنی یکون أکثر ظهورا فی السفن الشراعیه.

و السؤال لماذا لم یقل ربنا عند حدیثه عن النعم الاخری کالشمس و القمر، و النجم و الشجر انها له،بینما قال هنا «وَ لَهُ الْجَوٰارِ» ؟و الجواب لأن الإنسان لا یستطیع أن یدعی ملکیه تلک النعم،و لم تصل یده إلیها فی شیء،و لکنه قد یظن

۱- ۱) هود/۴۲

بأنه مالك السفينه و خالقها،لأنه الذی خطط لصناعتها و نشر ألواحها و جمعها الی بعضها بالدسر و المسامیر فهنا یحتاج الی من یذکره ان صانع السفینه بذاته مخلوق الرب،و انه لم ینشئها إلاّ بحوله و قوته و بما أودع اللّه فیه من عقل،و حکمه،و أعطاه من علم و معرفه،و هیأ له من فرص العمل..فالسفینه للّه،و هو الذی یجریها بقدرته فی البحار.و البحاره یعرفون کم هی الاخطار العظیمه التی تحیط بهم،و هم یعترکون الأمواج الهادره فی أعالی البحار.

ثم ان ربنا هو الذی علّم نبیه نوحا علیه السلام صناعه السفن و هو بدوره علمها للبشریه،کما علم عباده الکثیر من الشؤون و الأمور عبر أنبیائه و رسله کالمیزان،

و قد روی الطبرسی فی جوامع الجامع :«ان جبرئیل علیه السلام نزل بالمیزان فدفعه الی نوح و قال:مر قومک یزنوا به » (1)و السفینه الی الآن أفضل وسائل للنقل التی اکتشفها البشر،فهی إذا نعمه إلهیه،و القرآن یطرح بعد التذکره بها هذا السؤال:

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ أو یکفی العقل دلیلا علی ضروره شکر من أسبغ علینا هذه النعم الجسیمه؟ بلی.و لکن ربنا الرحمن یزید بلطفه علی هدی العقل التذکره بالوحی بالرغم من أنّ العقل حجته علینا بالغه،بل یبصرنا بنعمه من خلال الوحی و یستثیر عقولنا و یشد أسرها فی مواجهه هوی النفس و طباعها،فلا یقول أحد و قد کذب بآلاء اللّه انها مجهوله لدیه.و بعد هذا البیان و التأکید لن یکون قصور الإنسان عن الشکر،و معرفته ربه،بغفله و قد سبق الیه منه الذکر بفضله،و لا بجهل و قد تقدم منه إلیه العلم برحمته.

[26-28]و بعد مخاطبه العقل بلغه الحقائق العلمیه التی یراها البشر بعینه

ص:310

1- 1) نور الثقلین/ج 5 ص 250

فتنفذ الی ضمیره یخاطب الوحی وجدان الإنسان مباشره،و یهزه بأعظم الحقائق وطأه فی نفسه.إنها حقیقه الموت و الفناء التی یحاول دائما الفرار منها،فیعطی ماله أو یضحی بأعز الناس الیه و أقربهم منه لعله یفتدی نفسه منه أو یؤخره عنها و لو لسنه اضافیه أو حتی بضعه أیام.و کما فناء الإنسان کذلک فناء الأشیاء من حوله دلیل وحدانیه اللّه و ربنا یذکرنا بذلک کأعظم آیه تهدینا الی معرفته و توحیده.

بلی.لقد دعانا اللّه الی النظر فی ظواهر الطبیعه،و التفکر فیها،و لکن من دون الانبهار بها،لأنها مجرد نعم و آیات یجب ان نؤدّی شکرها و نهتدی بها الی دلالاتها.إنها محدثه فلا بد لها من خالق، و هی تفنی أو تموت فهی لیست إلها، لان الإله لا یموت.

کُلُّ مَنْ عَلَیْهٰا فٰانٍ ای کل ما فی الأرض بکله لا بعضه،و لکن اللّه لا یقول میت،لأنّ الموت یجری فی الأحیاء فقط،بل یقول فان،لأن الفناء یشمل کل شیء مخلوق.

و فی دعاء إدریس النبی علیه السلام :«یا بدیع البدائع،و معیدها بعد فنائها بقدرته » (۱).

وَ یَبْقیٰ وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ فما هو وجه اللّه الذی یبقی بینما یفنی کل شیء؟إن الألفاظ تفقد ظواهرها التجسیدیه لتبقی حقائقها عند الحدیث عن ربنا القدوس سبحانه فلیست یده سوی قدرته،و عینه إلا احاطته علما و شهادته علی کل شیء و هکذا وجهه،فانه ما یتجلی به فی الخلیقه،حتی یعرفه بها من اراده،و یری نوره من خلالها من أحبه،أو لسنا نحن البشر نری نظراءنا من خلال أوجههم الظاهره،و تعالی اللّه عن الأمثال،

۱- ۱) المصدر/ص ۱۹۳

كذلك الوجه الظاهر لربنا دينه المشتمل على سننه و شرائعه و الحقائق التى تدل عليه،كذلك

قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام :«و أما قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ» ،فالمراد كل شيء هالك إلاّ دينه،لأن من المحال أن يهلك اللّه كل شيء و يبقى الوجه،هو أجل و أعظم من ذلك،و إنما يهلك من ليس منه أ لا ترى انه قال: كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ* وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ففصل بين خلقه و وجهه » (١).

و يتجلى الدين بدوره فيمن يمثله كالأنبياء و الأئمه الهداه الى اللّه و هكذا

يفسّر الامام الرضا عليه السلام الوجه حينما يسأله أبو الصلت قال:يا ابن رسول اللّه!فما معنى الخبر الذى رووه أن ثواب لا إله إلا اللّه النظر الى وجه اللّه تعالى؟!فقال:

«يا أبا الصلت من وصف اللّه عزّ و جلّ بوجه كالوجوه فقد كفر،و لكن وجه اللّه أنبياؤه و حججه صلوات اللّه عليهم،الذين بهم يتوجه الى اللّه عزّ و جلّ و الى دينه و معرفته » (٢).

و قال الصادق عليه السلام :«نحن وجه اللّه » (٣).

إذا وجه اللّه هو الحق المتمثل فى سننه و شرائعه و دينه و أوليائه،و يفنى كل شيء دونها،فعلينا التمسك بها دون أن تؤثر فينا المتغيرات فاذا كان أحدنا يعمل الصالحات فليعملها لوجهه،إذا كان يبحث عن الجزاء،أ ترى لو عمل صالحا رياء أو شركا هل ينفعه شيء؟ فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ فلا يمكن مع آيه الفناء أن يدعى أحد الألوهيه أو تدعى له،أو يدعى بأنه جاهل

١- ١) المصدر/ص ١٩٢ نقلا عن الاحتجاج.

٢- ٢) المصدر

٣- ٣) المصدر

بربه،و إذا كان لا بد له من ذلك فليدفع أولا الموت عن نفسه،أو يدفعه الآخرون عنه.

[۳۰-۲۹]ثم يذكرنا القرآن بصفه أخرى لربنا عزّ و جلّ تجعلنا أكثر طاعه له و تبتلا إليه،و تلك هى صفه البداء التى تعنى الهيمنه الشامله و الدائمه له على الوجود،فليس الكون شعله أبديه كانت و لا تزال كما تدعى الماركسيه الضاله.إن الطبيعه ليست هى التى تميت و تحيى،و السنن و الأنظمه و القوانين ليست بذلك الثبات المطلق،إنما الذى يتصرف فى الخلق هو اللّه،و كل شىء يستمد ثباته و استقراره منه،فهو يغيره متى شاء و كيف أراد.و لو أننا أمعنا النظر فى الحياه لوجدنا هذه الحقيقه بوضوح فإلى جانب الثوابت هناك متغيرات غير معروفه عند الإنسان.الدكتور يقدم وصفته للمريض بعد الفحص،و لكنه يعترف بأنه لا يعرف كل الأمراض(۱۰۰٪)و لا يعطى ضمانه للعلاج مائه بالمئه لماذا؟لانّ هناك هامشا مجهولا فى المرض و العلاج،فالامراض تتداخل اعراضها،كما انه قد لا يستقبل الجسم الدواء،لذا يقول هذا مرضك حسب الظاهر،و هذا دواؤك إن شاء اللّه.و من الطب الى كل جانب و ميدان فى الحياه هناك دائما فراغ فى القوانين الطبيعيه لا يقدر علم الإنسان و قدرته أن تملأه إنما هو خاص بمشيئه اللّه سبحانه.من هنا لا يثق أحد كل الثقه بما أوتى من علم و قوه،بل يظل فى ريب من أن المستقبل قد يحمل إليه ما لم يحتسبه.بلى.لقد علمته تجارب لا تحصى انه ليس مليك الكائنات،بل و لا يملك نفسه،فكم قد خطط لمستقبله فقلبت المتغيرات خططه،و كم قد عقد عزائم قلبه على شىء ففسخت المفاجئات عزائمه.و هكذا ينطوى ضمير كل إنسان بأن يد الغيب تهيمن على الخليقه لا يده،و يمثل هذا حجه بالغه تهدينا الى ربنا سبحانه.

و صدق أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال :«عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم و حل العقود،و نقض الهمم » (۱).

۱- ۱) نهج/حكمه ۲۵۰

الامريكيون يصنعون ما أسموه(بالتحدى)الكوكب الفضائى(تشالنجر)، و يصرفون عليه مئات الملايين من الدولارات،صناعه و دعايه،و قبل إطلاقه يقومون بالحسابات الدقيقه عبر العقول الألكترونيه،و إذا به ينفجر فى الفضاء و يتحول تحديا مضادا،و نكسه لا زالت آثارها قائمه فى نفوسهم و حيره فى عقولهم،و كذلك تتجلى الاراده الالهيه المطلقه فى عملياتهم العسكريه ضد الإسلام فى صحراء طبس.

يَسْئَلُهُ مَنْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لأنه وحده الإله و القادر على قضاء حوائجهم و تحقيق طموحاتهم.و السؤال ليس مقتصرا على الانس و الجن و الملائكه،بل يشمل كل الخلق العاقل و البهيم،و الجامد و المتحرك،لأنه ما من شىء إلا و يفتقر الى اللّه،و ما من شىء إلا و له لغه مع اللّه تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰاوٰاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ،وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ،إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً (1)و ليس من طريق للإنسان لكى يبلغ طموحاته بفضل اللّه،و يرفع عن نفسه كل عقبه و أذى بتوفيقه،قبل العمل و بعده إلا الدعاء،قال تعالى: قُلْ مٰا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لاٰ دُعٰاؤُكُمْ (2) وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (3)و

قال أمير المؤمنين عليه السلام :«من قرع باب اللّه سبحانه فتح له » (4)و

قال الامام الصادق عليه السلام :«أكثر من الدعاء،فانه مفتاح كل رحمه، و نجاح كل حاجه،و لا ينال ما عند اللّه إلاّ بالدعاء،و ليس باب يكثر قرعه إلا و يوشك ان يفتح لصاحبه » (5).و لكن ينبغى للعبد أن يرعى آداب الدعاء و

١- ١) الإسراء

٢- ٢) الفرقان/٧٧

٣- ٣) غافر/۶٠

۴- ۴) غرر الحكم

۵- ۵) بح/ج ٩٣ ص ٢٩۵

«كل دعاء لا يكون قبله تمجيد فهو أبتر » (۱)،و

قال الرسول صلى الله عليه و آله :«صلاتكم على إجابه لدعائكم و زكاه لأعمالكم » (۲)

«و لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد و آل محمد » (۳)و

قال الصادق عليه السلام :«إنما هى المدحه،ثم الإقرار بالذنب ثم المسأله » (۴)و الخلق كله فى وجوده و توفيقاته يحتاج الى السؤال من اللّه لحظه بلحظه،و حيث لا يستطيع العبد أن يعرف ربّه و لا يتصل به مباشره لذلك جعل أسماءه،و عرفنا عليها رحمه بنا،فنحن نسأله بأسمائه و

فى الدعاء :«أسألك باسمك الذى أشرقت به السماوات و الأرض،و صلح به أمر الأولين و الآخرين ».

بلى.قد يضل الإنسان و يكفر باللّه فلا يسأله أو يدعوه بلسانه،و مع ذلك فانه لا يستطيع أن ينكر ربه فى نفسه،بل و يظهر فيه الاعتراف به تعالى،و الاستكانه و الحاجه ساعه الضيق و الجرح، وَ إِذٰا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (۵).

لقد تسربت بعض الفلسفات الجاهليه القديمه الى الأديان فزعموا ان السؤال لا ينفع شيئا،و حكى اللّه عنهم ذلك فى كتابه إذ قال: وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ (۶)و هكذا تسربت هذه الفلسفه الموغله فى الضلال الى أذهان البعض من المسلمين تحت عناوين مختلفه،كالجبريه و القدريه،فاعتقدوا ان اللّه كتب أقدار الخلق،و أنه لا

۱- ۱) المصدر/ص ۳۲۱

۲- ۲) بح/ج ۹۴ ص ۵۴

۳- ۳) بح/ج ۹۳ ص ۳۱۱

۴- ۴) المصدر/ص ۳۸۱

۵- ۵) لقمان/۳۲

۶- ۶) المائده/۶۴

يقع إلا ما كتب عليهم،و قد جف القلم و طوى الكتاب،و انطلاقا من هذه النظره السلبيه أنكروا أثر الاستغفار و الدعاء.و كم تقف هذه الفلسفه حجابا بين العبد و ربه،أ تراه سوف ينطلق نحوه،أو يسأله حوائجه،أو يتوسل اليه و قد غل يديه و لسانه و قلبه بالقنوط و اليأس؟و لماذا يتعب نفسه بالسؤال من رب لا إراده عنده؟ فالأقدار هى هى لا تتغير،و ما عسى أن يكون ينفع الدعاء إذا؟و بهذا نعرف الفرق الكبير بين المعارف الالهيه و الفلسفات البشريه،فبينما تزرع الفلسفات البشريه اليأس فى نفس الإنسان، و تقل فاعلياته و تجمد طاقته بالحتميات التى تزعم انها تحيط بالقدره البشريه كما جران السجن بالمجرم،نجد النهج الالهى الحنيف يفتح آفاق الرجاء أمامه،و يعطيه الثقه بربه القادر على إنجاح طلباته،و تغيير المعادلات و الواقع الى صالحه،و يفند الأفكار الجبريه و القدريه بفكره الدعاء الذى ينطلق من العبد الى ربه(السؤال)و انه فوق الحتميات و الأقدار و فوق القضاء،

قال الامام الباقر عليه السلام يخاطب زراره(ر ض) :«ألا أدلك على شىء لم يستثن فيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله ؟قلت:بلى قال:الدعاء يرد القضاء و قد أبرم إبراما» (۱)و ضم أصابعه

و قال الامام الكاظم عليه السلام :«عليكم بالدعاء فان الدعاء للّه و الطلب الى اللّه يرد البلاء و قد قدره و قضى و لم يبق إلا إمضاءه،فاذا دعى اللّه عزّ و جلّ و سئل صرف البلاء صرفه » (۲).

و لعل الآيه التاليه تدل على صفه البداء التى هى مفتاح بصيره الدعاء فلو لا ان اللّه قادر على تغيير الخليقه و دفع البلاء و رفع القضاء إذا لم يبق أثر للدعاء و من لا يعتقد بالبداء و لا يؤمن بسلطه اللّه المطلقه التى لا يقيدها أى شىء مما سواه،و من نفسه سبحانه فإنه لا يعتقد بالإلهيه،كيف و انه يجعله تعالى أقل قدرا و قدره حتى من الملوك إذ تجرد عنه أهم صفاته و هى السلطه مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ

ص:۳۱۶

۱- ۱) أصول الكافى/ج ۲ ص ۴۶۹

۲- ۲) بح/ج ۹۳ ص ۲۹۵

عَزِيزٌ (۱) سبحانه و تعالی عما یصفون علوا کبیرا.

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

قال النبی صلی الله علیه و آله :«من شأنه أن یغفر ذنبا و یفرج کربا،و یرفع قوما و یضع آخرین » (۲).

و قال علی بن إبراهیم(ر ض):«یحی و یمیت،و یرزق و یزید و ینقص» (۳)فلا ثبات بعد الدعاء و استجابه اللّه،أو بعد بدائه عزّ و جلّ،حتی فی لیله القدر التی تکتب فیها أقدار الخلائق الی مثلها من قابل فانّ الکتاب لیس أبدیا إذ اشترط ربنا لنفسه البداء فیما کتب سبحانه فیها-کما جاء فی الحدیث-و کما قال ربنا سبحانه يَمْحُوا اللّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (۴).

و لعلنا نفهم من هذه الآیه ان اللّه یخلق کل یوم خلقا جدیدا لا نعلمه،و نجد إشاره الی هذه الحقیقه فی

قول أمیر المؤمنین علیه السلام :«الحمد للّه الذی لا یموت و لا تنقضی عجائبه،لأنه کل یوم هو فی شأن من إحداث بدیع لم یکن » (۵).

و قد أشارت البحوث الفضائیه الی وجود أدله علی ان هناک حاله تکون لمجرات جدیده فی أعماق الفضاء الرحیب.إذا فلندع الیأس و لنطلق العنان لطموحاتنا تصل الی أقصاها انطلاقا من توکلنا علی رب واسع الرحمه مطلق الاراده یجیب المضطر إذا دعاه و هو منتهی الآمال،ثم نسعی لتحقیقها نستمد منه العون و التوفیق،و نسأله الاجابه.لا ندع سقفا و لا حدا لطموحاتنا،فهذا نبینا الأکرم صلی الله علیه و آله و هو أعلم الخلق

ص:۳۱۷

۱- ۱) الحج/۷۴

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۹ ص ۱۰

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۹۳

۴- ۴) الرعد/۳۹

۵- ۵) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۹۳

یـدعو ربه زِدْنِی عِلْماً (۱)و هو أرفع النـاس درجه و أقربهم منزله الی اللّه،و لکن الوحی یـأمره بـان یتطلع الی المزیـد من الشأن و الرفعه وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نٰافِلَهً لَکَ عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقٰاماً مَحْمُوداً (۲)و یأمرنـا بأن نصـلی علیه فی کل شارق و غارب حتی یزیـده اللّه من فضـله فنقول اللهم آت محمـدا أفضـل ما سأل و أفضل ما سئل له و أفضل ما أنت مسئول له الی یوم القیامه لمـاذا؟لاـن نعمه اللّه لاـ تنتهی، و هکـذا لاـ بـد أن یکون طموح المخلوق.و إنها دعوه الی التفکیر فی طموح أکبر، و العروج الی منزله أرفع عند اللّه.

و من وصایا الامام علی علیه السلام لابنه الحسن علیه السلام :

«اعلم ان الـذی بیـده خزائن ملکوت الـدنیا و الآخره قد أذن لدعائک،و تکفل لإجابتک و أمرک أن تسأله فیعطیک،و هو رحیم کریم لم یجعـل بینک و بینه من یحجبک عنه،و لم یلجئک الی من یشـفع لک الیه،..ثم جعل فی یـدک مفاتیـح خزائنه بما أذن فیه من مسألته،فمتی شئت اسـتفتحت بالدعاء أبواب خزائنه » (۳)و الـذی أعطی السؤال لا یحرم الاجابه،فالسؤال و البداء مظهران جلیان لاسم الرحمن،و نعمتان عظیمتان للخلق من اللّه.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ إنها من الظهور و الکثره بما لا یمکن إنکارها،و لکن الخلق یکـذبون،و من أبرز عوامل التکذیب لدی البشـر الشـرک بـاللّه،فـاذا به یعبـد البقر لأنهـا تـدر علیه الحلیب،و یعبـد النار لأنها تـدفئه و ینتفع بها فی الطهی،بینما اللّه هو ربه و ربهما، و الیه ینبغی الاعتراف بالفضل،و صـرف الشـکر.و السؤال کیف یکـذب الإنسان بنعمتی الـدعاء،و البـداء؟إن ذلک یکون حینما ینکر حقیقه البداء،أو نعمه الدعاء فیحرم نفسه من معطیاتهما.

۱- ۱) طه۱۱۴/

۲- ۲) الإسراء۷۹/

۳- ۳) نهج/کتاب ۳۱

[۳۲-۳۱]و إذا مـا كـذب المخلوق بنعم اللّه و آيـاته(آلائه)فانه سـيعرض نفسه لسـخط اللّه و عـذابه،بالـذات عنـد ما يحين موعد الحساب.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاٰنِ يعنى الانس و الجن.ذهب المفسـرون مـذاهب شتى عند بيان معنى الفراغ،بيد ان إبهام المعنى يتضح جليا إذا عرفنا منهـج القرآن فيما يتصل بأفعال ربنا القدوس حيث تؤخذ الغايات و تترك المبادئ،و ترمز الكلمات الى نتائج المعانى و نهايـات الحقائق..لا ـ الى كيفيه وقوعهـا و طريقه تحققهـا،فمثلا ـ إذا قال ربنا سـبحانه «وَ جٰاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَـفًّا صَـفًّا» فان غايه المجيء و هو الحضور و الشهاده قد تحققت اما الكيفيه التى نعرفها من مجيء البشر بالانتقال من مكان لمكان،فانها لا تتصور فى اللّه الذى وسعت رحمته كل شيء،و هو الشاهد على كل شيء،كذلك إذا قال سبحانه: «رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» ،فان نتيجه الرضا تتحقق،و هى الرحمه و العطاء لا ما يحـدث عنـدنا من مقدماته كالانفعال الايجابى فى النفس،و هكذا الغضب الالهى معناه مـا ينتهى إليه الغضب من الانتقام لا مقـدماته و مبادئه من جيشان الـدم و توتر الأعصاب،و مثل ذلك الحب و العطف و الحنان و الكره و البغض و..و..

فربنا السـبحان متعال عن الكيف و الأين و التحول و..و..و فى الآيه لا يعنى سـنفرغ لكم ان ربنا كان مشغولا عنهم بحيث لم يتسع لهم وقته،و لم تحتمل قدرته بما عنده من الشؤون كلاّ..سـبحانه لا يشغله شأن عن شأن،إنما الغايه من الفراغ تمام التدبير و القدره و الجزاء،و منه قولنـا تفرغ فلان للعمل اى انصب عليه بكامل قـدرته و وعيه و إرادته،و الآيه تشـير الى ان اللّه أعطى الثقلين حريه نسبيه فى الـدنيا، أما فى الآخره فالأمر للّه وحده يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (۱).

۱- ۱) غافر/۱۶

و لک أن تتصور شیئا من الرهبه التی تحملها إلینا کلمه سنفرغ،إذا علمت انه تهدید من رب العزه و القدره المطلقه،الی مخلوق ضعیف محدود کالإنسان الذی تؤلمه البقه و تقتله الشرقه و تنتنه العرقه،کما یصفه الامام علی بن أبی طالب علیه السلام، و یکفی هذا الوعید العاقل الذی یلقی سمعه شهیدا أن یتورع عن التکذیب بآیات ربه و نعمه، لأن ذلک مما یوجب عذابه،و إن اللّه یوم القیامه یوقف عباده للسؤال عن النعیم ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ (۱)وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲).

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ و من صور التکذیب بذل النعمه فی غیر موقعها،أو أخذها من الحرام، و الاستعانه بها فی مخالفه الحق،کالعین ینظر بها الی أعراض الناس،و الأذن یستمع بها الغیبه و النمیمه و الغناء و اللغو،و الرجل یمشی بها الی المعصیه،

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«لا یجاوز قدما عبد حتی یسأل عن أربع عن شبابه فیما أبلاه و عمره فیما أفناه،و عن ماله من أین جمعه و فیما أنفقه،و عن حبنا أهل البیت » (۳).

[۳۶-۳۳]و یفتح اللّه آفاق الطموح أمام الإنسان بعیدا عن الأساطیر البشریه لیسجل سبقا علی العلم الحدیث بأکثر من(۱۳)قرنا من الزمن،و لا غرابه فهو کتاب اللّه.إن الفلسفات البشریه کانت دائما تکبل عقل الإنسان،و تغل طموحاته،و تضع إصرا علی نفسه تمنعه من الثقه بها و التوکل علی ربه و ذلک عند ما کرست الجهل و وضعت مجموعه نظریات بدائیه عن الإنسان و العالم و اعتبرتها غایه العلم و نهایه المعرفه،فتحولت الی سقف للفکر و سجن للعقل،و عقبه اجتماعیه کأداء امام التقدم.

۱- ۱) التکاثر/۸

۲- ۲) الصافات/۲۴

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۴ ص ۴۰۲

و كانت من أهداف رسالات اللّه كسر هذه الحدود الوهميه،و بعث الإنسان نحو آفاق العلم و اثاره تطلعاته الكامنه.هكذا يقول ربنا سبحانه عن رساله النبى محمد صلى الله عليه و آله ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ (1).

لقد كانت السياره فى ذلك العصر أمرا مستحيلا لا يداعب مجرد خيال الناس، فاذا بالقرآن يأخذهم بعيدا جدا ليحدثهم بما يتضمن التشجيع على الوصول الى أقطار الأرض و آفاق السماء.و كم ينمى مثل هذا الحديث من اللّه المقتدر الثقه فى الإنسان بنفسه،و يوسع من حدود طموحاته حينما يسمعه مصدقا به مؤمنا بقوله.

لقد اختلف المفسرون و هم يبحثون عن مضمون الآيه(۳۳)مع انها واضحه.

لما ذا؟لأنّ فكر الإنسان يتحدد بالجو العلمى المحيط،فبعد أن اتصل فكر المسلمين بالفكر الاغريقى و بالذات فى مجال الهيئه البطليموسيه التى كانت تتصور السماء من الجواهر غير القابله للرتق و الفتق لذلك نجد بعض المفسرين طرح آراء بعيده، فقالوا بما انه يستحيل على الانس و الجن أن يصعد الى الآفاق فان «إِنِ اسْتَطَعْتُمْ» فى الآيه ظاهر فى التحدى،أى إنكم لا تستطيعون أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض بينما الآيه ظاهره فى خلاف ذلك حيث نقرأ فى نهايتها «لا تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ» ،فهم ينفذون و لكن بسلطان.و هكذا القرآن لم تنعكس على آياته النظريات العلميه الشائعه فى عهد نزوله،و لو كان من صنع البشر لكان يستحيل أن يبقى معتصما عن آثارها عليه أليس الإنسان يكون أفكاره من الجو العلمى المحيط به؟ألا ترى كيف ان تفاسير الناس للقرآن تأثرت بالأجواء العلميه لعصر كتابتها، مع انها كانت تحوم حول الكتاب المتعالى عن النقص،و لا نجد كتابا ألفه البشر عبر التاريخ إلا و كان مرآه للمستوى العلمى الذى بلغه الناس يومئذ إلا القرآن.أو

۱- ۱) الأعراف/۱۵۷

لاـ يهـدينا ذلـك الى انه كتـاب ربنـا الـذى لاـ يـأتيه الباطـل من بين يـديه و لاـ من خلفه؟ و هكـذا القرآن لاـ يزال هو المقيـاس للحضاره،و إذا عارض نظريه علميه ما فاننا لا ريب سنجد قوله هو الثابت،و اما تلك النظريه فتذهب هباء.

يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا هكـذا يسـتثير القرآن التطلع الكامن داخل نفس الإنسان نحو العلم و المعرفه و التقـدم،فهو يحـدثه عن بساط الريـح الذى كان لدى سـليمان عليه السـلام ،و كيف انه سـخر الحيـاه من حوله(الجبال و الجن و الطير و..)و جعلها فى خـدمه الحضاره البشـريه،ليؤكـد له بان الطريق سألك أمامه للوصول الى هذه القمه السامقه من التحضـر.و بالطبع إنه لا يرسم خريطه عن المركبه الفضائيه حينما يستثيرنا فى هذه الآيه عن إمكانيه اختراق الفضـاء،و لم تتنزل فيه سوره تحـدثنا عن لغه الطير لمـاذا؟ لأـنه ليس كتابـا تكنلوجيـا و إن كـان يشـير الى بعض الحقـائق إشـاره مباشـره،إنما هو كتاب حياه يستثيرنا نحو العلم،و يعطينا الثقه بأنفسنا،و يوجه عقولنا و قدراتنا فى قنواتها الاستراتيجيه الصحيحه،أما التقـدم العلمى أو تحول التطلعات و الحقائق التى يبينها الى واقع فـذلك من وظائف العقل البشـرى،و لو فعل ذلك لكان يشـكل سقفا للفكر وحدا للعقل و عقبه أمام التطور،بينما المطلوب أن يكون منهجا للفكر و محرضا للعقل و باعثا نحو التطور.

و القرآن هنا و هو يريد ان يسـتثيرنا نحو تطلع حضارى كبير،هو اختراق الآفاق و تسـخير رقعه أوسع فى هذا الكون الرحيب الذى خلق من أجلنـا،فى خـدمه الحضـاره البشـريه،فـانه يـدخل الى ذلـك بكلمه عميقه تحتمل من الأفكار الحضاريه الشـىء الكثير إذ يخاطبنا «يٰا مَعْشَرَ» و المعشر هو من العشره و التعاشر و هو التجمع الذى تربط

ببعضه و وشائج محدّده،بل إن الكلمه تفيض بأوسع معانی التعاون الاجتماعی بین الإفراد،و بـذلک یضع القرآن فکره هامه أمام أبصارنـا و بصائرنـا،و هی ان المنجزات الحضـاریه الکبیره کالنفـاذ من الآفـاق لاـ یمکن أن تنتقـل من التطلع الی الواقع العلمی و العملی،إلاـ بجهـد جمعی تتعـاون فیه القـدرات،و تتلاقـح فیه الأفکـار،و تتکامـل فیه المعـارف،و تتظافر فیه الإرادات،و لم یکتف بـذکر الانس وحـدهم،بل قال الجن و الانس بینما القرآن قـدم الانس علی الجن حینما تحدث عن الخلق فی الآیه (۱۴،۱۵)و هنا حـدث العکس،و ذلک لأن السـیاق فی تلک الآیتین یتناول الأفضـلیه فتقدم الإنسان لأنه الأفضل،بینما الحدیث فی هذه الآیه عن الأکثریه «یٰا مَعْشَرَ» لذلک تقدم الجن و هم الأکثر،و یبدو ان سبب ذکر الجن فی هذا السیاق هو:

۱-إن القرآن رسـاله کونیه شـامله،و هی موجهه للجن کمـا هی موجهه الی الاـنس،فهمـا قـد خلقا لهـدف واحـد هو العباده وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ (۱)کمـا خلقت النـار لمن عصـی منهما، وَ لٰکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِینَ (۲)کذلک نزل القرآن لهما معا.و هناک إشارات واضحه و ظاهره الی هذه الحقیقه قال تعالی: قُلْ أُوحِیَ إِلَیَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقٰالُوا إِنّٰا سَمِعْنٰا قُرْآناً عَجَباً* یَهْدِی إِلَی الرُّشْدِ فَآمَنّٰا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنٰا أَحَداً.. وَ أَنّٰا مِنّٰا الصّٰالِحُونَ وَ مِنّٰا دُونَ ذٰلِکَ کُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً.. وَ أَنّٰا لَمّٰا سَمِعْنَا الْهُدیٰ آمَنّٰا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاٰ یَخٰافُ بَخْساً وَ لاٰ رَهَقاً.. (۳)و نـداء کونی کهذا الذی یوجه القرآن لاـ یلیق إلاـ برب العزه،و حتی الإنسـان مهما بلغ من التطلع العالمی لا یجـد طریقا لمخاطبه الجن و لعل البشـر یتقـدم یوما حتی یصل الی مستوی التعاون مع الجن کما حدث للنبی سلیمان حسب القرآن:

۱- ۱) الذاریات/۵۶

۲- ۲) السجده/۱۳

۳- ۳) راجع سوره الجن.

قٰالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِکَ (۱).

۲-و أراد الوحی من ذلک أن ينسف إحدی النظريات الخاطئه التی تقف عقبه فی طريق خوض الإنسان لعلم الفضاء و اكتشافه كنوز الأرض و مساحاتها، و هی ان الإنسان عاجز عن النفوذ من أقطار السماء و ان ما بعد البحر و الصحراء ليس إلاّ بحار الظلمات و عوالم غريبه مخيفه لا سبيل للبشر إليها،و ان الجن وحدهم يستطيعون ذلك،فجاءت هذه الآيه لتعيد للإنسان الثقه بنفسه،و تؤكد له قدره متساويه لا أقل مع قدرات الجن بالرغم من ان الجن خلق من مارج من نار فهو بطبعه-حسب نظره البشر-ضعيف قابل للنفاذ بينما الإنسان خلق من صلصال من طين فهو بطبعه-حسب رؤيه البشر-ليس قابلا للنفاذ.

۳-و لعل فی الآيه معنی حضاريا يستهدف إثارتنا و الجن نحو التسابق الی تحقيق التطلع الحضاری الذی تطرحه الآيه بالنفاذ فی أقطار السماوات و الأرض ثم ان الآيه تقول إن استطعتم و لا تقول لو استطعتم لأنها للامتناع،بينما إن للشرط،و ربنا يعبر عن هذا الشرط بالاستطاعه أی القدره بتمام المعنی و شموله و هذا يشبه قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ عَلَی النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً (۲)و لكن الاستطاعه فی النفاذ من أقطار السماء و الأرض لا تتحقق إلا بدراسه التحديات الموجوده فی الطريق الی ذلک التطلع و تجاوزها و اهمّها اثنان:

الأول:الأخطار المحتمله كالأجرام السماويه الحارقه و هذا ما سيأتی الحديث عنه عند الآيه(۳۵).

الثانی:تحدی طبقات السماء و الأرض،و هو التحدی الأساسی و الثابت،فاذا

۱- ۱) النمل/۲۷

۲- ۲) آل عمران/۹۷

ما أراد الإنسان أن يصل الى كنوز الأرض عمقا فلا بد أن يتحدى و هو يقطع المسافه من السطح الى المعدن الطبقات المختلفه.

و هكـذا إذا أراد اختراق الآفاق باتجاه القمر أو أى هدف آخر فى السـماء،فانه سوف يواجه تحديات أكبر إذ لا بد أن يصل إليه بـالعلم أولا-من قبـل وصوله المـادى إليه فربمـا يتحطم كمـا حـدث فى التجارب الأوليه للإنسان فى هـذا الحقل،فهناك تحـدى الجاذبيـات،و الطبقـات الـتى يختلـف بعضـها عـن بعض،حيـث تنعـدم الجـاذبيه فى بعضـها،و يرتفـع الضـغط فى أخرى،و ينعـدم الأوكسـجين فى أكثرها، بل يحتوى بعضـها على غازات مضـره بالإنسان،و لعل معنى النفاذ و هو لا يكون إلا من المانع يدل على هـذه التحـديات و قد كشف العلم الحديث و لا يزال عن جانب من تلك التحديات،و خبراء المحطات الفضائيه الآن لا يرسـلون الأقمار و الخبراء إلاّ بعد الدراسات المفصله لطبقات الجو،لكى يختاروا المكان الأضعف و المناسب للنفاذ منه.

و إذا ما استطاع الانس و الجن الانتصار على تلك التحديات فإنهم ينفذون من الأقطار حيث يقول ربنا سبحانه:«فانفذوا».

و هـذا الفعل ليس فقط يفيد الإمكان،بل ينطوى حسب الظاهر على الدعوه و التحريض الى النفاذ،فهى كقوله سـبحانه: فَامْشُوا فِى مَنٰاكِبِهٰا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ،و قوله: قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ،و قوله: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ ،و هكـذا ينبغى للإنسان أن يسـتفيد من قدراته فى تسـخير أكبر مساحه من هذه الكائنات التى خلقت من أجله،فربما وجد بالاضافه الى المعرفه شفاء لكثير من أمراضه و حلا لمشاكله و أزماته فى الآفاق.

هكذا يسعى الإسلام من أجل رفع الأغلال التى تضعها الفلسفات البشريه على

النفس و العقل عن الإنسان لينطلق نحو تطلعاته و أهدافه الكبرى.و لكن الإسلام الى جانب ذلك لا يطلق الثقه هكذا بلا حد لكى لاـ تصبح تمنيات و أحلاما،إنما يؤكد ان الثقه وحدها لا تصل بالإنسان الى طموحاته،و لا تحقق أهدافه،بلى.هى الوقود الدافع له من داخله،و حتى ينطلق فى الواقع العملى،لا بد أن يحصل على سلطان،و هو العلم الذى يتحول الى برنامج،فقدره فعليه.

لاَ تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطٰانٍ اللام هنا ليست للنهى و إلاّ جاء الفعل بعدها مجزوما بحذف النون،إنما هى للنفى،و هذا يعارض قول من قال ان ظاهر الآيه هو التحدى.نعم ربنا يتحدى الجن و الانس إذا حاولوا النفاذ من دون سلطان،لان فى الطبيعه قوانين و واقعيات، و الهيمنه عليها و تسخيرها ممكن و لكن بما هو فوق ذلك كله من السلطان.

إن الإنسان البسيط الذى يعيش على ساحل البحر،و يأكل و يسترزق من صيده نهارا ثم يعود الى بيته ليلاـ كل يوم،يطبق من القوانين و السنن الحياتيه الشىء القليل،أما الذى يعيش الحياه العلميه المعقده،كرائد الفضاء الذى يريد الصعود الى القمر،أو الى كوكب آخر أرفع منه،فانه لاـ ريب سيواجه عشرات الآلاف من القوانين،فهو بحاجه الى معرفتها بدقه ليتسنى له القدره على تسخيرها لأن أعظم وسيله لتسلط الإنسان على الطبيعه هى العلم،و قد أنعم اللّه علينا بذلك كما أودع الطبيعه حاله الاستجابه لنا.

ثم ان التكذيب بواحد من القوانين أو الحقائق الواقعيه من قبلنا كفيل بأن يقطع الطريق علينا فلا نصل الى ما نريد.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

ص:۳۲۶

إن من نعم اللّه علينا أن جعل نفاذنا من أقطار السماوات و الأرض ممكنا، و جعل فى ذلك خيرا كثيرا للبشريه،و لكننا قد نكذب بهذه النعمه إذا كفرنا بهذه المقدره رأسا كما فعل آباؤنا أو حققنا ذلك ثم سخرناه فى الأمور الضاره كالتكبر فى الأرض،أو إذا عصينا ربنا بدل شكره على هذه النعمه الكبرى،و هو حينئذ سوف يعذبنا و لن نجد لنا وليا و لا نصيرا،حيث تحببها نار بلا دخان شديده اللهب، عظيمه الحر.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ و لعل الآيه هذه تشير هنا إضافه الى الفكره الآنفه الى حقيقه علميه،و هى الأخطار التى تعترض طريق الإنسان فى الفضاء،و تمنعه من الوصول الى النقطه التى يريد كالقمر،و منها كما يصرح القرآن و يؤكده العلم الحديث الغازات المشتعله، و الكتل المعدنيه الملتهبه التى تسمى بالنيازك و الشهب،و هذه هى الأخرى بالاضافه الى القوانين و الموانع الأخرى التى تمنع النفاذ ينبغى للإنسان أن يتسلط عليها، فيقاومها و ينتصر عليها أو يتجنبها،فاذا كفرنا بهذه السنه و حاولنا النفاذ بلا سلطان اعترضتنا هذه العقبه،كذلك حين يكفر الإنسان بواحده من سنن اللّه فى المجتمع و النفس فانه يكتوى بنار لاهبه.أجارنا اللّه من نقماته فى الدنيا و عذابه فى الآخره.

ص:٣٢٧

[سوره الرحمن (۵۵): الآیات ۳۷ الی ۷۸]

اشاره

فَإِذَا انْشَقَّتِ اَلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ
آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ اَلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ اَلْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هٰذِهِ جَهَنَّمُ
اَلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا اَلْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ
(٤٦) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى
اَلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ اَلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ اَلْيَاقُوتُ وَ اَلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ اَلْإِحْسَانِ إِلاَّ اَلْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاٰءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ
خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي اَلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اِسْمُ رَبِّكَ ذِي اَلْجَلاٰلِ وَ اَلْإِكْرَامِ (٧٨)

اللغه

۳۷[کالدهان]:کالدهن،أی عذاب سیّال کالدّهن،أحمر کالنّار.

۴۱[بسیماهم]:أی بعلاماتهم،و هی سواد الوجوه،و زرقه العیون.

[النواصی]:الناصیه شعر مقدّم الرأس،و أصله الاتصال،فالناصیه متصله بالرأس.

۴۴[آن]:فی شدّه الحراره،قد انتهی حرّه إلی آخر درجه، و الآنیّ الذی بلغ نهایه حرّه،و قیل:الآنیّ الحاضر.

ص:۳۲۸

۴۸[ذواتا أفنان]:الأفنان جمع فنن و هو الغصن الغضّ الورق،و منه قولهم:هذا فنّ آخر أى نوع آخر.و يجوز أن يكون جمع فنّ.

۵۴[إستبرق]:ديباج ثخين و غليظ يسبّب الراحه.

[و جنا الجنّتين دان]:أى الذى يجنى منها و هو الثمر متهدّل على رؤوسهم يتمكّن القاعد و النائم أن يناله بسهوله.

۵۶[قاصرات الطرف]:مقصوره أبصارهن على أزواجهنّ، لا يردن غيرهم.

[لم يطمثهنّ]:أى لم يفتضهنّ أحد،و الافتضاض:

النكاح بالتسميه،و المعنى لم يطأهن و لم يغشهن أحد،و فى قول آخر:لم يمسّنّ لا بالجماع و لا بغير الجماع.

ص:۳۲۹

۶۴[مدهامّتان]:من دهم بمعنى السواد،أى أنّه الجنتين خضراوتان،تضربان الى السواد من شدّه الخضره،فلا يبس لهما.

۶۶[نضّاختان]:فوّارتان،و النضّاخه:الفوّاره،التى ترمى بالماء صعودا.

۷۲[مقصورات]:محفوظات مخدّرات.

ص:۳۳۰

۷۶[رفرف خضر]:هی الفرس المرتفعه،و قیل:الوسائد.

[و عبقری حسان]:کل ثوب موشّی یقال له عبقری، و لعل الثوب الموشّی هو الثوب المطرز و المزخرف.

ص:۳۳۱

وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ

هدى من الآيات:

بعد ان يذكرنا القرآن بانشقاق السماء يوم القيامه،و يعرض لنا فی بضع آيات منه حال المجرمين و عذابهم(۴۷/۳۵)(ربما لان الإسهاب فی ذلک لا ينسجم مع سياق السوره التی تکشف لنا عن تجليات اسم الرحمن فی الخليقه)بعدئذ يستعرض بشیء من التفصيل التجليات الأعظم لرحمه اللّه،و ذلک من خلال الحديث عن ثواب أهل الجنه و الذی يقع فی(۳۳)آيه کريمه تمتد الی آخر السوره.

ان ربنا رحيم و آلاء رحمته ظاهره فی الدنيا و الآخره،و لکن النظره السلبيه الناتجه من امراض النفس و عقدها و من الفلسفات الضاله هی التی تعمينا عن هذه الحقيقه الجليه،فاذا بنا ندس بناتنا فی التراب خوف العيله،و نقتل أولادنا و نغل أيدينا عن العطاء،و لا نوفی الکيل و الميزان،و انما نبخس الناس أشياءهم کل ذلک خشيه الفقر و نأکل اموال اليتامی ظلما،کل ذلک لاننا لا نطمئن الی رحمه اللّه الذی

یبسط الرزق لمن یشاء،و الذی نعمه لا تعد و لا تحصی،و یعلم اللّه کم تسبب هذه النظره الموغله فی السلبیه فی العقد و الانحرافات النفسیه و الاجتماعیه عند الإنسان، فهی التی تغل فاعلیاته و تمنعه من السعی،و لماذا یسعی و هو یائس من التوفیق و النجاح؟ بینما النظره الایجابیه الی أسماء اللّه،بالتعرف علیها و الایمان بها،تملأ القلب أملا و رجاء و تبعث بالإنسان نحو السعی و النشاط،و تفجر الطاقات الکامنه فی شخصیته،انه حینئذ ینفق و یضحی فی سبیل اللّه و من أجل مبادئه،راضیا بما یفعل،مطمئنا الی رحمه ربه،

و فی الخبر «من أیقن بالخلف جاد بالعطیه » (۱)و کیف یوقن أحد بالخلف فیعطی أو یقلع من ذنوبه و اخطائه و هو لا یعرف ربه بالرحمه و الغفران؟!لا ریب انه لن ینفق و لن یتوب.

و لذلک یسعی القرآن بمنهجیته الحکیمه التی یلمسها المتدبر فی آیاته مواجهه النظره السلبیه المقیته،و بث البصیره الإیجابیه فی ردع البشر تجاه ربه و حیث تدعونا هذه السوره الی التعرف علی اسم(الرحمن)،و تذکرنا بمظاهر هذا الاسم فی الخلیقه، و الآیات الهادیه الیه فانها تحذرنا من التکذیب بها،بذکر جانب من عذاب المجرمین الذین صاروا الی الجریمه بسبب تکذیبهم کما ترغّبنا فی التصدیق بها،من خلال التفصیل فی بیان جزاء الذین عرفوا الرحمن حق معرفته،و قدروه حقّ قدره فخافوا مقامه.

بینات من الآیات:

[۳۸-۳۷]یمکن للإنسان فی الدنیا أن یکذب بآلاء ربه(نعمه و آیاته)أو یتملص من تطبیق الحق،و یبرر ذلک بمختلف الحجج الواهیه،لأن اللّه أمهله فیها

ص:۳۳۳

۱- ۱) بح/ج ۶ ص ۱۳۳

و سمح له أن يفعل ما يشاء،أما فی الآخره حيث يخلص الحكم للّه،فلا يملك إلاّ التسليم للحق،قال تعالی: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ الْمَلاٰئِكَةُ تَنْزِيلاً* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ كٰانَ يَوْماً عَلَی الْكٰافِرِينَ عَسِيراً (۱)فمنظر القيامه بما فيه من تحولات كونيه هائله يعری الإنسان من كل لبس فی شخصيته الفقيره المحتاجه.

ان السماء هذا السقف العظيم الذی يحفظ الناس و يظلهم تفقد تماسكها يوم القيامه،و يتبدل لونها من الزرقه الی الحمره تشبه فی ذلك الورده الحمراء، وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وٰاهِيَةٌ (۲)ثم تذوب و تسيل «يَوْمَ تَكُونُ السَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ» (۳)حتی تضحی دهانا،و هو ما يستخرج من الورد بعد غليه و عصره.

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَكٰانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهٰانِ لعل سبب تشبيهها بالورده لأنها ليست قطعه واحده،بل عده قطع منشقه عن بعضها،ذات صبغه حمراء،يجمعها الأصل،و لان السماء(السقف المرفوع)هی رمز الأمن و السلام،فان انشقاقها يؤذن بالأخطار و الخوف،و لهذه الآيه اتصال وثيق بالآيه(۳۵) «يُرْسَلُ عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَ نُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ» ذلك ان الغلاف الجوی-أحد طبقات السماء-هو الذی يمنع عنا النيازك و الغازات الحارقه،و لو حدث-لا سمح اللّه-أن انشق فان الأرض ستكون عرضه لتلك الاخطار،و يقول العلماء:لو فتحت ثغره فی الغلاف الواقی-لنفترض مثلا بمساحه كيلومتر مربع واحد-فان الأرض تحته لا تصلح للحياه أبدا..لما تنهال عليها من خلال تلك الثغره من اشعه ضاره أو نيازك حارقه مدمره.

و هل لنا ان نفهم من هذه الحقيقه العلميه شيئا بسيطا عن طبيعه الحياه حينما

۱- ۱) الفرقان/۲۵-۲۶

۲- ۲) الحاقه/۱۶

۳- ۳) المعارج/۸

تتفطر السماوات السبع و تستحيل لهبا و مهلا؟! ان أحدا لا يملك يومئذ أن يكذب بهذه الآيه من آيات اللّه،و التى تظهر هيمنته،و ضروره التسليم له-و هو لو شاء لجعلنا نصدق بآلائه و آياته بالقوه-و هو القائل: طسم* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ* لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (۱).

و لكن رحمته تأبى ذلك كما أنّ حكمته من خلقنا فى الحياه الدنيا و التى صرّح بها بقوله: اَلَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (۲)لا تتفق مع هذا النهج.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [۳۹-۴۰]بلى.ان أحدا لن يجرأ حينها على التكذيب أبدا،بل يخضع الجميع خضوعا مطلقا للحق فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدّاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ* خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ* مُهْطِعِينَ إِلَى الدّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (۳)و لا يجرأ أحد حتى على الكلام،إلاّ بعد اذن سبق من اللّه يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۴)فكيف يستطيع أحد ان يكذب ربه ذلك اليوم؟!بلى.قد يؤخر العذاب عنهم فى الدنيا فيجدون فرصه للتكذيب،و التبرير،و إخفاء ذنوبهم.أما يوم القيامه فهو-سبحانه-محيط بهم من كل جانب.

ص:۳۳۵

۱- ۱) الشعراء ۱/-۴

۲- ۲) الملك۲/

۳- ۳) القمر۶/-۸

۴- ۴) هود۱۰۵/

فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ و يكفى بهذا رادعا لنا عن المعاصى،و التكذيب بالنعم و الآيات،الذى هو من أكبر الذنوب.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ [۴۱-۴۲]ان المحاكم فى الدنيا تقام من أجل معرفه المجرم،اما فى الآخره فهى تقام لغرض آخر،و هو إثبات العداله الإلهيه اثباتا عمليّا للخلق،فليس معنى «لاٰ يُسْئَلُ» انهم لا يحاكمون البتّه،لان اللّه يقول: وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ قٰالَ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱)و قال: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِرٰاطِ الْجَحِيمِ* وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲).

عن الذنوب هل هى من قبلهم أم لا.فهم معروفون عند اللّه.و لكن هذا الايقاف ليس لسؤالهم و انما السؤال للتبكيت و التقريع.إذا لا ينبغى أن نختفى وراء جدر التبرير و الأعذار لاننا لن نجد مجالا يومئذ لبيانها حتى تقبل أو ترد.

و قيل:ان فريقا من المجرمين و هم أئمه الاجرام و الكفر و الموغلين فى الانحراف لا يسألون حتى مجرد السؤال و انما يؤمر بهم الى جهنم مباشره حيث العذاب،و لا يعطون فرصه لسؤالهم إمعانا فى تحقيرهم و إهانتهم و عذابهم،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«ان اللّه عزّ و جلّ يحاسب كل خلق إلاّ من أشرك باللّه عزّ و جلّ فانه لا يحاسب، و يؤمر به الى النار » (۳)

و قال :«سته يدخلون النار بغير حساب منهم الأمراء

۱- ۱) الانعام/۳۰

۲- ۲) الصافات/۳۲-۳۴

۳- ۳) بح/ج ۷ ص ۲۶۰

بالجور » (۱)

و قال الصادق علیه السلام :«ثلاثه یدخلهم اللّه النار بغیر حساب،امام جائر،و تاجر کذوب،و شیخ زان » (۲).

و السؤال کیف یعرف المجرمون یوم القیامه؟! ان اللّه یعرفهم بعلمه الذی أحاط بکل شیء،و من خلال کتب أعمالهم،ثم ان یوم القیامه هو التجلی الأعظم للحقائق،فالذی یأکل أموال الیتیم بالباطل انما یأکل فی بطنه نارا و هذه الحقیقه تتجلی یومئذ لکل الناس،حیث یشاهده العالمون و النار تشتعل فی بطنه اشتعالا.

کما ان الذی یمارس الجریمه-أیّه جریمه-فانها تترک أثرا علی شخصیته،بید ان الحقیقه خافیه علی الناس فی الدنیا،أما فی الآخره حیث تبلی السرائر فانها تظهر علی الملاء لا تخفی منه خافیه،فإذا به یأتی مسودا وجهه کقطعه من لیل دامس الظلام،و فی المقابل تری المؤمنین و المؤمنات مبیضه وجوههم وجوههم یَسْعیٰ نُورُهُمْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمٰانِهِمْ (۳)یَوْمَ تَبْیَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِینَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۴) هذه عاقبه الکفر.و قد ثبت علمیا ان الجریمه تترک أثرها علی فاعلها،کالارتباک،و التلعثم فی الکلام أثناء الاستجواب مما یعکس حاله نفسیه معینه تخلقها الجریمه عنده،و لعل العلم إذا تطور و تقدم یلحظ اثارا مادیه علی شخصیه الإنسان کألوان لا تلحظ بالعین المجرده تعلو الوجه..

۱- ۱) میزان الحکمه/ج ۲ ص ۴۱۹ عن کنز العمال ح(۴۴۰۳۰)

۲- ۲) بح/ج ۷۵ ص ۳۳۷

۳- ۳) الحدید۱۲/.

۴- ۴) آل عمران۱۰۶/

ان ذلک حقیقه واقعیه فی الدنیا و الآخره،و لکن الفرق بینهما اننا فی الدنیا محجوبون عن رؤیه تلک الآثار بوضوح کاف،أمّا فی الآخره فیکشف عنا الغطاء فاذا ببصرنا حدید،و حتی فی الدنیا لو تطور علمنا باتجاه الیقین لتکشف لنا الکثیر من الحقائق المغیبه.

یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیمٰاهُمْ فَیُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِی وَ الْأَقْدٰامِ و یجرون الی النار حیث یعذبهم ملائکه شداد غلاظ و الناصیه هی مقدمه الرأس،و هذا العذاب جزاء تکذیبهم بالحقائق الربانیه و الآیات الداله علیها و من بینها النار،فلم یحتسبوا انهم مواقعوها فیستعدوا،و یعملوا للخلاص من حرّها، فوقعوا فیها،و ربنا یحذرنا من التکذیب بها.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ [۴۳-۴۵]و الآیات السابقه تشیر الی امکانیه تعاون الجن و الانس فی المعصیه و التکذیب،و هذا امر واقعی،لأن أبالسه الجن من المکذبین باللّه هم الذین یوسوسون فی صدور الناس،و یثیرون فی البشر عوامل المعصیه و الانحراف،لذلک أمرنا اللّه بالاستعاذه مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ* الَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ* مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ (۱)،بل قد یصل التعاضد بینهما علی التکذیب الی الحد المادی،قال تعالی حاکیا عن الجن: وَ أَنّٰا ظَنَنّٰا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً* وَ أَنَّهُ کٰانَ رِجٰالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزٰادُوهُمْ رَهَقاً* وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا کَمٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَبْعَثَ اللّٰهُ أَحَداً (۲)و الشعوذه و السحر القائمان علی التکذیب باللّه و بآیاته هما من صور التعاون بین الاثنین.

ص:۳۳۸

۱- ۱) الناس۴/-۵

۲- ۲) الجن۵/-۷

و لكن مهما كذب الفريقان بالحقائق الواقعيه كالنار و تعاونا على ذلك،فانها لن تتبدل و لن تنتفى أبدا،فالنار موجوده و ان كذبنا بها،كما ان تكذيب بعض السوفسطائيين بواقعيه الخلق لا يحيله خيالا،بل ان التكذيب بالنار يجعلها أقرب و أشد على المكذب بها،و يوم القيامه يؤتى بالمجرمين مأخوذين من نواصيهم و أقدامهم الى جهنم،و يقال لهم:

هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی یُکَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ فيرونها عين اليقين،و يصدقون بها بعد طول تكذيب،و لكن ماذا ينفعهم الاعتراف حينئذ،بلى.إذا عرف الإنسان بالخطر قبل وقوعه فيه،و كانت ثمه فرصه يستغلها للنجاه ينفعه علمه.بيد ان هؤلاء كذبوا فعلا بآيات اللّه الداله الى هذا الحق،فصاروا من حطب جهنم و وقودها،فتراهم ينتقلون بين النار و الحميم.

یَطُوفُونَ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَ حَمِیمٍ آنٍ أى بالغ الحده:حراره و غليانا،و منه آنت الثمره:إذا نضجت و أينعت، و المجرمون فى طواف دائم،تسوقهم الملائكه بين جهنم النيران(أشدها حراره) و بين السوائل المغليه الى درجات عاليه من الحراره،و ان المجرم يحترق بالنار، و يفقد سوائل جسمه،فيسعى لشرب الماء فيجده حميما،و هذا هو حال النعمه حينما يفرط فيها الإنسان،فيكذب بها،و ينسبها الى غيره شركا،أو يستخدمها فى المعصيه و لا يؤدى حق شكرها،و حرىّ بنا أن نصدق بآلاء الرحمن،و نؤدى واجبنا تجاهها.انها رحمه من اللّه فأما أن نصيّرها نقمه أو نجعلها رحمه أكبر و أوسع،تنمو فى الدنيا و نتلقاها أضعافا مضاعفه فى الآخره.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ

[۴۶-۴۷]و ينتهى السياق يحدثنا عن جزاء أولئك الذين عرفوا ربهم حق معرفته،عرفوه بأنه الرحمن فصدقوا بآلائه،و رغبوا فى رحمته قلبا،وسعوا إليها عملا ففتحت لهم أبوابها فى جنه عرضها كعرض السماوات و الأرض.

و هكذا يطبع السياق صفه ثنائيه على آيات هذه السوره(اَلشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ ، وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ ،و السماء و الميزان،و الفاكهه و النخل،و الحب و الريحان،و الانس و الجان،و الصلصال و النار،و البحرين،و اَللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجٰانُ)الى ان يحدثنا عن صنفين من الناس فى سلوكهم و جزاء اللّه لهم،و هم المجرمون الذين انتزعوا من قلوبهم خشيه الخالق،فصاروا لا يتناهون عن منكر،و يحدثنا فى مقابلهم عن الخائفين، الذين براهم خوف اللّه برى القداح.

و هذا منهج وسائد فى كتاب ربنا حيث يذكرنا بالفارق بين المتقين و الفجار عبر بيان الفوارق بين الأشياء المختلفه لنزداد وعيا بهذه المفارقه،و تصديقا بآثارها فى الآخره.

و للثنائيه التى صبغت بها آى سوره الرحمن فائده اخرى تلك هى العلم بالفوارق الممتده بين الأشياء،فعند ما يكون المرء جاهلا يرى الأشياء المختلفه بلون واحد، و لكنه كلما تقرب الى العلم كلما بدت له الفوارق أكثر وضوحا و عددا،فالغازات كلها عند الإنسان تنضوى تحت اسم عريض هو الهواء،و إذا به الآن و قد تقدم به العلم تزيد على مئات الأنواع،كما ان هذه الثنائيه تدلنا على الحاجه أيضا،حيث يحتاج كل اثنين الى من يدبر أمرهما اذن فهذه الثنائيه بين المخلوقين تهدينا الى الثنائيه المطلقه بين المخلوق و الخالق.

وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ

ص:۳۴۰

هؤلاء لا يعبدون اللّه خوفا من النار فقط و لا طمعا فی الجنه فحسب-و ان کان ذلک بعض تطلعاتهم-و لکن دافعهم الأساس للعباده هی المعرفه الیقینیه العمیقه بربهم-عزّ و جلّ-إذ انهم وجدوه أهلا للعباده فعبدوه،

قال أمیر المؤمنین علیه السلام :

«فتلک عباده الأحرار،و هی أفضل العباده »

و قال زین العابدین علیه السلام :«انی أکره أن أعبد اللّه و لا غرض لی إلاّ ثوابه،فأکون کالعبد الطمع المطمّع،ان طمع عمل و الألم یعمل[و]اکره أن[لا]أعبده إلاّ لخوف عقابه،فأکون کالعبد السوء ان لم یخف لم یعمل»..قیل:فلم تعبده؟!قال:«لما هو أهله بأیادیه علی و انعامه » (۱)

و یبین الامام الرضا علیه السلام خلفیه هذا النهج فی العباده إذ یقول علیه السلام :«لو لم یخوف اللّه الناس بجنه و نار لکان الواجب علیهم أن یطیعوه و لا یعصوه،لتفضله علیهم،و إحسانه إلیهم،و ما بدأهم به من انعامه الذی ما استحقوه » (۲).

و الامام الصادق علیه السلام یشیر إلی الدوافع الحقیقیه لسلوک هذا الفریق الا و هو العلم و المعرفه،فیقول:«من علم انّ اللّه عزّ و جلّ یراه،و یسمع ما یقوله و یفعله من خیر أو شر،فیحجزه ذلک عن القبیح من الأعمال،فذلک الذی خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ، وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَویٰ» (۳).

و حتی لو خشی هؤلاء النار،أو طمعوا فی الجنه فلیس لذاتیهما،بل لان الأولی تبعدهم عن اللّه،و الثانیه تقربهم الی مقامه تعالی فی مقعد صدق عند ملیک مقتدر،

و الامام علی علیه السلام یقول فی مضمون حدیث: لو علمت ان رضا اللّه فی ان ألقی بنفسی فی النار لفعلت،و لو علمت ان رضی اللّه فی أن ألقی بنفسی من علی شاهق لفعلت.

۱- ۱) بح/ج ۷۱ ص ۱۷۴

۲- ۲) المصدر/ص ۲۱۰

۳- ۳) أصول الکافی ج /۳ص ۱۲۶

و لان هذا الفريق من العباد خافوا ربهم فى الدنيا استحقوا أمنه و جناته فى الآخره.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«قال اللّه تبارك و تعالى:و عزتى و جلالى لا أجمع على عبدى خوفين و لا أجمع له أمنين،فاذا أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخره يوم القيامه،و إذا خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامه » (۱)و هؤلاء يستحون من ربهم،و يخافون شهوده فى السر و العلانيه،و الجنتان التى يعطيها اللّه لهم هى فى مقابل العذابين(جهنم و الحميم)اللذين يطوف بينهما المجرمون.

قال البعض:ان هؤلاء هم أرفع المؤمنين درجه و مقاما،حيث لا يرقى الأدنى الى منزله الأرفع فان اللّه أعطاهم جنتين،جنه تخصهم و أزواجهم،و جنه يستقبلون فيها المؤمنين كدار للضيافه،و قال قائل:الجنه الأولى داخل بيته و الثانيه خارجه،و قال آخرون:ان الأولى جزاء أعمالهم و الاخرى زياده و فضلا من عند اللّه،و قيل:ان الأولى جزاء أعمالهم و سلوكياتهم،و الثانيه جزاء ما انطوت عليه قلوبهم من العلم و المعرفه،و نفوسهم من الإيمان و التصديق،و الذى يظهر من عموم القرآن ان للمؤمنين أكثر من جنتين قال تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ (۲).

و قوله: «جَنَّتٰانِ» يخص بالذكر اثنتين تتميزان عن سائر الجنات،و هما جنه عدن و جنه الفردوس،أو جنه عدن و النعيم،أو هى الخلد و المأوى.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ

ص:۳۴۲

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۱۹۶

۲- ۲) النساء۱۳/

بعد بيان مقام الخائفين من مقام ربهم يطرح القرآن هذا التساؤل،ربما ليقول لنا بان السبل مشرعه للجميع لو أرادوا الوصول الى هذه المنزله الرفيعه،لأن اللّه لم يجعلها حكرا على أحد،و لكن يشترط أن لا يكذب بآلاء ربه،فذلك يحرمه منها.

[۴۸-۴۹]و يشوقنا الوحى الى تلك الجنتين،إذ يرينا صورا رائعه عنهما و يكتسب التشويق أهميته من كونه إذا تفاعل معه السامع،و صدق به،يتحول الى ما يشبه الوقود فى داخل الإنسان،يدفعه بفاعليه قويه و عميقه الى العمل على تحقيق الغايه المطلوبه منه.

و البشر يخشى الاجرام و يتجنبه مرّه لأنه يؤدى الى جهنم،و مره لأنه يخسر الإنسان قربه من ربه و ثوابه الجزيل.

ذَوٰاتٰا أَفْنٰانٍ اشاره الى صفتين لتينك الجنتين،إحداهما:كثره الأغصان،و العرب تقول للغصن فنن و جمعه أفنان،و هى لا شك تدخل على النفس البهجه و السرور،بالنظر الى خضرتها و كثافتها،و كثره الأغصان تدل على نوع معين من الأشجار غير ذات السوق كالنخل،و الشجر تلك تكون أكثر استيعابا للثمر،كما انها تلقى بظلها على أ لأرض ليجد المؤمنون لذه الجلوس فى الظلال، «مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى الْأَرٰائِكِ لاٰ يَرَوْنَ فِيهٰا شَمْساً وَ لاٰ زَمْهَرِيراً* وَ دٰانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِيلاً» (۱)«هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى الْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ» (۲)و الصفه الثانيه:التنوع،قال صاحب المنجد:أفنان،و فنون،و أفانين:الضرب من الشىء أو النوع (۳).

۱- ۱) الإنسان/۱۲-۱۴

۲- ۲) يس/۵۶

۳- ۳) راجع معنى(فنن)المنجد.

و یعود السیاق هنا-و بعد ذکر کل نعمه فی الجنه-لیشفی قلوبنا من داء التکذیب بآلاء اللّه،و هذا هو طبیعه منهج القرآن:انه لا یجعل الحدیث عن المستقبل الغائب مجردا و بعیدا عن واقعنا،بل یوصله بنا،و یسعی من خلال ذکره الی علاج مشاکلنا،و دفعنا باتجاه ایمان و معرفه أکثر و أعمق،و هو فی هذا المورد یرید القول بان ذلک النعیم نتیجه شکر نعیم الدنیا.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ و یصرح القرآن بهذه الحقیقه بعد حدیث مفصل عن الجنه فی سوره الإنسان قائلا: إِنَّ هٰذٰا کٰانَ لَکُمْ جَزٰاءً وَ کٰانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً (۱)بل هی التجلّی الأعظم لقول اللّه: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِی لَشَدِیدٌ (۲) إذا لندع التکذیب بآلاء اللّه.

[۵۰-۵۱]و تطمع نفوسنا المجبوله علی حب الاستطلاع فی معرفه المزید من الجنتین،فیقول ربنا:

فِیهِمٰا عَیْنٰانِ تَجْرِیٰانِ العین فی الدنیا تتصل بمخازن الماء فی الأرض و کلما استنزفت ملأتها المخازن، و لکن اللّه لا یقول«عینان»و حسب،بل یضیف«تجریان»و توحی هذه الجمله بان الماء هناک فی حرکه دائمه مما تزید المنظر روعه و جمالا.

و لا یذکر القرآن ما فی العینین:هل هو الماء،أم اللبن،أم الخمر،أم العسل، أم هو شیء آخر؟و الإبهام یزید النفس شوقا،و اللّه یبهم قاصدا و هو القائل:

۱- ۱) الإنسان/۳۲

۲- ۲) إبراهیم/۷

«فَلاٰ»تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱).

فيا حسره على العباد يتحبب لهم ربهم فيتبغضون اليه،و يتقرب منهم فيتبعدون عنه،و يفتح لهم أبواب رحمته ثم يدعوهم إليها فيعرضون،و يكذبون،و هو لا يزال يتلطف بهم،لا يسخط من تكذيبهم،و لا يعرض عنهم بانحرافهم عن آلائه بل يكرر عتابه.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ و له العتبى حتى يرضى،انه لا يحتاج الى تصديقنا به،و شكرنا لآلائه فذلك لا يزيده شيئا،كما لا ينقص كفرنا و تكذيبنا من مقامه تعالى شيئا،انما نحن المحتاجون اليه.

[۵۲-۵۳]و جانب آخر من نعيم الجنتين الأكل،و القرآن لا يحدثنا عن أوليات النعمه(الأشياء الضروريه)انما يحدثنا عن تمامها(الكماليات)و هى الفواكه،مؤكدا بأنها الأخرى موجوده و فى غايه الكمال،كثره و تنوعا.

فِيهِمٰا مِنْ كُلِّ فٰاكِهَهٍ زَوْجٰانِ فليس ثمه فاكهه إلاّ و هى موجوده،و الفاكهه بالإضافه الى فائدتها الماديه للجسم،فهى لها نكهه و لذه خاصه يجدها الإنسان فى منظرها على المائده أو فى الشجر،حيث الأشكال و الألوان البديعه،و فى روائحها الطيبه و مذاقها اللذيذ، و لعل اسمها مشتق من الفاكهه و التفكّه و هو حديث ذوى الأنس و السرور.

و السؤال:ما معنى «زَوْجٰانِ» ؟

۱- ۱) السجده/۱۷

قیل:من کل نوع صنفان،أحدهما یشبه الذی فی الدنیا،و الآخر یختلف عنه فی حجمه و مذاقه و ألوانه،مما یختص بالآخره و هو الأفضل،قال تعالی: وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ کُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَهٍ رِزْقاً قالُوا هٰذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً (۱)و قد یکون المعنی من الزوجین:أی ان ما فی الجنه الأول موجود فی الثانیه،فیکون المقصود المقابله و أو یکون المعنی:نوعین من الفاکهه الواحده،و یحتمل معنی التکامل،بحیث تجد لکل فاکهه اخری تکملها شکلا و فائده،و کما نعیم الجنه یکمل بعضه بعضا، کذلک عذاب النار،فجهنم یکملها الحمیم الآن.

و هذا النعیم لا یحصل علیه إلاّ من عرف الرحمن،و قدّره حق قدره،فصدق آلاءه،و خاف مقامه.

فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ و هذه الآیات تؤکّد أن الحدیث عن الجنه و النار حق و لیس مجرد إثاره لحاله الطمع و الخوف عند البشر-کما یزعم البعض-ذلک ان ربنا غنیّ عن مخالفه وعده،أو بیان ما لیس بحق،و ان قدرته فی موضع الرحمه،أو فی موضع النکال و النقمه مطلقه لا یحدها شیء، إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۲)و لکن مشکله الإنسان أنه یقیس الأمور علی قدره،و حسب قدراته و فهمه المحدودین،فلأنّه لا یستطیع إحیاء الموتی یشکک فی البعث،و لأنه محجوب عن علم المستقبل و ما لا یراه،تراه یرتاب فی الغیب أو یکفر به،و هذا نوع من الشرک الفکری،قال تعالی: وَ ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ

۱- ۱) البقره۲۵/

۲- ۲) یس۸۲/

وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۱).

و حتی يتجاوز الإنسان هذا الشـرک الذی يقوده الی التكذيب بآيات اللّه،يجب أن ينظر الی الأمور،و بالذات الحقائق الكبيره من خلال الايمان بقدره اللّه المطلقه، مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲).

[۵۵-۵۴]بلی.ان الجنه حق،کما الوجود حق،و کما الموت حق،و الـذين يـدرکون هذه الحقيقه ببصائرهم،و ينفذ نور الايمان باللّه الی کل ابعاد قلوبهم، فإنهم لا يعرفون وقفه عن العمل الصالـح،و الكلم الطيب حتی الرمق الأخير،انهم صـيح بهم فانتبهوا،و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا،و ما ترکوا لحظه تمر عليهم من ليل و لا نهار،إلاّ ازدادوا فيها ايمانا و عملا فی سبيل اللّه،لأنهم أدرکوا بان الحياه الدنيا فرصه محدوده يخسرها من يغفل عنها.

و إليک برنامجهم فی الحياه عن لسان أميرهم و سيدهم

الامام علی عليه السلام :

«أما الليل فصافون أقـدامهم،تالين لأجزاء القرآن،يرتلونها ترتيلا،يحزنون به أنفسـهم،و يسـتثيرون به دواء دائهم،فاذا مرّوا بآيه فيها تشويق رکنوا إليهـا طمعـا،و تطلعت نفوسـهم إليها شوقا،و ظنوا انها نصب أعينهم،و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصـغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنوا أن زفير جهنم و شـهيقها فی أصول آذانهم،فهم حـانون علی أوسـاطهم، مفـترشون لجبـاههم و أکفهم و رکبهم، و أطراف أقـدامهم،يطلبون الی اللّه تعـالی فی فكـاک رقابهم،و أما النهار فحلماء علماء،أبرار أتقياء،قـد براهم الخوف بری القـداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضی،و ما بالقوم من مرض و يقول:لقد خولطوا!

۱- ۱) الزمر/۶۸

۲- ۲) الحج/۷۴

و لقد خالطهم أمر عظيم!لا يرضون من أعمالهم القليل،و لا يستكثرون الكثير،فهم لأنفسهم متهمون،و من أعمالهم مشفقون.إذا زكّی أحد منهم خاف مما يقال له،فيقول:أنا أعلم بنفسی من غيری،و ربی أعلم بی منّی بنفسی! اللهم لا تؤاخذنی بما يقولون،و اجعلنی أفضل مما يظنون،و اغفر لی ما لا يعلمون.

فمن علامه أحدهم أنك تری له قوه فی دين،و حزما فی لين،و أيمانا فی يقين، و حرصا فی علم،و علما فی حلم،و قصدا فی غنی،و خشوعا فی عباده،و تجمّلا فی فاقه،و صبرا فی شده،و طلبا فی حلال،و نشاطا فی هدی،و تحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحه و هو علی وجل،و يمسی و همه الشكر،و يصبح وهمه الذكر، و يبيت حذرا،و يصبح فرحا،حذرا لما حذّر من الغفله،و فرحا بما أصاب من الفضل و الرحمه،ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قره عينه فيما لا يزول،و زهادته فيما لا يبقی.يمزج الحلم بالعلم،و القول بالعمل.

تراه قريبا أمله،قليلا زلله،خاشعا قلبه،قانعه نفسه،منزورا أكله،سهلا أمره، حريزا دينه، ميّته شهوته،مكظوما غيظه.الخير منه مأمول،و الشر منه مأمون.ان كان فی الغافلين كتب فی الذاكرين،و ان كان فی الذاكرين لم يكتب من الغافلين.يعفو عمن ظلمه،و يعطی من حرمه،و يصل من قطعه.بعيدا فحشه، ليّنا قوله،غائبا منكره،حاضرا معروفه،مقبلا خيره،مدبرا شره،فی الزلازل و قور،و فی المكاره صبور،و فی الرخاء شكور.لا يحيف علی من يبغض،و لا ينسی ما ذكّر،و لا ينابز بالألقاب،و لا يضار بالجار،و لا يشمت بالمصائب،و لا يدخل فی الباطل،و لا يخرج من الحق.ان صمت لم يغمّه صمته،و ان ضحك لم يعل صوته،و إن بغی عليه صبر حتی يكون اللّه هو الذی ينتقم له.نفسه منه فی عناء، و الناس منه فی راحه.أتعب نفسه لآخرته،و أراح الناس من نفسه بعده عمن تباعد عنه زهد و نزاهه،و دنوه ممن دنا منه لين و رحمه.ليس تباعده بكبر و عظمه،

و لا دنوه بمکر و خدیعه » (۱).

هـذا فی الـدنیا،أما فی الآخره فإنهم ینوون مواصـله التعب شـکرا للّه،و لکنهم فور ما یسـجدون یخاطبهم الجلیل الأعلی لیس هذا یوم تعب و عباده،انها دار الراحه و الحصاد بعد تعب الدنیا و عملها.

مُتَّکِئِینَ عَلی فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ أی داخل المتکأ و حشوه من الـدیباج الغلیظ،و الإسـتبرق کما قالوا:کلمه معربه من قولهم:(ستبرک)و هو مصغر(ستبر)بمعنی الثخین الغلیظ،و قالوا:ان ما کان حشوه حریرا خالصا فظاهره یکون کذلک بالأحری (۲).

و الآیه بکل مفرداتها و ایحاءاتها تعبیر بلیغ عن أقصی غایات الراحه،فهم متکئون و علی فرش الحریر الناعم البارد و المریح،و من حولهم کل صنوف الفواکه، و من تحتهم الأنهار بأنواعها،و تظلهم الأغصان النضره الخضراء الندیه.

وَ جَنَی الْجَنَّتَیْنِ دانٍ الإنسان فی الـدنیا لا یحصل علی شـیء إلاّ بالتعب و بذل الجهد،و الفلاح لا شک انه یلقی تعبا فی الحصاد و قطف الثمار،لان بعضها بعید عن متناول یده،فلا بد أن یتمطی لقطفها أو یرکب الشجره أو یستخدم وسیله لذلک أی انه لا بد ان یبـذل جهـدا اما فی الآخره فان ثمر الجنه متـدل قریب متی ما اشـتهی المؤمن شـیئا منه تناوله بیـده عن قرب و دنو،أو یتـدلی الیه الغصن بقدره اللّه،فهو لا یتعب من أجل ذلک، و فی الکلمه ایحاء بأن الثمر فی غایه النضج،و علی الدوام و لا یتلف،یقال دنت

۱- ۱) نهج/خ ۱۹۳ ص ۳۰۳

۲- ۲) تفسیر الرازی/ص ۲۶ ج ۲۹

الثمره إذا نضجت و اقترب قطافها.

و السؤال الذی یطرح نفسه هو:لما ذا حدّثنا ربنا بصیغه المضارعه عن الاتکاء، و الحال کما نفهم ان الصیغه یجب ان تکون للمستقبل(سیتکئون)؟ الجواب:لان المتکلم هو اللّه،و ما یریده اللّه و یعد به یحدث لا محاله،و سواء عنده تحدث بصیغه الماضی أو الحاضر أو المستقبل،لأنه قادر فعلا علی تحقیقه،مثل قوله علی صیغه الماضی: وَ أَدْخَلْنٰاهُمْ فِی رَحْمَتِنٰا إِنَّهُمْ مِنَ الصّٰالِحِینَ (۱)أو بصیغه المستقبل کقوله تعالی: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ (۲)أو بکلیهما: أَتیٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ (۳)فقد أکد وقوع امره بصیغه الماضی «أَتیٰ» حتی لکان أمره وقع فعلا،و لکنه استدرک قائلا: «فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ» دلاله عدم تحقق وقوعه.

نعم.بالنسبه للمخلوق لا یصح منه القول:فعلت أو سأفعل إذا کان یرید شیئا فی المستقبل،لان إرادته محدوده باطار مشیئه اللّه،و قد تعجزها الظروف و العقبات وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ عَلِیماً قَدِیراً (۴).

و بعد ان یشیر القرآن الی اتکاء المتقین الخائفین مقام ربهم علی فرش الحریر، بین صنوف الفواکه الدّانیه یوجه خطابه الی الثقلین:بما ذا تکذّبان من هذه الآلاء الربانیه؟

۱- ۱) الأنبیاء/۸۶

۲- ۲) النساء/۵۷

۳- ۳) النحل/۱

۴- ۴) فاطر/۴۴

هکذا بعد ذکر کل نعمه من نعیم الآخره یأتی هذا التساؤل لیهدینا الی ضروره حمد اللّه و شکره علی آلائه فی الدنیا عند کل خیر و نعمه.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ [۵۶-۵۷] فِيهِنَّ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ جاء فی المنجد:«الطمث:مصدر الدنس و الفساد» (۱)و سمی دم الحیض طمثا لفساده،و حیث ان البکاره عنوان الطهر و العفه عند المرأه،فان افتضاض بکارتها،و خروج الدم دلیل فساد المرأه أو فساد بکارتها التی تذهب بذلک،و لا ریب ان الواحد یأنس بالبکر و یرغب إلیها أکثر من الثیب،و حور کل جنه انما خلقن لصاحبها لا یسبقه إلیهن أحد من الخلق،و حیث یأتیهن یری علامه ذلک فهن طاهرات.

و لکن لماذا یقول اللّه «وَ لاٰ جَانٌّ» ؟ربما لان الجنه للمؤمنین من الإنس و الجن، فأراد التأکید علی عدم سبق أحد إلیهن،و التأکید علی الطهاره الشامله،ذلک أن الشیطان یوسوس للمرأه،و یثیر غلمتها عبر الخیال،و بالذات حین بلوغها،و قد تنتهی بها تلک الوساوس حتی تفض بکارتها بصوره أو بأخری،و لذلک جاء فی القرآن الأمر بالتعوذ منه.

و یسبق تأکیده تعالی علی طهارتهن(المادیه)بعدم الطمث،بیان لطهارتهن المعنویه،فهن قد قصرن طرفهنّ(العینی و النفسی)من غیر أزواجهن،قال أبو ذر رضی اللّه عنه:«انها تقول لزوجها:و عزه ربی ما أری فی الجنه أخیر منک،فالحمد للّه الذی جعلنی زوجک و جعلک زوجی» (۲)و هکذا حال الطاهرات العفیفات من

۱- ۱) راجع ماده طمث

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۹۸

النساء،و حال الأزكياء من الرجال انهم يمنعهم خوف مقام ربهم ان يمدوا عيونهم الى ما حرم اللّه عليهم،و إذا كان الأمن فى الآخره جزاء خوفهم فى الدنيا،و الراحه (اتكاؤهم على الفرش)جزاء تبعهم و عملهم الدؤوب فيها،فان تلكم الحور جزاء لطهارتهم فى الدنيا،بغضهم من أبصارهم،و ترفعهم عما حرم اللّه،استجابه لدعوته،و التزاما برسالته قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ (١)و لعلنا نهتدى من علاقه قصر الطرف بالطمث،ان النظره المحرمه قد تنتهى الى الزنا،و ذلك مضمون روايات كثيره، منها

قول نبى اللّه عيسى عليه السلام :«لا تكونن حديد النظر الى ما ليس لك فانه لن يزنى فرجك ما حفظت عينك،فإن قدرت أن لا تنظر إلى ثوب المرأه التى تحل لك فافعل » (٢)و ربما نهتدى بذلك الى ان الجنتين ليستا منزلا لمن خاف ربه من الرجال فحسب،بل حتى للمؤمنات العفيفات،اللواتى منعهن خوف اللّه حتى من مجرد النظر الحرام فهن من السابقات الطاهرات،و ربنا يجعلهن يوم القيامه سيدات نسائها،و أعظم جمالا جزاء تقواهن و طهارتهن،حيث يجعلهن كالياقوت و المرجان،و لا ريب ان ذلك مما تتطلع اليه كل أنثى.

جاء فى تفسير نور الثقلين ج ۵ ص ۲۰۱ نقلا عن كتاب من لا يحضره الفقيه عن الامام الصادق عليه السلام :«الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا،و هن أجمل من الحور العين ».

و معنى قوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ» انهن فى الجنه يرجعن أبكارا على الدوام،بحيث إذا جاءهن أترابهن من المتقين وجدوهن أبكارا،لم يسبقهم أحد إليهن،أو ان المعنى،بالطمث المحرم،فهن بعيدات عن ذلك،و لم يتورطن

ص:۳۵۲

۱- ۱) النور ۳۰/

۲- ۲) تنبيه الخواطر،و نزهه النواظر(مجموعه و رام)ج ۱ ص ۶۲

فيه ماديا و لا معنويا،فهن من الزوجات التى وعد المتقون: وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ (۱)كما تشمل الآيه قاصرات الطرف من الحور اللواتى يخلقهن اللّه للمتقين خصوصا،و لكن المعنى قد يكون:أنهن قصرن أنظارهن عن غير أزواجهن،و ان عدم الطمث يكون مطلقا،فهن أبكار فى الجنه و لم يفضّ بكارتهن أحد قبلهم.

و بالعوده الى أول الآيه،و مقارنتها بالآيات السابقه(۴۸-۵۰-۵۲)نجد الخطاب بالتثنيه«ذواتا،فيهما»عطفا على الجنتين،و لكنه هنا جاء بصيغه الجمع «فِيهِنَّ» و ذلك اما وصلا بالحديث عن الفرش و هو قريب،حيث يجلس المؤمنون معهن عليها،قال تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲)و قال: هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى الْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ* لَهُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ (۳)و هذا العطف يشبه وصله الآيه(۵۸)بالآيه(۵۶)،و اما يكون المعنى:

ان فى الجنتين المذكورتين-و هما الأساس-جنات كثيره فى كل واحده قصورها و حورها الخاصه بها،و قال بعض المفسرين:ان ذلك متصل بالآيه السابقه «فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ» باعتبار الحور شيئا من تلك الآلاء،و ان رحمه اللّه تحيط بالإنسان من كل جانب،و هى تمتد الى الآخره و تتسع هناك-فى الجنه- للمؤمنين،بما لا يقاس بالدنيا،ففى الجنه التجلى الأعظم لاسم الرحمن،حيث النعم المتميزه كمّا و نوعا و تنوّعا،و إذا كانت رحمته تعالى تشمل المحسن و المسىء فى الدنيا فهى هناك للمؤمنين وحدهم،لأن الآخره دار الفصل.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ بلى.أنتم يا معشر الجن و الإنس قد تكذبون بآيات اللّه، و تكفرون بنعمه،

۱- ۱) آل عمران/۱۵

۲- ۲) الطور/۲۰

۳- ۳) يس/۵۶-۵۷

و لكنها تظل تتوالى عليكم،و ربما زادها اللّه ليزداد المكذب إثما،فلا يبقى ثمه حظ له فى الآخره،و لا نصيب من رحمه اللّه،و رحمه ربك خير مما يجمعون وَ لَوْ لاٰ أَنْ يَكُونَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ* وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ* وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۱)و ما قيمه حطام الدنيا حتى يغتر به الإنسان،فيعتبره خيرا كلما زاده اللّه منه،و يتخذه وسيله للتمادى فى الكفر، و التكذيب بالرحمن-عزّ و جلّ-إنه سوف يحرم نفسه من رحمته العظمى فى الآخره من العيون،و الأنهار،و الفواكه،و فرش الإستبرق،و الحور العين،فلما ذا يحيل رحمه ربه له فى الدنيا خساره لذلك النعيم،و غضبا عليه بسبب التكذيب؟! و لاننا لا نستوعب حقيقه نعيم الاخره،فانه تعالى يشير اليه إشاره تقريبيّه،من خلال التشبيه،ففى الجنه ما لا عين رأت،و لا أذن سمعت،و لا خطر على قلب بشر،

و فى الأخبار لو حدث اللّه الناس عن الجنه كما هى لما صدقوا ، و لعلنا نهتدى الى هذا المعنى من الآيه الكريمه: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲)إذ ينفى ظاهرها امكانيه العلم أصلا.

و لكى نقترب من هذه الفكره دعنا نتصور قاصرات الطرف:هل هن يشبهن نساء الدنيا؟و ما مدى جمالهن؟ قد نجيب على تلك الأسئله،و لكن بأى دليل،و على أى مقياس؟!لعل عقولنا بل خيالاتنا تتمكن من استيعاب أقصى حد للجمال،بأجمل امرأه فى العالم،و لكن هل يمكنها ان تتصور جمالا يفوق ذلك مليون مره؟!كلا..لذلك يقول ربنا و هو

۱- ۱) الزخرف۳۲/-۳۵

۲- ۲) السجده۱۷/

يحدثنا عن قاصرات الطرف مشبها:

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ قيل يشبهن الياقوت صفاء،فبشرتهنّ لا يشوبها عيب،و تشبه المرجان حمره،أو هى ناصعه البياض مشرّبه بحمره الياقوت،و ربما نستوحى من الآيه معنى آخر فكما ان الياقوت ليس كأىّ حجر يحصل عليه الإنسان بسهوله،بل لا بد له من البحث عنه و الاجتهاد،و كما ان اليد لا تصل الى المرجان إلاّ بالغوص الى أعماق البحار و تحمل المشقه،فان للجنه ثمنا لا يحصل عليها صاحبها الا به،قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللّهِ (١).

و لعل شكر نعم اللّه الماديه و المعنويه من أهم مفاتيح الجنه،فإن شكر الآلاء بارك له و زاده،ليس فى الدنيا و حسب،بل فى الآخره أيضا،لأنها امتداد للأولى،و مصيره فيها يحدده موقفه من نعم اللّه.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و للعبد أن يعرف حجم تكذيبه بآلاء ربه،من خلال العذاب الذى سوف يلقاه فى الآخره،و من الحسره و الندامه التى تحل به جزاء خسارته الأبديه الكبرى لنعيم الجنه و ثوابها.

[٦٠]كل أبعاد الخليقه نعمه و هى-بالتالى-من آلاء ربنا الرحمن،

١- ١) البقره/٢١۴

و أصحاب الجنه هم الذين تحسّسوا شهود ربهم عبر آلائه،و عرفوه فآمنوا برسالاته، و اتبعوا رسله،و اتقوه حق تقاته،فأحسنوا بذلك فی الدنیا..لقد أحسنوا التصرف فی نعم اللّه و آلائه کلها،فکان من إحسانهم بذلهم إیّاها للآخرین.إنهم أدرکوا بعمق معنی الخوف من مقام ربهم،فلم یجعلوه محدودا بقلوبهم،بل جعلوه برنامجا متکاملا لحیاتهم،و إذا بهم یفیضون فاعلیه و عطاء و تضحیه،فتراهم یبذلون کل ما یملکون، اتقاء غضب اللّه،و طمعا فی رضاه و ثوابه،و لن تذهب أعمالهم سدی، و لو کان بمقدار حبه من خردل خیرا یأتی به اللّه لیجزی علیه صاحبه إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ (1)انما یحفظه و ینمیه و ینمی به خیر فاعله،و یرده علیه فی الدنیا و الآخره، یَمْحَقُ اللّٰهُ الرِّبٰا وَ یُرْبِی الصَّدَقٰاتِ وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ کَفّٰارٍ أَثِیمٍ (2)،و لقد فطر اللّه الحیاه بهذه السنه،ان الإنسان یحصد ما یزرع،فان زرع خیرا حصد الخیر،و ان زرع الشر لا یحصد إلّا الشر.

هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ انها حقیقه فطریه یشهد بها الجمیع:ان الإحسان لا یکافئ إلّا بالإحسان و تتجلی هذه الحقیقه فی أبهی صورها فی الجنه،و هکذا القرآن یستثیر فی البشر رکائز فطرتهم لیستشهد بها علی أنفسهم بما جبلوا علیه،و تعارفوا فیما بینهم به.

یروی عن علی بن سالم انه قال:سمعت أبا عبد اللّه الصادق(علیه السلام) یقول: «آیه فی کتاب اللّه مسجله»قلت:و ما هی؟قال:«قول اللّه عزّ و جلّ:

«هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ» جرت فی الکافر و المؤمن،و البر و الفاجر، و من صنع الیه معروف فعلیه أن یکافئ به،و لیس المکافأه أن یصنع کما صنع

1- 1) التوبه/120

2- 2) البقره/276

حتی یربی،فان صنعت کما صنع کان له الفضل بالابتداء » (۱).

و جاء فی حدیث مأثور عن النبی -فی تأویل الآیه-«هل جزاء من أنعمنا علیه بالتوحید إلاّ الجنه » (۲).

[۶۱]و تنعکس هذه الآیه علی سلوک المؤمن فیتخذ آلاء ربه المسبغه علیه سلّما الی الکمال الروحی،و بناء المجتمع،و سببا الی نیل رضوان اللّه،و لیست وسیله الی التکذیب به تعالی کما یفعل الکثیر من الجن و الإنس.

فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ أو لیس قد أحسن اللّه إلیهم و أسبغ علیهم نعمه ظاهره و باطنه،فکذبوا بآلائه؟!و لماذا نبخل علی الآخرین؟!و ما یدریک لعل اللّه یقطع إحسانه عنا إذا ترکنا الإحسان الی الناس،أو لیس للّه ملکین ینادیان کل لیله جمعه:

«اللهم أعط کل منفق خلفا،و کل ممسک تلفا » (۳)فعلی م البخل اذن؟!کما ان فی داخلهم إحساس عمیق بأنهم لا یملکون النعم،و انما هی أمانات اللّه استخلفهم فیها،فلما ذا یخرجون عن امره بإنفاقها؟!یقول سبحانه: وَ أَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَکُمْ مُسْتَخْلَفِینَ فِیهِ (۴)وَ ابْتَغِ فِیما آتاکَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَهَ وَ لا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیا،وَ أَحْسِنْ کَما أَحْسَنَ اللّهُ إِلَیْکَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ (۵).

و کما ان الإحسان یجلب الإحسان و الزیاده فی النعم،فان الاساءه و الفساد فی الأرض یسلب النعمه،بل و یجعلها نقمه،قال ربنا سبحانه:

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۱۹۹

۲- ۲) المصدر/ص ۱۹۸

۳- ۳) بحار الأنوار/ج ۹۶ ص ۱۱۷

۴- ۴) الحدید/۷

۵- ۵) القصص/۷۷

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا (۱).

[۶۲]ثم یمضی السیاق یحدثنا عن جنتین أخریین،تختلفان فی نعیمهما عن الأولیتین:

وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ یبدو من المقارنه بین الجنان الأربع و سائر النصوص ان درجات الجنه عدیده و الناس فیها متفاضلون،فبالرغم من أن أهل الجنه جمیعهم منعّمون و راضون بما قسم اللّه لهم من الفضل،و لکنهم کما تفاوتوا فی الایمان و العمل فی الدنیا فإنهم یتفاوتون و یتفاضلون فی درجات الجنه،قال تعالی: هُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بَصِیرٌ بِمٰا یَعْمَلُونَ (۲)و حتی الأنبیاء یتفاضلون فیما بینهم،قال اللّه: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ (۳)و هذا التفاضل الذی یقرّه اللّه لیس اعتباطیا،انما یعتمد الحکمه و العلم قال تعالی: نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ (۴).

و قال النبی صلی الله علیه و آله :«جنتان من فضه،أبنیتهما و ما فیهما،و جنتان من ذهب،أبنیتهما و ما فیهما » (۵)،

و قال الامام الصادق علیه السلام یخاطب أحدا:لا تقولن الجنه واحده،ان اللّه یقول: «وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ» و لا تقولن درجه واحده،ان اللّه یقول:«درجات بعضها فوق بعض»-ثم أضاف-«انما تفاضل القوم بالأعمال » (۶).و لکن اختلاف الدرجات و التفاضل لا یخلف أثرا

ص:۳۵۸

۱- ۱) الإسراء/۷

۲- ۲) آل عمران/۱۶۳

۳- ۳) البقره/۲۵۳

۴- ۴) الأعراف/۸۳

۵- ۵) مجمع البیان/ج ۹-/۱۰عند تفسیر الآیه

۶- ۶) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۰۰

من حسد أو بغضاء بين المؤمنين هناك بعكس حال أهل الدنيا حيث يتعالى الغنى على الفقير،أو العالم على الجاهل،أو الحاكم على المحكوم،قال ربنا: «وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلی سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ» (۱)فهم راضون قانعون بما قسم اللّه لهم،إذ يعلمون بحكمته و انهم الذين وضعوا أنفسهم حيث هم،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله فی وصيته لابی ذر(ر ض):«يا أبا ذر!الدرجه فی الجنه كما بين السماء و الأرض!و ان العبد ليرفع بصره فيلمع له نور يكاد يخطف بصره،فيفزع لذلك،فيقول ما هذا؟!فيقال:هذا نور أخيك،فيقول أخی فلان!كنا نعمل جميعا فی الدنيا، و قد فضل علیّ هكذا؟فيقال له:إنه كان أفضل منك عملا ثم يجعل فی قلبه الرضا حتى يرضى » (۲)و لعل أعظم مقاييس التفاضل:التطوع فی سبيل اللّه فهناك فريق من المؤمنين ينذرون أنفسهم فی سبيل اللّه،و هم مفضلون على من سواهم،و سواء كان هؤلاء ربانيين أو أحبارا أو مجاهدين فإنهم السابقون بالخيرات على عامه المؤمنين،الذين يلتزمون بالواجبات،و يتجنبون المحرمات، و يعملون الحسنات،و لكنهم لا يتطوعون كليّا للّه،بل تراهم يمارسون حياتهم العاديه ضمن ما شرع لهم ربهم،و هم القاعدون الذين وعدهم اللّه الحسنى أيضا، و لكن فضل عليهم المجاهدين أجرا عظيما.

و القاعدون من المؤمنين أمثال العمال و الفلاحين و الحرفيين و التجار و الموظفين، و سائر أبناء الأمه،بينما المجاهدون هم المتصدون لقضايا الأمه،كالعلماء العاملين و المجاهدين فی سبيل اللّه،ان هؤلاء يسهرون على مصالح الأمه،و يبادرون للدفاع عنها،و يتصدون لقيادتها نحو الخير و الحق،متحملين فی ذلك الصعاب،انهم يستقرون فی منازلهم و درجاتهم الرفيعه فی الجنه،يقول من دونهم إذا نظروا إليهم:

۱- ۱) الحجر/۴۷

۲- ۲) بح/ج ۷۷ ص ۷۸

«ربنا إخواننا كنا معهم فی الدنيا فبم فضلتهم علينا؟!فيقال:هيهات هيهات! انهم كانوا يجوعون حين تشبعون،و يظمأون حين تروون،و يقومون حين تنامون و يشخصون حين تحفظون» (۱) هكذا قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله ،و لعلنا نلمس فی النصوص المأثوره عن النبی و الأئمه عليه السلام أبعاد هذا التمايز،فمثلا أكثر وصاياهم و كلماتهم موجهه الی عامه الناس،بينما نجد فی كلماتهم وصايا تخص الطلائع و القاده من أمثال كميل،و أبی ذر،و سلمان،و ابن مسعود،و ابن جندب.

و انما يؤكد اللّه هذا التفاضل-كما هو الحال فی حديثه هنا عن الجنات الأربع- لكی يتسابق الناس الی الخير،و قد صرح القرآن بهذا الهدف إذ قال: سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ (۲)بل اعتبر القرآن التسابق فی إتقان العمل هدفا للخلق: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۳)و قال: اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۴).

و نخلص الی القول بان الدونيه فی الآيه بمعنی الأقل فی الفضل،كقولنا فلان دون فلان فی العلم،فهو أقل منه علما،و عليه فان الجنتين الأخريين اما تكونان لصاحب الجنتين الاوليتين المذكور فی قوله تعالی: «وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» يستقبل فيهما من هو أقل منه فضلا و درجه عند اللّه،و هما بذلک دار ضيافته لإخوانه من المؤمنين،الذين يتزاورون فی الجنه،أما الأوليتين فتخصه و يستقبل فيهما أو فی إحداهما انداده،أو تكونان(الأخريين)منزلا لمن هم أقل درجه ممن يخافون مقام ربهم.

۱- ۱) بح/ج ۷۷ ص ۷۷

۲- ۲) الحديد/۲۱

۳- ۳) هود/۷.

۴- ۴) الملک/۲

و قد تكون الجنتان الدانيتان هما فى الدنيا معدّتان لمن خاف مقام ربه قبل دخول جنه الخلد،و بذلك جاءت

روايه عن الامام الصادق عليه السلام،قال عنهما:

«خضراوتان فى الدنيا يأكل المؤمنون منها حتى تفرغ(يفرغون)من الحساب » (۱).

[۶۳]و مما يحدد درجه العبد ابتداء من أعلى درجه فى الجنه و انتهاء بأسفل درك فى النار موقفه من آلاء ربه،و ذلك بمدى تصديقه أو تكذيبه بها،و مدى انتفاعه منها،و مدى حسن تصرفه فيها.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ما هو مدى التكذيب بها،فقد يكون مستوى التكذيب هو الكفر و الجحود،و قد يكون عدم استغلال النعمه كما ينبغى،فهو الآخر نوع من التكذيب بالنعمه قد لا يقصده الإنسان،و لكنه ينعكس على مستقبله فى الآخره،و ربما يؤدى أحدنا شكر نعمه دون اخرى،فيودى شكر نعمه العلم،و يقصر فى نعمه المال،أو بطبق آيه من القرآن و يترك اخرى،أو يعصى بعينه من خلال النظر الى ما حرم اللّه،بينما لا يستمع الى الغيبه و النميمه، فيكون قد ادى شكر نعمه الاذن دون نعمه العين.

[۶۵-۶۴]و يضع الوحى أمامنا صورا عن ذات النعم التى ذكرها فيما يتعلق بالجنتين الاوليتين للمقارنه بينهما،لنختار الأفضل بينهما و نجعلهما هدفا نسعى نحو تحقيقه،بأقصى ما يمكن من السعى.

مُدْهٰامَّتٰانِ و الدهمه سواد الليل،و قولنا:ليل أدهم يعنى شديد الظلام،و يعبر بها عن

۱- ۱) تفسير نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۰۰

سواد الفرس (۱)و الخضره الشدیده الغلیظه المتواصله لأنها تضرب الی السواد،

و یقرب الإمام الصادق علیه السلام صورتهما حین یقول:«یتّصل ما بین مکه و المدینه نخلا » (۲)و حینما نعقد مقارنه بین کلمه «مُدْهٰامَّتٰانِ» و ما یقابلها فی وصف الجنتین الاولیتین «ذَوٰاتٰا أَفْنٰانٍ» نعرف ان الاولیتین خضراوتان أیضا و لکن أشجارها ذوات أغصان کأشجار الفاکهه،و لعل أغلبها منها،بینما الجنتان اللتان دونهما لیستا کذلک،و هذه الأشجار إذا انضمت الی بعضها و اتصلت تضرب الی الخضره،و تکون جمیله ذات السوق الطویله،و لکن جمال ذوات الأفنان و فوائدها أکثر،و لعل أحد أبرز أسباب التفاضل بین النوعین من الجنان هو مدی الشکر آلاء اللّه أو التقصیر فیها.

جاء فی الأثر عن العلاء بن سیابه عن أبی عبد اللّه علیه السلام قلت له:

ان الناس یتعجبون منا إذا قلنا:یخرج قوم من النار فیدخلون الجنه! فیقولون لنا:

فیکونون مع أولیاء اللّه فی الجنه؟!فقال علیه السلام :یا علی ان اللّه یقول: «وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ» ما یکونون مع أولیاء اللّه (۳)فاذا کنا نرغب فی درجات الأولیاء،یجب أن نستجیب لنداء القرآن المتکرر:

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ قائلین کما قال المؤمنون من الجن،و کما

امر الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله :«لا و لا بشیء من آلاء ربنا نکذب » (۴).

[۶۶-۶۷]و یأخذنا القرآن الی داخل الجنتین،و یقف بنا هذه المره علی مقربه من عینین تنبعان بالماء و حیث نقارن بینهما و بین العینین اللتین مر ذکرهما

۱- ۱) مفردات الراغب

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۰۰

۳- ۳) المصدر

۴- ۴) المصدر/ص ۱۸۸

نجدهما أقل منهما لأنهما لا تجريان.

فِيهِمٰا عَيْنٰانِ نَضّٰاخَتٰانِ جاء فى المنجد:نضخ الماء اشتد فورانه من ينبوعه،و عين نضاخه فواره غزيره (۱)و فى تفسير الدرّ المنثور:اخرج عبد الحميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم،عن البراء بن عازب قال:العينان اللتان تجريان خير من النضاختين و لفظ عبد قال:ما النضاختان بأفضل من اللتين تجريان (۲).و هذا لا يعنى ان ليس فى هاتين الجنتين أنهار تجرى من تحتها،و لكن اللّه يضيف الى أصحاب الجنتين الاوليتين سواقى و أنهارا تجرى من العيون حيث لا توجد هذه الميزه فى اللتين دونهما.

و هذا بالطبع لا يقلل من شأنهما أبدا،ذلك ان مجرد النجاه من النار فوز عظيم.

قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمٰا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّٰارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّهَ فَقَدْ فٰازَ وَ مَا الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ مَتٰاعُ الْغُرُورِ (۳).

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ و هذه الآيه يجب ان تكون لنا شعارا،فأى نعمه من نعم ربنا التى لا تعد و لا تحصى-و التى هى آيه على رحمانيته-يمكننا أن ننكرها و نكذب بها؟!ثم لماذا نكذب بآلاء الرحمن؟!و انه يكشف لنا عن غيب رحمته،و يفتح لنا أبوابها،ثم يدعونا بلطفه لكى لا تفوتنا،بلى.قد تفوتنا الجنتان الأوليتان و لكن دعنا نتقيه ما استطعنا لندخل الجنتين الأخريين،أو ليست هذه نعمه و آيه تدلنا الى رحمته؟

۱- ۱) المنجد/ماده نضخ

۲- ۲) تفسير الدر المنثور/ج ۶ ص ۱۵۰

۳- ۳) آل عمران/۱۸۵

[۶۹-۶۸]ثم لننظر الی آیاته و نعمه فی الطبیعه من حولنا،و لنستمع الی کتابه و هو یحدثنا عن جنتین هما دون الدرجات العلی،و لکنهما مظهر لرحمته تفوقان خیر الدنیا و نعیمها.

فِیهِمٰا فٰاکِهَهٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّٰانٌ و قد اختلف المفسرون فی تحدید العلاقه بین الثلاثه(الفاکهه و النخل و الرمان) فقال بعضهم:ان الفاکهه اسم الجنس العام و ما یلیها تفریع و تخصیص،و اعتبر البعض الثلاثه أجناسا مختلفه،و لیس ثمر النخل أو الرمان من الفاکهه،و قال آخرون:انه ذکر الجنس(الفاکهه)و أشار الی أفضلها و أحسنها(ثمر النخل، و الرمان)

لقول الامام الصادق علیه السلام :«الفاکهه مائه و عشرون لونا سیدها الرمان » (۱)

و لقوله :«خمس من فواکه الجنه:(منها)الرمان و الرطب » (۲).

و الذی یهمنا ان اللّه ضرب الثلاثه مثلا مما فی الجنتین للإشاره لا للحصر.و مع ذلک تبقیان دون الأولیتین علوا و سعه و نعیما،فهناک قال اللّه فیهما «مِنْ کُلِّ فٰاکِهَهٍ» لیس واحده،بل «زَوْجٰانِ» .و هنا قال «فِیهِمٰا فٰاکِهَهٌ» فقط،و ربما قصرت الکلمه عن استیعاب الجنس بکل مفرداته و أنواعه،و هذه المفارقه تشبه الی حد بعید قوله فی سوره الواقعه یصف ما فی جنات السابقین المقربین: وَ فٰاکِهَهٍ مِمّٰا یَتَخَیَّرُونَ (۳)، و قوله یصف جنات أصحاب الیمین الأقل منهم درجه: وَ فٰاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ* لاٰ مَقْطُوعَهٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَهٍ (۴).فأولئک ما یتخیرون و یشتهون حتی و لو لم یکن موجودا قبل التخیر و الشهوه،و دون ذلک هؤلاء،و لا غرابه فربنا یقول و هو الصادق:

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۰۱

۲- ۲) المصدر/ص ۲۰۰

۳- ۳) الواقعه ۲۰/

۴- ۴) الواقعه ۳۲/

لاٰ یَسْتَوِی مِنْکُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قٰاتَلَ أُولٰئِکَ أَعْظَمُ دَرَجَهً مِنَ الَّذِینَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قٰاتَلُوا وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنیٰ (۱).

ان الجنـتین إذا نظرنـا الی نعیمهمـا و ان کانتـا دون الأـولیتین فهمـا حقـا مظهر لاـسم الرحمـن،انه غنی أن یخلقنـا و لکنه بلطفه و حکمته خلقنا،ثم لم یـدعنا هکـذا انما فطرنا علی الحق و المعرفه به،فهـدانا الی النجدین،و علمنا،ثم أعطانا العقل، و أمرنا بالطاعه له،و فتـح لنـا باب التوبه حتی تبلغ النفس التراقی،و هو قادر بعـد الموت أن لا یبعثنا،و ان بعثنا عـذبنا،و لکنه خلق الجنه لیکرمنا لا بعملنا،فنحن لا نستطیع أن نؤدی شکر نعمه واحده من نعمه،بل بفضله الذی لولاه ما دخل أحد الجنه حتی

رسوله الأکرم صـلی الله علیه و آله و هو القائل :«و الذی نفسی بیده،ما من الناس أحد یدخل الجنه بعمله»قالوا:و لا أنت یا رسول اللّه؟قال:«و لا أنا إلاّ أن یتغمدنی اللّه برحمه منه و فضل»و قد وضع یده علی رأسه و طوّل بها صوته (۲).

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ و لیس لنا امام هذه النعمه إلاّ القول:

«لا بشیء من آلاء ربنا نکذب ».

[۷۰-۷۱]ثم یقول وصفا لنعیم الجنتین:

فِیهِنَّ خَیْرٰاتٌ حِسٰانٌ فلما ذا خرج عن التثنیه الی الجمع فلم یقل فیهما؟!هناک وجوه:

الأول:ان ذلک یدل علی تعظیم شأن هاتین الجنتین بالرغم من انهما دون ما سبق الحدیث عنه فی وصف الجنتین الأولیتین.

ص:۳۶۵

۱- ۱) الحدید/۱۰

۲- ۲) بح/ج ۷ ص ۱۱

الثاني:ان الكلام متصل بالآلاء فی الآیه السابقه،باعتبار الخیرات الحسان من الآلاء.

الثالث:ان الحدیث هنا لیس فقط عن الجنتین الأخریین بل عن کل الجنان بما فیها الجنتان الاولیان.و هذا أقرب الی السیاق،بالذات حینما نقول بأن معنی الخیرات الحسان هن النساء المؤمنات باعتبارهن الأفضل و الأجمل،و هکذا

قال الامام الصادق علیه السلام :«الخیرات الحسان من نساء أهل الدنیا،و هن أجمل من الحور العین » (۱)،

و بقوله :«هن صوالح المؤمنات العارفات » (۲).

و فی الخبر حدث الرسول صلی الله علیه و آله عن نعیم الجنه،ثم ذکر الحور العین فقالت أم سلمه:بأبی أنت و أمی یا رسول اللّه أ ما لنا فضل علیهن؟قال:«بلی بصلاتکن و صیامکن و عبادتکن للّه،بمنزله الظاهره علی الباطنه » (۳).

و من معانی الآیه ما

قاله رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«یعنی خیرات الأخلاق،حسان الوجوه » (۴)و انما تسمی ذوات الأخلاق بالخیرات،لأن صلاح المرأه یعود علی زوجها و علی المجتمع بالخیر الکثیر،کما ان فسادها یؤدی الی شر کبیر.

و حینما یسأل النبی صلی الله علیه و آله عن خیر الخیر و شر الشر یقول:«خیر الخیر المرأه إذا صلحت، و شر الشر المرأه إذا فسدت ».

و تتجلی هذه النعمه أکثر فأکثر فی الجنه

فقد جاء فی الحدیث المأثور عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و هو الصادق المصدق یصف لنا جانبا من نعمه الخیرات الحسان فی الجنه:

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۰۱

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) بح/ج ۸ ص ۲۱۳

۴- ۴) المصدر

و ان فی الجنه لنهرا حافّتاه الجواری قال:فیوحی إلیهن الرب تبارک و تعالی:

اسمعن عبادی تمجیدی و تسبیحی و تحمیدی،فیرفعن أصواتهن بألحان و ترجیع لم یسمع الخلائق مثلها قط،فتطرب أهل الجنه،و انه لتشرف علی ولی اللّه المرأه لیست من نسائه من السجف فملأت قصوره و منازله ضوءا و نورا،فیظن ولی اللّه أنّ ربه أشرف علیه،أو ملک من ملائکته،فیرفع رأسه فاذا هو بزوجه قد کادت یذهب نورها نور عینیه،قال:فتنادیه:قد آن لنا أن تکون لنا منک دوله،قال:

فیقول لها:و من أنت؟قال:فتقول:أنا ممن ذکر اللّه فی القرآن: «لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ» فیجامعها فی قوه مائه شاب و یعانقها سبعین سنه من أعمار الأولین،و ما یدری أ ینظر الی وجهها أم الی خلفها أم الی ساقها؟!فما من شیء ینظر الیه منها إلاّ رأی وجهه من ذلک المکان من شده نورها و صفائها،ثم تشرف علیه أخری أحسن وجها و أطیب ریحا من الأولی،فتنادیه فتقول:قد آن لنا أن یکون لنا منک دوله،قال:فیقول لها و من أنت؟فتقول:أنا من ذکر اللّه فی القرآن: «فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» .

قال:و ما من أحد یدخل الجنه إلاّ کان له من الأزواج خمسمائه حوراء،مع کل حوراء سبعون غلاما و سبعون جاریه کأنهن اللؤلؤ المنثور،کأنهن اللؤلؤ المکنون (۱).

هذا نزر قلیل من آلاء اللّه و رحمته،التی تنتظرنا لو آمنا و خفنا مقامه تعالی فلم نعصه و نتجاوز حدوده.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ أیها الانس و الجن.

۱- ۱) بح/ج ۸ ص ۲۱۴

[۷۵-۷۲]انهن يقلن-الحور-:

«نحن الخالدات فلا نموت،و نحن الناعمات فلا نيأس،أزواج رجال كرام» (۱)،لو أشرفت إحداهن على أهل الدنيا لماتوا رغبه فيها.

حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ قال على بن إبراهيم:يقصر الطرف عنها،و تابعه صاحب المجمع،و قيل:

قصر طرفهن على أزواجهن فهو شبه بقوله «قاصِراتُ الطَّرْفِ» و استلطف الفخر الرازى التعبير فقال:ان المؤمن فى الجنه لا يحتاج الى التحرك لشىء،و انما الأشياء تتحرك اليه،فالمأكول و المشروب يصل اليه من غير حركه منه،و يطاف عليهم ما يشتهون،فالحور يكنّ فى بيوت،و عند الانتقال الى المؤمنين فى وقت إرادتهم،تسير بهم للارتحال الى المؤمنين خيام،و للمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام الى القصور (۲)فهن يقصرن.

و فى حديث الامام الصادق عليه السلام يشير الى هذا المعنى قال:«الحور هى البيض المضمومات،المخدرات فى خيام الدرّ و الياقوت و المرجان،لكل خيمه أربعه أبواب،على كل باب سبعون كاعبا(الجاريه حين يبدو ثديها)حجابا لهن، و يأتيهن فى كل يوم كرامه من اللّه عز ذكره،يبشر اللّه عزّ و جلّ بهن المؤمنين » (۳)

و قال النبى صلى الله عليه و آله :«الخيمه دره واحده طولها فى السماء ستون ميلا » (۴)فهن ملكات الجنه و حولهن الوصائف.

و هذا مما يعد اللّه الخائفين مقامه،و لا ريب أن الوعد الالهى يلتقى بعمق و شمول

ص:۳۶۸

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۰۲

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۲۹ ص ۱۳۵

۳- ۳) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۰۲

۴- ۴) المصدر

مع تطلعات الإنسان،و ان الجنه هی الصوره الفضلی التی یصیغها الإنسان بعمله فی الدنیا،و ان المؤمن لا یتطلع الی أی زوجه،و انما یبحث فی شریکه حیاته عن صفات معینه،و أهمها العفه و الطهر،لأنهما عنوان الاسره الصالحه،و ما هی قیمه العیش مع شریکه یمتد طرفها،و تبیع طهرها و نفسها الی کل من هب و دبّ؟!أم کیف تکون الأسره مصنعا للأجیال الفاضله،و تأخذ موقعها و دورها فی بناء المجتمع إذا کانت الأم لا تعرف العفاف؟! ان وعد اللّه للمؤمنین ان ینعم علیهم بالحور الباکرات،لیس فقط إرضاء للتطلعات الجنسیه عند الإنسان،بل و قبل ذلک یحقق تطلعاته المعنویه إذ ان الفتاه العذراء أشد حبا لزوجها و إخلاصا من المرأه التی أعطت بکارتها لغیره.

و کلمه أخیره:لعلنا نستفید من ذکر القرآن لصفات الحور هنا و هی الأخلاق الطیبه«خیرات»،و الجمال«حسان»،و العفه و الطهر «مَقْصُورٰاتٌ فِی الْخِیٰامِ * و لَمْ یَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ» ،ان هذه الصفات هی غایه ما ینبغی للمؤمن التطلع إلیها فی زوجته،لتکون حیاته معها سعیده فاضله.

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ* لَمْ یَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ نعم..هذا وعد اللّه،و ان المؤمن لتواجهه مختلف الضغوط باتجاه الانحراف عن الحق،استجابه لشهواته،و ربما لعبت شهوه البطن،و الجنس،و حب الراحه دورا فی تخلفه عن مقام الخائفین من مقام ربهم،و لکنه إذا ما تذکر الآخره و ما وعد اللّه المطیعین له الخائفین منه من النعیم،فسوف یقاوم الضغوط و یمیت فیه الشهوه الحرام،و یستجیب لنداء ربه:

فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ

یقول:لاـ بشیء من آلائک رب أکذب،و یعمل علی تحقیق ذلک فی حیاته،ثم لما ذا یکذب بها و هو یعلم ان ذلک النعیم لا ینال إلّا بالتصدیق؟! [۷۶]لان المؤمن یشتری راحه الآخره بتعب الدنیا لعلمه بان الذی یتخلف عن الحق هنا للراحه لا یجدها فی الآخره،أما المؤمنون و قد رهنوا أنفسهم للحق، و أجهدوها من أجله فإنهم یجلسون فی غایه الراحه.

مُتَّکِئِینَ عَلیٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِیٍّ حِسٰانٍ جاء فی المنجد:الرف:ما تهدل من الشجر و النبات،و کل ما فضل فثنی، و الرقیق من ثیاب الدیباج،و هی خرقه تحاط فی أسفل الفسطاط(و الخیمه)و العرب تقول:ضربت الریح رفرف الفسطاط أی ذیله،و هو ما تدلی من الدرع،و رفرف الدرع زرد یشد بالبیضه یطرحه الرجل علی ظهره (۱)و قالت العرب لکل ثوب عریض رفرف،و الذی یجمع هذه المسمیات انها ترف بفعل الریح أو الحرکه،و لعل الرفرف المعنی فی الآیه هی الوسائد و المساند المصنوعه من الدیباج،و الغیر محشوه کثیرا،فهی ترف کلما اتکأ علیها،بل الحریر یرف لرقته و نعومته کلما حرک أو ضربته الریح،أما العبقری فهی:البسط الموشاه بالحریر،و تقول العرب للثیاب الحریر المصنوعه بدقه و إبداع عبقریات،مبالغه فی حسنها،و یقال للإنسان:

عبقری إذا تفتق عقله،و تفجرت مواهبه بما هو فوق المألوف،و ربنا لم یقل:

«عَبْقَرِیٍّ» و حسب بل أضاف إلیها صفه «حِسٰانٍ» مبالغه فی حسنها،کما وصف الرفرف باللون الأخضر لأنه أجمل ما یمکن أن تکون علیه الوسائد لونا.

[۷۷] فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ

ص:۳۷۰

۱- ۱) المنجد ماده(رف)بتصرف

و ان نعم اللّه التی تحیط بالإنسان و الخلیقه فی الدنیا،و نعیمه الذی ینتظر المؤمنین به فی الآخره،لدلیل علی أنه الرحمن.

[۷۸] تَبٰارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ و تبارک من الأسماء الاربعه الرئیسیه للّه و هی«سبحان،تعالی،و تبارک، و اللّه»،و قال العلامه المجلسی(ر ض):و اما تبارک فهو من البرکه،و هو عزّ و جلّ ذو برکه،و هو فاعل البرکه و خالقها و جاعلها فی خلقه،و تبارک و تعالی عن الولد و الصاحبه و الشریک و عما یقول الظالمون علوا کبیرا (۱)و لعله الاسم الذی یتصل بجانب الفعل الإلهی فی الخلق،فهو مستمر و متکامل و یزداد برکه،فهو إذا قریب من اسم(الرحمن)و لعلنا نستطیع القول بأن السوره ابتدأت بالجانب المعنوی لتبارک(الرحمن)و انتهت بالجانب الظاهر منه(تبارک).

کما یبدو ان(الرحمن،و ذو الجلال و الإکرام)من الأسماء الفرعیه لتبارک، و مظهر له،و حینما نجاور الآیه ۲۷ «وَ یَبْقیٰ وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ» بهذه الآیه،نهتدی الی حقیقتین:

الاولی:ان وجه اللّه هی أسماؤه،کالرحمن،و الباقی،و ذو الجلال و الإکرام.

الثانیه:ان أسماء اللّه منزهه کما ذاته تعالی.فهناک قال «ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ» یعنی وجه الرب،و هنا قال «ذِی الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ» یعنی ذات الرب،و لکن تنزیه الأسماء لیس ذاتیا انما هو باللّه،کما لا نعنی بذلک أن أسماء اللّه هی ذاته..کلا..

فقد قال الامام أبو عبد اللّه علیه السلام :اللّه غایه من غیّاه،

۱- ۱) بح/ج ۴ ص ۲۰۸

فالمغيّا غير الغايه،و توحد بالربوبيه،و وصف نفسه بغير محدوديه،فالذاكر اللّه غير اللّه،و اللّه غير أسمائه،و كل شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق،ألا ترى قوله: اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ ،العظمه للّه،و قال: «وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا» و قال: «قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ» فالأسماء مضافه اليه.و هو التوحيد الخالص (۱).

و الجلال اسم يحتوى على كل معانى العظمه و الكبرياء،بينما الإكرام يدل على كل معانى الجمال،فهو رحيم،حنان،غفور،منان،عطوف،عالم،قادر، و أسماء الرب أساسا تنقسم الى نوعين:الأول:تبين انه منزه عن النقص، و الثانى:تبين جوانب الكمال.

و كلمه أخيره:هناك علاقه بين سوره الرحمن التى تحدثنا عن ثلاث فئات من الناس(المجرمين أصحاب الجنتين الأوليين-و أصحاب الجنتين التاليتين)و بين سوره الواقعه التى تحدثنا أيضا عن ثلاث فئات هى(السابقون- أَصْحٰابُ الْيَمِينِ أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ) ،و بالتدبر نكتشف أن المجرمين هم أصحاب المشئمه، و السابقون هم أصحاب الجنتين الأوليين،و أصحاب اليمين هم أصحاب الأخريين.

۱- ۱) المصدر/ص ۱۶۰

سوره الواقعه

اشاره

ص:۳۷۳

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

١/

عن الإمام أبی جعفر علیه السلام :«من اشتاق إلی الجنه وصفتها فلیقرأ الواقعه،و من أحبّ أن ینظر إلی النّار فلیقرأ سوره لقمان» (نور الثقلین ج ۵ ص ٢٠٣) /٢

و عنه علیه السلام :«من قرأ الواقعه کلّ لیله قبل أن ینام لقی اللّه عزّ و جلّ و وجهه کالقمر لیله البدر» (البرهان ج ۴ ص ٢٧٣) /٣

ذکر القرطبی فی فضل السوره نقلا-عن أبی عمر ابن عبد البر فی«التمهید»و «التعلیق»و الثعلبی أیضا :أنّ عثمان دخل علی ابن مسعود یعوده فی مرضه الذی مات فیه فقال:ما تشکی؟قال:ذنوبی.قال:فما تشتهی؟قال:رحمه ربّی.

قال:أ فلا ندعو لک طبیبا؟قال:الطبیب أمرضنی،قال:أ فلا نأمر لک بعطائک؟ قال:لا حاجه لی فیه،حبسته عنی فی حیاتی،و تدفعه لی عند مماتی؟!قال:یکون لبناتک من بعدک؟قال:أ تخشی علی بناتی الفاقه من بعدی؟انّی أمرتهنّ أن یقرأن سوره الواقعه کلّ لیله،فانّی سمعت رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)یقول:

«من قرأ سوره الواقعه کلّ لیله لم تصبه فاقه ».

الإطار العام

إنّ فلاح الإنسان فی الحیاه ینطلق من وعیه بحقائقها و معایشتها،و أخذها بعین الإعتبار عملیّا بأخلاقه و سعیه،و مع أنّه مطالب بوعی مختلف الحقائق،إلاّ أنّ الأمر یکون أشدّ ضروره و أهمیه بالنسبه للحقائق الکبری ذات الأثر الحاسم فی حیاته و مصیره.(و الواقعه)هذه السوره المکّیه التی نستقبل آیاتها تذکرنا بواحده من أعظم الحقائق و أخطرها بالنسبه للإنسان و هی الساعه التی إذا وقعت تطبع آثارها علی کل ذره فی الدنیا،فالأرض و الجبال تستحیل هباء منبثا،و تنطوی صفحه هذه الحیاه التی خلقت لابن آدم،لتفتح صفحات الحیاه الآخره فی فصول أوّلها هلاک هذا الوجود بما فیه من البشر،و آخرها الجزاء الذی یمتازون فیه،و بینهما البعث و الحساب.

فبقدر حضور الواقعه فی وعی الإنسان و معایشتها عملیا تکون منزلته هناک،فامّا مع السابقین من الأبرار فی أعلی علّیین،و أمّا مع أصحاب الشؤم و للفجور فی أسفل سافلین،و أمّا بینهما حیث أصحاب المیمنه،و لکن من أین له الوعی بالواقعه و هی

جزء من الغيب الـذى حجب عنه؟! بلى.إنّهـا غيب كمـا الملائكه و الجن و المسـتقبل،و لكن تعالى اللّه أن يلزمنا الإيمان بحقيقه حاضـره أو غـائبه إلاّ و الآيـات الهـاديه إليهـا قـائمه و كـافيه أن تكون حجه بـالغه لمن ألقى السـمع و أعمـل النظر و الفكر و هو شهيـد.فما هى آيات الواقعه؟ أوّلا:و قبل كلّ شـىء ليس هنالك دليل و لا آيه تكـذّب هذه الحقيقه «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» ،و هذه من طبيعه الحق أنّه لا دليل منطقى على خلافه،و الذى يكذّب به هو الذى يحتاج إلى تبرير موقفه.

ثانيـا:إنّ الإنسـان يـبرر غالبـا ريبه فى هـذه الـواقعه بالشـك فى إمكانيتهـا،لأنّه ينظر إلى هـذه الحقيقه العظمى من خلال قـدراته المحـدوده فيكفر بها.أمّا إذا تفكّر فيها من خلال قدره اللّه التى لا تحد،و سـننه الحكيمه التى لا تتبدل،فإنّه سيـراها (حق اليقين).و الإيمان بإراده اللّه يأتى من التفكّر فى آيات قـدرته المتجلّيه فى النفس و فى الآفاق،فإن ذلك يهديه إلى عظمه ربّه و تنزيهه عن العجز،و الآيات (۷۳/۵۷)تثير العقل البشرى بالحقائق و تجعل الشهود جسرا إلى الغيب.

ثالثا:و القرآن الكريم هو الآيه العظمى التى تهـدى إلى كل حقيقه،بشـرط أن يكون الإنسان عند ما يتدبره و يأول آياته طاهرا من كـل دنس مـادى(خبثا و حـدثا)،و نفسـى(صـفات و عقـدا)،و عقلى(الأفكار الضاله)و ذلك لتجاوز الحجب التى تمنعه من لمس معـانيه و تأويلاته العميقه الحقه،فـإنّه يرى بالفطره السـليمه، و العقل المتقـد الحقيقه مكشوفا عنه غطاءها،و بما أنّ مشكله البشـر ليست عقليه و حسب،بل هى نفسـيه أيضا فقد يسّر اللّه هذه الحقيقه العظمى بالشواهد العقليه و الوجدانيه و الواقعيه،بأسلوب أدبىّ بليغ،و منهج نفسى مؤثر تضمن الترغيب

و الترهيب،بما يقود كله إلى التسليم لها،تسليما واعيا و عميقا،يحمل صاحبه على المعادله بين الحاضر و المستقبل،و السعى بجد و فاعليه للفوز فى الآخره،فإذا به و قد وقعت الواقعه مستعد للقاء ربّه و الفوز بالجنه مع المؤمنين السابقين،أولا أقل مع أصحاب اليمين.

و لأنّ الموت هو الواقعه الصغرى لكلّ إنسان فرد،و الحق الذى يحدّد به مصيره، يتعرّض له السياق فى نهايه السوره كآيه على الجزاء،و معبر إلى المصير و العلم اليقين بذلك الغيب الذى بكذّب به الضّالّون المكذّبون.

ص:۳۷۹

[سوره الواقعه (۵۶): الآيات ۱ الى ۲۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . إِذٰا وَقَعَتِ اَلْوٰاقِعَةُ (۱) لَيْسَ لِوَقْعَتِهٰا كٰاذِبَةٌ (۲) خٰافِضَةٌ رٰافِعَةٌ (۳) إِذٰا رُجَّتِ اَلْأَرْضُ رَجًّا (۴) وَ بُسَّتِ اَلْجِبٰالُ بَسًّا (۵) فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً (۷) فَأَصْحٰابُ اَلْمَيْمَنَةِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحٰابُ اَلْمَشْئَمَةِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْمَشْئَمَةِ (۹) وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلسّٰابِقُونَ (۱۰) أُولٰئِكَ اَلْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ اَلْآخِرِينَ (۱۴) عَلىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا مُتَقٰابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوٰابٍ وَ أَبٰارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَ لاٰ يُنْزِفُونَ (۱۹) وَ فٰاكِهَةٍ مِمّٰا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثٰالِ اَللُّؤْلُؤِ اَلْمَكْنُونِ (۲۳) جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِيماً (۲۵) إِلاّٰ قِيلاً سَلاٰماً سَلاٰماً (۲۶)

اللغه

۴[رجّت]:أی حرّکت حرکه شدیده بالزلازل التی هی من علائم السّاعه.

۵[و بسّت]:فتّتت،و البسیس هو السویق أو الدقیق یتخذ زادا.

۶[هباء]:الهبآء الذی یری من الذرات فی شعاع الشمس إذا دخل الشعاع فی کوّه فی غرفه مظلمه.

ص:۳۸۱

۱۵[موضونه]:محکمه و مضاعفه النسج.

۱۹[لا یصدون عنها]:أی لا یأخذهم الصداع و هو وجع الرأس.

[و لا ینزفون]:لا تذهب عقولهم بالسکر،و معناها لا یسکرون فان السکر یذهب بالعقل.

ص:۳۸۲

وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ

هدی من الآیات:

تکاد فاتحه السوره تهزّ القلب حتی تقلعه من مراسیه حینما تصور واقعه القیامه الرهیبه التی لا تکذیب لها،هنالک عند ما تخفض فریقا إلی النار،و ترفع آخر إلی الجنه،عند ما تهتزّ الأرض،و تتفتت الجبال،و تنتثر هباء فی الفضاء.

و لکن لماذا هذه الکلمات فی فواتح تلک السور،التی تذکّر العباد بیوم المعاد الرهیب؟ربما لأنّ الناس فی غفله شامله،لا ینتفعون شیئا بالعبر و العظات،فهم بحاجه الی هزّه عنیفه لعلهم یستمعون الی النذیر.

ثم تمضی السوره تحدثنا عن الفرق الثلاث الذین تفرزهم عن بعضهم الواقعه:

المقربون،و أصحاب الیمین،و أصحاب الشمال.المقربون الذین هم ثله من الأولین و قلیل من الآخرین فی نعیم مقیم،یتکئون علی سرر منسوجه بالذهب، مشبّکه بالدر یتقابلون مع بعضهم براحه و سکینه،و زوجاتهم حور عین کأمثال

ص:۳۸۳

اللؤلؤ المكنون،يعيشون فی صفاء و هناء یعیدا عن اللّغو و التأثیم،فی حیاه کلها سلام و وئام.

بينات من الآيات:

[۲]حینما تقوم القیامه،و ینهار نظام الأفلاک،و تنعدم الجاذبیه،و تتلاقی الکرات،هنالک هل یمکن تکذیبها؟کلا...أم ینفع التصدیق بها من کذّب بها من قبل؟أبدا.

دعنا إذا نصدق بها الیوم قبل ضیاع الفرصه الوحیده.

إِذٰا وَقَعَتِ اَلْوٰاقِعَهُ قال بعضهم: «إِذٰا» هنا صله،و معنی الآیه: وَقَعَتِ اَلْوٰاقِعَهُ ،و لنا أن نقول:

انها ظرف زمان معناه:حینما تقع الواقعه لا تکذیب لها.

و القرآن الکریم یجعلنا نعیش بآیاته الکریمه المستقبل کما نعیش الحاضر،ذلک أنّه کلما کان وعی البشر للحقائق القادمه أشد و أنمی کلما کیف حیاته وفقها، و هکذا یتفاضل الناس بینهم بما یستوعبون من حقائق المستقبل فی حاضرهم فیزدادون اجتهادا إلیها و سعیا،و یحذرون من الانحراف عنها،و الغفله عنها.

[۲] لَیْسَ لِوَقْعَتِهٰا کٰاذِبَهٌ إنها وقعه صادقه و لیست کاذبه،و قال بعضهم:لا نفس تکذب بها،و المعنی الأوّل أشدّ وقعا فی الفؤاد،فلیس شیء فی الطبیعه قادرا علی تکذیبها لأنها تفرض نفسها علی کلّ ذرّه من الکائنات.بینما المعنی الثانی یخص البشر،فانه لا أحدّ یقدر علی التکذیب بها،لیس فقط حین وقوعها،و إنما الآن أیضا لا یمکن التکذیب

بها لمن أوتی عقلا و إحساسا.أو لیست الحیاه کلها تهدینا إلی أنّها ذات هدف و حکمه،أو یمکن تصوّر حکمه لها من دون الایمان بالساعه کما قال ربنا: «أَنَّ اَلسّاعَهَ آتِیَهٌ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا» .

[۳]یومئذ تتموّج الکائنات کما البحر الهائج،فتنخفض الأرض المرتفعه، و ترتفع الأرض المنخفضه،و هکذا الناس.

خٰافِضَهٌ رٰافِعَهٌ المستکبرون الذین علوا فی الأرض بغیر حقّ تخفضهم إلی حضیض جهنم، و المستضعفون الذین حرموا حقوقهم ترفعهم الواقعه الی الدرجات العلی فی الجنه.

جاء فی الحدیث عن الامام زین العابدین علیه السلام :« خٰافِضَهٌ :خفضت -و اللّه-بأعداء اللّه فی النار، رٰافِعَهٌ :رفعت و اللّه-أولیاء اللّه الی الجنه » (۱)[۴]أ رأیت کیف یتحرک المهد بالصبی،کذلک الأرض ترتجّ یومئذ بما علیها، حتی ینهدم کلّ ما بنی،و یتهاوی کلّ قائم.

إِذٰا رُجَّتِ اَلْأَرْضُ رَجًّا قال ابن عباس:الرجه:الحرکه الشدیده،یسمع لها صوت (۲)و یبدو أن الرجّه أعظم من الزلزال،لذلک

روی :«من رکب البحر حین ترتج فلا ذمه له » (۳)أی إذا اضطربت أمواجه،و لا ریب أن تموّج البحر حاله دائمه،و إنما المراد بالارتجاج:اضطراب البحر و هیجانه.

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵/ص ۲۰۴.

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۷/ص ۱۹۶.

۳- ۳) المصدر.

و لنا ان نتصور رهبه الناس عند ما تضطرب الأرض من تحتهم،فهل يبقى ما يعتمدون عليه؟! [۵]و إذا كانت الأرض أعظم ركائز السكينه و الطمأنينه تتزلزل من تحتنا، فان الجبال و هى أكبر ركائز الثقه و الثبات تتفرق و تتبدد،فهل تبقى قائمه للماديين الذين خالفوا القيم،و كذبوا بالحق اعتمادا على الكائنات الموجوده،على التراب استخرج منه،أو نبت فيه،أو بنى عليه،و على الجبال و ما شابهته من الصخر و الحديد؟ وَ بُسَّتِ الْجِبٰالُ بَسًّا أ رأيت الحيه كيف تذهب فى الأرض،كأنها تذوب فيها،أ رأيت الماء كيف يتفرق فى الرمال العطشى؟أ رأيت كيف يتفتت الثوب حينما يصبح خلقا باليا؟ هكذا الجبال الراسيات تتفرق فى كل اتجاه،كما يتفرق العهن المنفوش إذا تواصلت عليه الأعاصير الهوج.

[۶]فاذا بسّت الجبال انتشرت فى الفضاء كما الرهج الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب حسب ما روى عن أمير المؤمنين(عليه السلام).

فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا و قال البعض:الهباء:هو الشعاع الذى يكون فى الكوه كهيئه الغبار،و لعل الجاذبيه تنعدم مما تجعل الصخور تفقد تماسكها الداخلى،فتتفتت الى ذرأت متناهيه فى الصغر،و لعلها تتلاشى كما الشرر المتطاير من النار،فاذا وقع على شىء لا تجده شيئا حسب تفسير آخر لكلمه الهباء.

ص:۳۸۶

و قالوا:المنبث المتفرق كما قال ربنا: «وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دَابَّهٍ» (۱)و حال الجبال فى الواقعه يعكس واقع أعمال الكفار،و ما يعتمدون عليه فى الدنيا، من سلطه و ثروه و جاه.إنّ كل ذلك ليس فى الحقيقه إلاّ ضلال كما ظلال الجبال، تحسبها شامخه فاذا اتكأت عليها ما أغنت عنك شيئا.

[۷]و إذا كانت الماديات بكل ضلالها و غرورها كما الجبال يوم القيامه،فان أسباب التفاخر فى الدنيا،و عوامل التمايز بين طوائف الناس ما هى إلاّ باطل، بلى.يتفاضل الناس بايمانهم و أعمالهم،لا بألوانهم و ألسنتهم و ثرواتهم،و مناطق توالدهم و تواجدهم،كما يزعم أهل الدنيا.

وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَهً كنتم فى يوم القيامه ثلاثه أصناف،كما أنتم فى الدنيا ثلاثه أصناف،الا انكم اليوم محجوبون عن حقيقه أنفسكم و حقيقه ما به تتفاضلون.

قالوا:إنّما سمّوا «أَزْوٰاجاً» لأن كل صنف يتماثل أبناؤه كما يتشابه الزوج زوجته (۲)و قال البعض:لا تعنى كلمه الزوج دائما الذكر و الأنثى،بل قد تعنى الجماعات المتقارنه و باعتبار تقارن الأصناف فى القيامه سمّوا أزواجا (۳)و يبدو أن هذا المعنى أقرب.

[۸] فَأَصْحٰابُ الْمَيْمَنَهِ

۱- ۱) البقره/۱۶۴-لقمان/۱۰

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۷/ص ۱۹۸

۳- ۳) تفسیر نمونه/ج ۲۳/ص ۲۰۲

تفـاءلت العرب بالجـانب الأـيمن،و انـتزعوا لـه اسـما مـن اليمـن،و انتظـار الخير، و ربمـا سـموا التقـدم يمينـا،و التخلف شمالا،فقالوا:اجعلنی فی يمينک و لا تجعلنی فی شمالک،أی اجعلنی من المتقدمين (۱).

و لأـن أصـحاب الجنه يؤتـون كتبهم بأيمـانهم فـان اليمين يصـبح يومئـذ رمزا لـدخول الجنه،و قـال بعضـهم:إنّ الكلمه هنـا تعنی أصحاب اليمن فی مقابل أولی الشؤم فی الآيه الآتيه،و لكن يبدو أنّ التفسير الأول أظهر،بالنظر إلی استخدام اليمين فی أهل الجنه فی النصوص الإسلاميه.

مٰا أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَهِ جاء هذا التعبير إشاره الی التفخيم،و المراد بيان ما يتميّزون به عن أصحاب الشمال من الثواب العظيم.

[۹] وَ أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ قالوا:العرب تسـمّی الشـمال شؤما،لأنهم يعتبرونه نحسا،و يقولون:قعد فلان شأمه(شـمالا)،و يا فلان شائم بأصحابک(تياسر بهم)كما يسمون اليد اليسری الشؤمی.

فالمراد إذا بأصحاب المشأمه أولئک الذين يؤتون كتابهم بشمالهم،ليكون ذلک علامه علی أنهم من أصحاب النّار.

و قيل ان المعنی أصحاب الشؤم و النحس.

مٰا أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ

۱- ۱) القرطبی/ج /۱۷ص ۱۹۹

و هذا التهويل يدل على ما أعدّ لهم من عذاب شديد،و لعل الحكمه من التهويل هنا و هناك هو الفصل بين الفريقين فصلا نهائيا بـالرغم من اختلاـطهم فى الـدنيا، فقـد يكون الولـد من هؤلاـء،و الوالـد من أولئك،و لكنهما لن يشتركا فى مصـير الآخره،و إنما بينهما مسافه أبعد مما بين الأرض و السماء.

و يبـدو من آيات قرآنيه عديـده أنها تهدف تعميق الفصل بين أهل الصـلاح و الفساد،لأنه إذا لم يعرف الفصل كان من الطبيعى سقوط الإنسـان فى وهـده الفسـاد،لمـا فيه من جـاذبيّه مـادّيه،و لأن ذلك السـقوط لا يحتاج الى قرار،و انما يتم عاده فى غيبه من صاحبه، و بسبب انعدام الحذر عنده.

[۱۰] وَ السّـابِقُونَ السّـابِقُونَ الـذين يسـارعون فى الخيرات،و يبـادرون للاسـتجابه للحـق أنّى دعـوا اليـه، متجـاوزين عقبه التـوافق الاجتماعى بقوه الإراده،و بصيره الإيمان.

لقد كان حبيب النجار سابقا،كما كان حزقيل من السابقين،أمّا سـيد السابقين فقد كان الإمام على عليه السـلام الذى سـبق الرجال فى الإيمان بالإسلام.

و لنا أن نتصور ملامح السابقين الشخصـيه،و تحدّيهم لظروفهم و تعرّضهم للآلام و الضغوط الهائله،كل ذلك من خلال نظره الى سيره هذه القدوات الثلاث،لقد تجاوزوا أولا:عقبه التردد و الشك بقوه العقل،و مضاء التفكير،فلم يرتابوا فى الحقيقه بمجرد غفله النـاس عنهـا،و لم يـأبهوا بـالرأى العـام الـذى خـالف الحق و نـاهضه،و لـم تساورهم الظنون فى الـداعى الى الحق بسـبب الاعلام المضلل، أو الدعايات الكاذبه.كانوا كما الجبل الأشمّ،يتحدون أعاصير التهم و الافتراءات.

ص:۳۸۹

ان ثقه الإنسان بعقله و اعتداده بشخصيته الداخليه،و يقينه بالحق،و عزيمته فى الانتماء اليه و الدفاع عنه،و إيمانه بحتميه انتصاره،إنّ كل ذلك مكونات شخصيه السابق.

و بعد تجاوز شكوك النّفس،و وساوس الشيطان،و الالتحاق بالحق يواجه السابق عناد المجتمع،و تصلبه فى الباطل،مما يجعله وجها لوجه مع ضغوط هائله.

ابتداء من الافتراء و السخريه، و انتهاء بالتجويع،و التعذيب،و النفى،و القتل، و مرورا بالمقاطعه الاجتماعيه،فاذا تحدّاها،و انتصرت الرساله،برزت صعوبات جديده حيث تقبل الدنيا عليه بكل ما لها من إغراء النساء،و زينه المال و الأولاد، و شهوه الرئاسه و السلطه،فاذا تحداها واجه تيارا اجتماعيا جديدا من الذين التحقوا بالركب طمعا فى الدنيا،و انبهروا بزخارفها،و أخذوا يفرّغون الدّين من محتوياته، و يبدّلون الكلم عن مواضعه.

و بكلمه:إن حياه السابقين سلسله من الصراعات التى لا تنتهى..فهو إذا بحاجه الى جهاد متواصل،كما أنه بحاجه الى مبادرات مستمره،و قرارات حاسمه و تاريخيه،لا ينفكك عنها حتى يأتيه اليقين،و ذلك عند ما يلقى ربه راضيا مرضيا.

و اَلسّٰابِقُونَ هم الأولون قدما نحو الخير،و إيمانا و معرفه ببصيرتهم و وعيهم، و عملا بتوكلهم على اللّه،و ثقتهم بأنفسهم،و شجاعتهم حيث يكسرون بذلك طوق العاده،و يخرجون عن جاذبيه المحيط،و يتجاوزون السقوف المصطنعه بالرّياده و المبادره و الإبداع، وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَةَ لاٰئِمٍ (1)و هم الاسبق كما و نوعا فى الخير،و لا يرون النوع من زاويه التقوى و الإخلاص فقط،إنّما من زاويه الإتقان أيضا لقوله تعالى:

١- ١) المائده/٥٤

اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیٰاهَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (۱).أما فاعلیه السبق فهی ترتکز عند هذا الفریق علی الأمور التالیه:

۱-طموح الامامه و القیاده.و هو طموح مشروع فی الإسلام،قال تعالی یحکی صفات عباده المقربین: وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّیّٰاتِنٰا قُرَّهَ أَعْیُنٍ وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً (۲)و لکنهم لا یبحثون عن هذا الطموح من خلال الحسب و النسب،أو المقاییس المادیه الاخری،انما یسعون الیه عملیا بالحق و من خلال الکفاءه،و السبق أهم شروطها،کما قال ربنا سبحانه: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطٰاناً نَصِیراً» .

۲-التنافس فی الخیر مما یفرض علیهم الأخذ بکل أسباب التفوق،و لکن بعیدا عن حالات الصراع النفسیه و العملیه،کقوله سبحانه: «فَاسْتَبِقُوا الْخَیْرٰاتِ» .

۳-الرغبه فی ثواب السابقین،و الخشیه من التقصیر.قال تعالی: وَ الَّذِینَ یُؤْتُونَ مٰا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَهٌ أَنَّهُمْ إِلیٰ رَبِّهِمْ رٰاجِعُونَ* أُولٰئِکَ یُسٰارِعُونَ فِی الْخَیْرٰاتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ (۳).

و یبدو أن السابقین فی کل أمه هم طلیعه تلک الامه و شهداؤها،و هم الحواریون الذین یلتفون حول القیاده الالهیه الرشیده،

و قد جاء فی الحدیث عن الامام أمیر المؤمنین(علیه السلام) :

«السباق خمسه:فانا سابق العرب،و سلمان سابق الفرس،و صهیب سابق الروم،و بلال سابق الحبش،و خباب سابق النبط ». (۴)

۱- ۱) الملک۲/

۲- ۲) الفرقان۷۴/

۳- ۳) المؤمنون۵۷/-۶۱

۴- ۴) نور الثقلین/ج ۵-ص ۲۱۰

و جاء فی حدیث مأثور عن رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله)انه قال :«أ تدرون من السابقون الی ظل اللّه یوم القیامه؟قالوا:اللّه و رسوله أعلم،فقال:الذین إذا أعطوا الحق قبلوه،و إذا سألوه بذلوه،و حکموا للناس کحکمهم لأنفسهم » (١).

و بالرغم من ان تطبیق الحدیث علی هذه الآیه غیر واضح إلاّ أنّه یهدینا الی میزات السابقین بصفه عامه.

[١١-١٢] أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ* فِی جَنّٰاتِ النَّعِیمِ إن أعظم جزاء السابقین القربی من رب العزه،و یتجلّی فی الکرامه العظیمه التی أعدّت لهم فِی جَنّٰاتِ النَّعِیمِ.

ثُلَّهٌ مِنَ الْأَوَّلِینَ* وَ قَلِیلٌ مِنَ الْآخِرِینَ قالوا فی معنی الثلّه:إنها من ثللت الشیء،أی قطعته،و معناها:فرقه،لکن من هم الأولون و الآخرون؟قال بعضهم:من مضی من السابقین فی الأمم السابقه أکثر لأن الأنبیاء کانوا أکثر،بینما السابقون فی هذه الأمه قلیلون لأن النبی واحد، و کأنهم زعموا أن السابقین لا یکونون إلا من أصحاب النبی الذین سبقوا الآخرین فی الایمان به.

و قال آخرون:الأولون و الآخرون هم من هذه الامه،و إنما کان الأولون أکثر لأنهم نهضوا بأعباء الدعوه أیّام غربته،بید أن ظاهر الآیه ینسجم مع التفسیر الأول،و قد استوحی بعض المفسرین من هذه الآیه الکریمه:أن القرون الاولی خیر من التی تلتها،بینما العکس هو المفهوم من الآیه،إذ کلما کثر عدد المؤمنین قل عدد السابقین لأن أهمیه السابق تحرکه فی الاتجاه المخالف للناس،و لذلک کان

١- ١) تفسیر نمونه/ج ٢٣-ص ٢٠٥ نقلا عن تفسیر المراغی/ج ٢٧-١٣٤

الایمان و الإنفاق قبل الفتح أعظم درجه من الایمان و الإنفاق بعده.

و قد روی عن رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله) :أنّه لما نزل هذا شق علی أصحاب رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلم)فنزلت: «ثُلَّهٌ مِنَ الْأَوَّلِینَ * وَ ثُلَّهٌ مِنَ الْآخِرِینَ» فقال النبی:«اننی لأرجو ان تکونوا ربع أهل الجنه،بل ثلث أهل الجنه،بل نصف أهل الجنه،و تقاسمونهم فی النصف الثانی » (۱).

و یستلهم من بعض النصوص:أن السابقین هم بعض المقربین،فقد یکون فی الآخرین من لیس بسابق،و لکنه یتساوی فی الفضل معهم،بما أوتی من درجه الایمان،و قوه الیقین،و بما وفق له من مسارعه فی الخیرات.

نقرأ

فی نص مأثور عن الامام الصادق«علیه السلام»یقول لبعض اتباعه :

«أنتم السابقون الأولون،و السابقون الآخرون،و السابقون فی الدنیا إلی ولایتنا، و فی الآخره إلی الجنه » (۲)و یبین نص آخر

مروی عن الامام الصادق(علیه السلام)انه قال :

«فالسابقون هم رسل اللّه و خاصه اللّه من خلقه،جعل فیهم خمسه أرواح،أیدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشیاء،و أیدهم بروح الایمان فبه خافوا اللّه عزّ و جلّ، و أیدهم بروح القوه فبه قدروا علی طاعه اللّه،و أیدهم بروح الشهوه فبه اشتهوا طاعه اللّه عزّ و جلّ،و کرهوا معصیته،و جعل فیهم روح المدرج الذی به یذهب الناس و یجیئون » (۳).

و یعدد حدیث آخر مأثور عن الامام موسی الکاظم(علیه السلام)جواری

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۷-ص ۲۰۰
۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵-ص ۲۰۹
۳- ۳) المصدر/ص ۲۰۵

الرسول و الأئمه علیهم السلام و یعتبرهم السابقین (۱)و یبدو من حدیث آخر أن التفاضل فی الایمان یتساوی فیه الأولون و الآخرون،

فقد روی عن الامام الصادق(علیه السلام) أنه سئل:ان الایمان درجات و منازل، یتفاضل المؤمنون فیها عند اللّه؟ قال:«نعم»فقال السائل صفه لی رحمک اللّه حتی أفهمه،قال:«إن اللّه سبق بین المؤمنین کما یسبق بین الخیل یوم الرهان،ثم فضلهم علی درجات فی السبق إلیه،فجعل کل امرء منهم درجه سبقه،لا ینقصه فیها من حقه،و لا یتقدم مسبوق سابقا،و مفضول فاضلا،تفاضل بذلک أوائل هذه الامه و أواخرها... (الحدیث)» (۲).

و من ذلک کله نستوحی ان مفهوم السبق أشمل من مجرد التقدم الزمنی الی الایمان،إذ یتسع للتسارع فی الخیرات،و المبادره الی درجات الایمان،

و قد سأل الراوی الامام الصادق علیه السلام فی ذات النص السابق آنفا عن درجات الاستباق فقال:اخبرنی عما ندب اللّه عزّ و جلّ المؤمنین الیه من الاستباق الی الایمان،فقال:

قول اللّه عزّ و جلّ: «سَابِقُوا إِلَیٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا کَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ» و قال: «وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ» (۳).

فلا یجوز ان یقنط لاحق من روح اللّه،و ما أعده اللّه للمقربین الیه من الدرجات الرفیعه،و یبرر قنوطه بأنه قد تأخر زمنیّا عن الأولین.کلا..إن معارج

۱- ۱) راجع المصدر/ص ۲۱۰

۲- ۲) راجع المصدر/ص ۲۰۸،و الحدیث مفصل

۳- ۳) المصدر

التكامل إلى اللّه معدّه لكل من شاء ان يحلّق فى أجواء القرب من ربّ العباد.

[۱۵] عَلىٰ سُـرُرٍ مَوْضُـونَهٍ مصـفوفه،قـالوا:الـوضن النسـج المضـاعف و النضـد،و درع موضـونه:محكمـه فى النسـج،و السـرير الموضون:الذى سطحه بمنزله المنسوج.

و قال بعضهم:إن أسره الجنه منسوجه بخيوط الذهب،مشبكه بالدر و الياقوت و الزبرجد.

[۱۶] مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا مُتَقٰابِلِينَ الاتكاء علامه الارتخاء،و عدم وجود ما يشـغلهم غير التلذذ بألوان النعم الالهيه، و التقابل دليل المحبه و الود المتبادل بينهم.أو ليست قلوبهم طاهره من الغل، و الحسـد،و الحقـد؟ و راحتهم الخالـده يومئذ هى جزاء اجتهادهم الدائب فى الـدنيا،فكم أتعبوا أجسـادهم فى طـاعه اللّه،و كم قـاوموا ضـغوط الحيـاه،و واجهوا الطغـاه و المترفين،و كم تحملوا من الأذى النفسـى و الجسدى؟! [۱۷] يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ إن أفضـل خـدمه بين الأحبـاب خـدمه الغلمان،و بالـذات حينما تكون نضـاره شـبابهم أبـديه،فهم مخلـدون لا تعتريهم خشونه الرجال،و لا تأتى على جمالهم و أناقتهم،و دماثه أخلاقهم طوارق الليل و النهار.

[۱۸] بِأَكْوٰابٍ وَ أَبٰارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

ص:۳۹۵

إنهم يصبون لذيذ الشراب من أكواب و أباريق فى كؤوس جميله،و يقدمونها لأهل الجنه.

قالوا:يختلف الكوب عن الإبريق فى العرى و الخراطيم،أما الكأس فهى إناء الشرب،و قيل:لا يقال:كأس إلا إذا كان فيها شراب،و الا ـ فهى زجاجه،و لا يقال:كوز،إلا إذا كانت له عروه،و إلا فهو كوب (١)،و تتساءل:ما هـذا الترتيب؟يبدو أن الأكواب هى الانيه الكبيره المليئه بالخمر،و تغرف منها بالأباريق،ثم تصبّ الخمره فى الكأس للتناول،كل ذلك لاضـفاء جو المرج و اللذه و الكرامه فى جلسات المؤانسه.

و قالوا:المعين الجارى،حيث أن خمره الجنه تجرى من عيون،و يبـدو أن الوصف ليس فقط لما فى الكأس، بل لما فى الأكواب و الأباريق أيضا.و قيل فى جريان الماء:فاذا كان ظاهرا جاريا على وجه الأرض فهو معين و سنم (٢).

[١٩] لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَ لاٰ يُنْزِفُونَ فهى ليست كشراب الدنيا يصيب الإنسان بصداع و دوار،أو يذهب بعقولهم.

قالوا:النزف:السكر،و قيل:لا ينفذ شرابهم،و تساءل الفخر الرازى:لماذا قيل: «لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا» و لم يقل(منها)فأجاب:لأن الصـفه هنا صفه الشراب،و لو كان صفه الشخص لحسن القول:فلان لا يصدّع من الشراب (٣).

و لعلّ تقديم الشراب على الطعام لان الاحساس بالعطش أشد،و الشراب أول

١- ١) فقه اللغه للثعالبى/ص ١۵

٢- ٢) المصدر/ص ٢٨۵

٣- ٣) تفسير الرازى/ج ٢٩-ص ١۵٢

ما یکرم به الضیف و اللّه العالم.

[۲۰]و بعد بیان نعمه المؤانسه و الشرب جاء دور الطعام،و ربما قدّمت الفاکهه لأنها أذوق،کما ان العاده تقتضی تقدیمها فی الضیافه.

وَ فٰاکِهَهٍ مِمّٰا یَتَخَیَّرُونَ فالفواکه موجوده بأنواعها،و مبذوله بلا نصب،و یبقی الاختیار بأیدیهم، و یبدوا ان نعمه الحریه تتجلی عند أهل الجنه فی کل أبعادها.بلی.انهم عاشوا فی الدنیا أحرارا،و رفضوا التسلیم للطغاه و المترفین و شهوات الذات،فأسبغ علیهم ربهم نعمه الحریه بأوسع معانیها.

[۲۱]الآن و قد ارتووا،و فتحت الفواکه شهیه الطعام عندهم،تطوف علیهم الموائد التی فیها أنواع من لحم الطیر.

وَ لَحْمِ طَیْرٍ مِمّٰا یَشْتَهُونَ و یبدو ان لحوم الطیر أشهی و أطهر،و لذلک خصت بالذکر فی الکتاب،

و جاء فی الحدیث المأثور عن الامام الصادق علیه السلام عن رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلم)انه قال :«سید إدام الجنه اللحم » (۱).

و روی عن الرسول(صلّی اللّه علیه و آله و سلم):انه قال :«ان فی الجنه طیرا مثل أعناق البخت،تصطف علی یدی ولی اللّه،فیقول أحدها:یا ولی اللّه! رعیت فی مروج تحت العرش،و شربت من عیون التسنیم،فکل منی،فلا یزلن یفتخرن بین یدیه حتی یخطر علی قلبه أکل أحدها،فتخر بین یدیه علی ألوان

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۲۱۲

مختلفه،فيأكل منها ما أراد فاذا شبع تجمع عظام الطائر،فطار يرعى فى الجنه حيث شاء» (۱).

[۲۲-۲۳]و إذا فرغوا من جلسات المؤانسه،و من الشراب،و الفاكهه، و الطعام،آووا الى فرشهم ليجدوا فيها فاكهتها المفضله،لقد أعدت لهم زوجاتهم من الحور العين.

وَ حُورٌ عِينٌ* كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ إن تلاقى روح الزوجين يتم عبر العين و لذلك فان أروع الجمال جمالها،و حين تكون العين حوراء:سوادها شديد،و بياضها شفاف،ثم تكون واسعه،فانها تكون جذابه و رائعه،أما سائر أعضائهن فهى لامعه بيضاء،أ رأيت اللؤلؤ حين ينفتح عنه الصدف كيف يشعّ بياضا؟ [۲۴]إن هذه النعم العظيمه توافيهم بفضل اللّه،جزاء لأعمالهم،لكى يزدادوا تلذذا بها،و إحساسا بأهميتها.أ رأيت الذى يحصل على نعمه بلا سعى لا يعتز بها،كمن يتلقاها بسعيه فيحس انه كان على حق،و أن اختياره كان حكيما رشيدا.

جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ و قد روى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآيه ما يرغب عباد اللّه فى الجنه،حيث قال:خلق اللّه الحور العين،من أصابع رجليها إلى ركبتها من الزعفران،و من ركبتها الى ثديها من المسک الأذفر،و من ثديها الى عنقها من العنبر الأشهب،و من عنقها الى رأسها من الكافور الأبيض،عليها سبعون ألف حلّه مثل شقائق

ص:۳۹۸

۱- ۱) القرطبى/ج ۱۷-ص ۲۰۴

النعمان،إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا،كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، و إذا أدبرت يرى كبدها من رقه ثيابها و جلدها،فى رأسها سبعون ألف ذؤابه من المسك الأذفر،لكل ذؤابه منها وصيفه ترفع ذيلها و هى تنادى:هذه ثواب الأولياء، جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١).

[٢۶-٢۵]بعد راحه الجسد يحدثنا السياق عما يريح القلب،فأوّله:اعتزاز النفس بماضيها،و حسن انتخابها لسعيها،و الثانى:طهاره الجو من الكلام البذىء، فلا يتنابزون بالألقاب،و لا يترامون التهم و الغيبه،و لا يمشون بالنميمه.كلا..و لا يقولون لبعضهم:أثمت،و فعلت كذا،و تركت كذا،كما يقول البعض للمؤمنين فى الدنيا،و كما يتبادل غيرهم القول دائما.

لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً من الغيبه و التهمه و النميمه.

وَ لاٰ تَأْثِيماً فحشا،و استهزاء و سخريه.

لقد صبروا أياما قليله على جراحه اللسان،و لم ينهزموا أمام الدعايه البذيئه التى نفثتها أبواق الشياطين،فأعقبتهم راحه طويله من الحياه الهنيئه.

و إذا فكرنا فى أسباب الشقاء فى الدنيا لعلمنا أن أشدها أثرا،و أبلغها ألما هى سموم الألسنه البذيئه،و لا أثر لها فى الجنه.لما ذا؟لان هذه الالسنه تنطق عن قلوب مليئه بالأحقاد،و الآلام،و العقد،و الجنه نظيفه من كل ذلك،فقد نزع اللّه سبحانه

١- ١) القرطبى/ج ١٧-ص ٢٠۶

عن قلوب أهلها كل غل،و تحاسد،و طمع،و حرص،كما رفع عنهم الآلام، و أسبغ عليهم النعم،فانعدمت عوامل اللغو و التأثيم.

إِلّاَ قِيلاً سَلاٰماً سَلاٰماً إن الاخطار التى تحيق بأهل الدنيا،و تفرز الصراعات،و العداوات،و الخوف، و القلق،و النفاق،انها معدومه فى الجنه،فكل ما فيها طمأنينه،و سكينه،و أمن، و راحه،و لا بد إذا أن تنعكس كل تلك النعم الظاهره فى الافئده و على الألسن فى قول السلام،هذا يسلم عليك و أنت ترد عليه السلام.

بلى.أهل الجنه صنعوا لأنفسهم فى الدنيا مجتمع السلام،و الحب،و التعاون، فلم يحسدوا أحدا على نعمه،و لم يحقدوا على أحد لمصلحه،و لم يحجبوها عن اللّه بالوساوس و الظنون،و لم يدنسوا ألسنتهم بالفحش و السباب،فأعطاهم اللّه كل ذلك كاملا وافيا فى الجنه.رزقنا اللّه جميعا توفيق طاعته فى الدنيا،و نعيم جنته فى الآخره.

ص:۴۰۰

[سوره الواقعه (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۵۶]

اشاره

وَ أَصْحٰابُ اَلْيَمِينِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْيَمِينِ (۲۷) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ مٰاءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ
فٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لاٰ مَقْطُوعَةٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنّٰا أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰاءً (۳۵) فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْكٰاراً (۳۶) عُرُباً أَتْرٰاباً
(۳۷) لِأَصْحٰابِ اَلْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ اَلْآخِرِينَ (۴۰) وَ أَصْحٰابُ اَلشِّمٰالِ مٰا أَصْحٰابُ اَلشِّمٰالِ (۴۱) فِى سَمُومٍ وَ
حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (۴۳) لاٰ بٰارِدٍ وَ لاٰ كَرِيمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ (۴۵) وَ كٰانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اَلْحِنْثِ اَلْعَظِيمِ
(۴۶) وَ كٰانُوا يَقُولُونَ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آبٰاؤُنَا اَلْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ اَلْأَوَّلِينَ وَ اَلْآخِرِينَ (۴۹)
لَمَجْمُوعُونَ إِلىٰ مِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا اَلضّٰالُّونَ اَلْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا
اَلْبُطُونَ (۵۳) فَشٰارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْحَمِيمِ (۵۴) فَشٰارِبُونَ شُرْبَ اَلْهِيمِ (۵۵) هٰذٰا نُزُلُهُمْ يَوْمَ اَلدِّينِ (۵۶)

اللغه

۲۸[سدر مخضود]:السدر شجر النبق و مخضود أى خضر شوكه فلا شوك فيه.

۲۹[و طلح منضود]:قيل شجر الموز،و منضود قد نضد و رتّب ثمره بعضه فوق بعض،و المنضود أيضا ما نضد بعضه على بعض نضد بالحمل من أوّله إلى آخره فليست له سوق بارزه فمن عروقه إلى أفنانه ثمر كله.

۳۵[إنشاء]:بدون ولاده و بدون انتقال من حال إلى حال.

۳۷[عربا]:أى متحنّنات على أزواجهن متحببات إليهم، و قيل عاشقات لأزواجهنّ و قيل العروب اللعوب مع زوجها أنسا به كانس العرب بكلام العربى.

[أترابا]:جمع ترب،و هو أى المثيل.

ص:۴۰۱

۴۲[سـموم]اليحموم الأـسود الشديـد السواد بـاحتراق النـار،و هو يعقول من الحم و هو الشـحم المسود باحتراق النار يقال حممت الرجل إذا سخمت وجهه بالفهم،و قيل دخان أسود شديد السواد،فالكافرون فى نار ذات دخان لا يرون مكانا.

۴۶[الحنث العظيم]:هو الشرك حيث لا يتوبون عنه.

۵۵[الهيم]:هو الإبل العطشان الذى لا يروى من الماء لداء يصيبه.

ص:۴۰۲

هٰذٰا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

هدى من الآيات:

فی هذا الدرس یحدّثنا ربّنا عن مصیر الفریقین الآخرین(أصحاب الیمین، و أصحاب الشمال)،«و شمائل ضد الیمین،یقال:فلان عندی بالشمال إذا خسّت منزلته،و هو عندی بالیمین أی بمنزله حسنه» (۱).

و أصحاب الیمین یدخلون الجنه إلی نعیم مقیم،و لکنّه دون نعیم السابقین کثره و تنوّعا و کیفا،کما أنّهم دونهم فی الإیمان و العلم فی الدنیا،و ینتمی إلی هذا الفریق عامه المؤمنین و المسلمین من الناس،الذین عنوان مسیرتهم الصلاح،فهم و إن دخل بعضهم النار،أو تأخّر فی الحساب،إلاّ أنّه لا یلبث أن ینقلب إلی نعیمه و أهله مسرورا برحمه من اللّه،و بسبب أعماله الصالحه،أو شفاعه السابقین.و هم ثلّه فی کلّ أمه و جیل،و لا یطیل القرآن الحدیث عنهم،بل یختصره فی أربعه عشره

ص:۴۰۳

۱- ۱) المنجد/ماده شمل

آيه قصيره،ثم ينتقل بنا إلى بيان مصير أصحاب الشمال،حيث أنواع العذاب المؤلم المهين(سموم الحميم،و ظلّ اليحموم،و شجر الزقوم،و شراب الحميم)، و كلّ ذلك تذكره السوره فى كلمات ترعب النفوس،و بلاغه تنفذ إلى أعماق من يلقى السمع شهيدا،بما يكفى زاجرا للإنسان و علاجا للترف،و الإصرار على الضلال و التكذيب بالآخره.

و حين يقسّم القرآن الناس إلى هذه الطوائف فلكى يكون التقسيم المشروع هو القائم على أساس الإيمان و العمل،أمّا الأسس الأخرى فهى لا تصلح سببا لتفريق الناس مثل اللغه و اللون و العنصر.

بينات من الآيات:

[٣٠-٢٧]ما هى صفات أصحاب اليمين،و ما هو جزاؤهم؟ وَ أَصْحٰابُ الْيَمِينِ مٰا أَصْحٰابُ الْيَمِينِ الميمنه من اليمن أى النصيب الحسن،و قد جعل اللّه إعطاء الكتاب للإنسان بيده اليمنى يوم القيامه دليلا على العاقبه الحسنى،و لأنّ كاتب الحسنات على اليمين و كاتب السيئات على الشمال فإنّ أصحاب اليمين هم الذين زادت حسناتهم على السيئات،و الصحبه من التلازم و المقارنه،فقد يكون هؤلاء ذوى الصله المتينه بملائكه الحسنات لكثره الصالحات عندهم،فهم لا يبرحون يصلونهم بها بين الحين و الآخر،فيصحبهم أولئك الملائكه عند الحساب،يبيّنون حسناتهم، و يشفعون لهم عند اللّه.و من كانت هذه صفته فإنّه يصير إلى منزله عظيمه من الجزاء و الرضوان عند اللّه.

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ

ص:۴۰۴

یعنی منزوع الشوک،ممّا یجعل قطف ثماره خال من الأذی و المشقّه، و المخضود:مثنی الأغصان من غیر کسر(أیضا)إشاره إلی کثره ثمارها و ورقها اللذان یثقلان الغصن فیثنیانه،و السدر:شجر النبق(الکنار) (۱)،و له فوائد جمّه منها:ثمره،و ظلّه،و منظره الجمیل.

جاء فی الحدیث عن سلیم بن عامر قال :کان أصحاب النبی صلی الله علیه و آله یقولون:

إنّه لینفعنا الأعراب و مسائلهم،قال:أقبل أعرابی یوما فقال:یا رسول اللّه!لقد ذکر اللّه فی القرآن شجره مؤذیه،و ما أری فی الجنه شجره تؤذی صاحبها؟قال رسول اللّه:و ما هی؟قال:السدر فإنّ له شوکا مؤذیا؟فقال صلی الله علیه و آله :أو لیس یقول: «فِی سِدْرٍ مَخْضُودٍ» ؟خضد اللّه شوکه فجعل مکان کلّ شوکه ثمره، فإنّها تنبت ثمرا یفتق الثمر منها عن اثنین و سبعین لونا من الطعام ما فیه لون یشبه الآخر (۲)و قال سعید بن جبیر:ثمرها أعظم من التلال. (۳)

و الحرف «فِی» یفید الإحاطه و الدوام،فهم محاطون بما یذکر من النعم.

وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ أی متسق منظّم مضموم بعضه إلی بعض،و تنضّدت الأسنان تراصفت (۴)،

و عن الإمام الصادق(علیه السلام)قال :«بعضه إلی بعض » (۵)و قال تعالی:

وَ النَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِیدٌ (۶)متسق، و اختلف فی الطلح علی أقوال

ص:۴۰۵

۱- ۱) قال صاحب المنجد:الکنار النبق(بالعامیه و الفارسیه)

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۷ ص ۲۰۷

۳- ۳) المصدر

۴- ۴) المصدر ماده نضد

۵- ۵) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۱۵

۶- ۶) ق ۱۰/

أشهرها و أقربها أنّه الموز،و هو من ألذّ الفواكه و أشهاها.

وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ أی دائم متصل واسع،و قال تعالی: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ أُکُلُهٰا دٰائِمٌ وَ ظِلُّهٰا (۱).

و فی حدیث آخر عن الرسول صلی الله علیه و آله قال :«فی ظل ممدود فی مثل ما بین طلوع الفجر إلی طلوع الشمس » (۲)

و فی الخبر :إنّ فی الجنه شجر یسیر الراکب فی ظلّها مائه سنه لا یقطعها.اقرءوا إن شئتم: «وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ» (۳)و کان الظل یعنی شیئا کثیرا فی محیط الجزیره العربیه حیث یتعرّض الناس عاده لأشعه الشمس الحارقه.

[۳۱-۳۳]و نعمه أخری لأصحاب الیمین هی الماء(قوام الحیاه)،یشربونه و یتلذّذون بمنظره الرائع،و هو ینحدر من عل منسکبا لا ینقطع.

وَ مٰاءٍ مَسْکُوبٍ* وَ فٰاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ تنوّعا و عددا،و هی لا تنفذ مهما بالغ المؤمنون فی التفکّه بها،کما أنّها لیست محدوده ثمرتها بموسم بل هی دانیه قطوفها دائما،و من جانب آخر لا یمنعهم عنها و لا یمنعها عنهم مانع أبدا،فهی مباحه شرعا،نافعه أبدا،لا شوک فی أشجارها یمنعهم، و لا ارتفاع یصعّب علیهم الانتفاع بها.

لاٰ مَقْطُوعَهٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَهٍ

۱- ۱) الرعد/۳۵

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۱۶

۳- ۳) المصدر

قال رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلم) یصف شجره طوبی:«و أسفلها ثمار أهل الجنه و طعامهم متذلّل فی بیوتهم،یکون فی القضیب منها مائه لون من الفاکهه ممّا رأیتم فی دار الدنیا و ممّا لم تروه،و ما سمعتم به و ما لم تسمعوا مثلها، و کلّما یجتنی منها شیء نبتت مکانها أخری، لاٰ مَقْطُوعَهٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَهٍ» (۱).

و قال(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) حاکیا حال أهل الجنه:و الثمار دانیه منهم و هو قوله عزّ و جلّ: «وَ دٰانِیَهً عَلَیْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِیلاً» ،من قربها منهم یتناول المؤمن من النوع الذی یشتهیه من الثمار بفیه و هو متکئ،و إنّ الأنواع من الفاکهه لیقلن لولی اللّه:یا ولیّ اللّه!!کلنی قبل أن تأکل هذا قبلی (۲).

و للمتدبّر أن یلاحظ مدی أثر الوعد بهذه النعم فی مجتمع یحلم بالماء و یتقاتل علیه،و یتنقّل عبر المفاوز الشاسعه بحثا عن الماء بل سعیا وراء السراب!کما لا یعرف الفاکهه التی لا تنبت فی محیطه إلاّ کبراؤه،یجلبونها فی تجارتهم و بکمیّات قلیله محدوده،أو یزرعون شجرها طمعا فی بضع وحیدات منها!و هی مع قلّتها تقطعها الأسباب،و تمنعها الموانع المختلفه عنهم،فکیف بهم و هم یجدون أنفسهم أمام تلک النعم العظیمه الوافره؟إنّ العاقل منهم لا ریب یسعی لنیلها حینما تطمئن بها نفسه.

و هنا فکره لطیفه تفسّر اهتمام القرآن بالترکیز علی التذکیر بجوانب من نعیم الآخره،و التفصیل فیه و التشویق إلیه فی کثیر من المواضع،و هی:إنّ ذلک یأتی لمقاومه کثیر من الانحرافات المعنویه و العملیه فی حیاه الإنسان،و الناتجه من

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر

الاغترار بنعم الدنيا،و الخضوع لجاذبيتها،

فقد جاء فی کلام الإمام أمیر المؤمنین (علیه السلام) :«فمن اشتاق إلی الجنّه سلا عن الشهوات » (۱).

[۳۸-۳۴] وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَهٍ افترش الشیء:وطئه،و عرضه:استباحه بالوقیعه فیه،و حقیقته:جعله لنفسه فراشا یطؤه (۲)،فالکلمه فیها دلالتان:الأولی:الفراش الذی ینام علیه الإنسان، و الثانیه:الزوجه التی یستبیحها و یطؤها،و هذا من بلاغه القرآن أن یشیر إلی نعمتین بکلمه.و قد ورد فی النصوص الإسلامیه استخدام للکلمه فی المعنی الثانی.

قال العلامه الطبرسی:و یقال لامرأه الرجل هی فراشه،و منه

قول النبی (صلّی اللّه علیه و آله و سلم) :«الولد للفراش،و للعاهر الحجر » (۳)،

و قال الإمام الصادق(علیه السلام) یصف إناث الجنه:«نعم.ما یفترش منهنّ شیئا إلاّ وجدها کذلک » (۴)(یعنی باکرا).

و مَرْفُوعَهٍ یعنی عالیه المکان،و هی أصلح فی الفراش من الآخر الذی علی الأرض،کما تعنی الکلمه ارتفاع الشأن حسنا و کمالا أیّا کان المقصود ظاهر الفرش أو الزوجه.

إِنّٰا أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰاءً و الإنشاء هو الإبداع و الصناعه،و قد خلق اللّه لکلّ مؤمن زوجات مخصوصات به،و هذا من عنایه اللّه و لطفه بالمؤمن،و علی هذا المعنی یکون المراد حور العین، و قال البعض:إنّهنّ من نساء الدنیا أنشأناهن اللّه من جدید فتیات جمیلات و أبکار،

ص:۴۰۸

۱- ۱) قصار الحکم المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغه ص ۷۰۴

۲- ۲) المنجد ماده فرش

۳- ۳) مجمع البیان/ج ۹ ص ۲۱۹

۴- ۴) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۱۷

هکذا

روی عن أمّ سلمه أنّها سألت النبی(صلّی اللّه علیه و آله و سلم)عن الآیه فقال لها:«یا أمّ سلمه هنّ اللواتی قبضن فی الدنیا عجائز شمطا عمشاء رمصا جعلهنّ اللّه بعد الکبر أترابا علی میلاد واحد فی الإستواء » (۱).

و هکذا قیل حور العین للسابقین،بینما العرب الأتراب لأصحاب الیمین.

فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْکٰاراً و کلمه الجعل تشیر إلی أنّ بکارتهنّ دائمه،و هکذا

جاء فی الحدیث عن رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلم)أنّه قال :«کلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبکارا»فلمّا سمعت عائشه بذلک قالت:و أوجعاه!فقال رسول اللّه (صلّی اللّه علیه و آله و سلم):«لیس هناک وجع » (۲)و من صفه الحور عروبتها و انسجامها.

عُرُباً أَتْرٰاباً فی تفسیر علی بن إبراهیم:«لا یتکلّمون إلاّ العربیه» (۳)و هی لغه أهل الجنه، و العروبه من النساء الضاحکه (۴)فهی تعرب و تفصح عن ثنایاها حین الابتسام، و البشاشه من جمال المرأه،و قال الراغب الأصفهانی:و امرأه عروبه:معربه بحالها عن عفّتها و محبّه زوجها (۵).

و قیل الغنج و الدلال عن أمیر المؤمنین علیه السلام فی روایه هذا نصّها:

قال علیه السلام

ص:۴۰۹

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۷ ص ۲۱۰
۲- ۲) جوامع الجامع فی الموضع
۳- ۳) تفسیر القمی/ج ۲ فی الموضع
۴- ۴) المنجد/ماده عرب
۵- ۵) مفردات الراغب ماده عرب

يصف غرف الفردوس:«فى كلّ غرفه سبعون خيمه،فى كلّ خيمه سبعون سريرا من ذهب،قوائمها الدرّ و الزبرجد(فهى مرفوعه إذا)موصوله بقضبان الزمرد، على كلّ سرير أربعون فراشا،غلظ كلّ فراش أربعون ذراعا،على كلّ فراش زوجه من الحور العين عربا أترابا»فقال(أحد):أخبرنى يا أمير المؤمنين عن عروبه؟!قال:«هى الغنجه،الرضيه،الشهيه،لها سبعون ألف وصيف و سبعون ألف وصيفه،ضعف الحلى،بيض الوجوه،عليهنّ تيجان اللؤلؤ،على رقابهنّ المناديل،بأيديهنّ الأكوبه و الأباريق » (۱).

و فى الأتراب أقوال:فعن على بن إبراهيم:يعنى مستويات الأسنان،و قيل أنّهن متماثلات،

يقول الرسول(صلّى اللّه عليه و آله و سلم)لأمّ سلمه :«جعلهنّ اللّه أترابا على ميلاد واحد فى الإستواء » (۲).

و قيل و هو الأشهر و الأظهر و الأشمل:أنّهنّ ينسجمن مع أزواجهن من المؤمنين فى ظاهر أجسامهن و فى خلقهن و سلوكهن و نفسيّاتهن.

و للام فى «لِأَصْحٰابِ» و جهان:أحدهما:أنّها موصوله بما قبلها مباشره فيكون المعنى المتقدّم(متاربتهنّ لهم)،و الآخر: أنّها موصوله بكلّ ما تقدّم فهو ملك لِأَصْحٰابِ الْيَمِينِ و من أجلهم،و هذا أظهر.

[۴۰-۳۹]أمّا عن نسبه هذا الفريق فى البشريه و فى كلّ جيل من أجيال المسلمين فهى ثلّه(أكثر من القليل)لأنّ المنتمى إليه هم عامّه المؤمنين و المسلمين.

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ* وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ

ص:۴۱۰

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۱۸

۲- ۲) المصدر/ص ۲۱۹

قال الإمام الصادق(عليه السلام) (يعنى اَلْأَوَّلِينَ):من الطبقه التى كانت مع النبى(صلّى اللّه عليه و آله و سلم)،(و يعنى اَلْآخِرِينَ):«بعد النبى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)من هذه الأمّه » (۱)،و هذه النظره الواقعيه المتوازيه تنفى موقف المغالات فى الأوّلين من المسلمين بأنهم كلّهم سابقون،و أنّ الهدايه تتحقق باتباع أىّ منهم،

على التفسير المطلق للحديث :«أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم »،فإنّ الجيل الأوّل و إن كانت الحضاره الإسلاميه تأسست بجهودهم، و سطّروا الملاحم و المجد،إلاّ أنّ بعضهم السابقون و أقلّ من ذلك أصحاب اليمين، كما أنّ بعضهم المنافقون بصريح القرآن: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَه (۲)،و هى تنفى موقف اليأس من حال المسلمين اليوم،كلاّ..

فقد يصبح الواحد منّا من السابقين أولا أقل من أصحاب اليمين كما الجيل الأوّل سواء بسواء.

ذلك لأنّ الأمه الإسلاميه كانت و لا تزال خير أمّه أخرجت للناس،

و فى روايه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال النبى(صلّى اللّه عليه و آله و سلم) :«إنّى لأرجو أن يكون من تبعنى ربع الجنه»قال:فكبّرنا.ثم قال:«إنّى لأرجو أن يكونوا ثلث أهل الجنه»فكبّرنا،ثم قال:«إنّى لأرجو أن يكونوا شطر أهل الجنه»ثم تلا(صلّى اللّه عليه و آله و سلم)«الآيتين » (۳).

و فى الخصال للشيخ الصدوق(ر ض) قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله و سلم) :«أهل الجنّه مأه و عشرون صفا،هذه الأمّه منها ثمانون صفّا » (۴).

و يكفى بالثلّه هنا كثره إذا اعتبرنا الأوّلين هم الأمم السابقه حسب بعض

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) التوبه۱۰۱/

۳- ۳) مجمع البيان/ج ۹ الموضع

۴- ۴) الخصال/ج ۲ ص ۶۰۱

الروايات،و الآخرين هی أمّه الإسلام،و قد عدلها اللّه بهم،فقال:ثلّه من أولئک و ثلّه منها.

[۴۱-۴۲]و یبدأ السیاق شوطا جدیدا من الحدیث یتمحور حول الفریق الثالث من الناس و هم أصحاب المشأمه و الذین یتسلمون کتابهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم،و الذکر الحکیم لا یکتفی بذکر مصیرهم البئیس و حسب-کما هو الحال بالنسبه للسابقین و أصحاب الیمین-بل یبیّن أهمّ الأسباب التی تصیر بالبشر الی ذلک،هدایه لنا الی النجد الصحیح،و إنذارا من التورط فیها.

وَ أَصْحٰابُ الشِّمٰالِ مٰا أَصْحٰابُ الشِّمٰالِ و الشمال کنایه عن الشؤم (۱)،و هذا المعنی واضح إذا فسّرنا الکلمه هنا بالآیه التاسعه،فهذا الفریق هم المعنیّون بالمشأمه،و مع أنّهم یعطون کتابهم بشمالهم وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِشِمٰالِهِ فَیَقُولُ یٰا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتٰابِیَهْ (۲)،إلاّ أن القرآن لا یسمیهم بأصحاب الیسار،لأنها مأخوذه من الیسر تفاؤلا کالمفازه للصحراء،ذلک ان قوه الإنسان فی یمینه،و یستخدمها بیسر و سهوله،بینما یواجه حرجا و عسرا فی إعمال شماله،فقیل یسار رجاء الیسر.و نستوحی من ذلک ان سیره المتقین و المؤمنین هی المسیره الطبیعیه التی تنسجم مع واقع الإنسان و الحیاه،و ان مسیره أهل النار هی الشذوذ عن مسیره الخلیقه.أو لیس کل شیء فی العالم یسلم للّه و یخضع لسننه و یسبح بحمده؟و کیف لا یکونون کذلک وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (۳)،بینما نجد هؤلاء یکفرون باللّه،و یشرکون به،و ینکرون الحقائق الکبری کالبعث،و یخالفون سنن اللّه و أوامره.

ص:۴۱۲

۱- ۱) المنجد ماده شمل بتصرف

۲- ۲) الحاقه/۳۵

۳- ۳) الإسراء/۴۴

و إذا كـان تجلّى الشـمال و اليمين و المشـأمه و الميمنه فى يوم الـدين هو إعطـاء الكتاب بإحـدى اليـدين فان تجليهما فى الواقع الاجتماعى و السياسـى هو القياده الصالحه بالنسـبه لليمين، و الفاسده بالنسـبه للشـمال،و قد وردت بهذا التأويل روايات كثيره من بينها:

قول رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)للإمام على (عليه السلام) :«هم شيعتك » (۱)يعنى أصحاب اليمين،

و قول أبى عبد اللّه (عليه السـلام) :«و الكتاب الامام،و من أنكره كان من أصحاب الشمال الذين قال اللّه:الآيات » (۲)،و من هذه الاخبار و أمثالها اسـتلهم على بن إبراهيم(ر ض)تفسـيره للآيه:يعنى من كان من أصـحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) (۳)،و مثل الشمال:

الجبارون و المشركون و الكافرون و الطواغيت و من أريد هوانه و شقوته » (۴).

و هنا نجد السـياق القرآنى يختلف عما سـبق،فحين ذكر أصحاب اليمين من بعد السابقين لم يبين صفاتهم،بينما هنا يذكر صفات أصـحاب الشمال مما يثير التساؤل:لما ذا؟و يبدو أنّ الاجابه تتوضّح إذا عرفنا أنّ الإنسان خلق أساسا ليكون من أصحاب الجنه.أو ليس خلقنا ليرحمنا؟فـدخول النار شـذوذ عن هـدف الخلقه لا بـد ان نبحث عن سـبب له،و هكذا يبيّن القرآن عوامل دخول النار التى من تجنّبها تفضّل اللّه عليه بالجنه،و الأسـلوب القرآنى بديع فى بيان موجبات النار حيث يجعل بيانها مسـبوقا ببيان جانب من العذاب الشديد،ثم يلحقه بإشاره الى ألوان اخرى منه أيضا،و ذلك لكى يخوفنا من مصيرهم،فما هو مصيرهم؟إنّهم:

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۲۹ نقلا عن روضه الكافى
۲- ۲) المصدر/ص ۲۲۱
۳- ۳) تفسير القمى/ج ۲ ص ۳۵۰
۴- ۴) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۱۴

فِي سَـمُومٍ وَ حَمِيمٍ و السـموم الريـح الحـاره الـتى تـدخل مسـام الجسـم،و لعلّه فى الآـخره نـوع مـن النيران يعـذب به أصـحاب المشأمه،قال تعالى: وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ (۱).

و لعلّ اللفح بريح السـموم يوم القيامه متولّده من حركه السـنه النار و تداخلها فى بعضـها(المرج)،و هو يصيب (أَصْحٰابُ الشِّمٰالِ) بحره إضافه الى كونهم فى جهنّم مباشره تحيطهم من كلّ جانب و صوب.

أمّا الحميم فهو السائـل الفـائر المغلى الى درجه،من حم الماء إذا وضـعه على النار و سخّنه،قال تعالى: فَشٰارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (۲)،و قال: كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِي النّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۳)،من شدّه حرارته.و الحرف «فِي» يفيد الاحاطه الشامله.

و الذى يظهر من تعبير القرآن بفى أنّه يسـقط الزمن من الحساب،بالرغم من انّ ظاهر الآيات الذى يلاحظه المتدبّر-أنّها تنصـرف الى المستقبل«يوم الدين»، و قد أراد ربنا بذلك هدايتنا الى حقيقتين:

الاـولى:انّ العـذاب و الثواب حقـائق واقعيه يعيشـها الإنسـان فى الـدنيا فور مبـادرته الى عمـل الخير و الشـر،لاـن ذات السـيئات و الحسنات هى التى تصير نارا أو جنه فى الآخره،بيد ان الناس محجوبون عن هذه الحقيقه الحق.قال تعالى:

۱- ۱) الحجر/۲۷

۲- ۲) الواقعه/۵۴

۳- ۳) محمد/۱۵

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱)،و قال: إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲)، «وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» (۳).

الثانيه:ان جزاء الإنسان ليس بعيدا عنه من الناحيه الزمنيه،فالدنيا و ان طال عمره فيها-الى المأه عام مثلا-لا تكاد تبين فى ميزان الخلود الاخروى، وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (۴)،و لكن أكثر الناس لا يستوعبون هذه الحقيقه و لا يدركونها بعمق الا فى الآخره إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ يَوْماً (۵)، «وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ» (۶).

[۴۳-۴۴]فلا يظنّ أصحاب الشمال ان العذاب بعيد عنهم،فهم الآن و غدا محاطون به.

وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ قال صاحب المنجد:الأسود من كلّ شيء(و يسمى بذلك)الدخان (۷)، و قال على بن إبراهيم:ظلمه شديده الحر (۸)،و هذا النوع يقابله الظل الممدود فى جنان المؤمنين،و لعلّه المشار اليه فى قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ (۹)،و هو إن صحّ فاليحموم نار سوداء تجعلهم فى ظلام حالك.

ص:۴۱۵

۱- ۱) الجاثيه/۲۸

۲- ۲) الطور/۱۶

۳- ۳) الزمر/۲۴

۴- ۴) الحج/۴۷

۵- ۵) طه/۱۰۴

۶- ۶) الروم/۵۵

۷- ۷) راجع ماده حم

۸- ۸) تفسير القمى/ج ۲ ص ۳۴۹

۹- ۹) الزمر/۱۶

لاَ بَارِدٍ كظلال الجنه،و ظلّ الدنيا.

وَ لاٰ كَرِيمٍ فهم يلقون من جهه عذابا للجسم بسبب الحراره فى ذلك الظل،و من جهه اخرى يتلقّون الاهانات و الاذلال و الخزى،و يعيشون انعدام الكرامه على خلاف المؤمنين و السابقين الذين تتابع عليهم كرامات اللّه و نعمه،و لا يسمعون، «إِلاّٰ قِيلاً سَلاٰماً سَلاٰماً» .

و قيل:الكريم:العذب،و قال بعضهم:حسن المنظر،و قال آخرون:كل ما لا خير فيه فليس بكريم.

[۴۵-۴۸]و هذه الألوان من العذاب التى تحيط بأصحاب المشأمه فى الآخره، لا شك انها تجليات لما قدموه فى الدنيا،و ما كانوا عليه من الأعمال السيئه و الأفكار الضاله،و نتيجه لمنهجهم فيها،فما هى العوامل التى جعلتهم من هذا الزوج المشؤوم لعلّنا نتعرف عليها و نتجنّبها؟ أولا:الترف.قال تعالى:

إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ قالوا:ترف النبات كثر ماؤه و نضر،و انما سمى صاحب النعمه بالمترف لأنه كثرت لديه النعمه و ظهرت عليه نضارتها،و لعلّه لا يسمى كل صاحب نعمه مترفا، انما الذى جاوز الحد فى الاهتمام بنفسه،و جعل النعم هدفه الاساسى،و قد توالت آيات الذكر فى ذم هذا الفريق،و بيان صفاتهم الذميمه التى أبرزها كفرهم بكل

رساله جدیده.

قال اللّه: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (۱)،و إنّهم یجعلون النعمه قبلتهم فیتبعونها أنّی کانت،و هی -بالطبع-تجرّهم إلی ألوان من الظلم و الانحراف و الجریمه،کما قال تعالی:

وَ اتَّبَعَ الَّذِینَ ظَلَمُوا مٰا أُتْرِفُوا فِیهِ وَ کٰانُوا مُجْرِمِینَ (۲)،کما انهم یعتمدون اعتمادا کلیّا علی ما أترفوا فیه فلا یسعون لعمل الصالحات، وَ قٰالُوا نَحْنُ أَکْثَرُ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (۳)،بل و یزداد المترفون ضلالا و ذنوبا،و بالتالی قربا من النار کلما ازدادت النعم علیهم،قال تعالی: إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۴)، و لا یعلم هؤلاء بان اعتمادهم علی المال و القوه و سائر صنوف النعمه کان خطأ إلاّ فی الآخره،حیث یغمرهم الندم و لا حیله لهم یومئذ و لا هم ینصرون،قال تعالی:

وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِشِمٰالِهِ فَیَقُولُ یٰا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتٰابِیَهْ* وَ لَمْ أَدْرِ مٰا حِسٰابِیَهْ* یٰا لَیْتَهٰا کٰانَتِ الْقٰاضِیَهَ* مٰا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِیَهْ* هَلَکَ عَنِّی سُلْطٰانِیَهْ (۵)، و فی صفه المترفین من أهل الدنیا

قال الامام علی(علیه السلام) :«سلکت بهم الدنیا طریق العمی،و أخذت بأبصارهم عن منار الهدی،فتاهوا فی حیرتها، و غرقوا فی نعمتها،و اتخذوها ربّا،فلعبت بهم و لعبوا بها،و نسوا ما وراءها » (۶).

و السؤال:لماذا یقول ربنا «مُتْرَفِینَ» بصیغه المبنی للمجهول،کأنّما قد

۱- ۱) سبأ/۳۴

۲- ۲) هود/۱۱۶

۳- ۳) سبأ/۳۵

۴- ۴) آل عمران/۱۷۸

۵- ۵) الحاقه/۲۵-۲۹

۶- ۶) نهج کتاب/۳۱ ص ۴۰۱

جرهم الی الترف شخص آخر،و إذا کان الأمر کـذلک فلما ذا یعـذبهم اللّه؟ و الجواب:ان اللّه هو الـذی ینعم علی العبد،و لکن الإنسان هو الـذی یختار ان یجعلها وسـیله یتسابق بها الی الخیر و الفضـیله و الرضوان،أو یصـیّرها سـببا للتسافل و العذاب، و بتعبیر آخر:انه قادر ان یبتغی بالنعم ان شاء الدار الآخره،و ان شاء الدنیا فیتبع هو بنفسه ما یترف فیه.

و کلمه أخیره:

إنّ المفسّرین اختلفوا فی معنی هذه الآیه،فقال بعضهم:المراد انّهم تنعّموا بالحرام،و قال الآخرون:معنی المترفین المشرکین،بید ان کلمه المترف قد أصبحت علما لفئه معینه من الناس ذکر القرآن الکریم صفاتهم و أعمالهم،مما أخرج الکلمه عن وضعها اللغوی الی وضع جدید فلا نحتاج فیها الی تأویل.

ثانیا:الإصرار علی الحنث.

وَ کٰانُوا یُصِرُّونَ عَلَی الْحِنْثِ الْعَظِیمِ اَلْحِنْثِ :هـو المیـل الی الباطـل،و فی الیمیـن:لـم یـف بموجبهـا (۱)،و هـو مـن الـذنوب الکبیره،لـذلک فسـر البعض الکلمه بأنّهـا الکبـائر،و قـال آخرون منهم ابن عبـاس انّهـا الیمین الغموس،و علیه کثیر من المفسـرین المتقدّمین و المتأخرین،و لعلّ اَلْحِنْثِ هو مخالفه المیثاق عموما،و لکن بما انّ أعظم میثاق هو الذی قطعه الإنسان علی نفسه امام اللّه فی عالم الذر فان أبرز مصادیق الحنث العظیم هو الشـرک،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدِ افْتَریٰ إِثْماً عَظِیماً (۲)،و کیف لا یکون المشرک من أصحاب المشأمه و قد قال

۱- ۱) المنجد ماده حنث

۲- ۲) النساء۴۸/

اللّه: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوٰاهُ النّٰارُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ (۱)، و لا ينحصر الشرك فى قول النصارى: إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَةٍ (۲)،و لا فى قولهم: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ (۳)،و لا فى عباده الأصنام و الأوثان،بل فى التسليم لأىّ منهج أو قياده باطله،فقد يكون الشرك سلوكا اجتماعيّا و قولا باطلا،قال اللّه تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثٰانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفٰاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ السَّمٰاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكٰانٍ سَحِيقٍ (۴).

و الآيه تبيّن لنا حجم الذنب الذى يمارسه فريق المشأمه بثلاثه حدود:الأوّل:

هو الإصرار الذى يجعل الذنب الصغير كبيرا،فكيف و هو واقع على ذنب كبير؟ و الثانى:الحنث أى مخالفه ما تعهّد به الشخص،و ألزم نفسه باتباعه.و لا ريب ان مخالفته لا تنعكس على ضياع حقوق المجتمع،بل على سحق كرامه المحنث نفسه، حيث يسقط اعتباره و شخصيته فلا يعود أحد يثق به،بل لا يعود يثق هو بنفسه، ذلك انّ أساس الأخلاق احترام الإنسان لنفسه،و ثقته بكرامته،فاذا فقد ذلك فلا يبقى لديه أى أساس للالتزام بالقيم،و الثالث:الشرك الذى هو أعظم الحنث، و عموما كل حنث عظيم،و الذى يهتك أعظم عهد و يمين فى حياته هل تبقى عنده حرمه و اعتبارات لأى يمين و عهد آخر؟! ثالثا:الجحود بالآخره،الذى كان يتناسب مع الترف الذى يحصر الإنسان فى حدود الدنيا،و مع الشرك الذى يبرر للنفس انحرافاتها و تبرّيها من المسؤوليه،و هم لا يكفرون بها و حسب بل و يسفّهون فكرتها و قيمها عند الآخرين بالتشكيك

ص:۴۱۹

۱- ۱) المائده۷۲/

۲- ۲) المصدر۷۳/

۳- ۳) المصدر۷۲/

۴- ۴) الحج ۳۰/-۳۱

فيها..

وَ كٰانُوا يَقُولُونَ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ للحساب و الجزاء،و قولهم هـذا يكشف عن شـكّهم فى قـدره اللّه،و سعيهم لتشكيك الآخرين فيها،بانّه تعالى لا يقدر على بعث الخلق،و ربنا يردّ هذه الشبهه فى الآيات القادمه:۵۷-۷۴.

و ليس القول هنـا مجرّد الكلام،بـل يشـمل مجمـل موافقهم و سـلوكهم،و كـانوا يتساءلون تعميقا لشـبهتهم:هل أنّ آباءنا الأولين الـذين صاروا عظاما نخره يبعثون؟! أَ وَ آبٰاؤُنَا الْأَوَّلُونَ و ربما يسـتهدف تعرّضـهم لـذكر الآباء الأولين بالـذات اثاره ثقافه التخلّف التى كـانت تقـدّس الآبـاء فى أعينهم،إثارتها فى نفوس الناس لتكون حاجزا دون الايمان بالبعث،ذلك انّ الرساله كانت تخبرهم بأنّ الآباء سوف يبعثون من جديد، و يحاكمون علنا،و يلقون الجزاء العادل إن خيرا فخير و ان شـرا فشـر..و كان من الصـعب على من يقدس آباءه انّى كانوا قبول فكره محاكمتهم و مجازاتهم،على أنّ بعث الاباء أبعد فى ذهن السذّج من بعث من هم لا يزالون أحياء.و الشـىء الآخر أنّهم لا يرون حديثهم عن المسـتقبل كافيا لتدعيم فكرتهم و نظرتهم الشيئيه المغرقه بواقع محسوس،و الآباء الأوّلون هم تراب و عظـام بالفعـل،و هـذا يتنـاسب مع ضـلالهم و إضـلالهم غيرهم عن فكره الآخره و التى هى جانب من الغيب المستقبل.

[۵۰-۴۹]و يرد ربنا على هذه الشبهه ردا موضوعيا صاعقا على لسان رسوله صلى الله عليه و آله بالوحى:

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ و ربما كان فى فعل الأمر «قُلْ» تحقيرا لهم بأنه تعالى لا يكلمهم مباشره،و لعل أهم ما يوحى به ظلال«قل»أنّ هذه الحقيقه يجب ان تقال صراحه،و أنّها من مفردات الدعوه الى اللّه و رسالاته،كقوله سبحانه: «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ» .

و قال بعضهم:إنّ كلمه«قل»تدل على أنّ هذه الحقيقه من القضايا العامه التى يشترك فيها العوام و الخواص (۱)،و قدّم ربّنا اَلْأَوَّلِينَ على اَلْآخِرِينَ لأنّهم استبعدوا بعثهم،و لكى لا يتوهّم أحد بأن بعث الأقدمين الذين تحلّلوا و تبعثروا و لم تبق منهم حتى الآثار أصعب عليه(سبحانه)كلاّ.. فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ فَإِذٰا هُمْ يَنْظُرُونَ (۲)جميعهم، لا فرق بين مالك و مملوك،و ذكر و أنثى،و لا أوّل و أخير، و هذا هو القرآن يؤكّد مره أخرى بعد «إِنَّ» على البعث، و أنّ الناس:

لَمَجْمُوعُونَ إِلىٰ مِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ عند اللّه،و كونه جزء من العلم فهو واقع،و ليس بظنّ أو تخرّص أو كذب، و بالنظر إلى آيات قرآنيه فإنّ علم الساعه اختصّ به الربّ،و لعلّه سبحانه لم يحدّد لها وقتا كما يستوحى من قوله سبحانه: «إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ أَكٰادُ أُخْفِيهٰا» ،من هنا فإنّ اليوم معلوم الوقوع لا معلوم الوقت.و هنالك يقف الجميع أمام اللّه للحساب،لا فرق بين أحد و أحد،و لاٰ يَجْزِي وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ،وَ لاٰ مَوْلُودٌ هُوَ جٰازٍ عَنْ وٰالِدِهِ شَيْئاً (۳)،فلما ذا الاعتماد إذا على الآباء بدل الحق؟!و لعلّ «مِيقٰاتِ» هنا اسم للمكان،بينما «يَوْمٍ» يشير إلى الزمان،كما نقول:مواقيت الحج،و ربما تتسع الآيه لمعنى آخر:أنّ الناس يبقون مختلطين مع بعضهم و هكذا المجرمون إلى يوم

ص:۴۲۱

۱- ۱) راجع الرازى فى تفسير الآيه

۲- ۲) الصافات۱۹/

۳- ۳) لقمان۳۳/

القيامه حيث يصبح الناس أزواجا ثلاثه،حسب التعبير الوارد فى هـذه السوره، و تتقطّع الوشائج كما قال ربّنا سبحانه: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (۱).

و توحى كلمه «إلىٰ» فى هذه الآيه بالسّوق، و كأنّهم يجمعون ثم يساقون إلى ذلك الميقات،كما قال سبحانه: مُهْطِعِينَ إِلَى الدّٰاعِ يَقُولُ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا يَوْمٌ عَسِرٌ (۲)،و مثل التعبير فى آيه الواقعه نجده فى قوله سبحانه: قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ (۳).

[۵۱-۵۵]و يوجّه القرآن الخطاب إلى أصحاب المشأمه مشيرا إلى أهمّ صفتين تميّزهم:

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضّٰالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ فالأمر يومئذ لا ينتهى عند البعث،فهناك ما هو أعظم ممّا يليه و هو الجزاء، الذى يشكّل إنكاره العامل الحاسم و الرئيس فى كلّ انحرافات البشر.و يزعم البعض أنّ تكذيبه بالآخره يخلّصه من مسئوليته،و كأنّ من يصدّق بشىء هو وحده يتحمّل مسئوليته!كلاّ.انّ التكذيب ليس فقط لا ينجى صاحبه من عاقبه أفعاله،بل هو بذاته جريمه توجب عقابا شديدا،و كما التكذيب الضلاله فإنّها لا تبرّر الجرائم إذ أنّها من فعل الإنسان نفسه،كما أنّ الهدايه من مسئولياته.أو ليس قد وفّر اللّه لنا أسباب الهدايه،فمن ضلّ فإنّما يضلّ على نفسه.

و لعلّ تقديم التكذيب على الضلاله فى آخر السوره(الآيه ۹۲)خلافا لما عليه هذه الآيه يهدينا إلى أنّ(الضلال و التكذيب)كلاهما سبب للآخر و مسبّب له،

ص:۴۲۲

۱- ۱) الروم۱۲/-۱۴

۲- ۲) القمر۸/

۳- ۳) الجاثيه۲۶/

فالمكذّب بالحق يضل،و الضال يكذّب بالحق،و لأنّ الضال ربما يهتدى بالحكمه البالغه و الموعظه الحسنه إلى الحق،و يعود عن ضلاله،فقد وصف ربّنا المعتيين بالمكذّبين(صيغه مبالغه)ليبيّن بأنهم من المتعمّدين الضلال المصرّين عليه.أمّا عاقبه تكذيبهم و ضلالهم فهى العذاب الشديد. إنّهم:

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ قالوا:إنّها كريهه المنظر،و ثمرتها سوداء مرّه منتنه،و هى تنبت فى قلب جهنّم،و يمتد منها غصن إلى كلّ منزل و فرد فرد،و جاء فى القرآن إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُهٰا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيٰاطِينِ (۱)،و الذى يجعلهم ينجبرون على الأكل منها زجر الملائكه،و كونهم لا يجدون سواها،و لعلّهم بسبب السّموم و الحميم و ظلّ اليحموم قد بلغت حاجتهم إلى الأكل أقصى حدّها،

و قد جاء فى الحديث :«إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق ابن آدم أجوف لا بد له من الطعام و الشراب » (۲).

و لعلّ هذا العذاب يأتى جزاء الترف الذى اتبعوه فى الدنيا،على حساب حقوق اللّه و حقوق الناس،فلم يكونوا يحسون عند ما كانوا يتلذّذون بألوان النعم بمن حولهم من المستضعفين و المحرومين و الفقراء،و كانوا يجمعون المال و يكنزون الذهب و الفضه دون أن يتورّعوا عن الحرام،فنظامهم الاقتصادى قائم على أساس الاستبزاز،و الظلم و الربا و الاحتكار و...،و القرآن يصرّح بهذه الحقيقه حينما يحدّثنا فى سوره الحاقه عمّن يؤتى كتابه بشماله:

۱- ۱) الصافات۶۴/-۶۵ و للمزيد راجع تفسيرنا هناك

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۲۲

«إِنَّهُ کٰانَ لاٰ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِیمِ* وَ لاٰ یَحُضُّ عَلیٰ طَعٰامِ الْمِسْکِینِ* فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هٰاهُنٰا حَمِیمٌ* وَ لاٰ طَعٰامٌ إِلاّٰ مِنْ غِسْلِینٍ* لاٰ یَأْکُلُهُ إِلاَّ الْخٰاطِؤُنَ (۱)،و لأنّهم کانوا فی الدنیا متخمین علی حساب ملایین الجائعین من حولهم،دون أن یشبعوا من التهام الحرام،یسلّط اللّه علیهم الجوع حتی أنّهم لیملئون بطونهم من الزقّوم علی ما فیه من العذاب،

فلقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله یصفه:«و لو أنّ قطره من الزقّوم و الضریع قطرت فی شراب أهل الدنیا مات أهل الدنیا من نتنها » (۲)،و حینما یبلغ طعامها بطونهم یجدون الحاجه الملحّه إلی الشراب بما لا یمکن التصبّر علیها،فلا یجدون إلاّ الحمیم فیشربون طمعا فی ریّ ظمئهم،و إطفاء التهاب الزقوم و استعاره فی أمعائهم.

فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ* فَشٰارِبُونَ عَلَیْهِ مِنَ الْحَمِیمِ و لکنّهم لا یشربون قلیلا و یکتفون أو یتوقّفون،إنّما یشربون کالرمال التی لا تروی،أو کالإبل التی ضربت فی الصحراء هائمه(لا تدری إلی أین) (۳).

فَشٰارِبُونَ شُرْبَ الْهِیمِ قالوا: اَلْهِیمِ الإبل العطشان التی لا تروی لداء یصیبها،و قیل: اَلْهِیمِ الأرض السهله ذات الرمل(التی لا یستقرّ علیها الماء) و یقال لکل ما لا یروی من الإبل و الرمل أهیم (۴).

و من هذه الآیه عکس الإمام الصادق(علیه السلام)حکم الکراهه فی الشرب بنفس واحد.

قال أبو بصیر(ر ض):سمعت أبا عبد اللّه(علیه السلام)یقول: «ثلاثه

۱- ۱) الحاقه۳۳/-۳۷

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۲۲ نقلا عن روضه الواعظین

۳- ۳) المنجد/ماده هیم

۴- ۴) القرطبی/ج ۱۷ ص ۲۱۵

أنفاس أفضل فی الشرب من نفس واحد.و کان یکره أن یتشبّه بالهیم » (۱).

[۵۶]و إلی جانب هـذا العـذاب و السابق ذکره(الآیات ۴۲-۴۴)ألوان کـثیره و مریعه من العـذاب المؤلم المهین تصبّ کلّهـا علی أصحاب المشأمه فی النار.

هٰذٰا نُزُلُهُمْ یَوْمَ الـدِّینِ قـالوا:النزل القری الـذی یقـدّم للضـیف،و کـأنّهم ضـیوف و قراهم هـذا النوع من الطعـام و الشـراب،و قال بعضهم:النزل هو أوّل الطعام و الشراب الذی یستقبل به الضیف.

أمّا المؤمنون فـإنّهم یفـدون دار ضـیافه اللّه فَلَهُمْ جَنّٰاتُ الْمَأْویٰ نُزُلاً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۲)، کٰانَتْ لَهُمْ جَنّٰاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً* خٰالِدِینَ فِیهٰا لاٰ یَبْغُونَ عَنْهٰا حِوَلاً (۳).و لک أن تقارن بین المنزلین: أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَهُ الزَّقُّومِ (۴)؟

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۲۳

۲- ۲) السجده۱۹/

۳- ۳) الکهف۱۰۷/-۱۰۸

۴- ۴) الصافات۶۲/

[سوره الواقعه (۵۶): الآيات ۵۷ الى ۷۴]

اشاره

نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ (۵۷) أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تُمْنُونَ (۵۸) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ اَلْخٰالِقُونَ (۵۹) نَحْنُ قَدَّرْنٰا بَيْنَكُمُ اَلْمَوْتَ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۶۰) عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۱) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ اَلنَّشْأَةَ اَلْأُولىٰ فَلَوْ لاٰ تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ (۶۳) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ اَلزّٰارِعُونَ (۶۴) لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰاهُ حُطٰاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (۶۵) إِنّٰا لَمُغْرَمُونَ (۶۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۶۷) أَ فَرَأَيْتُمُ اَلْمٰاءَ اَلَّذِي تَشْرَبُونَ (۶۸) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ اَلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ اَلْمُنْزِلُونَ (۶۹) لَوْ نَشٰاءُ جَعَلْنٰاهُ أُجٰاجاً فَلَوْ لاٰ تَشْكُرُونَ (۷۰) أَ فَرَأَيْتُمُ اَلنّٰارَ اَلَّتِي تُورُونَ (۷۱) أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهٰا أَمْ نَحْنُ اَلْمُنْشِؤُنَ (۷۲) نَحْنُ جَعَلْنٰاهٰا تَذْكِرَةً وَ مَتٰاعاً لِلْمُقْوِينَ (۷۳) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ (۷۴)

اللغه

۶۵[حطاما]:الحطام هو الهشيم الذى لا ينتفع به فى مطعم و لا غذاء و أصل الحطم الكسر.

[تفكّهون]:تتكلمون فى مجالسكم من جهه التعجّب، و التندّم على ما أنفقتم فى الأرض لأجل الزرع،و المراد إنكم لا تقدرون أمام قدره اللّه بجعله النبات هشيما إلاّ التكلّم فقط.

۶۶[إنّا لمغرمون]:المغرم الذى ذهب ماله بغير عوض، و الغرام العذاب اللازم.

ص:۴۲۶

۷۰[أجاجا]:مالحا يمجّه الطبع و قيل مرا مراره شديده.

۷۱[تورون]:أى تستخرجونها و تقدمونها بزنادكم من الشجر.

۷۳[للمقوين]:يقـال أقويت منـذ أيّام أى لم آكل طعاما فالمقوين هم الـذين يحتاجون إلى الطعام،و قيل إنّ المقوى من الأضـداد فيكون المقوى الـذى صـار ذا قوّه من المـال و النعمه و المقوى أيضـا الـذاهب مـاله النـازل بالقواء من الأرض أى التى ليس فيها أحد.

نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ

هدى من الآيات:

بعد أن درس أعقد مضامين الفلسفه كنظريه الفيض و الدور و التسلسل،و قانون العدم و الوجود،مر أحدهم بعجوز تحرك المغزل،و سألها:كيف عرفتى مدبر الكون؟ فأجابته بفطرتها و إيمانها البسيط-بعد أن أوقفت النسج-:هكذا عرفت أن للكون مدبرا.لكنه ظل حائرا لم يدرك شيئا من قصدها،فبادرته:إن المغزل يقف حينما لا أعمل،فكيف لا يكون لهذه الأرض المدحيه،و السماء المبنيه على ما فيهما من الحياه و الحركه و التحوّل مدبّر؟! هكذا الكثير من الحقائق التى نعيش معها كل لحظه نبقى ساهين عنها دون أن نهتدى إلى عبرها،فالخلق،و الموت،و النشأه،و الزرع،و الماء،و النار كلّها من أقرب الحقائق إلينا و أكبرها شهاده و هدى لو وعيناها،و الإنسان قادر على أن يجعل الحياه كلها مدرسه،و ما فيها من الظواهر و العبر دروسا يكمل بها إيمانه و معرفته،

ص:۴۲۸

فیهتدی بالشهود الی الغیب،و بالحاضر الی المستقبل،و بالمخلوق الی الخالق،الا ان المشکله لا تکمن فی قله العبر و انما هی فی قله الاعتبار و المعتبر، فالمواعظ علی کثرتها و وضوحها کالشمس هل یراها من غض بصره أو استتر بحاجب؟! من هنا فان أهم اهداف الرسالات الالهیه رفع الحجب التی بیننا و بین الحقائق (الإصر و الأغلال)العلمیه بالتعلیم،و النفسیه بالتزکیه لنلمسها مباشره،قال اللّه:

هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ (1).أ رأیت الذی ضل عن ابنه فدل علیه؟أ رأیت کیف یعرفه؟کذلک الذی عاش فی ضلال مبین عن حقائق یعشو عنها و هی قریبه منه کیف یهتدی إلیها لو کشف عن بصره الستار؟و قد لا تکون حاجه الإنسان لکی یستوعب الحقائق التی تهدی الآیات إلیها،و یؤمن بها الی المعلومات و المعارف،بقدر حاجته الی یقظه الضمیر و إثاره العقل.

و انما یترف الإنسان،و یصر علی الشرک،و یکفر بالآخره بسبب ضلاله عن ربه،و قدره حق قدره.و لذلک یذکره القرآن بآیات معرفته الداله الیه،و قد تکون تلک الآیات أقرب شیء الیه(کالخلق)و لکنه غافل عنها.

بینات من الآیات:

[۵۷]لان الإنسان مخلوق فان خلقه هو أقرب الأشیاء.

هل حدث أن بحثت عن شیء ثم اکتشفت انه کان فی یدک أو جیبک و أنت ساه عنه؟أو تدری أین کان الخطأ؟إنه فی المنهج.لقد بحثت عنه طویلا فی درج مکتبک،أو رفوف مکتبتک،أو عند أهلک و أصدقائک،لقد حسبته بعیدا عنک

۱- ۱) الجمعه۲/.

فضللت عنه،و حين عدت الى نفسك و فتشت عنه لديها وجدته،كذلك الحقائق الكبرى إنما ضل عنها البشر حين فتشوا عنها بعيدا،بينما هى أقرب إليهم من حبل الوريد.هل سمعت عن ذلك الفيلسوف الذى بحث عن الحقيقه فى النظريات المعقده فلما وقف على عجوز تغزل و سألها بم عرفت ربها أوقفت مغزلها و قالت بهذا، و أضافت:أنا حينما تركت المغزل وقف.فكيف لا تقف السماء عن الحركه.

أليس لها محركا مدبرا؟و كان درس العجوز أقرب الى قلبه من كل نظريات الفلسفه لماذا؟لأنها تحدثت معه بلغه الوجدان..بأقرب الأشياء اليه،كذلك نحن امام حقيقه الخلق،من الذى خلقنا و أوجدنا؟حيث أن الإنسان يجد نفسه أمام افتراضات ثلاث:

أولا-فهل الإنسان هو الذى أوجد نفسه،فيكون ذاته الذى خلق ذاته؟و هذا لا يقره عقل و لا علم،فقد بدأ نطفه لا علم له و لا إراده،ثم نشأ حتى صار طفلا- سويا لا حول و لا طول لديه،و كفى بجهله نفسه و عقله و بدنه دليلا على أنه ليس الخالق.أم أن والديه خلقاه مع أننا نعلم يقينا بأن تقلّبه فى صلب أبيه،ثم تناميه فى رحم أمه قد تم بعيدا عن علمهما و إرادتهما.

و ثانيا:و يقول البعض أنه الدهر يميتنا و يحيينا،و قد يعبّر عنه البعض بالطبيعه، هذه السماء و الأرض و الماء و الطين.أ فلا يرجعون الى أنفسهم و يسألون:من الذى خلق الطبيعه،و أركز فيها قوانينها،و فتقها بعد رتقها،و ألف بين أزواجها،و نظّم شؤونها.أ و ليس الخالق العليم المدبّر الحكيم؟ ثالثا:و يقولون أنّ الكون جاء صدفه و يسير بغير دليل.سبحان اللّه!ما هى الصدفه؟أو لا تعنى الصدفه ان حادثتين وقعتا فى حاله واحده،و كان لكل واحده منهما سببا،إلا أنه كانت فى وقوعهما معا نتيجه جديده؟هذه هى الصدفه

التی نعرفها،و لا نعرف الصدفه عملا بغیر عامل،أو خلقا بدون خالق،أو حادثا بدون سبب (۱).

و یسخر بعض الباحثین من هذا الزعم و یضرب مثلا و یقول:لو فسر أحد ظهور دائره المعارف البریطانیه بمجلّداتها الضخمه و علومها المتنوّعه بان انفجارا وقع فی مطبعه،ففاض الحبر علی الأوراق صدفه،و ارتسمت علیها صور الکلمات صدفه، و خرجت مجلدات دائره المعارف بما فیها من ثقافه العصر،لو فسّر أحد نشوء أعظم موسوعه عصریه بهذه الصدفه کم یکون کلامه باعثا للسخریه؟!کذلک الذی یدّعی وجود خلیه واحده صدفه.

و إن شواهد العمد و التصمیم السابق متوافره فی کل حرکه فی الکون،فبالرغم من وجود سنن کونیه تجری عبرها الکواکب و المنظومات،فانها لیست کآله میکانیکیه،بل انما هی کسیاره فی عراء قد استوی علیها صاحبها،و سیّرها بقدره و خبره بالغه ۲.(و حتی الحرکه المیکانیکیه تحتاج الی محرک).

رابعا:ان الکون و من ضمنه الإنسان لم یحدث بل کان أزلیا.هل هذا صحیح؟کلا..إن جمیع شواهده تدل علی حدوثه(تطوره،تنامیه،تناقصه، حاجه بعضه الی بعضه،ترکیب أجزائه بدقه و تناسق)إن هذه آیات الحدوث..بل کل اکتشافات العلم تهدی الی أن للوجود عمرا محدودا،فالحراره المتاحه للحیاه تتناقص،و عمر النجوم محسوب (۲).

نَحْنُ خَلَقْنٰاکُمْ فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ

ص:۴۳۱

۱- ۱،۲) للمؤلف بحوث طویله فی کتابه(الفکر الاسلامی مواجهه حضاریه)تقع فی مئات الصفحات بهذا الشأن فراجع.

۲- ۳) المصدر/ص ۱۶۷.

کل شیء فی الإنسان و فی الافاق یهدیه الی تلک الحقیقه العظمی،و حتی أولئک الجاحدون لا ینکرونها بقناعه إنما کفروا وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١).إذا فنحن نحتاج فقط الی النظر و التفکر فی آیات اللّه بعیدا عن الحجب و الخلفیات الخاطئه،حتی نصدق بذلک.

[۵۸-۵۹]و یبدد القرآن الحجب التی تحول دون رؤیه هذه الحقیقه و التصدیق بها،فیقول:

أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تُمْنُونَ هذه القطرات التی تندفق منک و التی لا تعرف منها شیئا کثیرا،هل تزعم أنک الذی تصنعه فی صلبک،أو تهیأ أدوات قذفه حتی تحسب أنک الذی تخلقه؟ و کان یستطیع القرآن أن یلقی علینا الحجه البالغه لو ساءلنا عن خلقه آدم و حواء و لکنه یدع ذلک الغیب إلی شهود یراه و یعایشه کل بشر(الأمناء)و یطرح السؤال التالی:

أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخٰالِقُونَ من الذی أنشأ المنی و هل کان بامکانک إیجاده قبل البلوغ؟و حین بلغت هل تکون بتدخل منک و علم و تخطیط و إراده؟ثم کیف تطور الحیمن و نمی من مرحله الی اخری حتی یصیر إنسانا سویا،إنه لا ریب لیس من صنع الإنسان،و لا بعلمه.انما یتطور ضمن القوانین و السنن الالهیه،و بإراده الهیه.إذ لا تعمل القوانین إلاّ باذنه ذلک بأن لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً (٢).ثم إذا

١- ١) النمل/۱۴.

٢- ٢) الشوری۴۹/-۵۰.

خرجنا من بطون أمهاتنا الى الحياه، فاننا لا نملك امام نمونا الا التسليم بأنه ليس بفعلنا،انما بفعل اراده خارجه عن اختيارنا،هی إرادته عزّ و جلّ،فنحن لا نستطيع ان نمنع نمو شعره واحده فی رأسنا،و لا ظفر واحد لأنهما ينموان بعيدا عن إرادتنا [۶۰-۶۱]و من حقيقه الخلق تنطلق بنا الآيات الى الموت،انه أيضا مفروض علينا فرضا فلا نعلم أجلنا.و لا نقدر على دفعه إذا حل بساحتنا،و لو كنّا الذين خلقنا أنفسنا فلما ذا لا نخلقها بطريقه تتحدى الموت؟إذا فربنا هو الذی خلق الموت و الحياه،و هو الذی يحيی و يميت،متى يشاء و أين و كيف.

نَحْنُ قَدَّرْنٰا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ فهو يجری بحكمه إلهيه دقيقه،فبالرغم من تعرض البشريه لألوان من الموت الجماعی،بسبب الوباء،و الحروب الطاحنه،أو الفردی بالأسباب الطبيعيه إلاـ أنها تزداد يوما بعد يوم و تبقى فی توازن من الحفاظ على الجنس.و لو كان يجری الموت اعتباطا و بلا حكمه لربما انقرض النوع البشری منذ زمن بعيد،فی مثل طوفان نوح عليه السلام .إنما اللّه هو الذی يقدر الموت بين الناس،و يقهرهم به وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱)، فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (۲).

وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ و السبق هنا بمعنى الغلبه و العجز،فربنا القاهر فوق عباده،و ليس سبحانه مقهورا بقوه أنى كان نوعها،فكما سبق الأشياء بالخلق لا من شیء فهو سبحانه يعدمهم متى ما شاء كيف شاء،لا يسبقه شیء،و لا يعجزه أو يغلبه.و تأتی كلمه

۱- ۱) الانعام/۱۸.

۲- ۲) النحل ۶۱/.

مسبوقین لتوحی إلی حقیقه تظهر قدره اللّه من زاویه اخری،و هی انه تعالی ابتداعا، من غیر مثال یحتذی به سبقه به غیره و السؤال ماذا یعنی تبدیل الأمثال؟ ۱-هلاک الإنسان أو جیل و استبداله بغیره،و البشر لا یقدرون علی الوقوف امام الاراده الالهیه و منع تبدیلها قال تعالی: فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ* عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَیْراً مِنْهُمْ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ* فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ (۱).

۲-تبدیل مثل الإنسان بالنظر الی صفاته المادیه و المعنویه،فان مثل الإنسان المحدود لا تستحیل عودته عند المقتدر القوی،فانها لیست بأعظم من خلق السموات و الأرض،و تدبیر شؤونهما،و تنظیم عملیات التغییر و التبدیل التی تجری کل لحظه فیها الا تری کیف یدبر الرحمن امر الحیاه فیمیت الأرض ثم یحیها بالغیث، أو یعجزه اعاده الإنسان بعد الممات فی الحیاه بمثل هذه الطریقه؟قال اللّه تعالی: قٰالُوا أَ إِذٰا کُنّٰا عِظٰاماً وَ رُفٰاتاً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً* أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ قٰادِرٌ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (۲)،و قال عز من قائل: أَ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ الْخَلاّٰقُ الْعَلِیمُ* إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ* فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۳).

۳-و قد یکون المثل الآباء الذین ماتوا و تآکلت أجسامهم،حیث ضربوهم مثلا لانکار البعث،و زعموا بأنه یستحیل نشرهم کما قال اللّه یصف ذلک الخصیم وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۴).و یشیر القرآن

۱- ۱) المعارج ۴۰/-۴۲.

۲- ۲) الإسراء۹۹/.

۳- ۳) یس ۸۱/-۸۳.

۴- ۴) یس۷۸/.

إشاره واضحه الی هذا المعنی إذ یقول تعالی یخاطب نبیه: أُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً* وَ قٰالُوا أَ إِذٰا کُنّٰا عِظٰاماً وَ رُفٰاتاً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً* قُلْ کُونُوا حِجٰارَهً أَوْ حَدِیداً* أَوْ خَلْقاً مِمّٰا یَکْبُرُ فِی صُدُورِکُمْ فَسَیَقُولُونَ مَنْ یُعِیدُنٰا قُلِ الَّذِی فَطَرَکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَسَیُنْغِضُونَ إِلَیْکَ رُؤُسَهُمْ وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هُوَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَرِیباً» (۱).

وَ نُنْشِئَکُمْ فِی مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ فکما یبدل اللّه جیلا مکان جیل ینشئ الجیل الغابر فی صوره جدیده لا یعلم عنها شیئا و هی نشأه الآخره.و هکذا توحی الآیه بأن عملیه تبدیل الأجیال دلیل علی وجود تدبیر حکیم فی نظام الخلق یهدینا بدوره الی أن ربنا سبحانه لا یذهب بالجیل الماضی الی العدم،بل الی نشأه اخری لأنه حکیم کما لا یأتی بالجیل الجدید عبثا بل للامتحان و تکون الدنیا کقاعه امتحان یدخلها جماعه بعد جماعه و الذین یخرجون منها یذهبون للحساب،کما ان الذین یدخلون فیها یتعرضون للامتحان.

و لعل المعنی ان حقیقه الإنسان لا تتغیر بعد الموت،و انما تتبدل صورته الظاهریه فقط،حیث ینتقل الی حیاه تتغیر فیها المقاییس و نحن لا نعلم عنها شیئا.

[۶۲]و کفی بجهل الإنسان این یصیر بعد الموت دلیلا علی أنه مدبر مخلوق و انه لیس القادر المتصرف فی نفسه،و کفی بعلمه بالخلق الأول إثباتا للبعث.و ان الذی خلقه من نطفه من منی یمنی،قادر علی بعثه للجزاء إذا وقعت الواقعه.

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَهَ الْأُولیٰ فَلَوْ لاٰ تَذَکَّرُونَ ان الإنسان لا یستطیع ان ینکر قدره اللّه علی الأحیاء فی خلقه الاول، فلما ذا

۱- ۱) أسراء۴۸/-۵۱.

يشك فيه تعالى و فى قدرته على البعث؟ أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ* ثُمَّ كٰانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّٰى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثىٰ* أَ لَيْسَ ذٰلِكَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ (۱)؟!بلى إنه قادر و كفى بالنشأه الاولى مـذكرا لنا بهـذه الحقيقه المودعه فى فطرتنا و عقولنا.

و دعوته الى التذكر هنا بعد قوله:(فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ الآيه ۵۷)،يهدينا الى ان المسافه بين الإنسان و بين التصديق باللّه و باليوم الآخر قريبه جدا لا تحتاج الا الى التذكر و ذلك بالتوجه الى مقاييسه العقليه التى يمارس بها فعاليات حياته.

[۶۴-۶۳]و يلفتنـا الـذكر الحكيم الى آيه اخرى تهـدينا لو تفكرنا فيها الى الخالق اللطيف عزّ و جلّ و الـذى يتجلى لخلقه فى كل شىء حتى لا يجهلوه فى شـىء، انها آيه الزراعه،التى تعرفنا من جهه بربنا،و تضع أمامنا من جهه ثانيه صوره واضحه و قريبه لواقع البعث و النشور،حيث نضع البذره فى التراب،فلا تلبث بعد ان نصب عليها الماء أن تصير نبته،ثم تستوى على سوقها تحكى الحياه بكل روعتها و عنفوانها.

أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ انه لا يحدثنا عما لا نزرعه من الأشـجار و النباتات لان عدم صنعنا فيها ثابت فهى إذا من عند اللّه،إنما يحدثنا عما نزرعه بأيدينا و نحرث له،و الحرث هو قلب الأرض و وضع البذور فيها،و الرؤيه فى الآيه منصـرفه الى رؤيه البصـيره كما هى فى الآيات(۵۸،۶۸،۷۱)،و نحن بعد ان نرى بهذا المعنى ينبغى لنا ان نجيب على السؤال:

أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّٰارِعُونَ

ص:۴۳۶

۱- ۱) القيامه/۳۷-۴۰.

فنحن حينما نعمل بصرنا و بصيرتنا و نطلع على الواقع الذى تتم فيه الزراعه حيث مئات الآلاف من العوامل و القوانين التى نجهل أكثرها،و لسنا نحن الذين اوجدناها،أو نسيرها فانه حينئذ يتأكد لنا بأنه تعالى الذى يزرع،أما دورنا فى الحقيقه فليس إلاّ الحرث و السقى و ما أشبه و كل ذلک يكون بنعم اللّه و حوله و قوته.

و حين تصفو رؤيه الإنسان و تجلو بصيرته يلامس قدره اللّه و تدبيره و يؤمن بمدى سعه القدره و حسن التدبير،خصوصا المزارع حيث تحيط به آيات الخليقه،و يتعامل مع الأنواء و التراب و الماء و يتعايش نمو النبات و جماله و تجليات القدره الالهيه فيه.

و ترغب النصوص الدينيه المؤمنين فى التعامل مع الزراعه بهذه البصيره،

قال الامام أبو عبد اللّه عليه السلام :«إذا أردت ان تزرع زرعا فخذ قبضه من البذر و استقبل القبله،و قل(الآيتان ۶۳/۶۴)ثلاث مرات،ثم تقول:بل اللّه الزارع ثلاث مرات،ثم قل:اللهم اجعله مباركا،و ارزقنا فيه السلامه،ثم انشر القبضه التى فى يدک فى القراح » (۱)الأرض الخاليه.

و قال عليه السلام :«ان بنى إسرائيل أتوا موسى عليه السلام فسألوه ان يسأل اللّه عزّ و جلّ ان يمطر السماء عليهم إذا أرادوا،و يحبسها إذا أرادوا،فسأل اللّه عزّ و جلّ لهم ذلک،فقال اللّه عزّ و جلّ:لهم ذلک،فأخبرهم موسى فحرثوا،و لم يتركوا شيئا الا زرعوه.ثم استنزلوا المطر على إرادتهم و حبسوه على إرادتهم،فصارت زروعهم كأنها الجبال و الآجام(الشجر الكثير الملتف)،ثم حصدوا و داسوا و ذروا فلم يجدوا شيئا،فضجوا الى موسى عليه السلام و قالوا:انما سألناک ان تسأل اللّه ان يمطر السماء علينا إذا أردنا،فأجابنا ثم صيّرها علينا ضررا،فقال:يا رب ان بنى إسرائيل ضجوا مما صنعت بهم،فقال:و مم ذاک يا موسى؟قال سألونى ان

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۲۲۳.

أسألك ان تمطر السماء عليهم إذا أرادوا و تحبسها إذا أرادوا فأجبتهم ثم صيرتها ضررا،فقال:يا موسى انا كنت المقدر لبنى إسرائيل فلم يرضوا بتقديرى، فأجبتهم الى إرادتهم فكان ما رأيت » (۱).

و من دقيق عباره القرآن انه لم يقل أ أنتم تخلقونه كما هو حال الحيمن و الجنين لأنه ليس من عاقل يدعى ذلك و عمليه النمو من البذره حتى الثمره تتم خارج ارادتنا و بعيدا عن أيدينا،و لان نفى مجرد الزراعه ينفى الخلق بالتأكيد.

[۶۵-۶۷]و الدليل إلى أننا لسنا الزارعين،ان اللّه قادر على منع المطر،أو ان يسلط على حرثنا وباء فلا تقوم له قائمه، كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهٰا صِرٌّ أَصٰابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ (۲).و لا أحد يمنع قدرته عزّ و جلّ.

لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰاهُ حُطٰاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ قالوا:تتكلمون فى مجالسكم،من جهه التعجب و التندم على ما أنفقتم فى الأرض لأجل الزرع،و المراد انكم لا تقدرون امام قدره اللّه بجعله النبات هشيما إلا (على)التكلم فقط (۳).و لعل أصل الكلمه(فكه)يدل على الحديث غير الضرورى و غير الجاد و غير الحق،و منه سمى المزاح تفكها باعتباره لا يهدف بيان الحقيقه،كما سمى بالباطل.و منه أيضا سميت(الثمرات)بالفاكهه باعتبارها غير ضروريه.و من هنا قيل:التفكه:التكلم فيما لا يعنيك و منه قيل للمزاح فكاهه و هذا المعنى أقرب الى الآيه.

حيث ان الإنسان يفقد الاراده امام المشاكل،و يتراكم عليه الهم و الغم عند

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) ال عمران/۱۱۷.

۳- ۳) تقريب القرآن الى الأذهان آيه اللّه الشيرازى.

الخساره و يلحقه الندم و الشعور بالهوان فَيَقُولُ رَبِّي أَهٰانَنِ (۱)،حتی لیصبح حدیثه عن ذلک أکله و شربه و محوره الذی یدور حوله فی کل لحظه،لعله یروح بذلک عن نفسه بعض الشیء.

و الآراء التی ذکرها المفسرون فی هذه الآیه قریبه من هذا المعنی إذ قالوا:

تعجبون،و قالوا:تندمون و قال بعضهم تتلاومون نادمین علی ما حل بکم (۲).و ربما کان المعنی الأخیر أقرب و السیاق التالی یدل علیه حیث انهم کانوا یقولون:

إِنّٰا لَمُغْرَمُونَ و فی اللغه غرم أی خسر فی التجاره،و الغرم ما یعطی من المال علی کره (۳).

فاللّه القادر علی جعل المزارع حطاما،و فرض الغرم علینا،بأن یرسل السماء بماء منهمر یغرق الحقول،أو یرسل أسراب الجراد فلا تبقی زرعا و لا ضرعا،أو یبعث ملایین الفئران تقضم الأخضر و الیابس فنجد أنفسنا مغرمین خاسرین لکننا إذا تفکرنا بمنهج سلیم،نکتشف أن الخساره(الغرامه)التی فرضت علینا لیست بالصدفه،بل هی بإراده متصرف فی الحیاه و یمضی فی مصائرنا و أرزاقنا ما یشاء، فیرزقنا أو یمنعنا و یحرمنا متی شاء و کیف.

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ إذن فارزاقنا یقسمها مقسم هو الخالق تعالی،و ما دام هو الزارع،فبیده الحرمان،فلما ذا نشرک به أو نکفر؟و ما دامت إرادته نافذه فی الحیاه لا یمنعها مانع فلما ذا نشک فی البعث و نصیر فی لبس من خلق جدید؟أو لا یکفی ذلک دافعا الی

۱- ۱) الفجر/۱۶.

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۷-ص ۲۱۶.

۳- ۳) المنجد/ماده غرم.

التصديق به و اليقين برسالته؟ [۶۸-۷۰]ثم للنظر الى الماء و بالذات ذلک الذی نشر به و ترتکز علیه حیاتنا و حیاه کل کائن حی،إننا لم ننزله من السحاب.

أَ فَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ و لا ریب اننا لا نستطیع الادعاء بانزاله من قبلنا،و أکبر دلیل علی ذلک اننا لا ندری متی ینزل.و إذا غطت السحب سماءنا لا نملک التصرف فی انزاله و بالکیفیه و المقادیر الطبیعیه،و هذه الحقیقه یقبلها الجمیع،و لکن أورد البعض هنا شبهه، فقالوا إن المطر نتیجه عوامل و قوانین طبیعیه،تبدأ من تبخر میاه البحار و المحیطات و الأنهار بفعل الشمس،و تنتهی بالغیث مرورا بصعود الأبخره فی طبقات الجو العلیا،و هی عملیه یفعلها النظام المجرد،و لا نحتاج معها الی افتراض وجود اراده (الخالق)تجری العملیه بسببها،و هذه من أعقد مشاکل الإنسان مع العلم.

یقول الدکتور بخنر الألمانی بما اننا لم نجد ظاهره واحده فی هذا الکون الرحیب من أبعد نقطه اکتشفناها فی الفضاء و الی أقرب جرم إلینا لم نجدها شاذه عن النظام الکونی.فلیس لنا الحاجه الی افتراض وجود اللّه.

(و لکنّ الحقیقه)أن عدم وجود شذوذ فی النظام،أو شمولیه النظام فی الکون لا یکون دلیلا علی عدم وجود الخالق،بل یکون دلیلا قاطعا علی وجود من خلق النظام و هو اللّه الخالق العظیم و إلاّ فمن جعل هذا النظام و قدّره و أجراه و بعد هذا فهل کله خاضع للنظام،أو هل أثبت العلم الحدیث هذا النظام،لنسمع«هایز نبرغ»العالم الفیزیائی یقول-فی نظام الذره-:إنّ من المستحیل علینا أن نقیس

بصوره دقیقه کمیه الحرکه التی یقوم بها جسیم بسیط و أن نحدد فی الوقت عینه موضعه فی الموجه المرتبه به بحسب المیکانیکا الموجبه التی نادی بها«لویس دوبروغلی»فکلما کان مقیاس موضـعه دقیقا کان هذا المقیاس عاملا فی تعدیل کمیه الحرکه،و من ثم فی تعـدیل سرعه الجسـیم بصـوره لا ـ یمکن التنبـؤ بهـا،و مهمـا تعمقنـا فی تـدقیق المقـاییس العلمیه ابتعـدنا أکـثر عن الـواقع الموضوعی.

هـذا فی الـذره الذی نادی فیها بعض بمبدإ النظام فی اللانظام.و أما فی المجره أکبر وحده وجودیه فإنّ أحدث النظریات الفلکیه أثبتت أنّه بالرغم من وجود نظام متناسق فیها فان فیها مجالا واسعا لما نسمیه بالصدف؟ (۱).

فالنظـام إذا لیس کـل شـیء،حتی نتخـذه ربّا-فهو بالاضـافه إلی کونه دلیلا ـ الی العلیم العزیز الـذی قـدّر،کما أنّ الأثر دلیل علی المؤثر-فإنّ هناک إراده فوق النظام تمضیه أو تعطله متی ما شاءت و هی إراده اللّه،و لقد أودع اللّه ثغره فی کل نظام و سنه تدل علیه،فهذا ماء المزن العذب یصـیّره ربنا أشد ملوحه من الملح إن شاء،فلا نقدر علی شـربه،أو یسـتحیل من سبب للحیاه،الی وسیله للموت و الدمار.

لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً یعنی أشـد ما تکون الملوحه،و ربّنا قادر علی جعله کـذلک حال کونه غیثا أو فی مخازن الأرض،بحیث لا یؤثر قانون التبخر فی فصل ماء البحر عن أملاحه،أو یجعل أساس ترکیب الماء قائم بالملح فلا یمکن فصله عنه بالتحلیل و التحلیه کما یفعل الآن لمیاه البحار،أو أنّه لا ینزله من السـحاب فلا یجـد الناس إلاّ ماء البحر الأجاج،و لکنه بلطفه جعل درجه تبخر الماء تختلف عن الأملاح،کما نظم دوره

ص:۴۴۱

۱- ۱) الفکر الاسلامی مواجهه حضاریه/ص ۱۸۸-۱۸۹ للمؤلف.

سقوط الغيث و جميع جوانب الحياه بالصوره التى تنسجم مع متطلبات حياتنا.و عدم جعله ماء شربنا أجاجا ليس لعجز فى مشيئته،أو لأنّ القانون يفرض نفسه عليه بل لرحمته بنا،فلم يرد ذلک حيث وضع القوانين الأساسيه للغيث و إذا شاء فى المستقبل تغييرها فله البداء «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» .

و إدراكنا لهذه الحقيقه يعرّفنا بخالقنا و يسوقنا إلى التصديق به و بقدرته المطلقه، و ما يجب هو أن يصير التصديق مسئوليه و برنامجا عمليا فى حياتنا،يفرض علينا التزامات يعبر عنها القرآن بالشكر.

فَلَوْ لاٰ تَشْكُرُونَ إذ لا فائده من معرفه لا تقود إلى العمل،و لا معنى للتصديق إذا فرّغ من أهم مضامينه و أهدافه أى الشكر.و المهم هنا التذكير بأن الشكر لا ينحصر فى تلک الأذكار المتعارف عليها، فهى جانب منها أو هى رمز لها أما الشكر الحقيقى فهو معرفه المنعم و تذكر نعمته عليه،و التصرف فى النعمه حسب تعاليمه.و بالتالى التسليم الشامل له.

قال الامام الصادق عليه السلام :«ما من عبد أنعم اللّه عليه نعمه فعرف أنّها من عند اللّه إلاّ غفر اللّه له قبل أن يحمده » (۱)

و قال :«شكر النعمه اجتناب المحارم،و تمام الشكر(أى ما يكمله)قول الرجل الحمد للّه رب العالمين » (۲)

و قال فى تفسير الآيه: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ :«نعم من حمد اللّه على نعمه،و شكره، و علم أن ذلک منه لا من غيره » (۳).

ص:۴۴۲

۱- ۱) أصول الكافى/ج ۲-ص ۹۶.

۲- ۲) بح/ج ۷۱-ص ۴۰.

۳- ۳) المصدر/ص ۵۳.

و قال الإمام العسکری علیه السلام :«لا یعرف النعمه إلّا الشاکر،و لا یشکرها إلّا العارف » (۱)

و قال الإمام زین العابدین علیه السلام :الحمد للّه الذی لو حبس عن عباده معرفه حمده علی ما أبلاهم من مننه المتتابعه،و أسبغ علیهم من نعمه المتظاهره،لتصرفوا فی مننه فلم یحمدوه،و توسّعوا فی رزقه فلم یشکروه،و لو کانوا کذلک لخرجوا من حدود الإنسانیه إلی حد البهیمه،فکانوا کما وصف فی محکم کتابه: «إِنْ هُمْ إِلاّ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلاً» (۲).

و ما شکر اللّه من أسرف فی نعمه،أو تقوّی بها علی معصیته،و نستوحی من أمر اللّه بالشکر بعد الإنذار المبطن المتمثل فی قدره اللّه علی تحویل الماء أجاجا،أنّ سلوک الإنسان فیما یتصل بربّه أو بنعمه سبحانه ینعکس علی الطبیعه من حوله.

فربما ضرب الجفاف بلدا،فقلّت المیاه و انعدمت لعدم شکرهم ربّهم.

[۷۱-۷۲]و النار هی الأخری نعمه هامه و أساسیه تتدخل فی کثیر من مرافق حیاتنا،فهی مصدر للطاقه،و وسیله للتدفئه و الطبخ و الإضاءه،و عامل أساسی فی الصناعه إلاّ أنّ القرآن فی هذا السیاق لا یرید الفاتنا إلی هذه الجوانب علی أهمیتها، بقدر ما یرید الحدیث عن النار باعتبارها آیه من آیاته و نعمه عظیمه لا بد من شکر اللّه علیها.

أَ فَرَأَیْتُمُ النّارَ الَّتِی تُورُونَ أی توقدون و تشعلون،و الملاحظ أنّ اللّه یوجهنا إلی أشیاء متمیزه(الحیمن و الجنین،و الموت،و الحرث،و الماء،و النار)،و تمیّزها لیس فقط فی کونها من أبرز و أهم الأشیاء،بالنسبه للإنسان أو لأنها من أعظم تجلیات اللّه فی الخلیقه،بل لأنها قد أصبحت لا تثیر اهتمامنا کثیرا و لا تدعونا إلی التذکره و الاتعاظ،إنّما

۱- ۱) المصدر/ج ۷۸-ص ۳۷۸.

۲- ۲) الصحیفه السجادیه الدعاء الاول.

نتعامل عاده معها باعتبارها متوفره قد تعودنا عليها،فمنذ أن بدأنا ندرك الحياه تعايشنا مع الماء و النار و ما أشبه،و لكن ألا فكرنا فی مدی حاجتنا أليها؟و كيف أنّ اللّه وفّرها لنا؟و ماذا لو انعدمت عنا؟هنالك يتحول موقفنا منها تماما..إنّها سوف تنطق بأسرار الحياه و تسبّح بحمد الرّب الذی وفّرها و تصبح جسرا بيننا و بين معرفه الخالق العظيم.

أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهٰا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ قالوا إنّها المرخ و العقار الذين كانت العرب توقد النار بضربهما ببعضهما و يبدو أنّها كل شجره تتقد فهل كنا نحن الخالقين لها أم اللّه؟أ فلا نؤمن بقدره ربّنا الذی خزن النار فی هذه الأشجار الخضر أولا نصدق بأنّه قادر علی إحياء الموتی؟ مشكله البشر فی قضيه البعث أنّه يقيس الأمور حسب قدراته،فحيث يجد فی نفسه الضعف و العجز ينكر الآخره،أما إذا نظر إلی القضيه من خلال إراده اللّه المتجليه فی الكون فلن يری البعث إلاّ أمرا هينا و ربما تكشف هذه الفكره سر التساؤل المتكرر(أَ أَنْتُمْ أَمْ نَحْنُ)،فلو كانت الإجابه فرضا أننا نحن(البشر) نخلق و نزرع و ننشئ و ننزل لأمكن الكفر بالبعث،بينما الإجابه المعروفه لدی كل بشر أن من يفعل ذلك غيرنا،هنالك نسعی لمعرفته،و الإيمان به و معرفه أسمائه و بالتالی نعرف واقع البعث و النشور.

[۷۳]و ربّنا لم يخلق النّار و ينشئ شجرتها و حسب،و إنّما جعل لخلقها أهدافا محدده.

نَحْنُ جَعَلْنٰاهٰا تَذْكِرَةً

للناس بربّهم من حيث هى نعمه إلهيه عظيمه،كما أنّها تذكرنا بنار جهنم الكبرى فهدفها الأول و الأهم هو تزكيه نفس الإنسان،

ففى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام :«إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم،و قد أطفيت سبعين مرّه بالماء،ثم التهبت،و لو لا ذلك ما استطاع آدمى أن يطفيها،و إنّها ليؤتى بها يوم القيامه حتى توضع على النار فتصرخ صرخه لا يبقى ملك مقرب و لا نبى مرسل إلاّ جثى على ركبتيه فزعا من صرختها » (١).

أما الهدف الآخر للنار فهو الانتفاع المادى بها فى مختلف مرافق الحياه، و المجالات التى يكتشف الإنسان منافعها فيها و طرق استخدامها سواء بصورتها المباشره(اللهب و الشعله)،أو غير مباشره(عموم الطاقه).

وَ مَتٰاعاً لِلْمُقْوِينَ قالوا:المقوى الذى ينزل القى و هو الصحراء القاحله،و إنّما جعلت متاعا لهم بالخصوص لمزيد حاجتهم إليها ليس للتدفى و الطبخ فقط و إنما لطرد الوحوش فى الليل أيضا.

و قال بعضهم:المقوى الجائع كما قال الشاعر:

و إنّى لأختار القوى طاوى الحشى محافظه من أن يقال لئيم

و يقال:أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد. (٢)و هذا أقرب،و لعل القى سمى كذلك لانعدام الطعام فيه.و فى حاله الجوع و فناء الزاد تكون النار متاعا عظيما خصوصا للمسافر.

[٧۴]و يختم ربّنا هذا الدرس القرآنى بدعوه إلى التسبيح باسمه للخلاص من

١- ١) نور الثقلين/ج ۵-ص ٢٢۴.

٢- ٢) القرطبى/ج ١٧-ص ٢٢٣.

النار و مصیر أصحاب الشمال و کوسیله للتقرب إلی رضوانه.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ و هذه الدعوه هی محصله طبیعیه لحدیث الآیات السابقه،و متممه لها،فتلک دعتنا إلی التصدیق و عرفتنا بربّنا من خلال نعمه و آیاته المتجلی فیها سبحانه، و حرضتنا علی التذکر و الشکر،و هذه الخاتمه أوضحت لنا البرنامج العملی لتلک المعرفه و التذکر و الشکر المتمثل فی تنزیه اللّه عن الشریک و عن أی نقص و عجز وحد.

و لأننا لا نعرف کنه ذاته سبحانه فلیست لنا وسیله الیه و إلی تسبیحه إلاّ أسماؤه الحسنی المتجلیه فی الطبیعه،و المذکوره فی کتابه،و أسمی أذکار التسبیح قول العبد (سبحان اللّه،و الحمد للّه،و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أکبر)و هو سبحانه عظیم و اسمه کذلک عظیم،و تنکشف لنا عظمته و عظمه اسمه کلما تقدمت و تعمقت معرفتنا بآیاته و آثار عظمته فی الخلیقه کلها.

و الملاحظ فی هذه الآیات(۵۸-۷۳)ذکرها لأهم النعم الفطریه و الحضاریه بالنسبه للإنسان،فاهم النعم الفطریه هی خلقه الإنسان التی تبدأ من المنی و تستمر،و بنعمه المطر،و أهمها حضاریا مما یعتبر اکتشافها انعطافات کبری فی تاریخ الحضاره البشریه. اکتشاف الزراعه و النار،و لا ریب أنّ لنعمه الزراعه تأثیرا فی سائر مرافق حیاه الإنسان،فهی مرتکز لحاجاته الأساسیه کالتغذیه و البناء، و الکمالیه کالزینه و الظل و التمتع،حتی قالوا إنها أصل کل حضاره.

و معرفه هذه الحقائق یهدینا إلی أنّ الحضاره التی بأیدینا الآن ظاهر الأمر أنّنا الذین صنعناها و أوجدناها،إلاّ أنّها من صنع اللّه و فضله،لأنّ الحضاره المادیه

ص:۴۴۶

(الإنسان+الزراعه+الماء+الطاقه)هی من خلقه و تنشئته،ثم إنّها لا تکتمل إلاّ بالإیمان مما یأتی التأکید علیه فی الدرس القادم.

ص:۴۴۷

[سوره الواقعه (۵۶): الآيات ۷۵ الى ۹۶]

اشاره

فَلاٰ أُقْسِمُ بِمَوٰاقِعِ اَلنُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (۷۷) فِي كِتٰابٍ مَكْنُونٍ (۷۸) لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ اَلْمُطَهَّرُونَ (۷۹) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۸۰) أَ فَبِهٰذَا اَلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (۸۲) فَلَوْ لاٰ إِذٰا بَلَغَتِ اَلْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لٰكِنْ لاٰ تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لاٰ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (۸۶) تَرْجِعُونَهٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۸۷) فَأَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَيْحٰانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (۸۹) وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلْيَمِينِ (۹۰) فَسَلاٰمٌ لَكَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلْيَمِينِ (۹۱) وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ اَلْمُكَذِّبِينَ اَلضّٰالِّينَ (۹۲) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (۹۳) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (۹۴) إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ حَقُّ اَلْيَقِينِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ (۹۶)

اللغه

۸۱[مدهنون]:متهاونون-كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه تهاونا،و أصله استعمال الدهن للين الجسم.

۸۶[مدينين]:أى محاسبين و مبعوثين،و قيل مربوبين من دان السلطان الرعيه إذا ساسهم.

إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ

هدى من الآيات:

إنّ خلقنا و موتنا،و الزراعه و الغيث،و كذلك النار،من الآيات التكوينيه الهاديه إلى الإيمان باللّه الخالق،و باليوم الآخر،أمّا الآيه التشريعيه فهى القرآن الذى هو انعكاس لسائر سنن الحياه و واقعياتها فى صوره نهج شامل و كامل،و هو أعظم آيه تجلّى فيها الخالق لخلقه،إذ لا ينتفع البشر من سائر آيات اللّه فى الخليقه من دون القرآن الذى ترتفع به حجب الغفله و الشهوات،و تتكامل به التذكره و التبصره،و تتنامى المعرفه و الإيمان بتلاوه آياته المبصرات.

و فى أوّل هذا الدرس يطالعنا الذكر قسما مؤكّدا و عظيما على كرامه القرآن، و أنّه حفظ فى كتاب لا تناله إلاّ الأيدى الطاهره،و أنّه ليس إلاّ من عند خالق الوجود و مبدعه،الأمر الذى يجعل الإيمان به مفروضا على الإنسان المخلوق فرضا.

ثم تلخّص الآيات الأخيره حديث السوره عن البعث(الواقعه)،و تبدأ

ص:۴۵۰

بالاستنكار على البشر استخفافهم بحديث الواقعه،و تتحدّاهم بالموت الذى قهر اللّه به عباده،و الذى هو فى نفس الوقت دليل الجزاء و المسؤوليه اللذان يزعم الإنسان القدره على تحدّيهما.ثم تؤكّد الآيات انقسام الناس إلى ثلاثه أزواج،و أنّ التحاق كل امرء بأصحابه يتمّ عند الموت،فأمّا من المقربين،و أمّا من أصحاب اليمين،و أمّا من أهل الشؤم و النار.و هذه الحقيقه واقعيه،و حق يقين لا يغيّر فيه تكذيب المكذّبين و ضلالهم شيئا،كأىّ واقع آخر لا ينتفى بمجرّد إنكاره.و كفى بحتميه وقوعه أنّه وعد من ربّنا القادر العظيم.

و فى الأخير يأمرنا بالتسبيح لأنّه السبيل إلى النجاه من النار،و إلى المزيد من القربى اليه و التى ينتمى بها الإنسان إلى المقربين أفضل الأزواج،أ و ليس هو النهج الأنجح لمقاومه دواعى الشرك به و التكذيب بوعده؟

بينات من الآيات:

[۷۶-۷۵]إنّ عظمه اللّه و أسمائه تتأكد لدى الإنسان كلّما لاحظ الوجود من حوله و تفكّر فيه، لأنّه بكلّه آيات هاديه إلى تلك الحقيقه،و عرصه تتجلّى فيها العظمه و الأسماء،فبعظمه الخلق و روعته نهتدى إلى أسمائه الجماليه فهو الحىّ القوى المقتدر الجميل الرحمن.

و بما فى الخلق من صفات التحوّل،و العجز،و الضعف،و المحدوديه،نهتدى إلى صفات الخالق الجلاليه،و أنّه القدّوس السبحان المتعالى الواسع،و لعلّ هذا ما يفسر إشارته بالقسم إلى الكواكب و النجوم المتوزعه فى الفضاء الرحب،فإنّها بحسنها و نظامها الدقيق و علاقتها بالحياه على الأرض تكشف جانبا من عظمه الخالق عزّ و جل و ربّنا يفتح أفق البشريه و يثيرها نحو التطلع إلى علم الفضاء، و لكن ليس فى هذا العصر الذى تقدّمت فيه معارف الإنسان بهذا الجانب من

العلم،و تخصّص فيه الباحثون و المراقبون،إنّما قبل عدّه قرون،و فی وقت کانت معلومات البشر بهذا العلم و توجّهاته ضئيله و محدوده،بل و مخلوطه بالخرافات و الأساطير.

فَلاٰ أُقْسِمُ بِمَوٰاقِعِ النُّجُومِ و لم يقل بذات النجوم،و ذلک ليبيّن حقيقه علميّه مهمه و هی أنّ الکواکب ليست منثوره فی السماء اعتباطا،کما يظنّ الجاهل بنظرته الخاطفه إلی ظاهرها،بل هی خاضعه لنظام دقيق و محکم بحيث تأخذ کلّ نجمه موقعها فيه،بما يجعل النظام متکاملا،و يجعلها تؤدّی دورها المطلوب و المناسب فی الوجود.و لا ريب أنّ هذه الحقيقه حريّه بالدراسه و البحث من جانب المختصين لما فيها من فوائد علميه تهمّ الإنسان،و تجلّيات لعظمه خالقها و مدبّرها تزيد إيمانه و تصديقه و تسبيحه.

«و يقول الفلکيون:إنّ من هذه النجوم و الکواکب التی تزيد علی عدّه بلايين نجم(تزداد کلّما تقدّم العلم بالإنسان)ما يمکن رؤيته بالعين المجرّده،و ما يری إلاّ بالمجاهر و الأجهزه،و ما يمکن أن تحس به الأجهزه دون أن تراه،هذه کلها تسبح فی الفلک الغامض،و لا يوجد أیّ احتمال أن يقترب مجال مغناطيسی لنجم من نجم آخر،أو يصطدم بکوکب آخر،إلاّ کما يحتمل تصادم مرکب فی البحر الأبيض المتوسط بآخر فی المحيط الهادی،يسيران فی اتجاه واحد،و بسرعه واحده،و هو احتمال بعيد،جدا،إن لم يکن مستحيلا» (۱).

و يقول العلماء المختصون أنّهم اکتشفوا لحدّ الآن نصف مليارد مجرّه،و لا يزالون يکتشفون المجرّه تلو الأخری فی هذا الفضاء الرحب،و إنّما يدرک عظمه قسم اللّه بمواقع النجوم الذی يطّلع علی مثل هذه الحقائق،أمّا الذی يجهلها فانّ القسم بها

۱- ۱) فی ظلال القرآن/نقلا عن کتاب:اللّه و العلم الحديث ص ۳۳

عنده ليس ذا أهميه.

وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ فكلّما تقدّم الإنسان خطوه فى العلم كلّما ظهرت و تأكّدت له عظمه هذا القسم،و كفى بذلك عظمه أنّه قسم منه تعالى بمواقع النجوم.و نخلص الى القول بأنّ عدم قسمه مباشره بها يعود الى أمرين رئيسيين:أحدهما:أنّ القسم بشىء يحقّق غرضه حينما تكون عظمته معروفه عند الطرف المقابل،و الآخر:لأنّ الناس فى الجاهليه كانوا يعتقدون فى النجوم و مواقعها بالخرافات و الشرك فلم يقسم اللّه بها لكى لا تتعمّق اعتقاداتهم الباطله،أو يتخذونه مبرّرا لها.

قال الامام الصادق (عليه السلام) :«إنّ مواقع النجوم رجومها للشياطين،فكان المشركون يقسمون بها،فقال سبحانه:فلا أقسم بها » (۱)،

و قال(عليه السلام) :«كان أهل الجاهليه يحلفون بها،فقال اللّه عزّ و جل:الآيه » (۲).

و لعلّ فى الآيه ايحاء و اشاره من قبل اللّه الى الناس بعدم جواز حلفهم هم بها، حيث لا يصح للمخلوق القسم إلاّ بالخالق،و فى الروايات تصريح بذلك،

قال الامام الصادق(عليه السلام) بعد ان تلى الآيه:«عظم إثم من يحلف بها » (۳)، و فى هاتين الآيتين دعوه الى نبذ الظنون و الأساطير فى موقف الإنسان من النجوم، و التى تضر أكثر مما تنفع،الى العلم،مما يظهر اهتمام الإسلام و موقفه من العلم، و دعوته الرائده اليه،و أنّه ليس كما يظن البعض أو يصوّرونه يعارض العلم و الحضاره.

[۷۷-۷۹]و بعد التمهيد الآنف بالقسم يصارحنا الوحى بتلك الحقيقه

ص:۴۵۳

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۹ الموضع.
۲- ۲) نور الثقلين/ج /۵ص ۲۲۵.
۳- ۳) المصدر

العظمی،و التی کانت الغرض من القسم العظیم.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ أ لیس یتجلّی فیه ربنا بکلّ جماله و جلاله،و أی کرامه اسمی من کتاب تنفتح آیاته عن جمال الخالق،و روعه المخلوق،و عن جلال الخالق،و عظیم خلقه؟ قالوا:الکرم مجمل الصفات الحمیده (۱).

و کیف لا یکون القرآن کریما و قد رغبنا الی مکارم الأخلاق و حسان الآداب، الی العدل و الحریه و الفضائل الانسانیه،کما نهانا عن الخبائث و الرذائل و السیئات؟ و إذا عدنا الی أنفسنا و ما فطرت علیه من حب الخیر و الفضیله لعرفنا ان القرآن کتاب ربنا أ و لیس یدعو الی ذات الصفات الحسنی التی نحبها و نعتقد ان ربنا یحبها،فکیف یکفرون به و کل آیه آیه منه شاهد علی انه من عند اللّه؟ و السؤال هنا:ما هو وجه ذکر السیاق للقرآن و بهذه الصوره المؤکده؟ أولا:لان الدرس السابق ذکرنا بالآیات الهادیه الی التصدیق بالخالق.فکان من البدیهی ان یأتی ذکر القرآن،لأنه السبیل الی معرفه الآیات،و البصیره لرؤیه تجلیات الرب.و من لا یهتدی بالقرآن کیف یتسنی له وعی حقائق الخلیقه،و فک رموزها،و مشاهده غیبها،و العروج منها الی معرفه خالقها؟ ثانیا:لان التصدیق بالخالق،و التذکر،و الشکر،و بالتالی التسبیح باسم الرب العظیم الذی دعا الیه الدرس السابق،لا یتم بالوجه الأکمل إلاّ بالقرآن،

۱- ۱) راجع مفردات الراغب

فالقرآن معراج السابقين،و منهج أصحاب اليمين. انه شريعه سمحاء لمن أراد الذكر،و ابتغى الشكر،و بحث عن سبيل التقوى.إنّك تسأل كيف أصدّق بالخالق؟و كيف أتذكّر و أشكر؟و كيف أسبّح؟كل ذلك بالقرآن يَهْدِى بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱)فالتسبيح الحقيقى الذى يأمر به اللّه بقوله: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۲)لا يتلخّص فى الذكر،انما يكون باسم اللّه العظيم و قرآنه أعظم أسمائه الظاهره،بل و فيه الاسم الأعظم.

قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله) :«من أعطاه اللّه القرآن فرأى ان أحدا أعطى شيئا أفضل مما أعطى فقد صغر عظيما و عظّم صغيرا » (۳)

و قال(صلّى اللّه عليه و آله) :«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه » (۴)

و قال :

«القرآن مأدبه اللّه فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل اللّه، و هو النور المبين،و الشفاء النافع،فاقرأوه فان اللّه يأجركم على كل تلاوته بكل حرف عشر حسنات.أما انى لا أقول(الم)حرف واحد،و لكن الف،و لام، و ميم ثلاثون حسنه » (۵)

و قال :«القرآن أفضل كلّ شيء دون اللّه،فمن وقّر القرآن فقد وقر اللّه، و من لم يوقّر القرآن فقد استخفّ بحرمه اللّه،و حرمه القرآن على اللّه كحرمه الولد على والده » (۶)

و قال :«إن أردتم عيش السعداء،و موت الشهداء،و النجاه يوم الحسره،و الظل يوم الحرور،و الهدى يوم الضلاله،فادرسوا

۱- ۱) المائده/۱۶

۲- ۲) الواقعه/۷۴

۳- ۳) بح/ج ۹۲/ص ۱۳

۴- ۴) المصدر/ص ۱۹

۵- ۵) المصدر

۶- ۶) المصدر

القرآن فانه کلام الرحمن،و حرز من الشیطان،و رجحان فی المیزان » (۱)

و قال :

«من استظهر القرآن و حفظه،و أحل حلاله،و حرم حرامه،أدخله اللّه به الجنه، و شفعه فی عشره من أهل بیته،کلهم قد وجب له النار » (۲)

و قال(صلّی اللّه علیه و آله)یعظ سلمان المحمدی :«یا سلمان!المؤمن إذا قرأ القرآن فتح اللّه علیه أبواب الرحمه،و خلق اللّه بکل حرف یخرج من فمه ملکا یسبّح له الی یوم القیامه..و ان أکرم العباد الی اللّه بعد الأنبیاء العلماء ثم حمله القرآن،یخرجون من الدنیا کما یخرج الأنبیاء،و یحشرون من قبورهم مع الأنبیاء،و یمرون علی الصراط مع الأنبیاء،و یأخذون ثواب الأنبیاء،فطوبی لطالب العلم و حامل القرآن مما لهم عند اللّه من الکرامه و الشرف » (۳).

و لکننا نحن المسلمین لا زلنا بعیدین عن القرآن،بالرغم من هذه التأکیدات، و بالرغم من تجربتنا معه،أ و لیس قد أنقذنا من ظلمات الجاهلیه،و شید لنا حضاره کانت و لا زالت منارا للبشریه،فلما ذا هجرناه حتی عاد بیننا غریبا؟أفکارنا لا تشیر إلی بصائره،و سلوکنا لا تستوحی من قیمه.و بکلمه:خسرنا کرامه القرآن و عزّه، و لا یزال یدعونا الی مأدبته و کرامته،بید اننا لن نبلغه الا بسعی منّا،ذلک لأنه کما یصفه اللّه عزّ و جلّ:

فِی کِتٰابٍ مَکْنُونٍ فلا بد إذا نستظهره کما یقول رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله) (۴)،و نستنطقه کما یقول الامام علی(علیه السلام)،حتی نطلع علی مکنونه،فهو بالرغم من اشتماله علی تبیان لکل شیء لن ینطق،

«ذلک القرآن فاستنطقوه،و لن ینطق،

ص:۴۵۶

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۱۸ و للمزید راجع المصدر

۴- ۴) المصدر/ص ۱۳

و لکن أخبرکم عنه،فیه علم ما یأتی،و الحدیث عن الماضی،و دواء دائکم، و نظم ما بینکم » (۱)،و قد أراد الامام(علیه السلام)من قوله:«و لن ینطق»أننا لن نقرأ فی ظاهر القرآن کل المناهج الحضاریه للحیاه،و لا مضامینه العلمیه،انما نجدها بالتفکیر و التدبر فی آیاته،الذی یفتح لنا کن الذکر الحکیم و یبصرنا محتویاته و تأویلاته الواقعیه فی جوانب الحیاه المختلفه،و العقل إذا أعمل علی هدی الآیات و السنه و العلم الصحیح هو مفتاح القرآن.قال تعالی: وَ مٰا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (۲)،و قال: وَ تِلْکَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا یَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ (۳)،و قال: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (۴)و لأننا تعوّدنا علی الأفکار الجاهزه،و لان العملیه الفکریه عملیه مجهده،و لان مناهجنا فی فهم القرآن و تفسیره متخلّفه و خاطئه فی أغلبها،فلا زلنا بعیدین عن الثقافه القرآنیه التی نحتاجها فی حیاتنا الفردیه و الاجتماعیه،و لم ننتفع عملیا بالرغم من الحاجه الملحّه إلیها.و ما أشبه حالنا بظمآن یجری بقربه نهر فرات لم یکتشفه،أو فقیر تحته کنز کبیر! و لا یفوتنا القول بان من معانی «مَکْنُونٍ» محفوظ،لم و لن تصل الیه ید التحریف،و لن یطفئ نوره المشرکون و لا الکافرون.و قال بعض المفسرین ان معنی الایه انه کتاب محفوظ عند اللّه،و الکتاب هنا کتاب فی السماء (۵)،و لکن

۱- ۱) المصدر/ص ۲۳ عن أمیر المؤمنین علیه السلام

۲- ۲) آل عمران/۷

۳- ۳) العنکبوت/۴۳

۴- ۴) ص/۲۹

۵- ۵) القرطبی/ج ۱۷/ص ۲۲۴

يبدو ان الايه التاليه تفسر هذه الايه،فهو مكنون عن غير المطهرين.

لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ قال المفسرون و الفقهاء تبعا للآيات يعنى لا يجوز ان يمس القرآن الا من كان مسلما طاهرا.

قال أبو الحسن(عليه السلام) :«المصحف لا تمسه على غير طهر، و لا جنبا،و لا تمس خطه و لا تعلّقه.ان اللّه يقول:الآيه » (1)،

و سئل الامام الصادق(عليه السلام)عن التعويذ تعلّقه على الحائض؟قال:«نعم لا بأس، تقرأه،و تكتبه،و لا تصيبه يدها » (2).

و هذا التفسير هو ظاهر الايه،و إذا تدبرنا فى الايه أكثر لعرفنا ان الطهاره الجسديه بعد واحد من الطهاره،و البعد الاخر هو طهاره الروح التى هى الأهم.

و لا يمس حقائق القرآن الا المطهرون،عن الإثم و الفواحش،البعيدون عن العقد و الأفكار الدخيله و المسبقه،و الأغلال و الإصر،و سائر الأدران التى تحجب الإنسان عن كتاب اللّه.قال ربنا سبحانه: وَ إِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجٰاباً مَسْتُوراً* وَ جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً (3)و قال:

أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (4)،كما جاء أمره تعالى بالاستعاذه من الشيطان فى قوله: فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ (5)لأنه لون من ألوان النجاسه المعنويه التى تحجب الإنسان عن الآيات.

ص:458

1- 1) نور الثقلين/ج /5ص 226

2- 2) المصدر/ص

3- 3) الإسراء45/-46

4- 4) محمد24/

5- 5) النحل98/

و أئمه الهـدى الـذين تنزل الوحى فى بيوتهم هم الأـعلم بمعـانى القرآن،لأـنهم أظهر مصـاديق الطهر لقوله تعـالى: إِنَّمٰا يُرِيـدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (١).

و من الـدقه فى التعبير انه تعـالى لم يقـل الطاهرين انما قال«المطهرين»مما يؤكـد تأويل هـذه الآيه فى أهل البيت العصـمه(عليهم السلام)حيث طهرهم اللّه، و لذلك

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) :«فان القرآن الذى عندى لا يمسه الا المطهرون و الأوصياء من ولدى » (٢)و لعل المراد مما عنده القرآن بتفسيره و تأويله و ما تلقى من الأحاديث عن النبى(صلّى اللّه عليه و آله)فيه.

و قـد قـال الامـام الصـادق(عليه السـلام) :«و انمـا القرآن أمثـال لقـوم يعلمون دون غيرهـم،و لقوم يتلونه حق تلاـوته،و هم الـذين يؤمنون به و يعرفونه،فاما غيرهم،فما أشد اشـكاله عليهم و أبعده من مذاهب قلوبهم،و لذلك قال رسول اللّه(صلّى اللّه عليه و آله و سـلم):إنه ليس شـىء بأبعد من قلوب الرجال من تفسـير القرآن،و فى ذلك تحير الخلائق أجمعون الا ما شاء اللّه..الى ان يقول يخـاطب السائـل..و إيّـاك و تلاوه القرآن برأيك فان الناس غير مشتركين فى علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور(يعنى كعلم الاـئمه)،و لاـ قـادرين عليه و لا على تأويله الا من حـده و بابه الـذى جعله اللّه له،فافهم ان شاء اللّه،و اطلب الأمر من مكانه تجـده إنشاء اللّه » (٣).

[٨٢-٨٠]و انما يقصر غير المطهرين عن مسه و لا يجوز لهم ذلك لأنه كلام اللّه رب العالمين.

١- ١) الأحزاب/٣٣

٢- ٢) نور الثقلين/ج /۵ص ٢٢۶

٣- ٣) بح/ج /٩٢ص ١٠٠ و ص ١٠١

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ و قـد تجلى الرب فيه بأسـمائه،و آياته،و رسالاته،و شـرائعه،و كتاب هـذا شأنه يحجب عنه من اتبع هواه،و تمكّنت الشـهوات من قلبه،لاـن معرفه اللّه معراج القلب اليه،و حضور النفس فى مقـامه الأـعلى،فكيف يسـمح لمن تراكمت عقد الذنوب على قلبه بذلك؟!حاشا بذى العرش ان يسمو الى مقامه الذين اخلدوا الى الأرض و اتبعوا أهواءهم! أَ فَبِهٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُـدْهِنُونَ انـه حـديث عظيم لاـ بـد من أخـذه بقـوه و عزم،و الاسـتقامه عليه فى مـواجهه الضـغوط.أما اللين فى أمره،و الاستسـلام للضغوط بالاعراض عنه،فهو لا يتناسب و عظمه القرآن.و هذا المعنى هو المفهوم من مختلف الآراء فى تفسير المدهن،قالوا:

مكـذبون،و قالوا:منافقون،و قال بعضـهم:ممالقون الكفار على الكفر به،و قال آخر:المدهن الذى لا يعقل ما حقّ اللّه عليه و يدفعه بالعلل،و قال بعض اللغويين:

مـدهنون تـاركون للجزم فى قبول القرآن (۱).و قـال آيه اللّه الشـيرازى:متهـاونون، كمن يـدهن فى الأمر أى يلين جانبه تهاونا،و أصـله اسـتعمال الدهن للين الجسم (۲)،و منه قـول اللّه: إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ* فَلاٰ تُطِعِ الْمُكَـذِّبِينَ* وَدُّوا لَوْ تُـدْهِنُ فَيُـدْهِنُونَ* وَ لاٰ تُطِعْ كُلَّ حَلاّٰفٍ مَهِينٍ (۳).و نسـتفيد من الاـيه انه لا يجوز لأحـد التهاون فى احكام القرآن فى اى حال،و لأى سبب،لأنه حديث اللّه المفروض تطبيقه و الالتزام به على الخلق،و لا يجوز ان يبرر

۱- ۱) القرطبى/ج /۱۷ص ۲۲۸

۲- ۲) تفسير تقريب القرآن للأذهان/الموضع

۳- ۳) القلم/۷-۱۰

ذلك بأنه قد تعرض للضغط لان علامه الايمان تحدى الضغوط،و تفضيل الاخره على مصالح الدنيا و شهواتها.

و انما سقط الغابرون عند ما خارت عزائمهم عند مواجهه التحديات فأخذوا يتهاونون فی أمر الدين،و يلينون أمام الصعاب.

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ كذب الذی يزعم ان رزقه من العباد فأخذ يداهنهم،أو من الأنواء فطفق يستدرها بدل ان يشكر بارئها،فقد يكون الناس سببا للرزق،و لكن اللّه هو الرزاق ذو القوه المتين،فلا يجوز مداهنتهم و تكذيب الحق للحصول على لقمه الخبز،بل اللّه يجب ان يخاف و يتقى،لأنه إذا منع الرزق لا يقدر أحد على منحه، و إذا منح فلا يقدر أحد على منعه.و بهذا نعرف ان تفاسير الايه المختلفه تعود بالتالی الی تفسير واحد:انهم قد زعموا خطأ ان رزقهم بالتكذيب مداهنه للناس،و لعل هذا الزعم هو مورد استشهاد النصوص التی جعلت الرزق بمعنى الشكر حسب مورد النزول المروی،ذلك ان زعم أهل الجاهليه بأنّ الأنواء هی التی تمطرهم هو كزعم هؤلاء ان التكذيب سبب لرزقهم.

و هذا التفسير ينسجم مع السياق الذی يستهدف تركيز الايمان باللّه وحده و التصديق بأنه الخالق الرزاق(الآيات ۵۷/۷۴)و بالأخص إذا لا حظنا قوله:

«فَلَوْ لاٰ تَشْكُرُونَ» فی الايه(۷۰).

قال الامام علی(عليه السلام) :«تجعلون شكركم انكم تكذبون،(و أضاف يعنی أهل الجاهليه)و كانوا إذا امطروا قالوا:أمطرنا بنوء كذا و كذا،فأنزل اللّه الآيه » (۱)،و جاء فی تفسير القرطبی يعلل استبدال كلمه الرزق بالشكر فی

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۲۷

المعنى:(لأن شكر الرزق يقتضى الزياده فيه،و يكون الشكر رزقا على هذا المعنى،فقبل «وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكَمْ» أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقكم،انكم تكذبون بالرزق،اى تضعون الكذب مكان الشكر،كقوله تعالى:

«وَ مَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً» اى لم يكونوا يصلون،و لكنهم كانوا يصفّرون و يصفقون مكان الصلاه.ففيه بيان ان ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى ان يروه من قبل الوسائط الذى جرت العاده بان تكون أسبابا،بل ينبغى ان يروه من قبل اللّه تعالى،ثم يقابلونه بشكر ان كان نعمه،أو صبر ان كان مكروها).

و روى عن ابن عباس قال :مطر الناس على عهد النبى(صلّى اللّه عليه و آله) فقال النبى(صلّى اللّه عليه و آله):أصبح من الناس شاكر و منهم كافر،قالوا:

هذه رحمه اللّه،و قال بعضهم:لقد صدق نوء كذا و كذا(أى نجم)،فنزلت الآيات« فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.. (حتى بلغ قوله:) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (1)أى تجعلون رزقكم انكم تكذبون باللّه،و تصدقون بالأنواء.

[٨٣-٨٧]و يعالج القرآن الانحراف الذى يقع الإنسان فيه بالشرك،سواء الصريح منه كالاعتقاد بالأنواء،أو المبطن كالاسترزاق و المداهنه اللذان هما من ألوان الشرك،حيث يساوم الإنسان بالحق،و يتنازل عنه الى الباطل،أو يكذّب به استجابه لعوامل معينه داخليه أو خارجيه،يعالج هذا و ذاك بوضعه امام الموت الواقعه الصغرى التى هى أخطر و أصعب و أحسم حوادث الدنيا،فهو حينئذ لا ينفعه شيء و لا شخص،و يأتى التأكيد على هذين الأمرين لان مداهنه الإنسان بالحق و تكذيبه به و شركه ينطلق من كفره بالآخره و الحساب،و اعتماده على الآخرين.

فَلَوْ لاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ

۱- ۱) تفسير القرطبى/ج ۱۷ ص ۲۳۰

يعنى النفس عند الأجل،و بلوغها الحلقوم كنايه عن قرب خروجها،بل هى حقيقه يعاينها كل من حل اجله.اما الجالسون حول المنازع للموت فإنهم لا يرون من الأمر الا ظاهر صاحبهم،إذ يلف ساقا بساق، و يقبض يدا و يبسط أخرى.

وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ بأعينكم اليه لا تستطيعون الا التسليم للواقع،بينما تستل رسل اللّه روحه على أقرب من حبل الوريد.

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لٰكِنْ لاٰ تُبْصِرُونَ كما أنّهم إذا صاروا إلى مثل أمر من ماتوا سيدركون بيقين و يرون رسل الموت بأبصارهم و بصائرهم،و إنّما يدعونا ربّنا إلى الاتعاظ بمن يمضون قبل أن نكون بأنفسنا الموعظه،و الإمام على(عليه السلام)يؤكّد لنا هذه الحقيقه إذ

يقول:

«فإنّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم و وهلتم،و سمعتم و أطعتم،و لكن محجوب عنكم ما قد عاينوا،و قريب ما يطرح الحجاب!و لقد بصّرتم إن أبصرتم،و أسمعتم إن سمعتم،و هديتم إن اهتديتم،و بحقّ أقول لكم:لقد جاهرتكم العبر،و زجرتم بما فيه مزدجر،و ما يبلغ عن اللّه بعد رسل السماء إلاّ البشر. » (1)و من دقيق عباره القرآن أنّه لا يقول هنا:«و لكن لا تنظرون»،لأنّ ما يريد بيانه عمى البصيره و ليس البصر و حسب،فالمؤمنون الموقنون لا يرون الملائكه بأعينهم إذا قضى أحد نحبه على مقربه منهم،و لكنّهم لا شك يدركون الموت، و يسلّمون لهذا الحق،كتسليمهم بكل الحقائق الأخرى،و يبصرون بقلوبهم حتى ملائكه اللّه.

۱- ۱) نهج/خ ۲۰ ص ۶۲

و حیث تبلغ الروح الحلقوم یتیقن الإنسان بکثیر من الحقائق التی طالما داهن بها و کذّب و استرزق،فیذهل عن کلّ شیء،و یأسف علی ما فرط،و یری أنّ الواقع الذی یعانیه هو نفسه الذی جاء فی حدیث اللّه و رسالته للعالمین.

«و إنّه لبین أهله ینظر ببصره،و یسمع بإذنه،علی صحّه من عقله،و بقاء من لبّه،یفکّر فیم أفنی عمره،و فیم أذهب دهره،و یتذکّر أموالا جمعها،أغمض فی مطالبها، و أخذها من مصرّحاتها و مشتبهاتها،قد لزمه تبعات جمعها،و أشرف علی فراقها، تبقی لمن وراءه ینعمون فیها،و یتمتعون بها،...ثم ازداد الموت التیاطا به فقبض بصره کما قبض سمعه،و خرجت الروح من جسده،فصار جیفه بین أهله،قد أوحشوا من جانبه،و تباعدوا من قربه. » (1)هکذا قهر اللّه عباده بالموت،و به یتحدّی غرور البشر و ضلالهم،و یعالج کفرهم بالجزاء فیقول:

فَلَوْ لاٰ إِنْ کُنْتُمْ غَیْرَ مَدِینِینَ أی إن زعمتم أنّکم غیر مجزیّین بأعمالکم،و قیل:أنّکم غیر مملوکین.

تَرْجِعُونَهٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ و لکن کیف یکون الموت دلیل الجزاء؟و الجواب:إنّ هذا و ذاک حق واقع مفروض،و الموت کما الجزاء یخشاه الإنسان فیتهرّب من الاعتراف به حتی یکذّبه، حتی جاء فی الحدیث أنّه الحق الذی یشبه الباطل حیث لا یکاد یصدّق به أحد لعظیم شأنه فی نفوس الناس،و لکن هل ینتفی الموت بتکذیبه،أو یمکن الفرار منه؟کلاّ..کذلک الجزاء.إنّ اللّه یأخذ الروح و یدفعها للجزاء،فإذا کان أحد یدّعی قدره علی تحدی سنّه الجزاء فلیردّها ممّن أخذها؟

۱- ۱) نهج/خ ۱۰۹ ص ۱۶۱

[۸۸]و حینما یحلّ الأجل یزهق کلّ باطل إلّا الحق الذی بشّرت به رساله اللّه، فإنّه یصیر ماثلا أمام ابن آدم،فما أخبر به اللّه من انقسام الناس إلی ثلاثه أزواج لا یعود کذبا و لا ظنّا و لا حتی مجرّد إیمان بل یجده واقعا ماثلا أمامه.

فَأَمّا إِنْ کانَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ إلی اللّه بإیمانهم و أعمالهم.

فَرَوْحٌ أی راحه و اطمئنان و سعاده.

وَ رَیْحانٌ

جاء فی الأخبار أنّه من أزهار الجنه و روائحها یشمّه ملک الموت المؤمن فلا یحس بمنازعه الروح و خروجها.و یلقی المؤمن هذین الجزائین عند موته،قال الإمام الصادق(علیه السلام)و قد تلا الآیه:«یعنی فی قبره ».

وَ جَنَّهُ نَعِیمٍ «یعنی فی الآخره» (۱)،و قد تعرّضت السوره فی أوّلها إلی ذکر شیء من نعیم السابقین المقرّبین.

قال رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلم) :«إذا أراد اللّه تبارک و تعالی قبض روح المؤمن قال:یا ملک الموت انطلق أنت و أعوانک إلی عبدی فطال ما نصب نفسه من أجلی،فأتنی بروحه لأریحه عندی،فیأتیه ملک الموت بوجه حسن،و ثیاب طاهره،و ریح طیبه،فیقوم بالباب فلا یستأذن بوّابا،و لا یهتک حجابا،و لا یکسر بابا،معه خمسمائه ملک أعوان،معهم طنان الریحان،و الحریر

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۲۲۸

الأبیض،و المسک الأذفر،فیقولون:السلام علیک یا ولیّ اللّه أبشر فإنّ الربّ یقرؤک السلام،أمّا إنّه عنک راض غیر غضبان،و أبشر بروح و ریحان و جنه نعیم، قال:أمّا الروح فراحه من الدنیا و بلائها،و أمّا الریحان من کلّ طیب فی الجنه، فیوضع علی ذقنه فیصل ریحه إلی روحه،فلا یزال فی راحه حتی یخرج نفسه،ثم یأتیه رضوان خازن الجنه فیسقیه شربه من الجنه لا یعطش فی قبره و لا فی القیامه حتی یدخل الجنه ریّانا،فیقول:یا ملک الموت ردّ روحی حتی یثنی علی جسدی و جسدی علی روحی،قال:فیقول ملک الموت:لیثن کلّ واحد منکما علی صاحبه،فیقول الروح:جزاک اللّه من جسد خیر الجزاء،لقد کنت فی طاعه اللّه مسرعا،و عن معاصیه مبطئا،فجزاک اللّه عنی من جسد خیر الجزاء،فعلیک السلام إلی یوم القیامه،و یقول الجسد للروح مثل ذلک.

قال:فیصیح ملک الموت:أیّتها الروح الطیبه أخرجی من الدنیا مؤمنه مرحومه مغتبطه،قال:فرقّت به الملائکه،و فرّجت عنه الشدائد،و سهّلت له الموارد،و صار لحیوان الخلد،قال:ثمّ یبعث اللّه له صفّین من الملائکه غیر القابضین لروحه،فیقومون سماطین ما بین منزله إلی قبره یستغفرون له و یشفعون له،قال:فیعلّله ملک الموت و یمنّیه،و یبشّره عن اللّه بالکرامه و الخیر،کما تخادع الصبی أمّه،تمرّخه بالدهن و الریحان و بقاء النفس و یفدیه بالنفس و الوالدین، قال:فإذا بلغت الحلقوم قال الحافظان اللذان معه:یا ملک الموت ارأف بصاحبنا و ارفق فنعم الأخ کان و نعم الجلیس،لم یمل علینا ما یسخط اللّه قط،فإذا خرجت روحه کنخله بیضاء وضعت فی مسکه بیضاء،و من کلّ ریحان فی الجنه فأدرجت إدراجا،و عرج بها القابضون إلی السماء الدنیا،قال:فیفتح له أبواب السماء و یقول لها البوّابون:حیّاها اللّه من جسد کانت فیه،لقد کان یمرّ له علینا عمل صالح،و نسمع حلاوه صوته بالقرآن،قال:فبکی له أبواب السماء و البوّابون لفقده و یقولون:یا ربّ قد کان لعبدک هذا عمل صالح،و کنّا نسمع

حلاوه صوته بالذكر للقرآن،و يقولون:اللهمّ ابعث لنا مكانه عبدا يسمعنا ما كان يسمعنا،و يصنع اللّه ما يشاء،فيصعد به إلى عيش رحب به ملائكه السماء كلّهم أجمعون،و يشفعون له،و يستغفرون له،و يقول اللّه تبارك و تعالى:

رحمتى عليه من روح،و يتلقّاه أرواح المؤمنين كما يتلقّى الغائب غائبه،فيقول بعضهم لبعض:ذروا هذه الروح حتى تفيق فقد خرجت من كرب عظيم،و إذا هو استراح أقبلوا عليه يسائلونه و يقولون:ما فعل فلان و فلان،فإن كان قد مات بكوا و استرجعوا و يقولون:ذهبت به أمّه الهاويه إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ،قال:

فيقول اللّه:ردّوها عليه،فمنها خلقتهم و فيها أعيدهم و منها أخرجهم تاره أخرى،قال:فإذا حمل سريره حملت نعشه الملائكه،و اندفعوا به اندفاعا، و الشياطين سماطين ينظرون من بعيد ليس لهم عليه سلطان و لا سبيل،فإذا بلغوا القبر توثّبت إليه بقاع الأرض كالرياض الخضر،فقالت كلّ بقعه منها:اللهمّ اجعله فى بطنى،قال:فيجاء به حتى يوضع فى الحفره التى قضاها اللّه له،فإذا وضع فى لحده مثّل له أبوه و أمّه و زوجته و ولده و إخوانه،قال:فيقول لزوجته:

ما يبكيك؟قال:فتقول:لفقدك،تركتنا معلولين،قال:فتجىء صوره حسنه قال:فيقول:ما أنت؟فيقول:أنا عملك الصالح،أنا لك اليوم حصن حصين و جنه و سلاح بأمر اللّه.

قال:فيقول:أما و اللّه لو علمت أنّك فى هذا المكان لنصبت نفسى لك، و ما غرّنى ما لى و ولدى،قال:فيقول:يا ولىّ اللّه أبشر بالخير،فو اللّه إنّه ليسمع خفق نعال القوم إذا رجعوا،و نفضهم أيديهم من التراب إذا فرغوا،قد ردّ روحه و ما علموا،قال:فيقول له الأرض:مرحبا يا ولىّ اللّه،مرحبا بك،لأحسننّ جوارك،و لأبرّدنّ مضجعك،و لأوسّعنّ مدخلك،إنّما أنا روضه من رياض الجنه، أو حفره من حفر النار » (1)

۱- ۱) بح/ج ۱ ص ۲۰۷-۲۰۹ و فى الروايه بقيه فى المصدر

[۹۴-۹۰]هذا كان حال الإنسان إذا كان من المقرّبين عند الموت و بعده.

وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمِينِ* فَسَلاٰمٌ لَکَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمِينِ قيل المعنى أنّ الملائكه تبشره بالأمن و السلام و العافيه،و هو أكبر ما يطمح إليه الإنسان،فهم يؤمنونه من غضب اللّه و عذابه الذى يحلّ بأصحاب المشأمه،فيقولون له:أنت فى سلام لأنّک من أصحاب اليمين.

و قيل:يعنى إن سألت عنه فهو سلام:كقولنا:أحمد إليک ربّى،أى إن سألت عنّى فأنا أحمد اللّه،و كما لو سألت شخصا عن صاحبك فيقول:كما تحب فى عافيه،أو يقول:يدعو لک إنّه بخير،أو:يسلّم عليك هو فى عافيه.قال القرطبى:

أى لست ترى منهم إلاّ ما تحب من السلامه فلا تهتم لهم،فإنّهم يسلمون من عذاب اللّه،و يبدو أنّ هذا المعنى هو الأقرب.

و يحتمل أنّ الكلام هنا عن صفه علاقتهم بالرسول(و من خلاله كلّ مؤمن تال للقرآن)فى الدنيا قبل الموت.إنّها ليست علاقه العداء و التكذيب،و إنّما هم فى تسليم له،و سلام تجاهه،و ليسوا كأصحاب المشأمه الذين يعادونك يا رسول اللّه و يكذّبون برسالتك.

و فى روضه الكافى(ر ض):قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لعلىّ (عليه السلام) :«هم شيعتك فسلم ولدك منهم أن يقتلوهم » (۱)،و الآيه تتسع إلى هذا المعنى بدليل هذه الروايه.

وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضّٰالِّينَ الذين كذّبوا الرساله و الرسول،و أنكروا البعث فلم يستعدوا للقاء الآخره،بل

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۲۹

أسرفوا فی السیئات و الذنوب فضلوا..

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِیمٍ* وَ تَصْلِیَهُ جَحِیمٍ

قال الإمام الکاظم(علیه السلام) :إذا مات الکافر شیّعه سبعون ألفا من الزبانیه إلی قبره،و إنّه لیناشد حاملیه بقول یسمعه کلّ شیء إلاّ الثقلان،و یقول:

لو أنّ لی کرّه فأکون من المؤمنین،و یقول: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صٰالِحاً فِیمٰا تَرَکْتُ» فتجیبه الزبانیه: «کَلاّٰ إِنَّهٰا کَلِمَهٌ هُوَ قٰائِلُهٰا» و ینادیهم ملک:لو ردّ لعاد لما نهی عنه،فإذا أدخل قبره و فارقه الناس أتاه منکر و نکیر فی أهول صوره، فیقیمانه ثم یقولان له:من ربّک و ما دینک و من نبیّک؟فیتلجلج لسانه و لا یقدر علی الجواب فیضر بأنه ضربه من عذاب اللّه یذعر لها کلّ شیء،ثم یقولان له:

من ربّک و ما دینک و من نبیّک؟فیقول:لا أدری،فیقولان له:لا دریت و لا هدیت و لا أفلحت،ثم یفتحان له بابا إلی النار و ینزلان إلیه الحمیم من جهنّم، و ذلک قول اللّه جلّ جلاله:«الآیتان » (1) و کونه من الضّالین المکذّبین یبیّن أنّ ضلالته متعمّده اصطنعها بتکذیبه، و لیست عفویّه أو بسبب جهله بالحق و غفلته عنه.

[96-95]و فی نهایه السوره یؤکّد ربّنا بأنّ الحقائق التی ذکّر بها القرآن و أهمّها حقیقه الجزاء الأخروی لیست خیالا،و لم تذکر لمجرّد التخویف إنّما هی واقع و سوف ینکشف بعینه للإنسان عند الموت.

إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ حَقُّ الْیَقِینِ و حیث لا یصل کثیر من الناس إلی درجه الیقین إیمانا و علما فإنّهم یضیعون هذا

1- 1) أمالی الصدوق/ص 239

الحق،و يكفرون به،بينما يتجلّى لقلوب الصادقين من المؤمنين و هم فى دار الدنيا، و لذلك تكاد أرواحهم تطير من أجسادهم فرحا لذكر الجنه،و تزهق خوفا لذكر النار،و السبب أنّهم ليسوا فى كفر و لا شك بالآخره،إنّما يتعاملون مع ذلك الحقّ الغيب،كما يتعاملون مع أىّ حقّ محسوس،فهم حاضرون ببصائرهم هناك كحضورهم ببصرهم هنا.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ تنزيها له عمّا يصف المشركون و الكافرون،كوصفه بالعجز عن البعث و الجزاء، أو تبرير أخطائهم و خطيئاتهم و إلقاء المسؤوليه على اللّه سبحانه بصوره أو بأخرى كالذين يسبّون الدهر و يعيبون الزمان،و ما الدهر إلاّ سنّه اللّه القائمه فيه، و ما الزمان إلاّ وعاؤها! إنّما هم المسؤولون،و قد جاء التسبيح عند ذكر الذنب كما فى قوله سبحانه وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادىٰ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ،إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ و لعلّ حكمه ذلك إلاّ نلقى اللوم على اللّه سبحانه،و هكذا نسبّح اللّه لكى لا نظنّ به جورا تعالى ربّنا عن ذلك كبيرا،فنعود إلى أنفسنا و نحرّضها على العمل لنصبح من أصحاب اليمين بحوله و قوّته.نسأل اللّه أن يوقظنا من سبات الشهوات و غفله الأهواء،و يوفّقنا للعمل الصالح،و ينزلنا منزله المقرّبين.إنّه سميع الدعاء.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فى طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.


مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩